

تاريخ
الأدب العربي
٦

عصر
الدول والإمارات
مصر - الشام

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف

عصر
الدول والإمارات
مصر - الشام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء السادس من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بمصر والشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . ومعروف أن المؤرخين للأدب العربي كانوا يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي بسنة ٦٥٦ حين أغار المغول من الشرق على بغداد حاملين إليها معهم الجهل والوحشية مدمرين ما كان فيها من حضارة ومدنية . وسُمي هؤلاء المؤرخون القرون الثلاثة التالية باسم العصر المغولي ، وسُموا فترة حكم العثمانيين لمصر والشام والبلدان العربية باسم العصر العثماني .

وكل ذلك - كما ذكرنا في الجزء الخامس السابق من تاريخ الأدب العربي - خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية تداعت أركانه كما هو معروف منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها ، بل إن سلطانها في بغداد نفسها كان سلطاناً منقوصاً ، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد حكامها من البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة . وبذلك يكون خطأ بيئاً الإبقاء على إدماج تلك القرون الثلاثة في العصر العباسي ، ويكون واجباً أن نبحث لها عن اسم لعصر جديد يظللها جميعاً ، ولا أدق - في رأينا - من الاسم الذي اقترعناه وهو عصر الدول والإمارات ، إذ كانت العراق وإيران في مطلعها بيد البويهيين ، وخراسان في يد السامانيين ، وطبرستان وجرّجان في يد الزياريين ، والبحرين والأحساء واليمامة في يد القرامطة ، وأكثر عُمان بيد الخوارج ، وصنعاء وحضرموت بيد بني يعفر وزيد بيد بني زياد وصعدة بيد الزيدية وعدن بيد بني معن بن زائدة ، والموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر ، فقد تفككت الدولة العربية وأصبحت في عصر جديد ، تقطعت فيه دولا وإمارات شتى .

وأضفت إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات القرون الثلاثة التالية بعد غزو المغول

لبيداده ، إذ ظل العالم العربي حينذاك موزعا بين دول وإمارات متعددة . وكان المؤرخون للأدب العربي يسمون تلك القرون - كما أسلفنا - باسم العصر المغولي ، بينما سلطان المغول فيها لم يكن يتجاوز العراق وإيران ، ومن الخطأ الواضح أن نقول حينئذ إن مصر والشام والمغرب والأندلس كانت تعيش في العصر المغولي ، بينما لم يكن لهم في تلك الديار جميعا أى ظل . والصحيح أنها كانت تعيش في عصر الدول والإمارات الذى بدأ سنة ٣٣٤ للهجرة وظل جناحه مبسوطين على العالم العربى جميعه فى آسيا وإفريقيا والأندلس وامتد الجناحان حتى شمالا العصر العثمانى ، ولم يكن عصرًا بالمعنى الصحيح إنما كان فترة مظلمة أطبقت دياجيرها على العالم العربى .

وينبغى أن لا يتبادر إلى الأذهان - كما قلنا فى مقدمة الجزء الخامس السابق - أن طول هذا العصر وكثرة الدول والإمارات فيه دفعا إلى تقاطع روحى أو وجدانى أو ذهنى بين إماراته ودوله ، فقد كان بين شعوبها تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام ، تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين ، بل اتحاد فيها جميعا ، اتحاد فى الشعور واتحاد فى الفكر . وقرأ فى شعر أى دولة أو إمارة واقرنه إلى شعر أى إمارة أو دولة أخرى فإنك ستشعر أنك لم تنتقل من بلد إلى بلد ولا من دار إلى دار ، وإن وجدت بعض الفروق فهى فروق طفيفة لاتحدث فواصل بين شعر الدارين أو البلدين . واستشعر أسلافنا ذلك فى عمق ، فكانوا إذا ألفوا كتابا فى الشعر ساقوا فيه شعراء العالم العربى جميعا ، فقطعة شعرية عراقية بجانب قطعة إيرانية أو موصلية أو شامية أو مصرية أو مغربية ، وظلوا يصنعون ذلك حتى أواخر هذا العصر على نحو ما نجد عند الحموى فى « خزنة الأدب » وبهاء الدين العاملى فى « الكشكول » والخفاجى فى « ربحانة الألبا » وكأنه جميعا شعر بلد واحد لم تختلف عليه أوطان ولا أزمان . وحتى إن سبق وطن إلى ضرب من التجديد سرعان ما تحاكيه فيه الأوطان الأخرى ، ونضرب مثلا بالأندلس فى سبقها إلى ابتكار الموشحات فلن الأوطان العربية الأخرى حاكمتها فيها سريعا ، ولم تعد فنا خاصا بها . وأكثر من ذلك نجد الأندلس تبتكرها ولا تضع عروضها .. إنما تضعه مصر ، إذ يتجرد ابن سناء الملك لدراستها واستنباط قوانينها العروضية فى كتابه « دار الطراز » على نحو ما استنبط الخليل بن أحمد للشعر العربى قوانينه العروضية .

وهذا نفسه نلاحظه فى كل ما يتصل بالدراسات الدينية واللغوية ، فليس هناك كتاب من الأمهات فى تلك الدراسات إلا تعاور عليه علماء البلدان العربية من هرة فى أفغانستان إلى قرطبة فى الأندلس يشرحون ويعلقون عليه مرارًا وتكرارًا ، واستشعر العلماء ذلك فى كل

دولة وإمارة أو قل في كل بلد إلى أقصى حد ، فالعالم في أي فرع من فروع العلم لا يؤلف فيه إلا بعد أن يقرأ كل ماسبقه علماء البلدان العربية فيه على اختلاف أمصارهم وأزمانهم ، وحتى إن هو عمد إلى التلخيص وكتابة متن موجز ، فإنه لا يزال يومئ إلى آراء سابقه ، ويتبعه الشارح لمتنه فيفسر ذلك تفسيراً كافياً ، ويتبعه بدوره شارح الشرح ، فيناقش المسائل في أضواء غامرة لسابقه . وبالمثل أفردوا كتباً لتراجم كل علم ، ورتبوه على حروف المعجم لافرق بين علماء وطن وعلماء وطن آخر ، إذ استقر في أذهانهم أنهم علماء وطن واحد لافرق بين إيراني ومغربي ولا بين شامي وأندلسي . وعمدوا في القرون المتأخرة لهذا العصر إلى جمع علماء العالم العربي وأدبائه في كتب خاصة بكل قرن مرتبة ترتيباً أبجدياً ، بحيث نستطيع أن نعرف في كل قرن الحركتين الأدبية والعلمية في كل بلد عربي . وكل ذلك معناه أن هذا العصر الطويل رغم أنه توزع بين دول وإمارات منفصلة سياسياً كانت تربط بين بلدانه وحدة فكرية وشعورية وروحية ، وحدة عريضة وعميقة إلى أبعد الحدود ، بحيث يصح الشاعر في قطر شاعراً لجميع الأقطار ، والعالم في قطر عالماً لكل الأقطار مهما تباعدت الأقطار وتفاوتت الأزمان .

وقد بدأنا في هذا الجزء بمصر وعرضنا حياتها السياسية على مر الحقب في العصر وكيف تطورت من ولاية أموية وعباسية إلى دولة ذات كيان قوى إلى عاصمة للخلافة الفاطمية إلى حاضرة للأيوبيين والمماليك وما حققت في زمنيهما من مجد حرى بدقها لأعناق الصليبيين والتتار . وظلت مصر تنعم بالرخاء والثراء إلى أن دهمتها كارثة الغزو العثماني . وقد أوضحنا ما حمل إليها الفاطميون من المذهب الإسماعيلي الشيعي المتطرف وعزوفها عنه وإقبالها منذ القرن السابع الهجري على التصوف .. وكانت الروح العلمية متقدمة فيها من قديم ، وأخذت تزداد اتقاداً واشتعالاً منذ دخولها في دين الله ، ومضت تنهض بدور علمي خصب ، مما جعل المغرب منذ القرن الثاني الهجري يحمل عنها قراءة ورش للذكر الحكيم إلى اليوم ، وبالمثل يحمل عنها مذهب مالك في الفقه ، ويحمل أبنائها عن الشافعي مذهبه الفقهي وينشرونه في الحجاز والشام والمشرق جميعه ، وتكتب السيرة النبوية الزكية وتشيّعها في العالم العربي ، وتُنجب ذا النون مؤسس التصوف الإسلامي . وتنشط بها - منذ زمن الدولة الطولونية - حركة أدبية وعلمية واسعة ، حتى ليؤلف الصول كتاباً عن شعرائها ، ويؤلف ابن الداية كتاباً عن أطبائها ، ويؤلف ابن يونس الصدي كتاباً عن علمائها . وعنهم يحمل الأندلسيون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري معجم العين للخليل بن أحمد في اللغة وكتاب سيبويه في النحو ، وأعد ذلك الأندلسيين مبكرين لهضة كبرى في الدراسات

النحوية واللغوية . وينزل الفاطميون مصر ، وبينون الجامع الأزهر بها ويؤسسون بها جامعة كبرى سميت دار العلم . ويؤسس بها صلاح الدين وأسرته الأيوبيية والمالليك كثيرًا من المدارس ، وقد أصبحت مصر منذ أواخر أيام الفاطميين وفي عهد الأيوبيين والمالليك موئلا لعلماء صقلية حين غزاها النورمان وعلماء الأندلس حين أخذ الأسبان يغزونها وعلماء بغداد وغيرها من بلدان العراق وإيران حين غزاها التتار . ويظل لمصر بقية من هذه المترلة بين البلاد العربية في أيام العثمانيين بحيث لانغلو إذا قلنا إنها كانت طوال تلك الحقب ملاذا للحضارة العربية وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وآداب .

ومنذ أوائل هذا العصر - كما أسلفنا - يتكاثر علماءها ، ويبرز من بينهم أعلام في علوم الأوائل والجغرافيا وفي علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه والكلام والتاريخ . وينهض بها الشعر منذ الدولة الطولونية - كما أسلفنا - ويتكاثر أعلامه في الشعر الدورى والرباعيات والموشحات ، وفي المديح ، وفي المراثى والشكوى ، وفي الدعوة الإسماعيلية ، وفي الغزل ، وفي الفخر ، والهجاء ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو في المتنزهاة والأندية ، وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وفي الفكاهة ومايتصل بها من شعر شعبى .. وينهض النثر ويزدهر منذ العصر الفاطمى وتتكاثر أعلامه في الرسائل الديوانية والشخصية ، وفي المقامات ، وفي المواعظ والابتهالات ، وفي كتب النوادر ، وفي كتب السير والقصص الشعبية . وكل ذلك عرضناه ، في القسم الأول من هذا الجزء .

وفي القسم الثانى نحدثنا عن فتح العرب للشام ، واستعرضنا حياتها السياسية زمن الأمويين واتخاذهم دمشق عاصمة لهم ، ونحوها بعدهم إلى ولاية عباسية ، وانضواءها تحت لواء الدولتين الطولونية والإنخشيديية ، وتبعيتها للدولة الفاطمية ماعدا حلب أيام الحمدانيين والمرداسيين ، وماحدث من استيلاء السلاجقة على دمشق وتراجع الفاطميين إلى فلسطين . ثم ماكان من نزول حملة الصليب بالشام وتأسيسهم للماللك بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية ، وكانوا قد أسسوا مملكة في الرها فاستنقذها منهم عاد الدين زنكى وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأخذ يسحق جموعهم سحقا في غير معركة ، وضم إليه دمشق . وسرعان ما استولى صلاح الدين على الشام بعد وفاته وأخذ يوجه إلى الصليبيين ضربات قاصمة ، واستخلص منهم بيت المقدس وبلدانا شامية كثيرة . وأتمت أسرته والمالليك بعدها دفعهم عن ديار الشام إلى البحر المتوسط وماوراءه . وقهر المالليك التتار وملثوا الأرض عليهم هولا ورعبا ، وتظل الشام ومصر في أيامهم دولة واحدة ، وتنتعش

حياة الشام الاقتصادية حتى إذا غزاها العثمانيون انتكست تلك الحياة . وكانت الفرق الشيعية تكثر بها من قديم ، وكان يكثر بها الزهاد والمتصوفة .

وكان بالشام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وأخذت تنشط فيها بعد الفتح الإسلامي حركة علمية خصبة وكانت المدارس تكثر بها منذ أيام السلاجقة . وكان لها من قديم مشاركة في حركة الترجمة وفي علوم الأوائل والجغرافيا ، وأخذ أعلامها يتكاثرون في علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة وفي القراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والتراجم . وقد تعربت سريعا وأخذ الشعر ينشط فيها لزمن بني أمية وبعدهم . وأخذ شعراؤها النابهن يتكاثرون في الشعر الدوري والموشحات ، وفي المديح وفي الحكمة والفلسفة ، وفي التشيع ، وفي الغزل ، وفي الفخر والهجاء ، وفي الرثاء والشكوى ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وعُنى غير شاعر بالزجل والشعر الشعبي . وتنشط الكتابة الديوانية بالشام أيام الأيوبيين والمماليك ، ويشتهر بها غير كاتب ، وبالمثل الرسائل الشخصية والمقامات ، والمواعظ والابتهالات . وتكاثرت الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل من مثل رسالة الغفران وكتاب الاعتبار لابن منقذ . وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في مصر والشام أثناء حقبة طويلة تمتد من العصر العباسي الثاني إلى العصر الحديث جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وعلوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية في مصر والشام ، وكذلك رجعت إلى كل ما استطعت من الشعر ودواوينه ومن الكتابات الأدبية في القطرين . ورجعت إلى طائفة من كتب المؤرخين والمستشرقين . وأعترف بأن كتب الأسلاف غنية غنى وافرا بالنصوص التي تصور حياة الأدب في مصر والشام ، ولا أزعم أني صورت تلك الحياة تصويرا كاملا ، إنما حاولت ذلك جهدي وأرجو أن لا أكون قصرت . والله أسأل أن يلهمني السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل وهو حسبي ونعم الوكيل .

القاهرة في أول أغسطس سنة ١٩٨٤ م .

شوقي ضيف

القسم الأول
مصر

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى^(١)

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاخصة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطلمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، فقارقوها سريعاً ، وتسوّ أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد من لا يعتنقون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى (طبعة عيسى البابى
الخلبي) ١٠٦ / ١ وفتح العرب لمصر لبطلر (الترجمة العربية)
طبع لجنة التّأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب
الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١ / ٩٩ .

(١) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح
البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن
سعيد قسم القسطنطين (طبع جامعة القاهرة) وخطط
المقرئى (طبعة دار التحرير) ١ / ٥٥١ والنجوم الزاهرة
لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحداً في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقاً للإسكندرية جامعاً إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى الغُلّ الديني غلاً اقتصادياً .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرّون في زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعاً سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصاً لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولا يمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودائماً الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحرّيتهم الدينية ، حتى لقد قرّر البطريق القبطي بنيامين وظل محتبثاً حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعياً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفصوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييداً منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقي منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية^(١)

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجده الذى يحمل اسمه والذى بناه فى الفسطاط : موضع معسكره فى حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إبدانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وبنى مصر فى عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل فى إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفى سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم فى البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعل رضى الله عنه ، ووليا عمرو بن العاص معاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفى أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل فى إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليّه معاوية قيادة الفتوح فى المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيوان بالقرب من تونس الحالية .

وتولّى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرًا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهنى ، وأخذ الولاية فى أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا فى نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ اتبع الأمويون فى ولاية مصر سنة تغير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الوالى يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى فى حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شدّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُتصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر فى ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب
الولاية والقضاة للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول
والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولا ريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كلّ هذا الظلم وما يجرّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيّان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويبدو أن حيّان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قَبِّحَ الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا » (١) .

واضطرب حيّان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يراعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمه من الظلم والعسف . وظلت الفسطاط حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان يتزها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتقاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتقاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط المقرئى ١/ ١٤٢

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتفاض يلقانا - للعرب - انتفاض دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلي فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظّل نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجروى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيتلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتقض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على مابها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، وُئى له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قُرساً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمانيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حيناً للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمانيين في رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون^(١)

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقا كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقرين منه ، ورزق بآبائه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فغنى بتريته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكسب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفي في عهد المتوكل ، فقوض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بايكباك ، فأتابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانفصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجندته من الترك والنوبة والروم ولحواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعُني ببناء مسجده الكبير ، وبنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوanit . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرا يُلقب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يظلم الفقراء والساكنين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليوني دينار ، وبني مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعُني في دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها وخطط

المقريزي ٥٨٩/١ وسيرة أحمد بن طولون للبلاوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبوكلمان ص ٢٢٠ .

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما ينقصد بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخيم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساق والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع إصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وينوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرشًا أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدي غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولا يدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشغب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيثهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتل هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكيم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يُقَدَّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبيحهم الشراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاية مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

(د) الإخشيدون^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُغْج بن جُفَّ الفرغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلِدَ سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُلُوهُ

ترجم الإخشيد وكافور وخطط القرى ٦١٧/١ ومروج الذهب للمسعودي ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاية للكندي ص ٣٠٤ وما بعدها والجزئين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القساطر) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاة الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان مايتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمئة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتره الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يدنى الشعراء ويكثر من عطايمهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمى صاحب المهدية والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيَّهم

في الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطيون - الأيوبيون

(١) الفاطميون^(١)

تنسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًا لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملما بالفلسفة والملل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَكْمِيَّة بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هيا لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هيا لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمرؤه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغلبة حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَكْمِيَّة عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدي ويعلن نفسه خليفة شرعيا ، ويبني عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانبهم مستودعين هم رعوس الدعاة المسمون بالحجيج ، وبذلك كان هو نفسه إماما

الزاهرة لابن تَفَرَى بَرْدَى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت المصرية لعارة الجنى وصبح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطيون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز .

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دار الكتب واتعاط الخنفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه الخطط ٢/٢١ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقي والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المحضر الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فلأنها ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ ثوبا يختط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال فى الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيئطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر فى بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه فى أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - حِطَّة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والخرشتف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلاً بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوماً إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلاً حازماً أديباً ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أُقيمت فيه دعوته وخُطب له في جمعته وجاعته إلا «سِتَّة» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلْكَيْن بن زيري الصّنهاجى . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريماً شجاعاً ، يعفو عند المقدرة محباً للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشيْز وحلب ، وخُطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلْس وكان يهودياً وأسلم . وبني قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقاً ولا غرباً ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولّى عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلّ المسلمين بك إلا نظرت في أمرى ، فقبض عليهما . وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولحم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

وما زال العزيز رفيقاً برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوىَّ العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحيناً يحب العلماء والصلحاء ، وحيناً يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَبَ على المساجد والجوامع سبُّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمرس والجرجير والسبك لا قشر له والزبيب . وحُرِّم الخمر وشدَّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جِرَّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والحفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرِّم - فيما حُرِّم - الغناء ولعب الشطرنج والترهة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانساب من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التَّصَوُّف في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبَّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التَّصَوُّف والتَّزَوُّف جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلاني واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوى إلى مدينة الرُّمَّة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبني الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحا حلما محبًّا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبوسعده التستري اليهودى ، وقُتلا فى سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحي دولته الصليحية فى اليمن ويعلم ولائه للمستنصر ، ويدعوله على المنابر هناك ، وتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان فى المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبني العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توفى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَصَى عليه وعلى فتنه أو دعوته السلطان طُغْرُكُكُ السلجوقي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف يبع بخمسين دينارا وإن البيضة يبع بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةٌ نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقي في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وفَوَّضَ الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمركله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخواص بعد وفاة المستنصر حُبَّهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلي . وأحدث ذلك انقسامًا بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلي كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالته هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فنثار بالاسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائمًا بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا في مواعيد أول العام الهجري ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنونًا أو مخبولًا ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرُّبنا ، وكأنما جيء بالخلافة أرجوحة للصبي ، وتوفى المستعلي سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طائفة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلديون إلى الرها بالموصل ويستولون عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . يأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولون جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولون ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل ساد في غفلته والجيش المصري غائب عن جبهه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئاً . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستورز أحمد بن الأفضل الجمالي وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ على خير العمل » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيها وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظاهر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفائز وهو في الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو في الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصبي والغلمان ، ونظلم نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالباً يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا في أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتُفسد في أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم في مصر فساداً شديداً . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذراً للرماد في العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادي النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتتل صرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجداً به ويهجم حينئذ أميرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بليس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شريكه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور في الوزارة ، وسرعان ما يقلب ظهر المجن لشريكه وجنوده .

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ويحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويليئه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تئيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ . ويستقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوين في آخر إقليم أذربيجان وها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بهاد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقرية منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفتح القسى في الفتح القدسى والبرق الشامى للهاد الأصهانى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروستين وذيال الروستين لأبى شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومراة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مررنا ، ففضى صلاح الدين نهائيا على الدولة الفاطمية ، ورد مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجد في إصلاح أحوال مصر ، فحط عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها ، وبذل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح واليا للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد ، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلفه قائلا عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن . . يقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يُطرح ، ويقرب مكانه وإن نزع ، وتأتيه التشريفات الشريفة » . يأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرق ، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشى لقاءه ، ومع ذلك كان يعد نفسه تابعا له ، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة) . وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعهارة اليمنى الشاعر ، وقتل داعي الدعاة وصلب عهارة .

وفي هذه السنة توفي نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسلك التقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضا لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موال للفاطميين يسمى الكنز ودارت عليه الدوائر . ومربنا أنفا أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومقاتية البحر الأحمر ، ونراه يسير عسكريا بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطنطية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكرا في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين . وها هو مبكرا قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصلبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسد للصلبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْقِي له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حاية لها ، ويُنْطَلُ المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدّة ويعوّض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب قمحا تفرّق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجع كفته رجحانا واضحا ، ويمضي إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايخنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقّب العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فُعِدَّ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حُدْب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقي إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطّين المشهورة في غربي طبرية ، ويُنْهَضُ جيشهم محقا ، ويولى هاربا ريموند صاحب طرابلس ورينالد صاحب صيداء ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع في الأسر قاداتهم وزعماءهم جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبيل شمالي بيروت وهمفري صاحب تبّنين إلى الجنوب الشرق من صور وجيرار مقدم الداوية ورايخنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبو شامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسُلَّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة . وطمأن بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوئية والإمبتارية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوب لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكّس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزّين المسجد بالقُسيّفساء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليبَ لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطُرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجاً عِزَّلاً من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لَبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسنقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعارة والبيمارستانات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مدبِّراً لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرْك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالرعية عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهز لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيَّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صَرَخند سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيّاً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية ، وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحـد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلكها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها لواء صلاح الدين ، وكان محكمًا محسنًا لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسًا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والاثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُرَدُّون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيًا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فسادًا ، وتسوّل لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسلب المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يومًا مشهودًا ، تنقّى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء الممالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسراً ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقاءهم والمرض يثقل عليه وحُمِلَ إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمِهلِه المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرّقهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دميّاط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإيضاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أبيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فافتدى نفسه وقلول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئاً ذليلاً .

واجتمع رأى المماليك على تولية شجرة الدر الملكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق المماليك على أن تلى شئون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتاكب العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صبيّاً أيوبياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزيحوهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن ثراها وجماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

الممالك - العثمانيون

(١) الممالك^(١)

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيون لم يتعظوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى الممالك علي صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيلك قائددهم . وظل الممالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما الممالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويتزلونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم الممالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت الممالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيلك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حيثئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

(القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطي (طبع فينا) والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المماليكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

(١) انظر في الممالك السلوك والخطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إلياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شكّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطر أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيوهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعهد قُطر إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين ييسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطر ، متزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولين وجوهم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطر وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطر سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطر لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على المهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتهاز ظهور أمير عباسي بدمشق فر من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بني العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطّد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم الممالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع يبرس تقليدًا أن يسافر محمّلًا إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائمًا إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُعيدُ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصُفد وثبّين والرملة وبافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفاء والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . ومازال الظاهر يبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا في عصر المماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجدًا كبيرًا بالقاهرة لاتزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعدّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألفت حولها قصة مشهورة ، ومازالت الأجيال تريد فيها إيمانًا بفروسيته الخارقة . وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنه لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابعًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزمًا وعزمًا وتدييرًا وبأسًا ، وقد اتبع سياسة الظاهر يبرس في الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جيل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورمّ ما بها من شغب . وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسّر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وأخلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خيلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعيّن كُتُبًا نائبًا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولّى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار الممالك في التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطنته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبّا شديدا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم بقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصارا حاسما . وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبنائه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سُوِّلت لحاكم قبرص بطرس لوزيخان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولَّى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكي .

وطبيعي وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المماليك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المماليك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المماليك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أدبياً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المماليك البرجية مثل شيخ وبرسبای وجقمق وقايتبای والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . ويهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تتارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، ويتزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليداً أوامرسوما بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبلبك ، وكان مماليك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفظائع ما صورته ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله الممالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء الممالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبنَ في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبوبع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبيعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانات ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومربنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بقناقم وأسرى كثيرين وبحكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنوياً عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجداً حربيّاً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء الممالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، متنقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء الممالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين الممالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يتراءى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والممالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ما كانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وثغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطراً أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى به إلى شاميا سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شاميا حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار ، ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعياً أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفي بممتلكاتهم في آسيا ، فكانت خليفة قانصوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحسن بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . ودخل سليم القاهرة في اليوم التالى وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلّم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففرّ إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلّم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشقه على باب زويلة . وبذلك انتهى حكم المالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون^(١)

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والخن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور الممالك حتى الرخام كانوا يتزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جرّدت مصر من علمائها وفنّائها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبة سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أو شيئا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالبasha ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من الممالك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار (مدير الخزانة) والروزنامجي (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء الممالك أو كبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا (نائب الوالي) والدفتردار والروزنامجي ومنسوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

شكرى والجزء الأول من تاريخ الحركة القومية في مصر وظهر محمد علي لعبد الرحمن الرافعي ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطط التوفيقية لعلي مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخرة الممالك لابن زنبيل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول للإسحاق والجزء الأول من الخطط التوفيقية لعلي مبارك وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري والحملة الفرنسية وظهر محمد علي محمد قواد

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البىرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بىرقا فسمى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسنجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف الملتزمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعترضونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبّبون عرقا لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويهرقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يبحثون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجىء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقوى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمة الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا منازراً أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد ومماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بداً من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء الممالك فى الاستقلال بمصر، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالى العثمانى لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينها الحرب وسقط فى ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُردّها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يولّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد ستين فى عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر فى الضرائب وشئون الحكم .

لم يَغر هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مطامعه الاستعمارية ، وما زالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت فى المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثمانى رأوا أن من واجبه التخلّص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدعوا بقوة نهضتهم الحديثة .

٤

المجتمع^(١)

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنها فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبا مصرى . وكانت تتوزع - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى والى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . ويجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرر ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فانتك الرومى وكافور الحبشى القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط .

ويعد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدّيها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وترك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم وميد النعم للسيكى والمداخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين لعطية مصطفي مشرفة والمجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في العصور الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاة والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسميه عن القسطنطين والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وتناصر خسرو والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجبالى فى ابن حلكان والخطط للمقرئى والجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تفرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتابات قوانين الدواوين لابن ممانى وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب .

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينيس وديق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الدقيق مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنظرون ، وأيضاً على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن يتزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديداً ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شئ كثير . فأحذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريبها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضى موضع الزهد والتقصيف إذ يذ كر الكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحيانا قحط أو أويثة أو تذرّرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هى غبرة سوداء . فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقصاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تموج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والخوانيت كانت توجّر ، ويؤجّر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتمد بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضا أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للترّه فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضا بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكثرا بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر فى حجره وحجر ابنه خوارويه بكنوزها ، وكان حازما بعيد النظر رعوفا بالرعية ، فألقى عن كواهلها كثيرا من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النظرون وعلى المرامي وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقل بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طبياتها ، فكَوّن جيشه الضخم ، وأخذ في بناء قصره خارج القسّاط وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وفتّرت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبني جامع الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبني يمارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه في كل يوم ألف دينار ، وكان يُعْمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه في كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخُلف في خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خارويه يغرق إلى أذنيه في النعيم ، فزاد في عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عيونه المياه وتنحدر إلى فساقى يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقِي سائر البستان ، وسَرَّح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طَلاً حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أوصوراً بارزة لحظاياهم ومغنياته وعلى رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجُعِلَت في هذا البستان بين يدي القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يُرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيول . وكانت حلبات السباق في أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ التَّدَى حين زَوَّجها الخليفة العباسي المعتضد ، وكان من جملته ذكة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط في كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان في الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبني خمارويه - كما مرّ بنا - قصر في كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن الماذرائي عامل الخراج ووزير خارويه تملك من الفضياع ما بلغ دخله أربع مائة ألف دينار في كل سنة سوى ما كان يؤدّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكّت دولتهم بدموع غزار . وتحلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعد لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، وما زال سعه بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخُطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خمارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدير الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيمٌ وحاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من يَنْصُب السماط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأُسرج من شاطئى الفسطاط وشاطئى الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئاتُ الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطمين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم ، وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تُفرض على كل شيء حتى قال المقرئ إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجبى من تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئ إنه بلغ المتأخر على تنيس في ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشَّبُّ والنَّطْرُون . وكانت تُفرض مكوس على الحمامات ، وكانت تُعَدُّ بالمئات في القسطاط والقاهرة ، وعلى الخوانيت ، ويذكر ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الخانوت يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى يدفعها أهل الدمة . وكانت - كما يقول ابن ممتى في كتابه قوانين الدواوين - تُفرض مكوس على المتاجر الصادرة والواردة تبلغ نحو عشرين فى المائة من العُروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه القسطاط فى القرن الثانى - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ فى خزائن الدولة الفاطمية ، حتى لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسى : « هى الإقليم الذى افتخر به فرعون على الورى .. أحد جناحى الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد القسطاط) قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار ، ونخباته تُعَمَّرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ، وبرّه يعم الشرق والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره فى الخافقين ، حسبك أن الشام - على جلالها - رُستاقه (قُراه) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبيعى أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل فى مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية ووزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تملك يورث وإقطاع استغلال يَمْنَحُ حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويُرَوَّى أن يعقوب بن كِلْس أول وزراءهم بمصر كان راتبه فى العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم فى أوائل القرن

السادس الهجرى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستمائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجماليس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حوّل كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وخمّا كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص التّيل والقمح ، كما مربنا فى عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفّض عنها ذلك دائما وتعود سرّيا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكفى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يبنى به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية ، ويزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعائتهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثاثهم وأوانى طعامهم وفى قصورهم وبساتينها وأروقها وأفنيئها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقننا فى كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، ومما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدر ، تؤجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضاً الزراعة . وكل شىء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجنائين

والأجير والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسى كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور منكورة مضحكة ، وقد يحاكى نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلّون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاحى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يثقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإففاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تمامًا ، فقد خَفَّفَ الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الدمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنْفَقُ فى الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَسَ نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد ديتارين ، وتعذَّرَ عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يُعَنِّونَ بالعمران ، مما أُنْعَشَ الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتبنس وغيرها . وقد عُنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد اتُّخِذَتْ محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها تجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهُوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعَنَّ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بجروهم مع الصليبيين وما كانت تُستفدُ منهم من أموال ضخمة . ويدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهر جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والخواطئ والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عيّن قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمي في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعرضه المضحكة .

ويتحول صُلُجُجَانُ الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المماليك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتنزق دولته . وتُعدّ أيام المماليك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مربنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فارّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلاً للعروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متعاقبة طوال زمن المماليك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامّة . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المماليك البحرية والبُرْجِيّة ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدرّبونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعلّون لهم أساندة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء الممالك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مربنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام الممالك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرب بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر الممالك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يد لأدنى عليه . وكأننا حرّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها الممالك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط الممالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجنسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنح المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام الممالك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشر الأکبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة الممالك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها في غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصَمُّ إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المالك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبائها الشاذلة الرائعة .

وعادت إلى مصر في أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة في العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المالك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة في هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للترهة في أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأربكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتره بها في النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم في كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه في فن الغناء و« خوى » أعجوبة أيامها في الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم في كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحاوية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون في تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر في كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيم حينئذ الزرد والشطرنج وتطير الحمام وتهازش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها في عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك في المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيم سماع سيرة عترة وذات الهمة وأبي زيد الهلالي والظاهر بيبرس . وكأنما كُتِبَ على الشعب المصرى أن يؤدي ثمنا باهظا لمرحه ولوهو في زمن المالك ، فإذا العثمانيون يحتاجون دياره . وتُعَمِّم مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان ووصولان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جرَّدها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعاتها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنهم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه ققطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حينئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثمانيون والمماليك يعتصرون خيراتها وطيباتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفضنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ليويسف الشربيني وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أُرهِق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جَرَّ أفضع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والحب القريش (الخالي من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكه يحمل كثيرا من السوموم .

٥

التشيع : الدعوة ^(١) الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن مصر دخلت في بيعة على بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ،

الإسلام لجولدسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمحالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهمة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشرعية في

إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر بعيدة عن العقيدة الشيعية ، حتى يتزها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم فى حملها على الثورة ضد العباسيين ، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب .

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جواهر الصقل وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم ، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية ، ومرَّبنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت فى زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالى بعده فى خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر الخنفي منذ سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى فى حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لومات فى عهد أبيه ، ومرَّبنا كيف أن عبد الله بن ميمون القداح نظم الدعوة الإسماعيلية ، وأن أحد دعاةها هيا لعبد الله الفاطمي حكم تونس فترها وأعلن دعوته بها سنة ٢٩٨ ، وخلفه القائم بالمصور فالعز الذى اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقا إلى الشام .

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هى لعلو وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء ، وكل إمام منهم وصى لسلفه طبقا للترتيب الإلهى فى خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة . وقد بدأ الرسول ﷺ - فى اعتقادهم - فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده ، ورووا فى ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل : « على منى بمنزلة هرون من موسى » كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة فى آل البيت ، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) .

ومبدأ ثان قروره هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرا أو علانية وجهرا ، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية ، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه وينذلون أنفسهم من دونه . فريضة مقدسة ، ينضون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء .

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم ، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنسانى بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام ، لا يتورطون فى معصية ، ولا يقعون فى أى خطيئة مهما كانت صغيرة ، لما ينتقل فى أصلابهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهى ينقى أرواحهم

ويُخْلِيا من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع مايزال ينتقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : (وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خصّصوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسيين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يدعى عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهى في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح عليا عقلا فعالا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مديرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدعون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى في المسيح . وزعموا أن الله - جلّ جلاله - ينبغى أن يتزّه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - يزعمهم - إن أسماء الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أو يوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشموس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدي الحياة ، ولو لم يُتَّأَسَّس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول » وكأن أبا فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدي الوجود الذي لا يحدُّه الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعْرَفُ إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سَوَّلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتِلَ في ضواحي القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلْغَوْنَ الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكم إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأي وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناداة في الأذان بحمى على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعَنَّ بالدعاية كما عُني الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعائها ، وللدعاة جميعا رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتي وراء ذلك الدعاة والقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت مبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل المزاج لا يتطرف يمينا

ولا يسارًا ، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة . وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي ، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك ، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة ، إنما كانوا محبين لأهل البيت ، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم ، ولكن دون أن تعتنق مذهباً من مذاهب الشيعة ، فضلاً عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط .

٦

الزهد^(١) والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ؛ وما أهramاتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهينة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتنقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفراداً من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من الجون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زبداً أوقشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوي المادي وتتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي .

وابن خلكان وابن شاكر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغري بردي وبدايع الزهور لابن إلياس وتاريخ الجبري وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة وإبراهيم الدسوقي وأحمد البدوي في دائرة المعارف الإسلامية والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاء للكندي ، والمغرب ، وحسن الحاضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني . وكذلك كتاب لوائح الأنوار ، والخطط للمقرئ في الحانقات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجویری ترجمة الدكتور إسعاد عبد الحادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن عساکر

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو بجاعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طبياتها ، واقراً في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحمليين في ذلك مشقات عنيقة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يختم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المُرزى صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السُّرجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة » . ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسقاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبوتاً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدها اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصلّاها بغير قرأش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعاً التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السَّريّ بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرهم بالمعروف ويعارضون السلطان في أمره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبياً لظهور التصوف في مصر . ويروى الكندي أنه كان في القاهرة جماعة ماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هى من الصُفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجح القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيرونى إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفيا بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طناً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نخصى طويلاً في القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبى حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصرى المتوفى مع أبى تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمى . كان أوحده وقتة زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه في أول حياته فتتلمذ لليث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتتلمذ لشقران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقه عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره الهجویری في كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكرماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشیری في رسالته والهجویری في كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازی شيخ مشايخ إيران والجنید شيخ مشايخ بغداد وزميله الحَرَّاز وهو أول صوفي تكلم في الفناء وسهل بن عبد الله التُّسْتَرِي شيخ الحلاج الصوفي المشهور . وفي ذلك ما يشهد بأن أثر ذی النون ومصر في التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفي بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيَّتها وهو بنان الحمَّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيَّتها أبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد في المغرب قسم الفسطاط : كان الإنخشيدي يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيَّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيراً ما كان يلم بأبي سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء في خشوع متبرِّكاً به .

وتدخل مصر في أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطني ، وزعم الفاطميون لأنتمهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفي هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة في المشرق : في العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم في الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشیری والغزالي إلى خطورة هذا الصدع في بنيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملوا بقوة على رأيه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدَّى الفرائض والسنن الدينية ، ولا بد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوفقت الأمة جميعها بنيانا مرصوفا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمي شيخ الشيوخ ، ورُتب للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبني لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمصوفها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردي فلسفي ، واتجاه جماعي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجدّه وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رفع حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسدّدوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المترع الصوفي الفلسفي الفردي المترع الصوفي الجمعي ، وقد هبأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نضى في القرن السابع طويلا حتى ينزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي دُمِّرت في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حماسة ملتهبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتحلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتنبى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويُعدُّ المقرئى من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيهرية ، ويقول المقرئى : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمئة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهاات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثنى عشر رباطا ، وكانت ترتب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر فى دار الحرب ، ولعل فى إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولهن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والنسك وكانت تُرتب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهاات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية فى زمن هذه الدولة التى اتسعت فى رعاية المتصوفة وولتقى فى أوائلها بأبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعاً أهمها الطريقة الخلوتية . وقد تفرعت بدورها إلى أربعة فروع ، كما نلتقى بإبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعاً .

ودخلت مصر فى أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ، ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع

قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم وقُلَّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقرئى إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة ، وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المماليك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفى مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحفى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأفراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية ببيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تتلاشى إرادته فى شيخه تلاشيا تاما وفى ذلك يقول الشعرانى فى كتابه : « لواقع الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقي : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال يعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المريد شيخا ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاهاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحياناً . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم وينفّذون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعاً ، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل المشتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزير دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغني الحسني من الأسرة الحسنية بينبع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسْرَباً إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خانقاهاته ورباطاته وزواياه إلى تكايا وَسِعَتْ كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سَمَّوا بالمجازيب وال دراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي أن لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهوراً وتأخراً . ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشمراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفي والسني ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها فى التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والحوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه تَوًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينس بينت شفة . ويقول الجبرقى فى الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا فى أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا فى الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحى والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بفن الزراعة وشقّ الثَّرْع وتديير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التي اشتُقَّت منها الحروف الفينيقية ، وأيضاً ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها في الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتقدة لا تخمد مهما تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شراً كثيراً من هذه الجدوة في عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخماً ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضاً مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم في تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرق المكتبة في أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمرُوا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية في مصر أى عناية ، فقد عَدُّوها مَحْزَنًا يمدهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة في لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بترل : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية »^(١) .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينياً ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتاحها ، فقد دحضَ هذا القول بترل وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحْرِقَت تاريخياً في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحْرِقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تحرق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف^(٢) ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمتة في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفاً تاماً الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعث فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجردون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

(١) العلمى حتى الفتح العربي .

(٢) بترل ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كبه في الفصل الثامن وبمقال ماكس مايرهوف في التراث اليوناني .

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح

العرب لمصر تأليف بترل (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١) بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللقنوى فيما يجد لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدثين ، وكان يُستند إليهم الوعظ . ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعني بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(٢) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(٣) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكون بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكني بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدْركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذا سعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجية الخولاني القاضي ألف^(٤) دينار كل عام ، ومربناً في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثرياً ثراء طلائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنوياً مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثراً على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء^(٥) . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفاً ثانية ومن رجلين آخرين ألفاً^(٦) . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة / ١ / ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان / ٤ / ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان / ٣ / ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة / ١ / ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة / ١ / ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس^(١) (أوقاف) . وكان طيِّبات مصر وخيراتنا صَبَّتْ في حُجُور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هَيَأَ للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي ، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسَيِّغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدهما لقراءة ورثس ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرَّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوعا وانتشارا .

وعلى هذ النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونغضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدونة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويُنَبِّئُ أحمد بن طولون جامعهم المشهور ويرتَّب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادي ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢) . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكَّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة^(٣) . ولا بد أن عطايا مقارنة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ / ١

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٢) خطط القرطبي ٣ / ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوى عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجة والنسائى ^(١) وأقام فيها الأنصير واتخذها مسكنا ودارا له ، وكان يتزل فى زقاق القناديل ، وأملى بها سُنَّته ، وأخذها عنه الناس من المصرين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكامها يترَوْنَ من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن جرير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضًا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الرويانى المحدث وله مسند . جاءوا جميعا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يمونهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار ^(٢) . وإذا كان طلاب العلم تُغدِّقُ عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُغدِّق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان ^(٣) ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكى : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

(٢) معجم الأدباء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة

٣١٠/١ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكى (طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ،

١٧١ ، ١٥/٣ .

أبو العباس بن سُرَيْج^(١) . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده إلا في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس^(٢) . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٣) . ويمضي السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

ونعني مضر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٤) . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمتهم هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في الثموم بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويومها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا الثموم مطرداً في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حِزَابَة وكان يُعَدَّق على العلماء ويجزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يمليه فيه على الناس ، وعُني بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم القساطر) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارُطُنِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانته في تأليف مسنده مع من كان يُعِينُهُ فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالغ ابن حِزَابَةِ في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير^(١) .

وظل ابن حِزَابَةِ يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعي ومثله يقوم على ذلك أن تمضى في الفو والنشاط . ومن نزل مصر حينئذ المسعودى على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقبلا بها حتى لَبَّى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبني لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٢) الذى كانوا يتخذونه مقرا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقيهين مالكيين التدريس في هذا الجامع^(٣) ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجْرَى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين^(٤) ، مما يدل على أنه نشأت حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُروى من أن العزيز عُني بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف^(٥) ، وكان أمينه القائم عليها الشابشتي^(٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعْنَى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز

٢٥٠ / ١ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠١ / ٤ والخطط ١٢٨ / ٢ .

(٦) ابن خلكان ٣ / ٣٩٩ .

(١) ابن خلكان ١ / ٣٤٧ ، ٣ / ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣ / ٣٦٣ والخطط ٣ / ١٥٧ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنقائس المجلدات في الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلائل الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين^(١) . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحق بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب^(٢) . وإنما نَصَّوا على إنزال المصاحف لجلاها ، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وَتُؤَسَّس في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمِل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوى على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فنهى من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر » . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَفِيَّة كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً . ومن المؤكد أن الحاكم كان يتغنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعاة من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حُفَظ

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها المخطوط (٢) المخطوط ١٤٦/٣ ، ١٦٣ .

١٢٧/٢ وما بعدها .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمالي إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمر بن المستعلي . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية^(١) .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسِّت إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية حينئذ مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجد جامعها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بها بين العشاءين مائة مجلس وعشرة^(٢) للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً^(٣) ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءاً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ أي لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ الإمام مالك^(٤) ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخبل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، ووُلِّي بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة الخطط ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر الخطط ٣١/٣ .

(٤) الخطط ٢٧٥/٣ .

(٢) ١٩٤/٢ ، ٢١٨ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه^(١) . وإذن فقتل الحاكم لجاعة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يتيق ولا يذر من كبار دعاة وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد^(٢) الفقهاء المالكية من مصر أى القسطاى سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلهون علماً وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا فى آباءنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفزع إلى ما لا يملق بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضالّال »^(٣) . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر فى عهده عبد الوهاب بن على البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين فى المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطى : « أكرم بمصر وتمول وسعد جداً ، ومرض فكان يقول فى مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا^(٤) » . فصر فى عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لا تزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمى والدراسات الدينية ، يتزها العلماء ليشاركوا فى نهضتها العلمية ، ويتزها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلاً بمكى بن أبى طالب القيسى القيروانى المتبحر فى القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس^(٥) . ومثله أبو عمر والدانى الأندلسى نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو فى الخامسة والعشرين من عمره^(٦) . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزها فى العقد الثانى من القرن السادس أكبر حفاظ

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٥) ابن خلكان ٥/٢٧٤ .

(٦) معجم الأدياء ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الدانى فى

القراءات هو نفسه أستاذ مكى : عبد المنعم بن غليون الحلبي

نزىل مصر .

(٢) الخطوط ٣/٣١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣١٤ .

الحديث في عصره الإمام السُّلُي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الدَّيْل المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى يقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا » . ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعي حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بَيِّنَةٌ إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدتهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(٢) » . وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حيثئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوما .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضون أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيَّنوا على رأس القضاة فقيها شافعيًا هو أبو عبد الله محمد^(٣) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ١ / ٤٠٤ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣ / ٥٢٠ .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالى (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل^(١) السنة ولا يتعصبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا^(٢). ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥.

ويتزل في الإسكندرية السلفى أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفى فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة فؤد تدرسيها إليه، يقول ابن خلكان: وهى معروفة باسمه إلى الآن أى في زمنه^(٣). وفى صبح الأعشى سجلٌ يأسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعد لهم جميعا فيها المثوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئى وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح^(٤)، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعتها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفى غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين فى الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوبا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله يتزل الإسكندرية ليتلقاه على

(١) المغرب ص ٢١٦.

(٣) ابن خلكان ١٠٥/١.

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/٢٥٦.

السلفي أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشي المالكي^(١) ، بينما كان السلفي شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذاهبين ، بل لقد ضم إليهم أيضًا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والقسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذي قُوض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذي كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية لإحداها بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية^(٢) . والمهم أنه رُتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والعلماء ، فقد كان نظام الإعادة معروفًا حينئذ ، ورُتب لها أيضًا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضًا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراؤهم وأمرائهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في القسطاط والقاهرة عددها المقريري - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٣) . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفًا توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التي أنشأها صلاح الدين ، لإحداها أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التي أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقريري عن المدارس في الجزء الثالث من الخطط .

(٣) انظر حديث المقريري في ذلك بالخطط ٣/٣١٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكروب في

تاريخ بني أيوب ١/١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه :

العزير والأفضل سلطان مصر ودمشق بعده للسجاء من السلفي وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢/١٩ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقهاء المالكي بجانب المدرسة القمحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التي بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقهاء الحنفى بجانب المدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأوكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعى والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقهاء الشافعى والحنفى مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وهى أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلى . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوى تسمى دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغرى بردى أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رُتب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة^(١) .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه فى أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين يتفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان يتفق على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال^(٢) » .

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزاً لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السُلُقى الشافعى ، ويبدو أن

(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدى) ص ٥٢ .

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجم الزاهرة ٥٥/٦ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ^(١) . وأخذت المدارس تعم مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية ^(٢) ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة ^(٣) ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيرية ^(٤) بها . ويبدو أنه لم تكن تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بجامع العطارين الذى بناه بدر الجبالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والحلّة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعدّها المقرئى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نسايتهم وأمهايتهم ، وقد عدّ للشافعية منها أربعة : المدرسة ^(٥) الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والحالية والمهمندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقباقوية والجائى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل النكوترية المالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنته محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والقسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣ .

(٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط

(٣) الطالع السعيد للدقوى (طبع مطبعة الحليّة)

المقرئى ٣/ ٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر الماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفى منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية ^(١) فتم إنشاؤها لأوائل عهد الماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساندها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرُّبُع أو الحى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوئا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية ^(٢) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدين ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهي القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرنا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب ^(٣) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد الماليك ، فقد كان يَشْرِكها الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادهما عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثا لإملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة ^(٤) . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فغدا أكبر جامعة

وما بعدها .

(١) انظر في هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٠ .

(٢) الخطط ٣ / ٣٤٦ .

(٣) انظر في هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٢ والسلوك

(٤) الخطط ٣ / ١٦٠ والسلوك ١ / ٥٥٦ وما بعدها .

للمقريزي (طبعة القاهرة) ١ / ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره ^(١) » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين ^(٢) سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب ^(٣) فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرِك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميها إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسند إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصهبانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصهبانى المولد . وأيضا فقد نزها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يَجِلُّ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(٣) الخطط ٣/ ١٦٥ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقافا

(١) الخطط ٣/ ١٦٣ .

كثيرة فى الحيزة والصعيد والإسكندرية .

(٢) الخطط ٣/ ١٤٨ وحسن المحاضرة ٢/ ٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونفضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تغنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حرّروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروى أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دَوْنوه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشياها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعَرِّض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبشيهي^(١) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجلود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبشيهي الضوء اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف وبصيها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوا السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توافى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تنقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوداك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الخفية التي أنشأها صلاح الدين أو في المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أو في المدرسة الأقباوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئى في خططه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية^(١) ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلطية والأشرفية^(٢) ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذا للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أو في أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١٦٢/١ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتي ١/ ٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمسانى أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعَرَبَتْ مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاليته مؤلفاً أديباً مثل راعب باشا واليا سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها وراعية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدّد الجبرقى شيوخته منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمغناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى^(١) برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقيا رقيقاً بعيداً^(٢) . وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكوناً بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّس كُتبه فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى^(٣) ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشرّحه

(٢) ألدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لولديورانت

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم

ص ٣٣ وما بعدها .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(١). وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيليني في العلوم . ومن أكبر علمائها حيثند بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه « النظام الرياضي للنجوم » وقد سماه العرب « المجسطى » أى الأعظم بنفس القلب الذى وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافى ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٢) . ويلقانا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف فن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٣) . ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفى كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر في الطب عظيمًا ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية . فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها^(٤) . ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر ، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبى أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً^(٥) . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية^(٦) . ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً ، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السريانى الذى أمر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) للقفطى (طبع

لندن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطى ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة

. ١١٠ / ١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦ / ٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليونانى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٥ .

(٢) قصة الحضارة ١٠٦ / ١١ والدوميل ص ٤٥

وما بعدها .

(٣) ألدوميل ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة

. ١٠٨ / ١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوى شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأبا مي^(١) . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لزمن الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومَرَّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربى بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومَرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٢) فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطبائها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر وتفصّحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي^(٣) . فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرود القس الإسكندري في الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور متطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(٣) الفهرست ص ٣٥٢ .

(١) انظر مقالة ما يرهوف في كتاب التراث اليوناني

ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة ما يرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح الحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبحر طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦هـ) ويقال إنه أسلم على يده^(١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواربه هو بليطيان^(٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر الدوميلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط^(٣) . ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧هـ) باتخاذ المارستانات^(٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارستاناً جديداً أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه^(٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصارى وطبيب العيون خلف^(٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط القرينى : مارستان المغافر ٣/ ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣/ ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبحر الإسكندري وابن أبحر آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) الدوميلي ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تغنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات ^(١) مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس ^(٢) بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا في معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور ^(٣) .

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نفّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر ألدومبيللى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاريننسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل ^(٤) . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتهما إلى العربية ، وكل ذلك تحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمة فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتتقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتتقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدومبيللى ٢١١ ، ٢١٦

وبروكلمان ١٩٣/٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نوه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محتدما في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد^(١) بن عبد الله العتقي وأبي^(٢) عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وأنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول^(٣) منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصري^(٤) ، وفرح الحاكم يقدموه وخرج للقاءه على باب القاهرة . ولما وقف على خبل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المجسطي في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعها جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويبدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعني فيما تعني بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السَّيْدِي من أنه رأى^(٥) في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطي ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطي ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العربي ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠

والدوميلي ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطي ص ٤٤٠ .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن الصدفي الدوميلي

٢١٣ ، ٢١٩ وبروكلمان ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ٣ / ٤٢٩

والقفطي ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لئليو ١٨٦ ،

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافى وكرة أخرى من فضة من عمل أبى الحسين الصوفى لعهد الدولة البرهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضى متفلسف هو مبشر^(١) بن فاتك ، ويقول القفطى قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجرى لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمى وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم فى كل سنة^(٢) » ثم يذكر أنه فكر فى عمل مرصد ضخم فنشط فى إقامته ، ويذكر المقرئى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحساب الرياضيين والمنجمين ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعى وأبانصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمانة بن أبى الصلت المتفلسف والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النضر ، وقد ترجم لها القفطى^(٣) ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، ولم أيضا ترجمة فى القفطى^(٤) .

وتنوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى^(٥) بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمى المقدسى^(٦) وأحمد^(٧) بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان^(٨) بن عثمان وأعين^(٩) بن أعين ومنصور^(١٠) بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل إسحق^(١١) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١٢) وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

وبروكلمان . ٢٩٠/٤

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .

(٨) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٩) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ .

(١٠) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ .

(١١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١٢) ألدوميل ص ٢٤٠ .

(١) القفطى ص ٢٦٩ وابن أبى أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٢) خطط المقرئى فى ذكر الرصد ٢٣٣/١

وما بعدها .

(٣) القفطى ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٤) القفطى ص ٤١٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطى ص ١٠٥

عمار^(١) بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثثد ابن^(٢) رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماء يكتاتونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيها ابن بطلان كما مربنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطباً وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(٣) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على^(٤) بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم^(٥) بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوبا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسَخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمَّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراق عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة^(٦) بن رحمون الطبيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطي ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميلي ص ٥٤٨

ويروكلمان ٣٠٣ / ٤ .

(٢) القفطي ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦١ وألدوميلي

ص ٢٤١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين^(١) بن منصور طبيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(٢) العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(٣) بن المعروف . ولحق طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتقدوا هذه الدعوة ، وكان دعايتها يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرّر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعايتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من أيزان . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(٤) الدين الخونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(١) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٠ والطالع السعيد للإدغوي

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤١

١٢٠ .

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .

فى ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات فى علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين فى مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرى فى عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر^(١) بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد . كان فقيهاً حنفيّاً عالماً بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمر حجة نواخير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشاهاق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظراً بالغ الروعة . وكان فلكياً مبدعاً ، فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن فى المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين . وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذهم مارستاناً ضخماً فى القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً »^(٢) . ويذكر أنه عين له قيماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن المارستان قسماً خاصاً بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسماً خاصاً بالجنائين على مقاصيره شبائيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستاناً آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان فى القاهرة وبغداد جميعاً كان دائماً مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثاً كما أسلفنا . وأول من يلحقنا منهم الشيخ السديد^(٣) أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(٤) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون فى عهد صلاح الدين وبعده

١ / ٥٤٠ .

(١) انظر فى قيصر حسن المخاضرة ١ / ٥٤٢ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدومبيل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٤) انظر فى ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصبيعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدومبيل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

(٣) ابن أبى أصبيعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

مثل أبي^(١) البركات بن القضاء المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال^(٢) الدين ابن أبي الحوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح^(٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول الدوميلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل و متميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويحتم تراجمهم بترجمة لابن^(٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتيين لزمته ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدل قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغني في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحَت لابن البيطار المالقي الأندلسي بحجوها العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفيين في الأدوية فإنها أتاحَت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن يتزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا ، ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا^(٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

٥٤٢/١ والدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها .

(٦) نشر كتابه «أزهار الأفكار» في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوني خضاجي بالهيئة المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتهما وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ والدوميلي ص ٣٧٢ ،

٣٧٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المتخذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١) بن بكرة الذهبى الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات من بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل يتزها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة^(٢) ، ويذكر السيوطى حشدا^(٣) من متفلسفها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصهبانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصهبانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجى محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن اهتم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبجى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كثر التجار في معرفة الأحجار » ويقول الدوميللى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(٤) » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحه فى البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها فى عصر المماليك يغدون ويروحون فى البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٥٣٩ وما بعدها .

(١) انظر فيه الدوميللى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٤) الدوميللى ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥/ ١٤٨ - ١٥٠ فى

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد^(١) بن موسى الديميرى المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته فى علم الحيوان التى سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوى والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع فى مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حيثئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقىا بعيدا ، لكثرة الأبنية التى شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس ، وفى مبانیه يقول ابن تغرى بردى : « بُنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يُبنى فى أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات^(٢) » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكتثرون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لا تزال نرى آثاره فى مساجدهم الباقية . ويؤنّه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : « كان المعول عليه وعلى أبيه فى العائثر السلطانية »^(٣) . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم^(٤) الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى . وله كتب كثيرة فى الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها فى الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفى دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك فى دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة^(٥) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم فى الشذرات ١٠٩/٧ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدومبيل ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة فى النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ والشذرات ٥/٣٢٧ وأيضا ألدومبيل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع فى الديميرى حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧/٧٩ والبدر الطالع ٢/٢٧٢ وألدومبيل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُتَفَنِّين بالظاهر ببيرس مثل شهاب^(١) الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد^(٢) الدين أبى حليقة النصرانى . وما يلبث أن يلى السلطنة بعد ببيرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بیمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا بیمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا^(٣) » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمم ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب^(٤) . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعيد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذكر أن مجباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم^(٥) . وتلقانا فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة^(٦) المهدّية نسبة إلى منشئها الطبيب مذهب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد ببيرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(٧) « .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب^(٨) ، ومن درسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس^(٩) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠ / ١ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٦) خطط المقرئى ٣ / ٣٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٧ .

(٨) خطط المقرئى ٣ / ١٤٨ .

(٤) راجع فى هذا المارستان خطط المقرئى ٣ / ٣٨٦ .

(٩) حسن المحاضرة ١ / ٥٤٦ .

وما بعدها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمه علاء الدين على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدومبيلي وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المذهب في الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء بعده مذهب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن^(٢) المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجري . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(٣) بن الأكفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف الغين في أحوال العين » وله كتاب في الطب المترلى سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنج في المكتبة الهندية . واشتهر بعده في طب العيون صدقة^(٤) بن إبراهيم الشاذلى ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . ومما يدل على شهرة مصر لأيام الممالك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(٥) . ويظل هذا النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن الممالك إذ نلتقى في زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قدّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكاني ٧٩/ ٢ وانظر ألدومبيلي ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدومبيلي ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧ والسبكي ٨/ ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والشذرات ٥/ ٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/ ١٣١ وألدومبيلي ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداداة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام الممالك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما أُلّف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر^(١) بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين : الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر . ولأيدمر^(٢) الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها . المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان^(٣) الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . وينوّه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن^(٤) أفندى قطه . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، ويتلمذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(٥) الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه أُلّف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاوِل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كتر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(١) ألبوميل ص ٥٠٥ .

(٤) الجبرقى ٧٠/٢ .

(٢) ألبوميل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٥) الجبرقى ١٦٤/١ .

(٣) تاريخ الجبرقى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وينوه طويلا بحسين^(١) المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد^(٢) بن موسى الجناجى المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبرى في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبرى وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادى عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفوا مثل شهاب الدين بن سلامة^(٣) القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكى^(٤) داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبرى وتراجمه في القرن الثانى عشر الهجرى يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم^(٥) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان غاية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثمانى ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبرى يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصورى ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المالك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية . ولمعاصره محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(٦) سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتايباته التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبرى ٢/٥٤ .

(١) الجبرى ١/٢١٩ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة

(٢) الجبرى ٢/١٢٥ .

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

والنشر) ١/١٦٨ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكى في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في القسطاط نَقَّح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي القسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو ملء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بآبن سليم^(١) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقرَّة وعلَّوة والبَجَّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئزي وآبن إياس مرارا ، وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمى سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان^(٢) .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعى^(٣) كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر^(٤) بن عبد الرحمن الإسكندرانى المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفولد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب^(٥) . ويتزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد^(٦) اللطيف البغدادى ويُعنى بتأليف كُتُب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمَّا أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

للعماد الأصهبانى (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وبغية الوعاة

للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ٣٢٢/١ .

(٥) انظر كراتشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستفولد

للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) آبن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١

(١) كراتشكوفسكى ١٩٢/١ وبروكلمان ٢٥٣/٤ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز

ترجمة د. أبى ريدة ٧/٢ - ٨ .

(٣) كراتشكوفسكى ١٦٩/١ وآبن خلكان ٢١٢/٤ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن^(١) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمئة . وكان في زمنه النويرى^(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها في الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل^(٣) الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتهتم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك^(٤) الناصرى سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر في القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى في أوائله بابن دقاق^(٥) وإلى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس . وفيها يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى^(٦) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى^(٧) تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخطوطها

(٥) الشلرات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى في ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكانى ٧٩/١ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب

الجديدة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .
 ويعنى خليل^(١) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق
 والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضي دولة المالك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع
 الهجري بابن الجيعان^(٢) المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف
 لرحلة السلطان قايتباي في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف في سفر مولانا
 الأشرف » . وينتهي الجغرافيون في العهد المملوكي بابن^(٣) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠
 وله كتاب « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافي بمصر في عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم
 يعد أبنائها يشعرون بمكانتهم التي كانت لهم زمن المالك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد
 العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا
 إذ نجد ابن^(٤) زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف في الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما في
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلت في القرن الحادي عشر بالسهنوري^(٥)
 محمد بن أحمد وله كتاب في منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبي
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافي في مناسك الحج ومنازله ورسالة في معرفة
 أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتهما ، وتبدو الرسالة كأنها زيچ صغير ، وهي بذلك تدخل في الجغرافية
 الفلكية ، كما يدخل النشاط في الفلك والهيئة الذي عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكي والرياضي
 الكبير رضوان وأمثلة من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى^(٦) أسعد اللقيمي الدمياطي
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

-
- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .
 وكراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .
 (٦) انظر فيه تاريخ الجبري ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .

سته أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل ولأبي اليمن مجير الدين الحنبلي ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحاييف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني بجغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة . فكانت تلقن الشباب في القسطنطينية والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز الأعرج تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزول الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدين مطرداً طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدرستهم لتفسير القرآن الكريم وللغة ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجمل في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدين وإحصائهم ، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل القسطنطين سنة ١٩٩ وكان عالماً باللغة ولم يكن أحد بالقسطنطين يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في القسطنطين من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماماً في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيراً من أشعار العرب^(٢) .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار المير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرمز في أخبار النحويين البصريين للسرياني ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزري ٣٨١/٤ وإنباه الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر فى العقد الثانى من القرن الثالث فى صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته^(١) ويحدث بها ضرباً من الثراء فى حياتها اللغوية إذ كان لغويا كبيرا مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النوار فى اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم فى اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه واختلف معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة فى الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة فى المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبرى فى العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه^(٢) .

ونلتقى فى القسطنطينية لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد^(٣) التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم . ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكتظ بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على^(٤) بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يشقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم . ويقول القفطى فى ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنضد فى اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجد، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر فى القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما فى معجم العين للخليل . ولم تُردِّ فى ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف فى المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى فى معجمه تهذيب اللغة - فى

(١) انظر إنباه الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ . (٤) راجع ترجمة الهنأى فى إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٣/١٨ . ومعجم الأدباء ١٢/١٣ .

(٣) انظر ترجمة ولاد فى إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزحشرى في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزحشرى أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُراع الثمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد^(١) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد^(٢) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحوياً ولغويًا ماهراً ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤية رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطنطينية أصعب ديوانين عربيين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد القاضي الجامع بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والممدود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكُراع الثمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيراً للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماً كثيراً ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم . إذ فسر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشعر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجولج وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تهر في لغات العرب^(٣) » ومثل صالح بن

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٢٠١/٤

١٠١/١ ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤ وابن خلكان ٩٩/١ .

(٣) البيهقي ٣٩٥/١ .

ولأنه الرواة ٩٩/١ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صاحب المتنبي وروى شعره ^(١) » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي ^(٢) بن أحمد المهلب اللغوي المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصري في كتابه « الرد على ما في المقصور والمدود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت في ترجمة المهلب إنه كان إماما في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم التّجيري كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان زاوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلب المذكور آنفا ، وتلميذ ثان له يسمى جُنادة ^(٣) اللغوي ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذي الرمة ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة في رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلب ، وفي المهلب يقول القفطي : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا . . . والرواية عنه إلى زماننا هذا (أي في القرن السابع الهجري) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالي منتصف القرن الخامس الهجري نزل بمصر التبريزي ^(٤) تلميذ أبي العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعري كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشرحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحامسة وديوان أبي تمام ، وقد مرّ بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوي الجَمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيرواني المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمي وابنه العزيز وصنف لهما كتباً ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع في اللغة رتبته على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والطاء وكتاب معان في شعر المتنبي وكتاب في المآخذ عليه .

تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى عن أبي أحمد العسكري كتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر في نزول التبريزي مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) اليثيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر في سني ٤١٤ ، ٤١٥

للمسيحي (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر في أبي الحسين المهلب معجم الأديباء ١٢ / ٢٢٤

وإنباء الرواة ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جُنادة في معجم الأديباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف ^(١) النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صناعته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . اما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر ^(٢) بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضَبْعان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعها إحكاما لا يكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويترد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويזורها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على ^(٣) بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

٧٥/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسماعى فى النجيمى

والشئرات ٧٥/٣ وعبر الذهبى ٢/٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة

٢٦٥/١ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢/٢٧٩ وابن

خلكان ٣/٣٢٢ وإنباه الرواة ٢/٢٣٦ وما به من مراجع .

واتخذها دار مقام له وتصدّر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذاه الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلماً لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّ^(١) عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوهم الخواص » للحريري ، وأن له كتاباً لطيفاً في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّاً على أبي محمد بن الحشّاب ، ردّاً فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبِعَ هذا الرد ملحقاً بمقامات الحريري مع نقد ابن الحشّاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشي على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشي فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ين برّ أيضاً حواشي على كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريفة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان^(٢) بن بنين الدقيق المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني وافتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١ / ٢٤٤ وفي بغية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّ معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب

٢٧٣/٤ وبغية الوعاة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض ، والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن^(١) منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوي عرني ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير ، وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المتونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهي الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٣) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مراراً بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة (١ / ٣٣٤) .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت الهيمن ص ٢٧٥ والدرر

الكامنة ٣١ / ٥ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبنية ص ١٠٦

وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٤ والوافي ٥ / ٥٤ والشذرات ٦ / ٢٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرد وشاذ . ويتحدث عن تَقْبُلِ روايته ومن تُرَدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب^(١) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة القواص في أوهام الخواص للحري . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، ويترها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزلها - كما مرينا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي البجلي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبي نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلمائها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرق تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتبع لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتبع لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهرة للسيوطي .

ومرَّ بنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلائها في مقدمتهم ولاد التميمي الذي مرَّ ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد^(٢) بن جعفر الدينوري نزير القسطنطيني المتوفى سنة ٢٨٩ هـ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقرَّ بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه الملهذب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد^(٣) بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨ هـ

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٢

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٠٥ وإنباء الرواة ٣/ ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأدباء ٢/ ٢٣٩ ولإنباء

الرواة ١/ ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى الفسطاط يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنق . ونزل الفسطاط في سنة ٢٨٧ الأخفش^(١) الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فبلغنا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المرد » وفيه يرد على المبرد ما نقده سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء^(٢) نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهدية جديدة مما يجعله بحق طليعة^(٣) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومر بنا أن منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الزباجي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٤) لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير بلغنا في زمن الفاطميين الحوفي^(٥) على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإعزاء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً^(٦) - التزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التوفيق إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره الدّاكر^(٧) النحوي

(٥) انظر الحوفي في الأسباب للسماقي الورقة ١٨١ ومعجم الأوباء ٢٢١ / ١٢ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباء الرواة ٢ / ٢١٩ والشُّرُحات ٣ / ٢٤٧ .

(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤ .

(٧) إنباء الرواة ٢ / ٨ .

(١) انظر الأخفش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢ وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأوباء ١٣ / ٤٦١ وإنباء الرواة ٢ / ٢٧٦ .

(٢) انظر كتاب المدارس النحوية ص ٣٣٠ .

(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢ .

(٤) إنباء الرواة ٣ / ٢٣٠ .

المصري تلميذ ابن جني المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جني فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ^(١) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص في القسطنطينية . وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو بالبغدادى ، وله كتاب سماه المختب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعلية كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يترع منزع البغداديين^(٢) في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٣) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي . وأكبر نخاة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برّي الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحويّ المغرب والأندلس ، وقد دُون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برّي وتلاميذه ، واهتم بها النخاة وشرحوها مرارا ، وهو ببغدادى^(٤) النزعة في النحو مثل أستاذه ابن برّي وغيره من نخاة المصريين لزمنه . وخلف ابن برّي في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين . ومرّ بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الألباب في شرح الكتاب » . ونزل مصري يحيى^(٥) بن مُعطى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كالألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإنباه الرواة ٧٨/٣ والشذرات ٦٢/٤ ومراة الحنان ٢٢٥/٣ والبقية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن تيمطى في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ .

والبقية ٤١٦ والشذرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وإنباه

الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشذرات ٣٣٣/٣

ومراة الحنان ٩٨/٣ والبقية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على ^(١) بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وملتقى بعلي ^(٢) بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حيثئذ بلا منازع ابن الحاجب ^(٣) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمالي ، وكتابه الكافية في النحو والتأشافية في الصرف طارت شهرتهما في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليهما الحواشي والشرح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضى الإسترابادي . ويتزعم ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية ^(٤) ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهدية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وملتقى في أوائله بأمين الدين الحلبي ^(٥) محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين ^(٦) بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان ^(٧) هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين ^(٨) ويتصدى

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .

(١) راجع ابن الرماح في البغية ص ٣٤١ .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٣٣ .

(٦) بغية الوعاة ص ٦ .

(٧) انظر أبيحان في الدرر الكامنة لابن حجر

٣٠٢/٤ . والبغية ص ١٢٦ ونكت الحميان ص ٢٨٠

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٦/٩ وطبقات القراءة ٢/٢٨٥

وفوات الوفيات ٥٥٥/٢ والشذرات ١٤٥/٦ ونفع الطيب

(طبعة دوزي) ٨٢٣/١ .

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدياء ٦٥/١٥

وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباه الرواة ٣١١/٢ والبغية

ص ٣٤٩ وطبقات القراءة ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨ وحسن

المحاضرة ٤١٢/١ .

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان

٢٤٨/٣ وطبقات القراءة ٥٠٨/١ وطبقات الذهبي ٢٠١/٢

والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٢٣٤/٥ والبغية

ص ٣٢٣ وبر وكلان ٣٠٨/٥ .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمانه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم ^(١) الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيثئذ أكبر نخاتها ابن هشام ^(٢) جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فجٍّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو في جزئين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجميل ، بثَّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو ينهج في النحو مهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن ^(٣) عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدماميني ^(٤) الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنِيَّ الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما ^(٥) بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثئذ الشيخ خالد ^(٦) الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنُسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كلييات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع

١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥

والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج ٢ رقم

٦٦١ وشذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٠/٥٣ .

(١) البغية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام في البدر الكامنة ٣٠٨/٧

والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع ٤٠١/١

وكتابتها « المدرس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل في البدر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والبدر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتها « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدماميني في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس . وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب جمع الموامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلافاً للنحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(١) على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنواني المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر^(٢) البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزانة الأدب » وهي شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويرجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهي مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى^(٣) المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . ونلتقى بالصبان^(٤) محمد بن علي المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهي أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوي بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمي النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب نجده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٣ سماء المنصف^(٥) في بيان سرقات المتنبي . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبري ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجبري ٢٢٧/٢ والخطط التوفيقية ٣٠٦/٣

(٥) انظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي عند

العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الدايدة .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦

وشفارات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ٤٩١/١ وفي أنه توفي سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر

٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه بحثين : بحثاً في السرقات الشعرية عامة ، وبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكتب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين . تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي أُلّف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعل^(١) بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ هـ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الخمرات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على السنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس . واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل اليتيمة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكّده مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُتداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ .

وفوات الوفيات ١٠٦ / ٢ .

بعد ابن ظاهر عبد الرحيم^(١) بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومعانم الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم ، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديبا وعُنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فبعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها تنبئن أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرماني وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضي والموازنة للآمدى والوساطة لعل بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزخشي ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فيها وقتها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه : « معالم الكتابة » طبع بيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠

وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدغوي ١٦٠

تحرير التعبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدائي ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه ^(١) . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كال تكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتشغل مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد ^(٢) بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فواتحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أني مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمته شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافعية ١٠/ ١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/ ٢١٠

وشلرات الذهب ٦/ ٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٢١

وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ١/ ٢١ .

(١) فحات الأزهار على نسائم الأسفار (طبع دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسناً من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المالك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعتنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّ بنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده ^(١) . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جاعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجملاً - عرضنا له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفظة وقطته ودقته في الفهم . وقدما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوى لبيت وقع عليه عفواً هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته ^(٢) كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » ^(٣) . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمنزلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشيعهم له ، مما جعل العميدى ^(٤) محمد بن أحمد كاتب

(٣) العمدة لابن رشيق ٢/٢١٦ .

(٤) انظر العميدى في معجم الأدباء ١٧/٢١٢ وإنباه

الرواة ٣/٢٤٦ وبغية الوعاة للسيوطي ١٩ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٦٣ .

الإشياء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم « الإبانة عن سرقات المتنبي » وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير ، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية .

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله ، و ماتزال معنية بالمتنبي . بل إنها لتمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي . ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(١) لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل ، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي . ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان ، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار ، يقصد حكمه البديعة . وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه « ليس من أهل اختياره » ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخّارة ، وأسوده زّارة ، ومعدن تيرة مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة ، يطمع ويؤنس ، ويوحش ويؤنس ، وينير ويظلم ، ويصبح ويعتم ، شذرة وبذرة ، ودرة وآجره ، وقبله بجانبها لسعة » ، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي ، وهو نقد دقيق ، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق ، فصنعه ، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي ، يقول : « ولولم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه ، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين نها قبيحا ولا سيما ابن المعتز » . وينوّه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بآب ابن المعتز والبحترى . وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك ، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجا^(٢) من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين ، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل ييت ابن سناء الملك :

صليبي وهذا الحسنُ باقيَ فرما يُعزّل ييتُ الحسنُ منه ويُكنسُ

لذكره فيه كلمة « يكنس » المبتذلة ، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز في قوله :

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر صبح الأعشى ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢ .

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءَةِ مِنَ الْحَظِّ وَخَدَّيْ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ
وَكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة
شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ،
فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من
عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشيء
من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات
فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أبه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا
بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة^(١) على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدرر فى
نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه
« الغيث المسجّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن
سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدى فى نكت الحميان « متعتنا
تعتنا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بَشُوكِ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِهَا وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقرب من حياها لبأس قومها وخشية
من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقف ابن جبارة بإزاء البيت^(٢) وقال إنه أراد أن يمدح قوم
صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفن مئته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر
النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا :
أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزناير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى
إبر النحل والزناير سُمٌ يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ،
وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح
القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر فى ابن جبارة نكت الحميان ص ٢٠٨ وبغية (٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم (طبع مطبعة
الوعاء ص ٣٢٩ . بولاق (١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شهما فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بإزاء^(١) بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضى الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرَى الضيَوفَ شِعَاعَ نَيْرٍ أَحْمَرٍ فَشِعَاعُ ذَاكَ التَّبَرُّ نِيرَانُ الْقِرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع نير أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليتهدى بها الحيران . وتهدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل فى بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك فى أن النقد الأدبى المصرى فى هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدى من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع فى نقله . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر فى زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفى مقدمته^(٢) يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل^(٣) من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو القروع من أبيات الصفدى . وفى صبح الأعشى دراسة^(٤) نقدية

(١) الغيث المسجم ٢٦٤/١ وانظر ١/١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ فى

خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب

من ١٥ .

(٣) فى الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ١٩٢/٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعانى والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وملتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه « ريحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢) عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٣) الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء ، كما تعنى بما يؤلف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحزمة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصرىا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا في اختلاف السبعة^(٤)

وطبقات القراء ١/ ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/ ٤٨٨ وانظر طبقات القراء

٣٠١/٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ١/ ٤٨٥ وطبقات

القراء ١/ ٥٠٢ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١/ ٤٨٦

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد^(١) المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونغضى في القرن الخامس فنلتقى بعد^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن^(٤) بن محمد البغدادى المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل^(٥) بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنوان » . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصرى وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٦) ، ونلتقى في القرن السادس بابن الفحام^(٧) شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بابن^(٨) بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٩) الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « جِزْز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(١٠) السخاوى المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصرى طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .

(٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .

(٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .

(٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الحميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .

(٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .

(٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .

(٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .

(٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن^(١) بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف فى القراءات وتلقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب^(٢) الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن الماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمى العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يُعنى بعرض أقراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها ، فقد ألف كتاباً فى الناسخ والمنسوخ وكتاباً فى الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبتناسخه ومشوخته ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر^(٣) الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

(٣) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ١٧/٤ وشفرات الذهب ٣٣٥/٦ وحسن المحاضرة ٤٣٧/١ وأبناء القمر بأبناء العمر ٤٤٦/١ .

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ٤٥٦/١ وشفرات الذهب ١٨/٥ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ وشفرات ١٢١/٨ والبلد الطالع ١٠٢/١ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَاطَها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس ^(١) . وكأنها بعض ما حمله البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جُلَّةِ رواته فيها . وتظل مصر معنيَّةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدفعى ^(٢) محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنَّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن نلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى ^(٣) السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك ونلتقى بالقرطبى ^(٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن ^(٥) المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُحَبِّ التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨
وشذرات الذهب ٣٣٥/٥ .
(٥) راجع ابن المنير فى الديباج المذهب ص ٧٨
وشذرات الذهب ٣٨١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٦١/٧
وفوات الوفيات ١٣٢/١ .

(١) الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٢٣ .
(٢) انظر الإدفعى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن
المحاضرة ١/٤٩٠ وطبقات القراء ٢/١٩٨ .
(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥
ومعجم الأدباء ١٨/٢٠٩ وشذرات الذهب ٥/٢٦٩ .
(٤) انظر القرطبى فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع)

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بثها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن^(١) النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد^(٢) العزيز الديري المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم^(٣) العراقى المصرى المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقى نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجلد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذى انتقل إلى حفيده ، وله كتاب فى الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر فى التفسير .

وأكبر المفسرين فى القرن الثامن أبو حيان الأندلسى وتفسيره البحر المحيى مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده فى الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطى وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » مطبوع فى ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطى من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإبراء ، وتفسيرهما مطبوع فى جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب^(٤) الشريينى المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتنوع مصر بحفاظ الحديث النبوى منذ نزلها الصحابة وفى مقدمتهم أبو ذر الذى سكنها مدة وعقبه بن عامر العجنى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفى مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبى هريرة ويزيد بن أبى حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر فى العلم العراقى حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت المبيان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع فى الخطيب الشريينى شذرات الذهب

٣٨٤/٨ .

(١) انظر ابن النقيب فى طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديريين فى حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن هبة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله^(١) بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البُوَيْطِيُّ وَحَرْمَلَةُ وَالْمُزَنَّى وَالرَّبِيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهر مصر بحفاظ الحديث نزلها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفي سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى لإحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفي وله في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار ، وابن جرّابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث في وزارته ، وسمع الدارقطني حافظ العراق في زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فجعاء مصر ليعينه ، تمّول ، وكان فيها يروى الحديث ويعلمه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد^(٢) الغنى بن سعيد الحفاظ المثقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله في الحديث المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال وكتاب مشتبّه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر في القرن الخامس تلميذه الحبال^(٣) الإمام الحفاظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السُّلُفِيُّ^(٤) أكبر الحفاظ في القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مربنا ، وفوّض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨/٣ .

(٣) راجع في الحبال حسن المحاضرة ١/٣٥٣ .

(٤) انظر في السلفى طبقات المقررين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ ٢/٣٩ وابن خلكان ١/١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣/١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١/٤٤٩ والسبكي ٦/٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤/٢٥٥ وطبقات القراء ١/١٠٢ وميزان الاعتدال ١/١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيرا في ورق بردى بمدينة إدفو في جنوب مصر واسمه الجامع في الحديث ، وهو مكتوب في القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب في المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر في ابن وهب حسن المحاضرة ١/٣٠٢ ، ٣٤٦ والدبيج المنهوب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٨٦ وبيروكلمان ٣/١٥٥ .

(٢) انظر في عبد الغنى المنظم ٧/٢٩٠ وابن خلكان ٢٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ وشذرات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي^(١) بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثا عن أربعين شيخا .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث^(٢) الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد^(٣) العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحرا في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قِيَمَا بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبِعَ مرارا . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الديماطى^(٤) شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذة معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن^(٥) جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثارة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشابية ، صنّف تخرّيج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي^(٦) المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكى ١٠٢/١٠ وطبقات
القرام ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة
٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبدية والنهاية
٤٠/١٤ والدرر الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١
وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكى ٧٩/١٠ والدرر الكامنة
٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر
الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١
وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطى في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبنا بمن
تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى
٥٩/٢ والسبكى ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١
وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي
٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الديماطى حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ ^(١) العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخرىج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخريجاته تعد بالعشرات ^(٢) . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومر بنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرقى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرقى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرک للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك ^(٣) . » ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه النابهون يُعدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

(١) انظر فى العراق الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢
وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشنرات ٧ / ٥٥ .
(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن
(٣) تاريخ الجبرقى ١ / ٢٨٩ .
المحاضرة ١ / ٣٤٠ .

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرَّباً لهارون الرشيد : أن يكون القضاء في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(١) بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعَدُّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣) بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى^(٤) بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد^(٥) الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٦) الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن الحزن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٧) الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٨) القاسم القصبي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن المالكي إذ جعل الظاهر يبرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

- | | |
|--|--|
| (١) انظر في بكار حسن المحاضرة ٤٦٣/١ وابن خلكان ٢٧٩/١ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١٦٨/١ | (٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ٤٦٤/١ والجواهر المضية ٣٣٠/١ |
| وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ . | (٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ٤٦٤/١ |
| (٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٥٤/٢ | (٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ٤٦٤/١ وشذرات الذهب ٣٤١/٤ |
| وللتنظيم ٢٥٠/٦ وحسن المحاضرة ٣٥٠/١ وابن خلكان ٧١/١ وطبقات القراء ١١٦/١ والجواهر المضية ١٠٢/١ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢٨٨/٢ | (٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضية ٣٥٢/١ |
| (٣) انظر في إسحق الجواهر المضية ١٣٦/١ والفوائد البية ٢٢ | (٨) انظر القصبي في حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضية ٣٠٤/١ |

قاضيهِ ، وأيضاً فإنه جعل للحنفية نصيباً في مدرسته الظاهرية وأول حنفي درّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسيفونية لؤلؤ^(١) بن أحمد وأبو بكر^(٢) بن محمد الإسني . ومن قضاتهم النعمان^(٣) بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويُحْتَمُّ القرن السابع بآبن النقيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابيهن أحمد^(٤) بن إبراهيم السروجي المدرس بالسيفونية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولى القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وآبن^(٥) يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح آبن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره آبن^(٦) التركاني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحاً له على الجامع الكبير أملاه دروساً على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد^(٧) المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى^(٨) المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي^(٩) المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كثر الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كثر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقانا السراج^(١٠) الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره آبن^(١١) أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٧٧/١ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٦٦/١ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ والدرر الكامنة ٦١/٣ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٠/٣ والفوائد البية ١٤٩ وإنباء الغمر ٢٧/١ .

(١١) راجع في آبن أبي الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكامنة ٦/٣ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ٦٦/١ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/١ والجواهر المضيئة ٤١٦/١ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضيئة ٢٠١/٢ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في آبن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في آبن التركاني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر

الكامنة ٤٩/٣ .

المثبت في الهوامش . وملتقى بأكمل^(١) الدين البابرقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاتهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى^(٢) ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . وملتقى بالقاسم^(٣) بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٤) بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كتر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلالي المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكتر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرقي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث^(٥) بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للمحبي ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر الذهبي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في البابرقي حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والقوائد البية ١٩٥ وإنباء الغمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشذرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهباً مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبهم عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد^(١) الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد قرّع على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٢) ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد^(٣) الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٤) المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث^(٥) بن مسكين ، وقد حمّله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعدّ السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيًا اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٦) بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حيثئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٧) المعافري قاضيا

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والوفائي بالوفيات ٣٣٨/٣ والشفرات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .
(٥) انظر في الحارث رفع الإصر عن قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .
(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والديباج المذهب ٣٧ .
(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والغبر ٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ٢٩٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتذهيب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشفرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .
(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .
(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي ٣٦٦/١ وابن خلكان ٣٤/٣ وتهذيب التهذيب ٢٨٩/٥ والشفرات ٣٤/٢ .
(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والديباج

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر^(١) الأسواني قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونغضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو^(٢) بكر النعالي إمام المالكية بمصر فى وقته ، وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقة فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم^(٣) الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد^(٤) الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعراً بارعاً ، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية ، واجتاز بمجرة النعمان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهاء وبشعره :

إذا تفقّه أحيا مالكا جدلا ويُنشرُ الملك الضِّلِيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو^(٥) بكر الطرطوشى نزيب الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائخى هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند^(٦) بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم^(٧) بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقّه به أهل الثغر زمانا .

ونغضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٨) إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

- | | |
|--|---|
| (١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ٤٤٩/١ | (٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ٤٥٢/١ |
| والطالع السعيد للإدغوى ٣٦٤ . | والصلة لابن بشكوال : ٤٥٥ والمغرب ٢٤٢/٢ وابن |
| (٢) انظر فى النعالي حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج | خلكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض |
| المذهب ٢٥٨ . | ١٦٢/٣ . |
| (٣) راجع فى الجوهري حسن المحاضرة ٤٥١/١ والعبر | (٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج |
| ١٧/٣ . | المذهب ١٢٦ . |
| (٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والعبر | (٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١ . |
| ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات | (٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ |
| الوفيات ٤٤/٢ والشفرات ٢٢٣/٣ . | والديباج المذهب ٩٥ . |

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومربنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاء حينئذ ابن شاس^(١) عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين^(٢) بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتيا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوي الذي مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣) بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

ونغضى في زمن الماليك ، ونلتقي بابي حفص عمر^(٤) بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر يبيرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٥) الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي^(٦) شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٧ والديباج المذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٣١٦ والديباج

المذهب ٦٢ والنبل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب) ١/ ٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/ ٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/ ٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة

١/ ٤٥٦ والديباج المذهب ١٦٧ .

المثير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إمامًا فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج^(١) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي^(٢) بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولي قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن^(٣) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد تزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للملائم . وكان يعاصره الزواوي^(٤) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رئاسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل^(٥) بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعني بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه^(٦) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وتلقى بالبساطي^(٧) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولي القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادي عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

(٤) راجع في الزواوي حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والدرر الكامنة .

(٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ٤٦٠/١ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .

(٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ٤٦١/١ والضوء اللامع ٢٠/٣ .

(٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ٤٦٢/١ والضوء اللامع ٥/٧ .

(١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشرحاني ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب ٧٠ وشرقات الذهب ١٩/٦ والدرر الكامنة .

(٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ٤٥٨/١ والدرر الكامنة .

(٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والديباج المذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٣٥٥/٤ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وتلقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني ^(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضاً من أهمهم على ^(٢) بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى ^(٣) مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر . واكتمل له فيها مذهب الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مربنا في غير هذا الموضع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعاً . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مراراً ، ومثلها كتاب السنن الماثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البويطى والمزنى ، أما البويطى فهو يوسف ^(٤) بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : « أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد في محبة القول بخلق القرآن ، فأصّر على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفى . والمزنى ^(٥) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع في البويطى السبكي ١٦٢/٢ وتاريخ بغداد

٢٩٩/١٤ وعبر الذهبي ٤١١/١ وتهذيب التهذيب

٤٢٣/١١ وابن خلكان ٦١/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى

٣٠٦/١ .

(٥) انظر في المزنى السبكي ٩٣/٢ والعبر ٢٨/٢

واللباب ١٣٣/٣ وابن خلكان ٢١٧/١ والنجوم الزاهرة

٣٩/٣ والسيوطى ٣٠٧/١ وشنرات الذهب ١٤٨/٢ .

(١) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ٦٩/١ .

(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ٤١٤/١ .

(٣) انظر الإمام الشافعى في الجزء الأول من طبقات

الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومعجم الأدباء

٢٨١/١٧ وابن خلكان ١٦٣/٤ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

تهذيب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفة ١٤٠/٢ وحلية

الأولياء ٦٣/٩ وألف كثير من سيرته ومذهبه قديماً

أخذ عنه خلافت من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمثبور والمسائل المعتمدة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات المهاجرة للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة ^(١) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور ^(٢) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق ^(٣) المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزىل القسطنطين وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطين وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبوبكر ^(٤) بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى القسطنطين ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذى شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطى عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي ^(٥) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطى في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الحلبي ^(٦) على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار .

١/٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/١٠٨ والعبر ٢/٢٦٤ وابن

خلكان ٤/١٩٧ والوفى ٢/٦٩ والشنرات ٢/٣١٧ .

(٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/١٥٠ وابن خلكان

٤/٢١٢ والوفى ٣/١١٦ والسيوطى ١/٤٠٣ والشنرات

٣/٢٩٣ .

(٦) انظر في الحلبي السبكي ٥/٢٥٣ والعبر ٣/٣٣٤

والسيوطى ١/٤٠٤ والشنرات ٣/٣٩٨ وابن خلكان

٣/٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة السبكي ٣/١٩٦ والسيوطى

١/٣٩٩ والعبر ٢/١٧٣ والشنرات ٢/٢٣٩ .

(٢) انظر في منصور السبكي ٣/٤٧٨ والسيوطى

١/٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطين)

ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/٢٨٩ ونكت الهيمان ٢٩٧

ومعجم الأدياء ١٩/١٨٥ والمتنظم ٦/١٥٢ .

(٣) راجع في المروزي تاريخ بغداد ٦/١١٦ وابن خلكان

١/٢٩٦ والسيوطى ١/٣١٢ .

(٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/٧٩ والسيوطى

وربما كان أهم منه مجلى^(١) بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفؤض القضاء بمصر للشافعية ، فانتسح نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبوشانى^(٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقى المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقى ، وله شرح على كتاب المذهب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد^(٣) الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان^(٤) فى قضاء القاهرة وله شرح على المذهب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد^(٥) بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه المجرى ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز^(٦) بن عبد السلام وقد مررنا فى الفصل السابق حديث عنه مع المالك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالقسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فؤض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الممالك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيراً وكتاباً فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن الممالك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٣٣٧/٨ والسيوطى

٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .

(٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٦٣/٨ والسيوطى

٤١٢/١ والعبر ١٦٢/٥ والشذرات ٢٠٥/٥ .

(٦) انظر فى العز السبكى ٢٠٩/٨ والسيوطى ٣١٤/١

والشذرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ومروءة الجنان

١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة

٢٠٨/٧ .

(١) راجع فى مجلى السبكى ٢٧٧/٧ والسيوطى

٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن

خلكان ١٥٤/٤ .

(٢) انظر فى الخبوشانى السبكى ١٤/٧ والسيوطى

٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤

والشذرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .

(٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ٤٠٨/١ ورفع

الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعى ، ومن أهمهم ابن ^(١) دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد ^(٢) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيوخ : الرافعى القزوينى والنووى الدمشقى فى الاعتماد عليه فى ترجيح الآراء الفقهية فى مذهب الشافعى ، درّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية فى عشرين مجلدا والمطلب فى ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى ^(٣) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيطة فى شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فإوعى . وكان يعاصره بدر ^(٤) الدين بن جماعة قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات فى فنون كثيرة . وتلقى بالزركلى ^(٥) أبى بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبى إسحق الشيرازى عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووى . وكان يعاصره سليمان ^(٦) بن جعفر الإسنى المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . وتلقى بتقى ^(٧) الدين السبكى على بن عبد الكافى المتوفى فى نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة فى الفقه وشرح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكى الذى مر ذكره بين البلاغين ، وله فى الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد ^(٨) الرحيم بن الحسن الإسنى المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهمات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية فى زمانه .

١/ ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣/ ٣٦٧ وفوات الوفيات
٢/ ٣٥٣ ونكت المبيان ٢٣٥ ومرة الجنان ٤/ ٢٨٧
والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨ .
(٥) انظر فى الزركلى السيوطى ١/ ٤٢٦ والشفرات
١٢٥/ ٦ .

(٦) راجع فى سليمان السيوطى ١/ ٤٢٩ .
(٧) السبكى ترجم له ابنه بهاء الدين فى طبقات الشافعية
١٠/ ١٣٩ وانظر فى ترجمته السيوطى ١/ ٣٢١ والدرر
الكامنة ٣/ ١٣٤ .
(٨) انظر فى الإسنى السيوطى ١/ ٤٢٩ والدرر الكامنة
٢/ ٤٦٣ .

(١) راجع فى ابن دقيق العيد السبكى ٩/ ٢٠٧
والسيوطى ١/ ٣١٧ والشفرات ٦/ ٥ والبدر الطالع
٢/ ٢٢٩ ومرة الجنان ٤/ ٢٣٦ والواقى ٤/ ١٩٣ والطالع
السعيد للإدغوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٤٨٤ والدرر
الكامنة ٤/ ٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .

(٢) انظر فى ابن الرفعة السبكى ٩/ ٢٤ والسيوطى
١/ ٣٢٠ والشفرات ٦/ ٢٢ ومرة الجنان ٤/ ٢٤٩ والبدر
الطالع ١/ ١١٥ والدرر الكامنة ١/ ٣٠٣ .

(٣) راجع فى القمولى السبكى ٩/ ٣٠ والسيوطى
١/ ٤٢٤ والدرر الكامنة ١/ ٣٢٤ والشفرات ٦/ ٧٥
والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ .

(٤) راجع فى ابن جماعة السبكى ٩/ ١٣٩ والسيوطى

ويلقانا ابن^(١) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمانه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني^(٢) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . ويعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقي إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبراق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وملتقى بالشيخ زكريا^(٣) الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعي ناشطاً ، ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر^(٤) الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربيني الخطيب الذي مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسلمان البجيرمي حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حيثئذ الرملى^(٥) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعي بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلي طويلاً ، ويعلل السيوطي ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التي كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلي ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى^(٦) الجماعلى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم

(٤) راجع في ابن حجر الهيتمي مقلعة فتاويه والشذرات ٣٧٠/٨ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ .
(٥) انظر في الرملى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ١١٩/٢ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩/٤ .
(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى في قسم الشام ص ٥٨٤ .

(١) راجع في ابن الملقن السيوطي ٤٣٨/١ والضوء اللامع ١٠٠/٦ وشذرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر في البلقيني السيوطي ٣٢٩/١ والضوء اللامع ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧ .

(٣) انظر في الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع ٢٥٢/١ والنور السافر ص ١٢٥ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولمؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيباً المزي جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب مُعْلَطَايَ الذي مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلي يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلي ودرسته فيها إيوانا بجانب أوأوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهريبيرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضي الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلي وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطي في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم^(١) الدين أحمد بن حمدان الحراني المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر^(٢) بن عبد الله المقدسي قاضي الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق^(٣) الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسي قاضي الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر^(٤) الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستاً وعشرين سنة ، وعهاد^(٥) الدين الحنبلي أبوبكر بن أبي المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صُفِّ تجريد الأولمر والنواهي من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزى . ونختم السيوطي فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد^(٦) بن إبراهيم الكنانى العسقلاني الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعليقات وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعي توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلي ناشطاً بمصر زمن العثمانيين ، وفي كتاب تاريخ الجبرتي أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى^(٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهري ظل معروفاً بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، وولتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

٦/٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/١٦٣ وإنباء الغمر ١/٤٦٦ .
 (٥) راجع في عماد الدين السيوطي ١/٤٨٢ والضوء
 الامع ١١/٦٦ والشذرات ٧/٤٢ .
 (٦) انظر في الكنانى السيوطي ١/٤٨٤ والضوء الامع
 ١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .
 (٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطي ١/٤٨٠ والشذرات
 ٤/٤٢٨ والمنهل الصافي ١/٢٧٢ .
 (٢) انظر في عمر المقدسي السيوطي ١/٤٨٠ والشذرات
 ٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .
 (٣) راجع في موفق الدين السيوطي ١/٤٨١ والشذرات
 ٦/٢١٥ .
 (٤) انظر في ناصر الدين السيوطي ١/٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومرباً في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضائهم بمصر النعمان^(١) بن منصور التيمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيًا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد^(٢) الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب « راحة العقل » الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد^(٣) في الدين هبة الله الشيرازي أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق

د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية

ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان

١٦٧/٦ والشنرات ٤٧/٣ ومرآة الجنان ٣٧٩/٢

والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب المهمة في آداب

اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) أنظر في حميد الدين بر وكلمان ٣/٣٥٥ ومقدمة

ومرّبنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف^(١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مراراً وتكراراً ، ولشمس^(٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولهباء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها^(٣) . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبكار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام العلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥ والشرحات ٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومرة الجنا ٢٠٨/٤ .

(٣) خطط المقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكي ٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥ والشرحات ١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال ٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين ، وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد^(١) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، ولأنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة الحمديدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد^(٢) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبطي هو سعيد^(٣) بن البطريق الذي تقلد منصب بطريق الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجواهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن التصاري وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما بهما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في ليننجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرته للسهيلى المسمى الروض الألف : مقدمته ، وعبر الذهبي ٣٧٤/١ والسيوطي ٥٣١/١ وأنباء الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيوطي ٤٤٦/١ ، ٥٥٤ ، والدديج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُيِّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد^(١) بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢) بن أحمد بن يونس الصدي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وملتقى بمحمد^(٣) بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضائها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وملتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن^(٤) زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفُقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيبويه المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى^(٥) بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدي ، كما يلقانا الروذباري أحمد^(٦) بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماه « بلشكر الأذباء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب ممرارا ،

(٤) انظر ابن زولاق في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان

٩١/ ٢ ولسان الميزان ١٩١/ ٢ .

(٥) أنظر الطحان في ابن خلكان ٢٢٣/ ٣ وأنظر

بروكلمان ٨٤/ ٦ .

(٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم

القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل

الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطي ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣

وابن خلكان ١٣٧/ ٣ وفوات الوفيات ٥٢٦/ ١

والشتران ٢/ ٣٧٥ وعبر الذهبي ٢/ ٢٧٦ .

(٣) أنظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف

الإسلامية . بروكلمان ٨٢/ ٣ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم. وكان يعاصره هو والطحان المسيحي^(١) الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة. وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة. وتلقانا سيران إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدة للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية.

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على^(٢) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي. وللرشيد^(٣) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى القسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه. وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبد العزيز الأغدلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعذاده في الأغدلسيين. ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥. ونلتقى بالقرطبي محمد^(٤) بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف. وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسم القسطاط والقاهرة من كتابه المغرب. وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله ثمعة الظرفاء في أخبار الأقبياء والخلفاء إلى الظاهر لإمهراز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويظن أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١/ ١٦٠ ومجمع الأدباء

٤/ ٥١ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ١/ ٢٠٠ والشذرات ٤/ ١٩٧ والسيوطي ١/ ٥٤٠.

(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم القسطاط ص ٢٦٧.

(١) انظر في المسيحي المغرب (قسم القسطاط)

ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤/ ٣٧٧ والسيوطي ١/ ٥٤٤ والوافي للصفدي ٤/ ٧ والعبر ٣/ ١٣٩ والشذرات ٣/ ٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٧١.

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٥٥.

سنة ٥٦٧. وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠.

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأومني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداءً تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥. ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلّفي المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتشكائر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثُر ترجمة العلماء لشييوخهم ، مما يُلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعُهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد^(١) بن أسعد الجَوَانِي الحسِنِي ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المنقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . وممّا بنا ذكر الحافظ عبد الغني بين الحنابلة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي^(٢) على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النجاة وكتاب المحمدين من الشعراء ، وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في لبيزج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونخصي إلى زمن المماليك وفي عهدهم تدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكي^(٣) بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في لندن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر^(٤) تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبّحي

(١) انظر في الجواني الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١ ١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .
 (٢) انظر المكي في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف .
 (٣) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطالع السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٢٣٧/٥ وقوات الرقيات .
 (٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولا بن^(١) الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطارقة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحري بنا أن نذكر هنا ابن^(٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محي^(٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون « باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار^(٤) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزاءه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية . وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقي بالحافظ ابن^(٥) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشائيل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام . بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدقوي^(٦) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ ،

٤٢٥ والبدر الطالع ٢٤٩/٢ والنجوم ٣٥٦/٧ وطبقات

القراء ٣٨٦/١ والدرر الكامنة ٣٣٠/٤ والسبكي

٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدقوي السيوطي ٥٥٦/١ والشفرات

١٥٣/٦ والدرر الكامنة ٧٢/٢ والبدر الطالع ١٨٢/١

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ١٤٦/٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في الدوادار الدرر الكامنة ٤٣/٢ والشفرات

٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطارقة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين^(١) المماليك . ونلتقى بالحافظ مُغلطاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالاجتماع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجهة في المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعتمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل معاييه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن^(٢) الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان فى عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق^(٣) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزء بين الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب فى تراجم الصوفية ، وله فى تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام فى اثنى عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بروق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق فى السيوطى ١/ ٥٥٦ والشذرات

(١) بروكلمان ١٤٦/٦ .

٨٠/٧ والضوء اللامع ١٤٥/١ .

(٢) انظر ابن الفرات فى السيوطى ١/ ٥٥٦ والضوء

اللامع ٥١/٨ .

سمّاها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برقوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقي بالمقرئزي المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستاناتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلتها ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقرئزي التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقتى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر^(١) الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف فى التراجم ، وله كتاب الإصابة فى تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب فى اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة ، وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تَغْرِى^(٢) بَرْدَى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردى فى الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية فى أبى المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر فى السيوطى ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البية للكنوزى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة ص ١٧ .

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالتواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأعمراء والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سؤق كثير من الطوائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنقات تاريخية مختلفة بجانب أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والولاطين والأعمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو ميثوث في هوامش هذا الجزء . ونلتقى بشمس^(١) الدين السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئى ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثانى ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة حياته .

ويتوج السخاوى هذا النشاط التاريخى العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحي بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغى أن يتوفر في

والشذرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر
للبيروسى ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) أنظر في السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للقرئى ٥٣/١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلق في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . ويُنجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لامتطائه على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتابتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو ميثوث في الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، ومسالك الحنفا في والدى المصطفى ، ولب الباب هذب فيه الباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي . ويُحتملُ زمن الماليك بابتداء محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أقاض في التاريخ إفاضة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما ألحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلمائها وصناعاتها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقي به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شمالي الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعراي المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادي عشر الهجري زين الدين بن أبي السرور البكري محمد الصديقي وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد^(١) الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاق محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . ونلتقى بنور^(٢) الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهي مطبوعة مراراً . ويلقبنا شهاب^(٣) الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ربحانة الألقاب ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نفع الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣ .

(١) راجع المناوى في خلاصة الأثر ٤١٢/٢ والبدر

الطالع ٣٥٧/١ .

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى في ص ٤٥٩

(٢) راجع نور الدين الحلبي في خلاصة الأثر

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربى الإسلامى لغات وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفى عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان . وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى ، وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن ، فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . وازمحت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية ^(١) ، وسرعان ما هُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان فى البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة - نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئ ١ / ١٨١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى نشرها جروهمان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الولى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتأور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة محدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة ^(١) ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان ^(٢) . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بالسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذتا يعملان بسرعة على تعرب مصر ، أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح فله مالمسلمين وعليه ماعليهم ، يقول بترل : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا » ^(٣) . ومعروف أن الرومان أو قل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يهبون طييات مصر نها ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعُدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بترل قائلا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلَّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف ^(٤) ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربى ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بترل ص ٢٤٣ .

(٤) بترل ص ٤٠٣ . وانظر البلدان لليعقوبى ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد

أبى حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة

مارميثا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حيَّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطرت إلى اقراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد ولَّيتك جند مصر وأنا عارف بضغفك وقد أمرت رسولى بضربك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جاييا يجمع الأموال ^(١) . وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر . هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بنخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قرية من الجزيرة العربية فترها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُعنى كتبُ بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئى . وطبيعى أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنها فحسب . بل أيضا في ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سنَّ لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى الفسطاط . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات ^(٢) . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حُديج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولابد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعاها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية^(١) . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كئيدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان^(٢) . وكان ذلك بدءا حقيقيا لعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُد من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من ألسنة القبط في الريف والقرى وتحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقي على دينه »^(٣) . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مر بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُترجم لهم كتب التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

والمقريزي ١٧٣/١ .

(١) خطط المقريزي ١٤١/١ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمر بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلبث أن نلتقى بعد ورش بذي النون المصري الإخميمي وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامي . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على السنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها^(١) . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبحر . وأسلم على يده ، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طيبة . ومر بنا أيضا أن الدوميلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصري أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجري . وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية . كما تدل على ذلك ترجمته^(٢) في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتابا بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجري ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطي واليوناني في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت في الزوال وحلت محلها في السنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومي ، أما هي فأنحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(٢) راجع عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس

ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة^(١) بالقرب من أسوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية ، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المصريين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حيثئذ أن ما نظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندى في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بثينة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأيمن بن خريم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة^(٢) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مسترقا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، ورد إليه حريته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله العمر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر^(٣) الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضنى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

(١) كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التابعة) ص ٢٩٩ .

(١) الخطط ٣ / ٥٦١ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

لمصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضايتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاءه ^(١) . كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمرى الذى ولى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاءه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة ^(٢) . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولياً الخراج ^(٣) بها حوالي سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عفيرة والمعلّى الطائي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاة للكندی تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و ٢٠٩ . والمعلّى الطائي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندی تتردد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضي العمرى يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول ^(٤) :

ياموت كيف سلبتني وَصْفا قدَمَتَهَا وتركتني خَلْفا
وأخذت شِقْ النفس من بدني فقَبَرَتُهُ وتركت لي النُّصْفا

ونراه يتصل بالولاية ويمدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة ^(٥) .

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرةٍ وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهباً لما أشرتُ إلى خَزَنِ بمثالٍ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصداً عباس بن لهيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخراعى بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

العصر العباسي الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢/١٠٢ .

(١) الولاية والقضاة للكندی ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٢) الكندی ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ .

٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣) خطط المقرئى ١/ ٣٨٥ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلّ الطائي وابنه حِطَّان . إذ نجد ينشد في ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله ^(١) :

وإنما أولادُنَا بيننا أكبادُنَا تمشي على الأرضِ

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإخميمي مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مفلحاً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرّبنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرائها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرّبنا في غير هذا الموضع ، وألحق به ميداناً فسيحاً للعب الكرة . وأنشأ خمارويه ابنه بعده بستاناً كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرّبنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خمارويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طشويه وأحمد بن إسحق ^(٢) ، ويقول المقرئ : رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمنة فهرساً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكيف يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » ^(٣) . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، ومما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتاباً في أخبار شعراء مصر ^(٤) . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) الخطط ١/٦١٢

(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

(١) الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي (طبع لجنة

التأليف) ١/٢٨٥ .

(٢) النجم الزاهرة ٣/١٤٠ وما بعدها

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المرمي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والخيول والصيد . وللبحتري مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغري بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه ^(١) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعهما ، وكانا يتزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلمانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المحيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائها ^(٢) ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلانه ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضًا أشعارًا له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدى في الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور ^(٣) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلَّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويَظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسيني الرُّسِّي ^(٤) . ونزل مصر في عهد كافور المتنبئ ، كما مرَّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُنيا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أدبها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جُرْزَابَة ^(٥) .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانيئ الأندلسي ، ومعه ابنة تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعراً ، روى ابن تغري بردي بعض شعره^(١) ، وكان ابنه العزيز نزار الذي ولي الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً^(٢) وكذلك كان الحاكم^(٣) والمستنصر^(٤) ، فطبعي أن يبعثوا نهضة شعرية في البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدتهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزیز : يعقوب بن كلس ، وكان يهوديا وأسلم ، ودبر دولتها تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح ، ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبي وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفي سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر^(٥) . ولا بد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلاً عما كانوا ينثرون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقيد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياساً لمدى نشاط الشعر في مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمي الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبراً مهماً يسوقه المقرئ عنه إذ يذكر أنه بنى بركة الحبش منظره بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتِبَ عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رف مذهب . فلما دخل المنظره وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رف صُرة محتومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرة بيده^(٦) وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالي شاعراً ، وروى ابن ميسر في أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مداحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأنصهاني في القسم المصري من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزيك بأخرة من العصر الفاطمي شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصهم شاعره الجليس بن الحباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ١٥٨/٤

(٦) الخطط ٢٦٨/٢

(١) النجوم الزاهرة ٧٩/٤

(٢) النجوم الزاهرة ١١٣/٤

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٦/٤

نقل منه العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الْجَنَانِ ورياضُ الْأَهْوَانِ » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهاني انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابيين في البلاد العربية أمثال أبي الرقعمش الأقطاكي وصرّيح الدلائل البغدادى والتهامي المكي وابن حيّوس الدمشقي وأمية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفاً .

ويظل نشاط الشعر المصرى في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطاً على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائى لعلى بن ظافر الأزدي ، وهو يسجّل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . ونلّقى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعاً طريفاً لنظم أشعار على البديهة دون بُطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعراء كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصّ مصر بمجلدين ترجم فيها مائة وأربعين شاعراً . وكان القاضى الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رزّيك والأفضل بن بدر الجمالى في الدولة الفاطمية ممدّحاً ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعراً كبيراً . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب شاعرنا به إلا قصده مادحاً كما يقول ابن خلكان ^(١) . ونرى فاضل بن راجى الله العطار المصرى يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتاباً في شعراء مصر لزمه سماه « الشعراء العصرية بالديار المصرية » ^(٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلدانها في الوجهين البحرى والقبلى ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونُشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضاً شعراء أيوبيون كثيرون .

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاكر الكتبي والوفاء بالوفيات للصفدى وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر . وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

(٢) المغرب : قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة بيروت) ٢١١/٧

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاى السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلي والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . ونلتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصصوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور^(١) :

رسالةً من كَلَفٍ عَمِيدٍ حَيَّاتُهُ فِي قَبْضَةِ الصَّدُودِ
بَلَّغَهُ الشَّوْقُ مَدَى الْمَجْهُودِ مَا فَوْقَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَزِيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثُر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين . وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمَّطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسَّمطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسَّمط مشتق من السَّمط وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمَّع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مَحْمَس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط^(٢) :

دَمُ الْعُشَّاقِ مَطْلُولٌ وَدَيْنُ الصَّبِّ مَمْطُولٌ^(٣)
وَسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولٌ وَمُبْدَى الْحَبِّ مَعْدُولٌ

وإن لم يُصنَّعْ لِلاتِّمِّ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصهبانى مسمطاً سباعياً^(٤) لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكثرّون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهزيتة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبيعاتها وتسبيعاتها عشرات أكثرها لمصريين^(٥) .

(٣) مَطْلُولٌ : مهمل ولادية له .

(١) الأبيمة ٣٥٦/١

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

وتظل المسمطات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ربحانة الألبا ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مخمس نبوى ^(١) :

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الْحَقَّ - هُدَيْتَ - بركبٍ ساقه الطَّرَبُ
وَقُلْ لَصَبٌ غدا بالشوق يَتَّحِبُ لمهبطِ الوَحْيِ حَقًّا تَرَحَّلُ الثُّجُبُ
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر فى الخمس قافية الشطر الخامس فى الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو ما قدمنا فى قاعدة نظمها .

(ب) الرباعيات

مرَّبنا فى كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى الغتاهية ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكثرُونَ من استخدامها مع تسميتها باسم « دوبيت » أى بيتين . ويشركهم شعراء العرب فى ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ » و « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعْلُونُ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن الرباعيات فى قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما غمضى فى زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكثرُونَ من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانٍ ^(٢) :

ياغُضُنْ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السَّوَّكِ يحتاج سِوَاكَ
قُلْ لى أَنهَكَ عَنْ مجيئك نُهَكَ لو تَمَّ وَفاكَ بُسْتُ خَدَّيك وَفاكَ

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدَّوَيْت »

السواك ، وفاك أى فك ، وسمى صاحبه غصنا لامتواء قامتها . والنهى : العقل .

(١) نفحة الربحانة للمجى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبدالفتاح الحلوى) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٧٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أورباعيات... ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدني لنفسه ابن أبي الإصبع :

قَبْلَتْ ثَنَايَا كُجَانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ
نَادَى مَاذَا ؟ فَقُلْتُ : طَبَعُ عَرِي يَشْتَاقُ أَقَاخَ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ (١)

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنِّسَ وَحْشَتِي إِذَا اللَّيْلِ هَدَا
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرُ بَعْدَ ذَاكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبدل روحه لمحبة الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تنفلت أضواءه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوية كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا (٢) :

مَا جَرَّ لَظْلُ أَحْمَدٍ أَذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَالُوا
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسُ بِظُلِّهِ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والتور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(٢) ربحانة الألبا (نثر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الخلوي) ١/١٠٥

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه :

نادائي .

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق^(١) وفي رأي أنها فعلاً تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلاً . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة^(٢) ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفلاً ، ومن خَرَجَة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط^(٣) :

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضِلٍ
لَاؤِلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامَةِ
آمَنَا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْخَوَاطِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلاً لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمطات . وعادة يتبدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يتبدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه^(١) .

وكان طبيعياً أن يتعرف المشاركة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : « كان منشئاً للمنثور والمنظوم » وأقام بمصر عشرين سنة ، وصُنف في الأطلان وعنه أخذها أهل إفريقية^(٢) ، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفي سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب^(٣) ، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجليلاني الأندلسي^(٤) ، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته . ومربنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدوه من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ومحدثنا العباد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له^(٥) . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : « دار الطراز » وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاؤها وعدد شطورها وأنها قلما تجاوزت خمسة^(٦) وعدد أدوارها أو غصونها أو سموطها وأنها قد تصل إلى أحد عشر غصنا^(٧) .

ويقول عن الخرجة ، وهي القفل الأخير في الموشحة ، هي « أبحار الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

أبي أصيبعة ص ٦٣٠

مصر) ص ٣٣٧

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

(٥) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها

(٦) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الزكابي (طبع دمشق) ص ٢٦

(٧) انظر دار الطراز ص ٩٧

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

ومسكه وعبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة^(١)، ويقول أيضا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له^(٢)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على ألسنة العلماء والشعراء واختار ابن سناء الملك فى كتابه للأندلسيين أربعة وثلاثين موشحا، واختار لنفسه خمسة وثلاثين، وقد استظهرنا فى مقال^(٣) لنا عن الكتاب حين صدوره أن ابن سناء الملك ألفه فى عهد السلطان الأفضل بن صلاح الدين (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ).

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلد الأسماع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله فى مطلع موشحة رواها ابن سعيد^(٤)

الْبَدْرُ يَحْكِيكَ لولا تَنُتِيكَ
وَأَنْتَ جَنَّةُ^(٥) الصَّدِيقِ لولا تَجَنُّتِيكَ
لَمْ يَلْقَ نَعْمَى وَنَعِيمَ مَنْ كَمْ يَلَايِكَ
حَمَلْتَنِي كُلَّ عَظِيمَ يَوْمَ فَرَاكَ
وَإِنْ لِي ذَنْبًا قَدِيمَ عَلَى عِنَاكَ
بِالضَّمِّ أَجْنِيكَ لِلصُّدْرِ أَذْنِيكَ
لَأَنْ لِي قَلْبًا رَقِيقًا^(٦) عَسَاهُ يُعْغِدِيكَ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها فى النطق والسمع وجمال وقعها فى النفوس والأفئدة، وموشحاته فى دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو القصن فى إحدى موشحاته:

وجهك يا أحسن البرية قد جمع المِلاحَ والملاحَ

(٤) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

(٥) جَنَّة: وقاية.

(٦) فى الأصل رقيقا.

(١) دار الطراز ص ٣٢

(٢) دار الطراز ص ٣٣

(٣) راجع مجلة الثقافة، العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١

نرجسةً فيه مستحيه ووردةً تحتها أقاحه
والحال في الوجنة المضيه في الماء لا يحسن السباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحه ، فالعين ملأى بالخضر والحياه ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلائي والحال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يبرم . وبذلك أعد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر ^(١) الأعمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلَّى يَأْسُحِبُّ تيجان الرُّبَى بالحلى
واجملى سوارها مُنْعَطَفَ الجَدُولِ

والموشحة تفيض بكنوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحجوب ، بهجة ما بعدها بهجة . وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها ^(٢) :

قل لمن يلوم في مُهْفَهَفٍ أَسْمَرٍ
ثغره النُّظِيمُ مُسْكِرٌ وَسُكَّرٌ

أو لو سقاني اطفأت نيران دُرَّةً ثمينه في الياقوت مكنونه
وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفى نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينه وهى كناية بديعة . ونمضى إلى زمن الماليك فلتقى بكثير من الوشاحين ، وفي مقدمتهم العزازى وابن الوكيل وظلت الموشحات مزدهرة في أيام الماليك على لسان ابن نباتة وغيره ^(٣) ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة .

العزازى ^(٤)

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيسارية جهاركس في القاهرة

والأزجال للنواجي بتحقيق عبد اللطيف الشهاوى ولابن نباتة فيه تسع موشحات .

(٤) انظر في العزازى المنهل الصافى ٣٤٠/١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ٢١٤/٩ وفوات الوفيات لابن شاكر الكنجى ٨٨/١ والوافى ١٥٢/٧ والدرر لابن حجر ٢٠٥/١ .

(١) انظر في مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء ١٤٨/١٩ وفوات الوفيات ١١١/٢ ونكت الهميان ٢٩٠ والشعرات ١١٠/٥ .
(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبد الله فكرى) ص ٥٤ .
(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل في الموشحات

قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أدبيًا مطبوعًا ظريفًا له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية فى ذلك . ويقول ابن حجر : له فى الموشحات يد طولى توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفى دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان فى خمسة أقسام : فى مدائح الرسول وأهل بيته وفى مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفى النكت والملح والألغاز والأساطير ، وفى الغزل والتهانى والتعازى ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعرآء زمانه ، وفى غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصوّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاطر فى فوات الوفيات والنواجى فى عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمير وبالحب وبجمال الطبيعة استهلّها بقوله :

يا لهلة الوصل وكأس العُقار دون استنار علّمتانى كيف خلّغ العذار^(١)

اغتم اللذات قبلَ الذهاب

وجرّ أذيالَ الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كثوسُ الشّراب

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعمَ فيها وزار شمسُ النّهار حُييت من بين الليالى القِصار

وله فى مطلع موشحة بدعية :

ماسلتِ الأهينُ الفواترُ من غمْد أجفانها الصّفاح^(٢)

إلا أسالتِ دِما المهاجرُ من غير حربٍ ولا كِفاح^(٣)

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاطر ، وهى فى الحقيقة خمس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المهاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلغ العذار : كتابة عن الانهالك فى الجهون

(٢) الصّفاح : السيوف

ابن الوكيل^(١)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والمشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفي سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظاراً مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تدور في الهزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدَّهُ غصونَ البانِ بين الورقِ
إلاَّ وسبًا المَهَا مع الغِزْلافي حُسْنُ الحَدَقِ
الصحة والسقام في مقلتهِ
والجَنَّة والجحيمُ في وَجنتِهِ
ما أبدعَ معنى لآخِ في صورتهِ
كالوردِ حواه ناعم الرِّيحانِ بِالطَّلِّ سَقَى
والقَدْ يميل رَمِيلَةَ الأخصانِ للسمعَتني
أحيا وأموت في هواه كمدًا
من مات جَوَى في حَبِّه قد سَعِدَا
يا عاذلُ لا أترك وَجْدِي أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته في ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحارر الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعاً واقتنائاً .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في الموشحات والأزجال للنواجي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوافي بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُنَادِينَا مُحْكَمَا ، فِينَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازى ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الخفاجى وغيره ، وتلقانا عند المحبى موشحة بديعة لزين العابدين البكرى المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها ^(١) :

اعجبوا من حُسْنِ تلوينِ العيونِ تلکمُ حانَةً
بِأَبِي مُرِّ الْجَفَا بِالْدَّرِّ حَالِي
قَدْرُهُ قَدْ حَطَّ مِنْ قَدْرِ الْعَوَالِي
مَطْلَبِي مِنْ نَعْرِ كَثْرِ اللَّالِي

والموشح يسيل عذوبة ، وأنشد الجبرقى لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً ^(٢) عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة في الشعر المصرى ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما فى أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرّون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم فى الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ فى شعر ابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع فى قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) نفحة الریحانة ٥١٩/٤ والكاتبة : جمیع السهام أشار بها إلى سهام العیون . والعوالی : الرماح وتشبه بها قلدود النساء فى الاستواء والاعتدال .
(٢) تاریخ الجبرقی ١٩٨/١

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله ^(١) :

وشاعِرٍ شعره فنونٌ لكل يَتِ له طَنِينُ
تُسَخِّنَ عَيْنَ العدوِّ منه قصائدُ كُلِّها عِيُونُ

فقد ورى في كلمة عيون المراقبة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة . وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزنة ^(٢) . ومن يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة للعماد الأصمهباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات البديع على السنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاؤس في وصف مغن ^(٣) :

لا أَشْرَبُ الرِّاحَ إِلَّا ما بين شادٍ وشادنٍ
قُمْ يا نديمي فَأَنْصِتْ والليلَ داجٍ لداجِنٍ
طاوُغْ على القُصْفِ والعَزْ فِ كلِّ حاسٍ مُحاسِنٍ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريقة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف ^(٤) :

ومَهْنَدٍ سَبَحَ الفَرْنَدُ بِصَفْحِهِ وَطَفًا فَيَحْسَبُ مُعْمَدًا مَسْلُولا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ديب اللؤلؤ أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكم وتضمن بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس^(١) :

لام العواذل مغرماً في حبّ مُلهيةً وقينه
ولو آتته رأين تأثير الغرام به وقينه

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجدها مبنوثة في أشعارهم . ويذكر العباد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة^(٢) .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه^(٣) في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الايوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحبي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحماصي المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مدح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيع » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق)

الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد يما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد^(١) :

أيا ساكني مصرِ غداً النيلُ جارِكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشَّعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والثرِ
وسند كرنفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جواداً ممدحاً ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصب ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن طيبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مربنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ العللي الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويُظَلِّها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن^(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكندي أشعار متفرقة .

(١) فوات الوفيات ٢٣٦/١
(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

له يَدُ كَمْ خَلَلَتْ مِنْ يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بِأَنْوَالِهَا
انظُرْ إِلَى مِصْرٍ بِسُلْطَانِهِ تَرَى الْهَدْيَ فَاضٍ بِأَرْجَائِهَا

ومن شعراء الطولونيين المرمي^(١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خمارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دَائِمًا بِمِصْرٍ وَإِنِّى لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أَبُو الْجَيْشِ وَالنَّيْلُ الذِّى مَلَأَ الْأَوْصَا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . واطَّرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد^(٢) بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

يا مَلِكَ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى ثُغُورِ الرُّومِ وَالشَّامِ
وَالْيَمَنِ الْأَبْعَدِ لَا زَالَ [مُدَّ كُكُكُمْ] رَفِيعًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوجور وعلى ، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقبل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة . وكان كافور ممدحا ، فقصده الشعراء من كل فَجٍّ وفي مقدمتهم كُشَّاجِمُ شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمه وبعد زمنه وكان أول ما أنشدته يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاضي البقر) في المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاصى المذكور في النجوم الزاهرة ١٤١/٣ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع في المرمي المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا متفرقة له في الولاة والقضاء للكندى في أخبار خمارويه وفي مقالات عنه بمجلة المجلة : العدد ١٤٢ ومجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ في عددي آب وتشرين الثانى

قواصدُ كافورٍ تواركُ غيرهَ وَمَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السَّوَابِيَا
وغيرَ كثيرٍ أَنْ يزوركُ راجلٌ فيرجعَ ملكًا للعراقيين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يؤليه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق ليليل وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له ، وكاننا يجزلان العطاء للشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه ^(١) :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا تخيفُنا خطوبُ تشعبُ الأما

ولم يمِ بن المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرقعمق الأظفكي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زماناً طويلاً حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » ^(٢) وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدث بمصر من قصيدة في مديحه ^(٣) :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتلياً نَجَلُ العُلا وسليل السادةِ الصلّحا
مازلتُ مصرُ من كيدٍ يُراد بها لكنها رقصتُ من عدله فرّحا

وبلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريع ^(٤) الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنّاجة الدوح حسن المحاضرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريع الدلاء في تمة البيتية ١٤/١ وفي ابن خلكان ٣٨٣/٣ والعبر ١١٠/٣ والشرحات ١٩٧/٣

(١) راجع خطط المقرئ ٢٩٦/٢ وانظر في ابن أبي الجوع البيتية ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرّق وتفسد .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في أبي الرقعمق البيتية ٣٢٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشرحات

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا ، ومن كبار مدّاحه ظافر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصارى وسنترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله ^(١) .

أَيَامُكَ الْغُرُّ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا كَأَنَّ آصَالَهَا مِنْ رَقَّةٍ بُكَّرَ
أَخْمَلْتَ ذَكَرَ مَلُوكٍ كُنْتَ خَاتَمَهُمْ وَأَنْجَمُ اللَّيْلِ فِي الْإِصْبَاحِ تَسْتَرُّ
بَعْضُ الْوَرَى أَنْتَ لَكِنْ فُقَّتْهُمْ شَرْفًا إِنَّ الْحَجَارَةَ مِنْهَا الدَّرُّ وَالْمَدَرُّ
تَخَالَ رَاحَتَهُ وَالْمَشْرِفِيُّ بِهَا سَحَابَةٌ ظَلٌّ فِيهَا الْبَرْقُ يَسْتَعْرِ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رُزَيْك ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالت الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيهما الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليلى رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة التَّيْرُوزِ ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتنون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه . ويصور لنا ذلك المقرئى من بعض الوجوه في احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لهجده الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشدت وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين ، من ذلك ^(٢) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(١) الخريدة للعماد الأصهباني (قسم شعراء مصر) (٢) خطط المقرئى ٢/٢٥٣ .

فُتِحَ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّايَةُ الْبَيْضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفُّ الْإِمَامِ فَعَرَفُهَا الْإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء ، وبذلك ضيّعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمَنْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلتَّلِيلِ أَمْ لَكَ يَا بِنْتَ بَنْتِ مُحَمَّدٍ

فهلل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وخُلِعَ عليه وزيدٌ في جاريه . ومَرَّ بنا حديثُ النظرة التي بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشعراء وفي كل صُرَّة خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً لمديحهم ، وكأن ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتادون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرج ينشده في إحدى مدائحه (١) :

أَمَرْتَنَا أَنْ نَصَوِّغَ الْمَدْحَ مَخْتَصَرًا لِمَنْ لَا أَمَرَ نَدَى كَفَيْكَ يُخْتَصَرُ
وَاللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ نُجْرِيَ سَوَابِقَنَا حَتَّى يَبِينَ لَهَا فِي مَدْحِكَ الْأَفْرُ
فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزّيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس ينجم على الناس إذا بعدا الدين زنكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دثر جموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التي

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/٢ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصليبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون لأنهم أكتفوا منهم في القتل والأمر حتى كأن من يشاهد القتل يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتل ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأمير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصهباني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها ^(١) :

حططت على حِطَيْنَ قدرَ ملوكهم ولم تثبت من أجناس كفرهم جِئْسًا
بطون ذئاب الأوضي صارت قبورهم ولم ترَضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسًا ^(٢)
سبايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شَرِيتَ بَحْسًا وقد عُرِضَتْ نَحْسًا ^(٣)
يُطَافُ بها الأسواقُ لاراعِي لها لكثرتها كم كثرة توجب الوَكْسًا ^(٤)

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصيِّداء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر ^(٥) :

أُتْرِى منامًا ما بَعِثْنِي أَبْصُرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والْفَتْحُ الَّذِي وَعَدَ الرَّسُولَ فَسَبِّحُوا وَاسْتَغْفِرُوا
فُتِحَ الشَّامُ وَطُهِرَ الْقُدْسُ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْحَشَرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فلنأخذ - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُشَدُّ في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة . وتنبه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عرى بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يَكِيل لأهداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(٤) الكس : البيع بالخسارة .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة (١) :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ غَيْثُ غَوْثٍ وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كَرَامَةً
وَهَذَا بِشْرُهُ أَمْ لَمَعُ بَرْقٍ وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِ وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زَحَامَةً
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ عَيْدٌ لَدَيْهِ يَصْرَفُ عَنْ عَزِيمَتِهِ زِمَامَهُ
وَهَذَا التُّرْبُ أَمْ خَدٌّ لَكُمْنَا فَأَثَارُ الشِّفَاءِ عَلَيْهِ شَامَهُ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحب منهمر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيتته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خلدود يرى عليها آثار الشفاء التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخلدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدّموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولّوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنّى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول (٢) :

بِكَ اهْتَرَّ عَطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّي التَّضَرُّرِ وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الْكُفْرِ
وَمَا فَرَحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وَحْدَهَا لَقَدْ فَرَحَتْ بَغْدَادُ أَكْثَرَ مِنْ مِصْرِ
فَن مَبْلَغُ هَذَا الْهَنَاءِ لِمَكَّةٍ وَيُثْرَبَ يُنْهِهِ إِلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشّخّص مصطفى عبد الرّازق (طبعة سنة

(١) خزائن الأدب الحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصوّر تهلل الدين الخفيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تهتأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهتأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيُقتل توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المماليك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المماليك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطْر والظاهر بيبرس إلى غير مأب. ويُصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على المهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المماليك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوّض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقُّب الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يُنج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة (١) :

ولما ترامينا الفراتَ بِحَيْلِنَا سَكْرَنَاهُ مِنَّا بِالْقَوَى والقوائم (٢)
فأوقفتِ التَّيَّارَ عن جَرَيَانِهِ إلى حيثُ عُدْنَا بِالْغَنَى والعنائم

وكان الشعراء ينثرون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السَّراج الورَّاق من مدحة بديعة^(١) :

وشَيْدَها للعلم مدرسةٌ غداً عراقٌ إليها شَيْقٌ وشامٌ
ولا تذكُرْ يوماً نظاميَّةً لها فليس يُضاهي ذا النظامِ نظامٌ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بييرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومربنا
بناؤه لمارستان ضخّم وإحقاقه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلاً قصيدة فى مديحه بقوله^(٢) :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحَّح الأديان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلاً مغواراً فافتتح أيامه بمجهد حملة الصليب واستطاع فى أقل من
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم تبق لهم
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون
يهنون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنته
بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وقتاً شأواً ملوك الأعصر الأول

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعاراً مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية
المشهور^(٣) :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكاً
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدكّ الجبال دكاً

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعوا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص
٢٣١ .

(١) الخطط للمقريزى ٣/٣٤١

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

بن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي^(١) :

لا تعجبوا للمجانيقِ التي رَشَقَتْ عَكَا بنارٍ وهَدَّتْهَا بأحجارٍ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً هذى منازلُ أهلِ النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ .) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طَلَعَتْ سلطاننا تبدَّتْ بكامل السَّعدِ في الطلوعِ
فَاعْجَبْ لهاتيك كيف أبدتْ هلالَ شعبانَ في ربيعِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للأدب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار^(٢) :

للملك الأشرف المنصور سيِّدنا مناقبُ بعضها يبدو به العجبُ
له خلأْتُ بيضُ لا يغيِّرُها صَرَفُ الزمانِ كما لا يَصْدَأُ الذهبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتزُّ بالقاهرِ
والبشرُ قد نَمَّ وكل امرئٍ منشرجُ الباطنِ بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موثلا لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فسادا في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فسادا في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

(٢) النجوم الزاهرة ٨٣/١١ .

(١) فوات الوفيات ٨٦/١ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب الدُّسْت ، وفيها يقول ^(١) :

بُشْرَاكَ يَا مُلْكُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بفتح قبرسَ بالحسامِ المَشْرِفِ ^(٢)
فَتَحُّ تَفْتَحُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا من أجله بالتَّصْرِ واللُّطْفِ الحَنِي

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العثماني رضوان كتحدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأراجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإيكاوي ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها ^(٣) :

مَلِكُ سَعْدٍ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِه مَوْيِدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ
مَعْرُزٌ كَيْوسَفٍ فِي قَصْرِه عَلَيْهِ مَنْشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِه

ومن مداح رضوان قاسم ^(٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَفَّهُ الْغَيْثُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْبَيْسِ
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى ^(٥) السيوطي كلفا بأستاذة الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرقي : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،
والسيوف المشرقية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .

إمام الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبة عنها الثوابُ تقعدُ
وماشتَ قل فيه فأنت مصدّقُ مزاياه تقضى والمحسنُ تشهدُ

وأكثرُوا حيثُذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شرط
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهن على مر الحقب .

المهذب^(١) بن الزبير

هو الحسن بن علي الغساني ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري ، وبها ثقف علوم
العربية ، وأوى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى
نراه يتصل ببني الكثر سراً بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بدیعة يقول فيها :

لئن جهل المدائح طُرُقَ مديحكُم فإني بها من سائر الناس أعلمُ
وهل لي حمدٌ في الذي قلت فيكمُ ونُعماكمُ عندي التي تتكلمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبي إلى الزواج عن بلده إلى
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولحشى وزير الخليفة
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذي أنفذه في مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا . ولم
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولحشى طلائع بن
رزيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) . وكان يعد أكبر شاعر في زمنه ، وقد ترجم له العماد الأصمباني ترجمة
ضافية استلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن في زمانه أحد أشعر
منه ، وله شعر كثير ومحل في الفضل أثير » . والغالب على شعر المهذب المديح .
ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهي تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ في ترجمة
أخيه الرشيد وفوات الوفيات ١/٢٤٣ والنجوم الزاهرة
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٦٣ .

(١) انظر في ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر (قسم
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٢٠٤
ومعجم الأدباء ٩/٤٧ والنكت العصرية لعارة البني ص
٣٥ والطالع السعيد الجامع لأئماء الفضلاء والرواة بأعلى

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء ويتغنّوها ، وهي تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزلفى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى في سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حريبا أو غير حربي ، إنما يقرءون ملقا وتزلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رزّيك في الضرب الأول ، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين في العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفَرِّقهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانئ الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتنصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنّى بانتصاراته مبتهجا بمثل قوله :

لما أبوا ما في الجفان قرّبتهم	بصوارم سلّت من الأجفان ^(١)
وثلّلت في يوم العريش غرّوسهم	بشبا ضراب صادق وطعان ^(٢)
الجانّهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معا بحرّان
ولأنت تحضّب كلّ بحر زاجر	ممنّ تحارب بالتّجيع القاني ^(٣)
حتى ترى دمهم وخصرة مائه	كشقاتي نثرت على الرّحان
وكان بحر الروم خلّق وجهه	وطفت عليه منابت المرّجان ^(٤)

(١) الجفان : جمع جفنة وهي قطعة الطعام :

(٣) التّجيع : الدم . القاني : شديد الحرارة .

والأجفان : جمع جفن وهو غمد السيف .

(٤) خلّق وجهه : طيّب بالخلوق وهو الزعفران .

(٢) شبا : جمع شبة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دقّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب يلدّم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الریحان ، وكأن المتوسط قد خلّق وجهه وطيب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقي فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهْنَ بِالْغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلْنَ فَعَلَ كَوَاسِرِ الْعِقْبَانِ
وَأُتِنَتْ مُوقَرَةٌ بِسَبِيٍّ بَيْنَهُ أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ^(١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لرءوسهم عطفًا ولا حركة ، ويؤه بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبِرْنَسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَغْيِ وَالْعِدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَنَّا يَدُو عَلَى الْمَرَانِ^(٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بَلْ ذَاكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمّ بقتله ، وسجّنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لطفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَبِّعُ أَيْنَ تَرَى الْأَحَبَّةَ يَمَّمُوا هَلْ أَنْجِدُوا مِنْ بَعْدُنَا أَوْ أَتَهَمُوا^(٣)
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمِنَ الْفُؤَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْتَمُ

(٣) أنجدوا : دخلوا نجدا . أتهموا : دخلوا تهما .

(١) موقرة : محملة .

(٢) الجنّا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم
وتعوّضت بالأنسِ روحى وَحْشَةً
إني لأذكركم إذا ما أشرقت
شمسُ الضحى من نَحْوكم فأسلّم
لا تبعثوا لى فى النسيم تحيّةً
إنى أغارُ من النسيم عليكم

والآيات تعبر عن عاطفة الحب اللطافة وأنه لن ينسى أعباءه أبداً نزلوا نجداً أو نزلوا تهامة ، فهم فى سويداء فؤاده والوجد يبرّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر فى البيت الأخير عن رقة ورهافة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لى إلى ماءٍ سوى التِّلْ غَلَّةٌ ولو أنه - أستغفر الله - زمزم

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهى محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المذهب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتها بشيركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المحن لصلاح الدين وعمه شيركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المذهب فينظم شعراً كثيراً فى استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن قلاقس^(١)

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبى طاهر السلفى أكبر المحدثين فى عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أول الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان فى أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفى وله فيه مدائح بديعة مثبتة فى ديوانه من مثل قوله :

تفيضُ بحارُ العلم من كلماته
فإن كنت ظمآنًا فردْ خَيْرَ مَثَلٍ
فياأيها الحمودُ من كلِّ ناطقٍ
على كلِّ معنى فى قِنا كلِّ منزلٍ

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديماً بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر فى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشذرات ٤/٢٢٤ ومراة

تَحَسَّدَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ فَلَمْ تَرَلْ مَتَى الْقَادِمُ الْجَذَلَانِ وَالْمُتَرَحِّلُ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصداً للراجلين في طلب الحديث من كل بئاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ) .
واتصل بكتاب الديوان لعهد ومدهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرالمدائح ،
ومن قوله في إحداها متخلصاً من الغزل إلى مديحه :

يَارَبِّ خَمَرٍ قَمُهُ كَأْسُهَا لَمْ أَقْتَنِعْ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ
أَتَبَعْتُ رَشْفًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقُلْتُ : هَذَا زَمْزَمُ وَالْحَطِيمِ
فَافْتَرَّ إِمَّا عَنْ أَقَاحِي الرُّبَى تَضَحَكْ أَوْدُرَّ الْعُقُودِ النَّظِيمِ
أَوْ كَانَ قَدْ قُبِلَ مُسْتَحْسَنًا مَا جَبَّرَ الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبته كأس خمر ،
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقلبها وكأنه يقلب الحطيم المقدس . وضحكت فخال
أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظيم ، بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خَمَرُ
وأخلاقه قَرَحٌ وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .

وليس في شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهداً
مضطرباً أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فساداً شديداً ، مما جعل شاور يضطر مع
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا
الاضطراب الشديد الذى عانت به البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر في مبارحة مصر إلى
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الداهيين إلى الحج تنوياً
كثيراً بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا
لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .
على كل حال نفاجاً برحيل ابن قلاقس إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكده ينزل بها حتى
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفاً بديعاً ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها
الطبيعية فأنشد :

بلدٌ أعارته الحمامة طَوْقَهَا وكساه حَلَّةَ ريشه الطاووسُ
فكأنما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كثُوسُ

وتنقل في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجير ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دُبُج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره ، بمثل قوله :

ويمناك طَيْرٌ يُمنِ وسَعْدٍ أَصْفَرُ الظهرِ أَسودُ المنقارِ
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فالكُتُبُ بٌ به من كتابِ الأقدارِ

والبيت الثانى يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين فى صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتاباً سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائحه فيه ، واحتفظ العماد الأصباني فى ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفى ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هى شخصية القاضى على بن أبى الفتح بن خلف الأموى ، ويقول العماد إنه نوه به فى كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَذَقَ العلمَ الناظرة وحديقة الأدبِ الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك فى الفصاحة من أياذٍ ملكتَ بها الفَخارَ على الإيادى^(١)
تَحَذَرُكَ من صِقْلِيَّةٍ خِلِلا فكنتَ الوردَ يُقَطِّفُ من قَتَادٍ
وشِمْتُكَ بينَ أهلِها صَفِيًّا فكنتَ الجمرَ يُقَيِّسُ من زَنَادٍ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زنَاد صُلْد وهو وحده الجمر ، وكل ما فى الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالع فى مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنَا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرْدُنَا المدائحَ فاستقرَّتْ على أوصافِ جُرْدُنَا الوزيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب فى صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالى هنيئة ، كان يستمتع

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتثنين في نسق بديع من الحركات يقول :

وَمُعْنٌ تَنَاولَتْ يَدُهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرُقَ اللَّيْلِ لَوْ جَمَالًا عَلَى الْوُجُوهِ الصُّبَاحِ
يَبْعَثُ الرُّوضُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالُ التَّرْمَاحِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لاتزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ هـ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرًا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلَك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَاحُ بِنَا رِدُّوْا فَعُدْنَا إِلَى مَغْنَاكَ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وَجَاذَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقٌ يَقِيْمُنَا وَشَوْقٌ لِمُغْنِيْنَا عَنِ الْأَهْلِ يَقَعْدُ
وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرَاكَ رَوْضَةً وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعْمَاكَ مُورِدُ
فِيَا يَاسِرَا نِلْنَا بِهِ الْفَضْلَ يَاسِرَا وَيَا مَن وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ
دَعَوْتَ بِصَوْتِ الْجُودِ حَيَّ عَلَى النَّدَى لِأَنَّكَ تَرَوِي عَنِ بِلَالٍ وَتُسَيِّدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسر يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتدى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صوره وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سَوْدَاءَ وَهِيَ بَيَضَاءُ مَعْنَى نَافَسَ الْمِسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سُوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْرُ
وهي صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشعر وأن منه ما يذبل سريعا

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَذْوِي وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ^(١)

(١) زهر : نجوم ، كناية عن الخلود .

أو كالعيون فهذى حظُّها حَوْلُ يُعَصُّ منها وهذى حظُّها حَوْرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب
ثغر قوص على بحر القلزم ، وكأن الموت كان في انتظاره ، فلم يكد يترها حتى لَبَّى نداء ربه وهو في
الخامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء ^(١) الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك
السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كتّاب الإنشاء في
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيهما بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ،
وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُرب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة
بينهما حتى كان ينيبه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ
نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث
على السنِّي الكبير الحافظ السلفي أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً إلى كعبة الإسلام أو عِلَمَ العلمِ
إلى أحمد المحي شريعة أحمدٍ فلا عدمتُ منه أباً أمةُ الأمي

للحموى في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في
شعر ابن سناء الملك » بكتابتنا : « قصول في الشعر ونقده
وابن سناء الملك : حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر » ومقدمة
محمد عبدالحق لنشرته للديوان في الهند ، ونشره وحققه في
القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٩
والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان
٦١/٦ وعبر الذهبي ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن
المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البدائع لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكتب على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكتب على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعا نهائيا بذكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكرا فتفتح راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذة كاتباً بين يديه ، وأذن له ، وأضنى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفته . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتاب ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتوج رسائل الفاضل فيها بثناء غلب عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يحلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يُجمع بين الحسن والبخت » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقي للآباء ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلّدت ، فأرهفها مجرّدت ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وبهنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان ناثرا بارعا كما كان شاعرا مبدعا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالبا في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْءٍ وَسْئَى
ولم يكن القاضي الفاضل شيعيا ، بل كان سُنيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصحابه إلى نوم الخلق عن ثار الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنيته ، فإن مصرع الحسين يأسى له الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعا ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدَوْتُ فِي حُبِّي لَهُ مَتَشِيعًا مِنْ ذَا رَأْيٍ مَتَشِيعًا مَتَسَنَّا
وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعي غالٍ في تشيعه . ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبَعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَاهَا فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيذاً له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعا ، ولم يخص على بن أبي طالب بتنويه . ومربنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره . وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة بستانا ومرة فندقاً . وظل موظفا في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُعْدَقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفاً منعماً . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتدُّ للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابتنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامة المألوفة في ألسنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جداً ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحَجِّبِ وفي سوى العينين لم تُكسِفِ
مُعَمَّدةُ المُرْهَفِ لكنها تَفْتِكُ بالغَمْدِ بلا مُرْهَفٍ^(١)

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينها كسوف ، ونورها يغمر كل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينها لإطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسَّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعاً - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى يقول :

ووالله ما أَشْرَى الشَّامَ وَمُلْكُهُ وَغُوطَتِ الْخَصْرَا بِشَرِّينِ مِنْ شُبْرَا

فغوة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتره بشرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصيفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هى حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلاً في مراثيه لأمه وأبيه وجده وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلاً عن معاليه ليشهرها البدرُ في الأفقِ يستغنى بشهرته

ذاك الذى يُبْسَمُ الدهرُ العَبُوسُ بِهِ رَيْسَهَا وتَبْهَجُ الدنيا بِبَهْجَتِهِ
ونَحْسُ في مَدِيحِهِ بسعادته سعادة غامرة وهو يتحدث عن منزلته وأدبه وعلمه وشيمه في
إجلال وإكبار يفوقان الوصف . وأيضاً ما تمتاز به مصر من تعلق بالدين نجده مصوراً في أشعاره .

وأهم من استفاد مدائح صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق
جموعهم تمزيقاً ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه
للعرب تحت لوائه ، حتى ينقُضَ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بدولةِ الثُّرُكُ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وبابنِ أَيُوبَ ذَلَّتْ شِيعَةُ الصُّلْبِ
وفي زمانِ ابنِ أَيُوبَ غَدَتْ حَلَبٌ من أرضِ مصرٍ وعادتْ مصرٌ من حَلَبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربى . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين يتزل بهم الدمار ويأخذ
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حِطِّين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارا
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، وبهنى ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً :

لَسْتُ أَدْرِ بِأَيِّ فَتْحٍ تُهَنَّا	يا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ ما قد تَمَنَّى
أَنهْنِيكَ إِذ تَمَلَّكَتْ شامًا	أَمْ تُهَنِّيكَ إِذ تَمَلَّكَتْ عَدَنًا
قد ملكت الجَنانَ قَصْرًا فَقَصْرًا	إِذ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنًا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ يَنشأ	وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبَيِّنُ
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلَتْهَا حَمَلَاتُ خَيْلِكَ عَيْهًا ^(١)
لَمْ تَلَقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	لَكَ لاقِيَتِهِمْ بِلادًا وَمُدُنًا
وَتَصَيَّدَتْهُمْ بِحَلَقَةِ صَيْدٍ	تَجْمَعُ اللَّيْثُ وَالْغَزَالُ الْأَغْنَا ^(٢)

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .
(٢) الغزال الأغن : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها يصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبنين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداد أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائحه في القاضي الفاضل كثيرة حتى تُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها في مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الْأَنَامِ مَاءٌ وَطِينُ

وقوله :

وما الدهرُ إلا خادمٌ أنت ربُّه وما الخلقُ إلا عالمٌ أنت فاضلهُ

وقوله :

الدهر مدٌّ إليه كفٌّ مفتقر فددٌ للدهر منه لحظٌ محتقر
في كفِّه قلمٌ إن شئتَ أو قدَّر يصرفُ الخلق بين النفع والضررِ

وهو يكرر معنى البيت الثاني وبطيل فيه ، وله يقول :

بمِمْوْنِ رَأَيْكَ كَانَ الْفَتْوحُ وَمَنْصُورِ عَزَمَكَ كَانَ الْقَلْبُ
وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لا يَسْتَقِرُّ الْمَالُ فَوْقَ بَنَانِهِ حَتَّى كَأَنَّ بَنَانَهُ مَخْرُوقُ
يَاطَالِبِينَ ذُرَى عُلَاهُ تَوَقَّفُوا وَمُؤْمِلِينَ نَدَى يَدَيْهِ أَفِيقُوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجود ، ويحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحق ، يقول له :

شكركي لِنِعْمِكَ شَكَرُ الْأَرْضِ لِلْمَطَرِ أَوْ لَا فَشَكَرُ سَوَادِ الْعَيْنِ لِلنَّظَرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدة للغيث المدرار الذى يحى مواتها ، بل شكر سواد العين لنور
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهر على
الناس :

وقصّر البحرُ عنه فهو مكتئبٌ أما تراه بكفى موجو التّطميا
وولّتِ السحبُ - إذ جارتُه - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها أنسجما

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موج ، وإن الغيث
ليكى بدموع غزار لاتزال تنهمل . ونحسُ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحها للفاضل كما نحس خفة
الظل التى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضنّتْ بطرفِ ظلٍّ يُعْدى سقمُهُ رأيْتُم منْ ضنٍّ حتى بالضنا
إلى رأيْتُ الشمسَ ثم رأيْتها ماذا علىّ إذا هويتُ الأحسنا
وسألتُ من أئىّ المعادن ثغرها فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا
أبصرتُ جوهرَ ثغرها وكلامه فعلمتُ حقاً أن هذا من هنا

وضنَّ صاحبه بالطرف وعدواه وضنّها حتى بالسقم أو بالضنا غريب ، وتلطّف فى التخلص
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعدوبة
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أقْبِ على عاشقِك القيامةَ بورِدٍ لحدٍّ وغُصْنٍ لِقَامَةٍ
فمِنْ وَرْدٍ خدك كيف النّجاةُ ؟ ! ومن غُصْنٍ قدك كيف السلامةَ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ الغدائرِ غدرَها وأملئ عليه وهو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حَبائِلَ صَيْدٍ مِنْ ذَوَائِهِ فصادَ قلبى بأشْرَاكِ مِنَ الشَّعْرِ

وقوله :

لا تَحْشَ منى فإنى كالنسيم ضنّا وما التّيسيمُ بمخشى على الغُصْنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدُّهُ فَيَا عَجَبًا يَاقَوْمُ هَلْ يَقْلَقُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رِيَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نباتة^(١)

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويرجع أبوه مصر إلى الشام

(١) انظر في ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٣/٩ والوفاء بالوفيات للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والتجويد الزاهرة ٩٥/١١ وشذرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموي

مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مخطوطات كثيرة في مكاتب العالم العربي والقرى

حوالى سنة ٧١٠ وينزل دمشق ، يأخذ الطلاب عنه الحديث ^(١) ، ويستقر بها ويتولّى فيها بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حبّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو عبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حنينا متصلا بمثل قوله :

أَوِ لِمَصْرَ وَأَرْضَ مَصْرَ وكيف لى بديار مصرَ مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا في الأقربين مشاربًا وأصحابا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولته لا مثلُ دهري في دمشق محاربا

وفؤاده يهفو إلى مصروتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وجهه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتبا سنويا : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سَرَحُ العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجا لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطا . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزملاكانى وابن صَصْرَى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري ، وله فيهم جميعا مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السرى فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الوافى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر

طبيعيا أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحيانا يُعزل عنها وأحيانا يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقعا للدست وكانت قد تقدمت سنة ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدست ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَبْعُ الشعر عند ابن نباتة فياضا ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النباتي » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكظ بالمدائح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرما بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتابا سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم ، واستهل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا) ويورد دائما أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل موريا .

ومولع بفخاخ يمدُّها وشبَّاك
قالت لي العين ماذا يصيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ كراكي غزالاً للبدور يحاكي
فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنه ألم تنظره كيف صاد كراكي
والكرى : النوم ، والكراكي طير مفردة كركي . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلا :

فديتُك أيها الرامي بقوسٍ ولَحَظُ يا ضَنَّا قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك المجذاب وشيئهُ الشئ منجذبٌ إليه

ويقول الصفدى :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا فقال وقد رأى جَزَعِي عليه
عَقِيْقُ دَمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي وشيْهُ الشَّيْءِ منجذب إليه
وتشبيهه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبعي ، أما انجذاب الدم إلى الخَد وتشبيهه به فنافر منه بعيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والرشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزمكاكي بتائية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »^(١) . وأروع مدائحه ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد دَبَّح في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أنَّ للبحر جَدَّوَاهُ لفاض على وَجْهَ الثَّرَى بنفيس الدرِّ منصودٍ
ولو أمرٌ على صِلْدِ الصِّفا يَدَهُ لأنبت العُشْبَ منها كلُّ جُلُودٍ
ياحبذا الملكُ السارى على شِمْمٍ تُرَوَّى وتُنْقَلُ عن آباءه الصِّيد
أغنى العُفاة فلولا ناهياتُ تَقَى - أستغفر الله - سَمَّوهُ بمعبودٍ

وهو دائم الإشادة بحجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار مدّوه في أعلى السموات ولا يزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العالمُ الملكُ السيارُ سُوْدُدُهُ في الأرض سَيْرَ الدَّرارى بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بدتْ فعدتْ نعم السَّوارُ على الإسلام والسَّورُ
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورّى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمتُ ما الملك المؤيدُ في الورى إلا الحقيقة والكرامُ مجازُ
هو كعبةٌ للفضل ، ما بين التدى منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورى في كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المعبرُ ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز لإقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ معنٍ بجوده وننشى له لفظاً فيُنشى لنا معنا

ومعن بن أوس المزنى مشهور بجوده في مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنا المزنى .

وممدوحه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنته بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناك محاذك العزاء المقدما	فما عبسَ الحزونُ حتى تبسما
ثغورُ ابتسامٍ فى ثغورِ مدامعٍ	شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
مليكان هذا قد هوى لضريحه	برغى وهذا للأسرة قد سما
كان ديار الملك غاب إذا انقضى	به ضيعم أنشا به الدهر ضيعما
فإن يك من أيوب نجم قد انقضى	فقد أطلعت أوصافك الغر أنجما
وإن تك أيام المؤيد قد مضت	فقد جددت عليك وقتا وموسما
هو الغيث ولّى بالثناء مشيعا	وأبقاك بحرا بالمواهب منعمما

وعلى هذا النحو تمضى تهنته الأفضل جامعة بين التقيضين فى كل بيت : بين المدح والثناء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحده وذكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قَوْمٌ لَدِّكَرَاهِمِ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذَكْرِ مُلْحَقُ
الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَزَلُوا وَالنَّجْمُ بَعْضُ جُدُودِهِمْ فَلْيَرْتَقُوا
إِنْ يَبْقَ مَاضِيهِمْ عَلَى سُنَنِ الْوَفَا فَلأنَّهُمْ بِيَقَاءِ أَفْضَلِهِمْ بَقُوا
مَلَأَتْ مَوَاهِبُهُ الْقُلُوبَ مَهَابَةً فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقُ
وَكأنَّمَا أَقْلَامُهُ بِسَوَادِهَا غَرِبَانُ يَبْنِي فِي الْخَزَائِنِ تَبَعُ
لَا عَيْبَ فِيهِ سِوَى الْعِزَائِمِ قَصْرَتْ عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَهِيَ بَعْدُ تَحْلَقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضها مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غريان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق في أموالها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتقى محلقة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تخليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهى المرتضى كبارقٍ طار وصوبٍ قد هَمَّا^(١)
بيننا تراه ذاهبا لصيدو معتصما بأيده وكيده^(٢)
حتى تراه عائدا من أفقه ملتزما طائره في عنقه
وكلُّ صقيرٍ مُسْبِلِ الجناح مواصلُ الغدو والرواح^(٣)
ذو مقلّة لها ضرامٌ واقِدُ يكاد يشوي ما يصيد الصائد
كأنما الخلبُ منه منجلُ لحصد أعمار الطيور مرسل
وكل منسوبٍ إلى سلوق^(٤) أهرت وثاب الخطا ممشوق^(٤)
طاوى الفؤاد ناشر الأظافر ياعجبا منه لطاو ناشر
يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا ويسبق الوهم لإدراك المنى

(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصوب : المطر . هما : سال

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسبل : مرسل

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لدل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محملٌ بصور بديعة ، فقلة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادّة ويخطو بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمدح الأفضّل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

وممدوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدحه له الحرارة التي ألفتها في مدح الأفضّل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

يَانَا صَرَّ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَقَدْ نَفَذْتُ أَقْلَامُ مَدْحِكَ فِي الدُّنْيَا بِسُلْطَانِ
دَانَتْ لَكَ الْخَلْقُ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ وَفَاضَ جَوْدُكَ فِي قَاصِرٍ وَفِي دَانِي
هَذِي الْمَدَائِنُ مِنْ أَقْصَى مَشَارِقِهَا لَمُنْتَهَى الْغَرْبِ فِي طَوْعٍ وَإِذْعَانِ

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مدح نبوي رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدي محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدي قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحها بقوله :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ عَتَبٌ يَسُوءُنِي كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » السالف . وصنع ابن نباتة صنيعة فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فَطَمْتُ وَلَائِي ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَاتِبَا أَفَاطُمُ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَابْنُ نَبَاتَةِ كَثِيرِ الشُّكْوَى فِي شَعْرِهِ مِنْ بُؤْسِهِ وَرَقَةٍ حَالِهِ ، وَرَبَّمَا صَدَقَ ذَلِكَ عَلَى أَيَّامِهِ قَبْلَ لِقَاءِ
السُّلْطَانِ الْمُؤَيَّدِ الَّذِي غَمَرَهُ بَنَوَالُهُ ، وَرَبَّمَا كَانَ لِكَثْرَةِ عِيَالِهِ أَثَرٌ فِي ذَلِكَ ، بَلْ إِنَّهُ يَعْلَنُ هَذِهِ الْكَثْرَةَ
فِي مِثْلِ قَوْلِهِ :

لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عُمُرٍ عَجِيبٍ أَقْضَى فِيهِ بِالْأُنْكَادِ وَقْتِي
مِنْ الْأَوْلَادِ خَمْسُ حَوْلٍ أُمُّ فَوَاحِرِيَاءَ مِنْ خَمْسٍ وَسِتٍّ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى سته أو سيديته . وكان مرزاً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى إن كثيرين من أولاده توفوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثهم مراثى كثيرة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكافى : هو أشعر المتأخرين ولاسيما فى الغزاليات .

عبد الله^(١) الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام على وهيبه وتجلته عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاية مصر العثانيين ، وأهم وال ديج فيه مدائح عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحه له ، إذ يقول الجبرى عنه : « كان خيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الخمارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلاً المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصل الشَّهير
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحياناً معالمة بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمعت صوارمه بأرضي تسارعت العصاة إلى القبور
وإن حادثته في العلم تلقى بجوراً موجهها درّ التحور
وإن ساومته شعراً فحدث عن ابن أبي ربيعة أوجير
وإن تسمع تلاوته تجده حكى داود يلهج بالزبور
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور
وأنقذنا به من كل كرب وكف بعزمه أهل الفجور

ونسبح القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل
الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، ويتوه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره .
وقد مضى في القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسي
ونوابغ الكتاب من أمثال الحريري . وكثرت منذ زمن الماليك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية
والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها لعلى بن تاج الدين :

أذاك نغر تسم أم ذاك لطف تجسم
أم روضة قد تغنى شخروها وترنم
أم الصبا حين هبت أزال الهمة والغم
قد كنت أعتب دهرى وأحب الدهر أعقم
حتى رأيت عجيباً من فضلك الباهر الجم
فكل لفظك لطف وكل معنك محكم

والتقريظ طويل إذ نحول به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه
وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكاؤه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أميراً أو يتوفى هو أو
بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتاً في تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات في شطرها
الأخير بحساب الجمّل أرخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك في هذا
الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لحدّه
فصاح وخر مغشياً عليه وأصبح ساكناً في القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرخت : مات الشعر بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أَعِدْ خَبَرَ الْعُدَيْبِ وَسَاكِنِيهِ وَكَرَّرْ طَيْبَ ذِكْرِهِمْ عَلَيَّا
فَإِنَّهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه مايدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراثى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وملتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاء الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرّ بنا - ممّدحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصبغ بنحو شهر ، فبكاها الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارّ بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنا عزّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونخصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لنفر منهم ول بعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتُظَلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولحظاياه وعلى رعو سهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأغدقت الدولة على الشعراء إغداقا واسعا ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكأها الشعراء وبكوا آثارها

بدموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم ^(١) :

قِفْ وَفَقَّةً يَفْنَاءَ باب السَّاجِرِ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ ^(٢)

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيما إزعاج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثبته وفجاج ^(٣)

ولسعيد القاص مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي ^(٤) في كتابه الولاية والقضاة ،
واقطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرثى الشعراء للدولة وما كانت
أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا
من سكانه :

بالله عندك عِلْمٌ من أَحْبَبْنَا أم هل سمعتَ لهم من بعدنا خبرا

وتكاثر الشعراء - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يذكروها
حين دخل جوهر الصقلي مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك
إلى أن مدة الإخشيد لم تَطُلْ ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان
كافور مدير مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفي
فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا
شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسي بتعداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمي بقيادة
جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة
فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثى مختلفة لعيم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر
أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد
عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفي مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب
العزیز ، ولعيم مرثية في أخيه عبد الله مطلعها ^(٥) :

كل حَيٍّ إلى الفناء يصيرُ والليالى تَعِلَّةٌ وغرورُ

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وانظر الولاية والقضاة ص

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .
(٤) الولاية والقضاة ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان عيم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار

الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) الثبة : الطريق في الجبل ، والفجاج . الطرق .

ويكى شابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلم بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقدته ، وهو شئ طبيعي لتنجيته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويكى فيه الحسين الشهيد وآبائه الفاطميين . ويكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويكى بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يكيه بكاء مؤثرا قائلا^(١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوى ، ويصف موكب النساء اللاتي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمنهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالآثات واللوعات الممضية . وملتقى بالمسبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأُم ولده ، وفيها يقول^(٢) .

ويا ليتني للموت قُدِّمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وتكثر مرأى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن على التنوخي للمستنصر ، إذ يقول^(٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالأردى ولا أمرُهُ أمرٌ يقاسُ به أمرٌ
وقد بكت الخنساء صخرًا وإنه ليكيه من قَرطِ المصاب به الصَّخرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطي في مرثية^(٤) :

يا فجعَّة هي في الجنان مسرَّةً لقدمي تخال في عُرفاتها
إن كان في الدنيا عليه ماتم فأراه عرسَ الحورِ في جثَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم ييكها المصريون ولا ودَّعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عُمارة الغنّى الذى ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين عظم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصبهاني في رثائه (١) :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ
لو كان في عصر النبىِّ لأُنزلتْ في ذِكْرِهِ من ذِكْرِ آيَاتِهِ
ياراعيا للدين حين تمكّنت من كلّ قلبٍ مؤمنٍ روعَاتِهِ
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما رضوانُ ربِّ العرشِ بل صلواتِهِ

وهى مرثية طويلة فى مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده فى الدين واستبساله فى حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم فى الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعاً . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تغية آثار العزيز ويكيى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر (٢) .
وكم قد حَجَجْنَا فيكَ للمجدِ كعبةً وكم قد أَقْنَا فيكَ للحجِّ مَوْسِمًا
وكم قد وجدنا فيكَ رَافَةً رَاحَةً تَقْبَلُ إِذ تُعْطَى حَظِيمًا وَزَمْزَمَا
ولابن سناء الملك مراث مختلفة فى أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع فى أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى مضمّة ، وما يزال يندبه ويكيه قائلاً (٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بكِ بَدْرُهُ فما برحتْ فى الأرض تُكْسِفُ أَقْمَارُهُ

وبنفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا فى عينه ، وبحس كأنما كان فى فردوس معها من فراديس الجنان وأُخرج منه إلى غير أوبة يقول (٤) :

لهفَ نفسى عليك ياما بقلبي منك ياطول حسرتى وعنائى
كنتُ فى جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ منها واستعادَ العطاءَ ربُّ العطاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص ٣٢٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابة البرق الشامى .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بدوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللفظة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أورحمة ، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وآنسى من بعدها طولُ وحشتي وضاجعني في مضجعي بعدها كزني
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أَهَذَا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرُّطْبِ

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرُ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ
وَالْمَرْءُ كَالظِّلِّ وَلَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أيوب بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعِدَ اللَّيْلُ مِنْ سَحَرَةٍ دَائِماً يَبْكِي عَلَى قَمَرَةٍ
خَلَّ ذَا وَانْدَبَ مَعِيَ مَلِكاً وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّتِ الدنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور
قلاوون لمحى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة
والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .
(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤
وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم تُرديهم من رُعبه الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .

ومر بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى دُبج فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مراثيه :

نعى المؤيد ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدت عنا غَوَاديهِ
واروَعنا لصباح من رزيتِهِ أَظنَّ أن صباح الحشرِ ثانيهِ
ليت الحجام حبا الأيام موهبةً فكان يُفنى بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفدى الأَكْبَرُون بها فكانت الشُّهُبُ فى الآفاق تُفديهِ

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليلمح لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تفديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولا تهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة ^(١) :

أفى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غمدا ويدرُ أفق سماء العدل قد فُدا
وشمسُ نصرٍ عباد الله قد كُسفتْ ودولة العز ماتت بالذى لُحدا
كم قد أغاث فقيرا من ظلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هُدى
وتكثر مراثى العلماء الأعلام وتكتظ بمراثيم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول ^(٢) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلال الدين غوثُ الورى مجتهدُ العصر إمامُ الوجود
فيا عيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطري بالوقود

وبروى الجبرقى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وهـ

السيد حسين الإدكاوى قصيدة أشدت وقت الصلاة عليه مطلعها^(١) :

ما بين حرقة أدمعى وتولّهى نارٌ يُوجِّجها لهيبٌ تولّهى
يا أرضُ ميدى ياسماء تشققُ ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوّهى

والمبالغة واضحة في البيت الثانى

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيئارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها. ومن ضعة الحظوظ التى كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التى تعصف بهم ، من مثل قول
تميم بن المعز^(٢) :

أما والذى لا يملك الأمر غيرهُ ومن هو بالسّر المكنّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا لآعلانها عندى أشدُّ وآلمُ
صبرتُ عن الشكوى حياءً وعفّةً وهل يشتكى لدغ الأراقم أرقم^(٣)
وى كلُّ ما يُيكى العيونَ أقلّه وإن كنت منه دائمًا أتيسمُ

وكان تميم يعيش فى نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزیز الفاطمى . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التى كان ينفس بها عما يحجم فى دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكاوهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد^(٤) :

ولى همّة تبغى النجوم وحالة تصحف ماتبعيه فهو لنا ضدُّ
إذا رفعتنى تلك تخفضُ هذه فكلُّ تناوٍ فى إرادته الحد^(٥)
فما حالُ شخْصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحدٍ منها بُدُّ
تولتنى الأرزاء حتى كأنما قوادى لكفى كلُّ لاطمة خدُّ

فهتمته ماتزال تصعد به حتى يضافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٥) الحد : المنع .

(١) تاريخ الجبى ١٨٩/١ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقم : الأفران .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيقا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمالى طنطا ويقول العماد :
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له ^(١) :
لقد بكرتُ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبهُ احتيالى
وكم أدليتُ من دُلُو ولكنْ بلا بَلَلٍ يُردُّ على قَدالى ^(٢)
وكم علقتُ أطاعى رجاءً بخلْبٍ بارقٍ ووميضٍ آلى
ولا أنا بالكفافِ التَّزْرِ راضٍ ولا أنا عن طِلابِ الكُثْرِ سالى

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس فى يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع فى الكثير وكان حريّا به أن يرضى بالتزّر القليل .

وتخفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء فى زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا فى بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك ^(٣) .

يا خَيْبَةَ الحُرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حُرّاً
وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينيه يثرا
والخَلْقُ تُذْرى الدمع ما ء وهو يُذْرى الدمع جَمراً
وإذا تملكتِ اللسا مْ فإن موتَ الحُرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش فى بحبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات فى لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة فى ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى فى أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخفة الظل التى عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضربا من الفكاهة أحيانا على

(٣) الديوان ص ٣٢٨

(١) الخريدة ٤٦/٢ .

(٢) القذال : القفا .

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسنترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفلكاهة .
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر - كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيدي دعوة ذى حالة أحالها الدهر وعدوانه
تقليسه في الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حرأته
فارق أولاداً وأهلاً وما تحملت للبين أظعانه

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضعف وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يبتغى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوقى بسطة من الرزق . ويرد ابن نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن الماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضنى . وساعد على ذلك أن الماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا نقيمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغالا في البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن النضر^(١)

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن برى وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمدح الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(١) انظر ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت
أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء

مصر) للحماد الأصماني ٩٠/٢ والطالع السعيد ص ٢٢٠
والبيعة للسيوطي ص ٣٥٣ .

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعزُّز والتذلل مسلَّكٌ بادى المَنارِ لِعَيْنِ كلِّ موفِّقٍ
فاسلَّكهُ في كلِّ المواطنِ واجتنبُ كِبَرَ الأبيِّ ودَلَّةَ المتسلِّقِ
ولقد جلبتُ من البضائع خيَرها لأجلَّ مختارٍ وأكرم مُتَّقٍ
ورجوتُ خَفَضَ العِيشِ تحت رِواقه لابدَّ إن نفقتُ وإن لم تَنفَقِ
ظَنَّا شبيهاً باليقينِ ولم أخَلْ أن الزمانَ بما سقاني مُشْرِقٍ^(١)
لأفارعنَّ الدهرَ دون مروعٍ وحرمتُ عَزَّ النَّصْرُ إن لم أَصْدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خدعهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يسيما أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه ومما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه . وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتحان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِي لِلْمَلِكِ قَنَاعَةٍ لَوْ أَنِّي مُتَّعْتُ فِيهِ بِعِزَّةِ الْمُتَمَلِّكِ
وَلَكُنْتُ يَأْسٍ كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ لَوْلَمْ تَعِثْ فِيهِ الْخَطُوبُ وَتَفْتَلِكِ
أَلَيْتُ أَجْعَلُ مَاءَ وَجْهِهِ بَعْدَهُ كَدَمٍ يُهْلُ بِهَ الْحَجِيجِ بِمَنْسِكِ
لَا أَنْشَأُنِّي الْحَادِثَاتُ لِمِثْلِهَا وَرُمِيتُ قَبْلَ وَقْعِهَا بِالْمَهْلِكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كثر يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلى أغصن بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذلّه ،
ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ به ويا مفرجَ كَلِّ الكُربةِ الدَّاجي
قد أُرْتِجَتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ وجلَّ بِأُفْكٍ عن مَنعٍ وإرتاجِ
نخافُ عَدْلَكَ أن يجرى القضاءُ به ونرتجيك فكنْ للخائفِ الراجي

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ،
وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلق الله
عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرا واحتسابا إنها غمراتُ أيامِ تمرُّ وتنجلى
لا تيأسى من رُوحِ ربِّكِ واحذري أن تستقرى بالقنوط فتُحذلي

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذى يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف
عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تيأس من روح ربها
فإنه لا ييأس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يحيد الرثاء كما يحيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مثنوية بديعة في إبراهيم
ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المذهب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها
بقوله :

يامزُنْ ذا جَدْتُ الرِّشيدِ فقِفْ معي نَسْفَحْ بساحته مزادَ الأَدْمَعِ (١)
وامسَحْ بأردانِ الصِّبا أركانهُ كى لا يَلْمَ به شحوبُ البَلْقَعِ
وبودُ نفسى لو سَقَيْتُ ترابهُ دَمَ مُهَجَّتِي ووقيتهُ بالأَضْلَعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب المطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ،
بل ليسفحها معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكام الصِّبا أركانهُ ، حتى يظل
ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه
وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعهِ ، ويخاطب قبره مُلتاعا بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهى القرية .

لَتَنَفَّسْتُ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةً بَنَسِمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ
أَوْ مَا عَجَبْتَ لِطُودٍ عَزُ بِأَذْخِ مُسْتَوْدَعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ
وَلَحْدُ مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِبًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْيَرْمَعِ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رُبُوعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصَّبَا العطرة بمسك الرياض ذكى الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى التزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - ليمتلئ حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبية .

على بن عَرَام^(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل القسطنطينية ويأخذ عن علماءها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحسب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه أثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثلي مبارك بن متقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حيٌّ في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حنين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخَنِي عَنْ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الزُّلَالِ الَّذِي يَجْرِي
مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَيِّ ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ الْقَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من ماءها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يمانله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله ويضاهيه في نبه » . ويشيد به ويشعره العباد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ ^(١) اسحر . . ولابن عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام ^(٢) ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء ^(٣) نار الذكاء ضلرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدَامِه ^(٤) وممزوج مدامه حرام ، اعجب : بحرفي الصَّعيد ^(٥) يُقَصِّدُ بالتيمم لمانه ، ونجم في صعود السعود لا يَرْتَقِي إلى سماءه » . ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياة غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فِجَاجٍ
تَتَّبِعُ الحُلُوَّ من جَنَى عَيْشِهَا الحُلْدَ وَ يَمُرُّ من الرِّزَايا أَجَاجٍ ^(١)
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرْهِقُوا بانزعاجٍ

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلُو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومترهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مراثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لِسود الخطوب غَيْرَكَ يُجَلِّيهَا وقد غاب منك بدرٌ منيرٌ
مَنْ يَحْوُكُ القَرِيضَ مِثْلَكَ يُسَدِّيهَا على خَيْرٍ بِهِ وَيُنِيرُ ^(٢)
ليس في العَيْشِ بعد فقدك خَيْرٌ حَبَّذا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ
كان ظنى إذا المنايا انتحنتا أننى أولٌ وأنت أخيرٌ ^(٣)

(٦) أجاج : شديد الملوحة .
(٧) يسدى : من السدى وهو مايمد طولاً في النسيج .
ينير : يلحم أو يجعل له لحمه وهي مايمد عرضاً في النسيج
يريد أنه يحكم الشعر إحكاماً دقيقاً
(٨) انتحنتا : قصدتا .

(١) حسر : انكشف .
(٢) عرام : قوة وشدة
(٣) إذكاء : إيقاد .
(٤) الفدام : ما يوضع على قم الدن لتصفية ما فيه .
(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضاً وجه الأرض
والتراب

كيف لي بالسُّلُو عنه وطىُّ الـ قلب من فقدَه جَوَى منشورُ
فسَقَى قبرَه نداءُ ففيه لِشَراه غِنَى ورىُّ غَزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نذبه بتأينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعم فى دنياه وكل خير ، حتى ليتمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شائب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استلها بقوله :

الرَّدَى للأنام بالمرصادِ كل حَيٍّ منه على ميعادِ
كيف يُرَجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعاً على الأصدادِ
فإذا سرَّ ساء حَتَمًا وَيَقْضَى بوجودِ إلى بلى ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالحال من سخرية للزمان ، فإنه لا يبق للإنسان على شىء ، وحتى لو سره يوماً لساء يوماً أو أياماً ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المراثية قائلاً :

نحنُ فى هذه الحياة كسَفَرٍ ربما أُعْجلوا عن الإِروادِ^(١)
عَرَسوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدُّ فيهم مُنادٍ^(٢)
كم أبٍ والهِ بِكُلِّ بَنيهِ كم يتيمٍ فينا من الأولادِ
يدعى المرءُ لِمَرثَ أرضٍ ودارٍ سَقَها غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ
وهو موروثُها إذا كان يَبْقَى وهى تَبْقَى على مَدَى الآبادِ
وقُصَّاراهُ أنْ يَشيعَ مَحْمُو لاً بِأَكفانه على الأعوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في التمهّل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تتزّلها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح وبين أنيناً لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدراراً على أنبائه ، وأبناء أيتام يثنون ودموعهم لا تحفّ ولا ترّقاً على آبائهم وأمّهاتهم ، وكأنّما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها وملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرّ الدهور ، وما أعظمها عربة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغبرة محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَام

وَإِذَا الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَخُ
فَالْقُبُورُ الْبُيُوتُ مَضْجَعُنَا فِيهِ
كَمْ أَحَالَ الْبَلَى إِلَيْهِ قَدِيمًا
شَاهِدُ الْمَوْتِ لَائِحٌ فِي جَبِينِ الْـ

بَابُ رَاحُوا فَأَنْتَ فِي الْإِثْرِ غَادٍ
هِيَ وَمَا إِنَّ سَيِّئَ الثَّرَى مِنْ وَسَادٍ
جَسَدًا نَاعِمًا مِنَ الْأَجْسَادِ
حَيٌّ مَنَا فِي سَاعَةِ الْمِلَادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائع وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب^(١) : الحسن بن شاور الكناني

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ الدمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المخاضرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن
العقاد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب في
حل المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات
الوفيات لابن شاکر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشائل » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحاب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغلغلين في الغوص على المعاني الخائزين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه المثال والمثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتقة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحامى الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحفة روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُذْرِيُّ فاعذُرْنِي وسامخْ وجُرِّ عليَّ بالإحسان ذَيْلاً
ولما صِرْتُ كالجنون عِشْقاً كتمتُ زيارتي وأتيت ليلاً

وكلمة « ليلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبة « ليلي » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديته ، ورقة حسِّه ، وله غزل بديع سنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أياساكني مصر غدا النبلُ جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والتثرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطلُ آية السحرِ
ولا رِقَّةَ الشعر الذي كان أولاً وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر

ولإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه أثر العزلة مكتفياً بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلاً بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

مما مرّ بنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر ببيرس مع التتار على شطّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا اراثعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثير حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن	إلا	قطاعة	الأجناد	وبرايات	غرّ هذا	النادى ^(١)
نحن	إلا	حكاية	وخيال	وحديث	لحاضر	ولبادي
نحن	إلا	غسالة	لمراق	لقدور	تفرغت	وزبادي
نحن	إلا	زبالة	ضمّها الزب	ال	فوق	الأكوام للوقاد
جردونا	فما	قطعنا	فردو	نا -	وقد أحسنوا -	إلى الأغاد
وعرضنا	على	براذين	جيش	ما	استعدت	لحملة وطراد ^(٢)
ورماح	لم	تعتقل	لطعان	وسيوف	ما جردت	لجلاذ
فهى	لا فرق	في يد	الفارس	الكش	حان	منا أو في يد الحداد

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر ببيرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهمّا : ما نحن إلا نُحاة الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غسالة لمراق بل زبالة ، ولعله يبالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا رءوسهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخمة .

(١) القطاعة : النحاة كالبراية .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للزوال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرُّزْقِ يا ذا الذي مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرَ
أُفْطَتْ في العُسْرِ ولا بُدَّ أَنْ تنفَشَّ أو تندُقَّ أو تنكسرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفَشَّ وتفتح أغلاقه أو يندُقَّ أو يلكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجرَّدْتُ مَعَ فَقْرِي وشيخوختي التي تراها فنومي عن جُفوفي مشرَّدُ
فلا يدعى غيري ثيابي فلاني أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجردُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهَّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى يقول :

لا تَتَّقِ من آدميٍّ في ودائٍ بصفاء
كيف ترجو منه صفوا وهو من طينٍ وماء

فطبيعي - في رأيه - أن لا يُصْنَى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله^(١) الإدكاوي

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أمته ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبهر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحففى ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجة العصر يا مناج كلِّ علًّا يا مُحْيِيَّ الدين بالآثار والسُّنن

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانت سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجنونة ، وبضاعة الأريب في شعر الغريب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضًا تحميس بانت سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحِدُ من تفرَّد بالعطا فنائحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المقدامُ في يومِ الوغَى والمرهبُ الآسادِ في وثباتِهِ

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لَخِلْ إِنْ أَسَا وائْسَ لَخِلْ إِنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائتي قالت لنا بين الربا بمقدمات ما بها لهما^(١)
برهان سعدى الآن أنتج قائلا دغ وجنة المحبوب فهي ضرام

وله مرث مئة مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاه وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتفعج عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مضى عالم العصر الإمام لرثي حميد المساعي فاندبته وبالغ
وفي خاتمتها ينشد :

ولما قضى ذاك المذهب نحبه وآب برضوان من الله ساغر
دعوت أحبائي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخ نبكي المدابغي
ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحن وفي تلونه قد حارت القطن
ويختتمها بقوله :

والحور جاءتك بالبشرى مؤرخة حليت من حلل الأبرار يا حسن

ولم ينشد له الجبرقي شيئا من مرثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغي ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دنا يارفاق أجلى ثم هبتوا لي ثرابي
واغتدوا بي إلى محل به صح جى جفوني وليس يرجي إياي
هل إذا غربلوا التراب أيلقوا ذرة من عظمي فيالمصابي
وينح هذى الدنيا التي تحرق الأكاد باد قد مزقت بلحدي إهابي
وبذاك القفر اغتديت رهينا ليس لي من زاد ولا من ركاب

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيرون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكيها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازادا ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنبه الشعراء المصريين في زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخصه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجددها يخاطبه بقوله في إحدى مدائحه ^(١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحت في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضي في الديوان وفي قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه ^(٢) :

وهو لسان التقي ومقلته	وهو يمينُ العلا ويُسرّاهَا
صُورَ من جوهر النبوة إذ	كان الورى طينةً وأموها
فن يُطعمه يَفْرُ بطاعته	ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفافه . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً^(١) :

أنت المسمي المرجي قبل مولدو والخامس القائم المذكور في الكتب
وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالي وصي لسلفه كما قدر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سراً . ويقول تميم أيضاً في العزيز^(٢) :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تنهى فيك جوهره تناهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر
والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلاً ممثلاً للعقل الكلي الفعال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زوراً وبهتاناً . وتماماً يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى في قراءة ديوان تميم فنجدته يقول في إحدى مدائحه للعزيز^(٣) :

وإن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رَوَّه عن المختار جدَّهم الطهر

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

وتتم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جَلُّ شأنه : (عالم الغيب فلا يُظهر على غَيْبِهِ أحداً إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تباد في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هانيّ يتبادى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيرانيّاً ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانيّ ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وستترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى العماد الأصبهاني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً (١) :

إلى ذُرْوَةِ النُّورِ العَلَّائِيَّ إِنَّهُ إِلَى ذُرْوَةِ النُّورِ الإِلَهِيِّ يُنْسَبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهي الذي يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه (٢) :

صِرْفُ جَزِيَالٍ يَرَى تَحْرِيمَهَا	مَنْ يَرَى الْحَافِظَ فَرْدًا صَمَدًا
بَشَرٌ فِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ	مَنْ طَرِيقَ الْعَقْلِ نُورٌ وَهْدَى
جَلُّ أَنْ تُذَكِّرَكَ أَعْيُنُنَا	وَتَعَالَى أَنْ تَرَاهُ جَسَدًا
فَهَوَّ فِي التَّسْيِيعِ زُلْفَى رَاكِعٍ	سَمِعَ اللَّهَ بِهِ مَنْ حَمِيدًا
تُذَكِّرُ الْأَفْكَارُ فِيهِ نَبَأًا	كَادَ مِنْ إِجْلَالِهِ أَنْ يُعْبَدَا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصمدية ، وكان دعائهم يزعمون أن الله

ينبغي أن ينزه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلى الأول وأسماءه . ومربنا أنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثل الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسمائه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخشس يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعايتها ، إذ يُروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين ^(١) :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى فى كلّ وقتٍ بروزه تحيَّاته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع ^(٢) في مدائح بنى أبى أسامة كُتاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأمينى في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العباد الأصهبانى في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن ^(٣) رُزَيْك الوزير الفاطمى من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل على بن أبى طالب وبكاء الحسين أنشدتها صاحب «الغدير» وفيها يقول ^(٤) :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى
كيدى بكم مقروحة ومدامعى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لحنونى اجتنى لذيذ كراك ^(٥)
وابكى قتيلاً بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق بكاك

وهو يغلو في مديح على بن أبى طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحِّرت له رُحاء ، ويقول إنه

(١) خطط المقرئى ٢١٤/٢ .

(٢) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٣) الخريدة ٢٣١/٢ وما بعدها

(٤) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطف ٣٢٨/٢ .

(٥) كراك : نومك .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

ابن هانيء^(١)

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدى القائد المشهور فى زمن بنى أمية ووالدهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْح واليه بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية ، وكان من سلالتهم أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أدبيا نزع إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانهماك فى اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا فى ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية فى السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بدیعة بمثل قوله فى جعفر :

المشرقات النيرتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ النيرُ وجَعْفَرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ فى الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجج فى مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها فى صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع فى مدائحه ، كما أبدع فى مديح قواده وخاصة فى جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يُمّم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

اللسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدياء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبى ٣٢٨/٢ والشلرات ٤١/٣ ودبوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر فى ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطبع للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجلوة للحميدى : ٨٩ وبغية الملتبس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة

رَأَيْتُ بَعِينِي فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ وَقَدْ رَاعَنِي يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ
غَدَاةً كَانَ الْأَفْقَ سُدًّا بِمِثْلِهِ فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ

وَنَوَّهَ بِالْجِيشِ وَعِظَمَهُ وَرَحَلَهُ جَوْهَرَ الْمَظْفَرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ جَوْهَرَ أَنْ أَرْسَلَ إِلَى الْمَعْرِ يَهْتِفُ بِمَعْرِ مِثْلَهُ :
فَهْتَفَ ابْنُ هَانِيءٍ فَرَحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ فَقُلْ لِبَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَمُنْذُ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ تَصَاحَبَهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمَعْرِ أَسْبَابَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشِيعَهُ ابْنُ هَانِيءٍ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ لِأَخْذِهَا مَعَهُ وَاللِّحَاقَ بِهِ ، وَتَجَهَّزَ وَتَبِعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةٍ لَشَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَشِيعَ الْمَعْرِ بَلْ كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةٍ كَمَا ذَكَرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَعْرِ وَفَاتِهِ حَزَنَ عَلَيْهِ وَتَأَسَّفَ قَائِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ شِعْرَاءُ الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رُوعَةُ شِعْرِهِ فَحَسَبَ ، بَلْ كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَارِهِ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَفْرُطَةِ فِي الْغُلُوِّ الْفِرَاطِ بَعِيدًا حَتَّى لَتَنْحَرِفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ نَقَرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيءٍ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنْ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَانِيَّةٌ وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَالَوْنَ بِتَرْتِيبٍ إِلَهِيٍّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ وَأَنْ طَاعَتُهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ أَطَاعَتِهِمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانُ اللَّهِ وَمِنْ عَصَاهُمْ كَانَ مَالُهُ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِ :

إِمَامٌ رَأَيْتُ الدِّينَ مُرْتَبِطًا بِهِ فِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعَصِيَانُهُ خُسْرُ

وَهُمْ دَائِمًا مَبْرَأُونَ مِنَ الذُّنُوبِ مَظْهُرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلْ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاةُ فِي الْعِبَادِ ، يَضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتِهِمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُتِمُّونَ نُورَ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ يَشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِ :

وَمَا كُنْتُ هَذَا النُّورَ نُورُ جَبِينِهِ وَلَكِنَّ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مِشَارِكُ

وَيَكْرُرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَخَا لِلْمَعْرِ :

تَسْعَى بَنُورُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ لَتَضِيءَ بِرَهَانًا لَهُمْ وَتُلَوِّحَا
وَجَدَ الْعِيَانُ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا وَلَمْ تُحِطِ الظُّنُونُ بِكُنْهِهِ تَصْرِيحًا

وقد انتقل ابن هاني بنقله واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياهه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلاً :

أَتَبِعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصَوُّبٍ وَتَصَعِيدٍ
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَهَانٍ يُلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدٍ

وقد خطأ ابن هاني في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أروحا وجسما . وبالغوا فخلَّصوا - مثل ابن هاني - أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أونورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هاني يقول في المعز :

مَا شِئْتَ لَأَمَّا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيه أيضا :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذُّنُوبَ صَفُوحًا

فالمعز الواحد القهَّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعائهم وشياطينهم أن يزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبقوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يداينيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هاني في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتَكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحَرِّمُ مِنَ النَّاسِ يُحَرِّمُ

فمن شاء رزقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هاني فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَنَحْيَرَتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاقِ أَمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا يهيمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يهيمن ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأ فيه من أن الإمام ممثول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ له ولعلِّه ما كانت الأشياء

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفُها بما شئتَ من حَتَفٍ ورزقٍ مقسَّمٍ

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي يهيمن على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مَدْحَهُ كالمَدْحِ لله إِنَّهُ قُنُوتٌ وتَسْبِيحٌ يُحِطُّ به الْوَزْرُ

ويستضيء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم يتنظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنت نوحاً منذراً في قومهِ مازادهم بدعائِهِ تَضَلِيلًا

ويتمثل فيه قبس موسى وشعلته وهدهد :

من شُعْلةِ الْقَبْسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارتْ به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتْ خليفةً لدُعيتُ من بعد المسيح مَسِيحًا

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوت السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحل فيه ، بل لكأنه الله ، جلَّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلَّ بقرية رَقَّادة بجوار القيوان :

حَلَّ بِرَقَّادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِ وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، ولما لنأسي له حين سخر ملكاته الشعرية الخصب التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا يُعدُّ مسئولاً إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الحاططة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مسئولاً عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبِّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هاني يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَنَقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَيْتٍ وَأَمَدَكُمْ فَلَقَّ الصَّبَاحُ الْمُسْفِرَ
وَجَنَيْتُمْ نَمَرَ الْوَقَاعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ريحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيد^(١) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) أنظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية . وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحام بن

الهجرى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسعى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البوهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : « حَتَّى عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر محسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّن الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسّ خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُبُك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ويحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى « عانة » سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاء لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين قصير . وكتابه « السيرة المؤيدية » يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاله بمرتبة داعي الدعاة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعتها

في كتابه « المجالس المؤيدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعى اليمنى ، وعُنى بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطنى وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندى ودحض آرائه الإلحادية ^(١) . وله رسائل متبادلة مع أبى العلاء المعرى ناظره فيها طويلا فى تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتج من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت فى معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو فى مديح المستنصر الفاطمى وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطنى الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوى ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل فى القرآن على نحو ما خصَّ الله « الخضر » الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار فى تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفى ذلك يقول فى أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهِ ووَقْفها على الأئمة :

يا قومُ سِرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سِرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معى لن تستطيعَ صبرا
تدبروا القصة ماذا يحما من قصها إن لم تكونوا نوما

وكان كل إمام خضرُ زمنه ، وهو وحده الذى يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهى معرفة اختص الله بها الوصى الأول على بن أبى طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد فى الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هى العقيدة الفاطمية التى تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هانئ ، وقد مضى المؤيد وراءه يردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى ليجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجّون بأعداءهم فى الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنان والنار فيهم فلكل نصيبه الموجب

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتأدى فى هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر فى ذلك كتاب تاريخ الإلحاد فى الاسلام لعبد

الرحمن بدوى (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه القلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا آمَنُوا الْمَوْتَ
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبِيلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بَلَامِسْكَ دُلِّتَ وَوُجِّهَتَا
وَمِيزَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْفَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتَ وَفِيَّتَا
فَالْمُسْتَنْصِرُ وَأَمثالُه مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بِطَاعَتِهِمْ وَمَقْدَارُهَا يَكُونُ الثَّوَابُ وَبَعْصَانِهِمْ
وَمَقْدَارُهُ يَكُونُ الْعَذَابُ ، وَما يَزَالُ الْمُؤَيَّدُ يَرُدُّ مِثْلَ هَذَا الضَّلَالِ وَالْبَهْتَانِ فِي دِيْوَانِهِ .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى
تُسَبِّحُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَتَّبُوا فِي أَدْوَارٍ تَشْتَرِكُ مَعَهُمْ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ مِنْذَ آدَمَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُمَثِّلُ مِنْ
سَبْقُوهُ فِي هَذِهِ الْأَدْوَارِ مِنَ الْأُئِمَّةِ وَالرُّسُلِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ فِي الْمُسْتَنْصِرِ وَآلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الْعَتَرَةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بَدِئًا عَلَى آدَمَ	أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطُوفَانِهِ	أَدِيرَتْ عَلَى مَنْ بَقِيَ الدَّائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحَقَّتْ بِهِ النَّائِرَةُ ^(١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عُصَاةً فِرَاعِنَةً جَائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي	بِمَبِيعَتِهِ شَرَفَتْ نَاصِرَتُهُ ^(٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدٍ	وَلِيُّ الشِّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدَرٍ	وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصِرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةُ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجْهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرُهُ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم
الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

(١) النَّائِرَةُ : نَائِرَةُ الْحَرْبِ : شَرَاهَا

(٢) نَاصِرَةُ : بِلَدَةِ الْمَسِيحِ .

نعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيع المشفع في الآخرة ، وعلى أوحيد المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه أتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

ظافر^(١) الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكب الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سوت منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العباد الأصهباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعروفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحمّامياً ووراقاً وخياطاً وكحالاً . وقد

والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ و«في أدب مصر الفاطمية»
للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين
نصار ودويوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت
أمية في الجزء الأول من نواذر المخطوطات لمعاد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايات له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فلان ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداذاً كي يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ في أوصافك العالمَ واعترف النائرُ والناظمُ
من يكنز البحرُ له راحةً يضيق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال تَوَّا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال وأمرٍ تخطى له واعتَمَدَ
وأعجبُ به إذ بدا جاثماً فكيف اطمأنَّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ بسبابك هذا المنيف شباكاً فأدركني بعضُ شكِّ
وفسَّرتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البحارُ مكانُ الشبكِ

وكانت هذه الحادثة سبباً في اشتهاظ ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجبالى وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدمه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في القسطاط ، وأخذ يدبج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنابُ - الأفضلُ يُكِنُّى ذرى ظلِّه إني إذن لسعيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبّر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطاحى ، ولظافره مدحتان يشكوفيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاها من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيثئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًا ، وكان المأمون البطاحي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكبَّ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحتذيه ، يقول في إحدى مدائحه للأمر مصرحا بذلك دون أى مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِي فِي الْمَعْرِزِ مَدَائِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالْمَجْدُ
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فِيكَ لَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَى فَاسْتَوَى الْمَدْحَانِ وَالْإِبْنُ وَالْجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمِنْ عَاشَرَ أَحْيَاهُ نَدَاهُ وَمَنْ يَمُتَ عَلَى حُبِّهِ طَوْعًا فَسَكُنَهُ الْخُلْدُ
أَطَاعَتْهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دِيَانَةً فَمَا لَامِبْرِي لَمْ يَعْتَقِدْ حُبَّهُ رُشْدُ
فَطَاعَتْهُ فِرْضٌ وَخَدَمَتْهُ تَقَى وَنُصِرَتْهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قائلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبَدَّى لِلرَّوَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بِصَائِرُهَا الرُّمْدُ
وَنُورُكَ مَا يُهْدِي الصَّبَاحُ لِنَازِرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلَّ النَّاسُ وَامْتَنَعَ الْقَصْدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي يتنظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبنائهم وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للأمر :

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا بهِ آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثُولِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تَعْلِيلِهِ
ما زال يَتَنَقَّلُهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظُهرٍ مثلِ ذَبيحِهِ وخَلِيلِهِ
وتوارثته الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حتى حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بمبراهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، وما زال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل على وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعناية الإلهية والثَّغْفة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في المعز أنه جوهر الملوك وإنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في المعز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجد أنه يضيف إلى قيامة مديحه للأمر وترين لا نجدهما عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حُرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فرغهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للأمر ووتر الميراث النبوي أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لماما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صَوَّرناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حينئذ نجد ظافراً يمدحه مدحاً يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبة وتعصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ مخنف وراء الرماد ، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلاً :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نقلها
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلح ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أنهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

يا حُجَّةَ الله التي أبدتْ لنا بِكاملها الآياتِ والبُرهاننا

وكانما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها للمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هاني يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يعلَّ استظهاره قشوراً ، ردَّدها حيناً في مديح الأمر ثم كفَّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفواً .

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العباد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر .. حدَّاد لو أنصفُ لسميَّ جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حرياً ، أهْدَى بِرَوِيَّ شعره

الرَّوَى لِلْقُلُوبِ الصَّادِيَةِ^(١) رِيًّا ، فياله ناظما فصيحاً مفلحاً جَرِيًّا^(٢) . وحقا شعره غاية في السلاسة والعذوبة ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائماً في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحياناً ولكن في خفة ورشاقة . ودائماً تلقانا عند ظافر العذوبة والرقّة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلاً :

ياساكفى مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْذِماً من قلبهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيراً إلى صور طريقة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَةً فنهْ على وَجَّتَيْهَا سِمَةً
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضاباً لكى تُوهِمُهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم إغراقاً يروع قارئه ، وسنشد له قطعة من غزله في الفصل التالى ، ونكتفى بصورة واحدة من صوره الحاملة العجيبة للدل على هذه المقدرة البارعة ، وهى صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بُنيَّةَ الهرمين وأنظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعمَّارَتَيْنِ على رحيلٍ لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النِّيلِ تحتهما دموعُ وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهى صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحاملة ، فالهرمان كأنها عمارتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهيم تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تتحب وتئن أنينا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تغنى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يبدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلدع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو حليم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِّم حتى من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدى ويعيد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحسانا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصيرين وعرضه فيه كثير مما يلدّ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما سزاه واضحا عند ابن النيه والبهاء زهير .

ونجّل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبداً في قلوب الشعراء ، فهم دائماً يَصْلَوْنَهَا وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفرق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني^(١) .

فَتَكَاتُ طَرْفَةً أَمْ سِوْفُ أَيْكَ وَكُتُوسُ خَمِرٍ أَمْ مَرَّاشُ فَيْكَ
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتَكُ مُحَاجِرٍ مَا أَنْتِ رَاحِمَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ
يَابِئْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكِ أَمْ مَعْنَاكِ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكَرَى أَلْقَاكِ أَمْ وَادِيكَ
قَدْ كَانَ يَدْعُو خِيَاةً طَارِقًا حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
مَنْعُوكِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوَا فُلُو عَثْرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُّوكِ

وهو لا يدري كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أيها ، وإنها جميعاً لتصبيه في الصميم دون أى رافة ، وإنه ليائس يأسا شديداً من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائها ورؤيتها في الكرى والأحلام ، وبألم المأ شديداً ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبست خائفاً منهم حلداً ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسى والتياغ ، يقول^(٢) :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى وَحَلٌّ مِنْ وَصْلِهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِدَا
حَتَّى رَمَى الْبَيْنُ بِالتَّفْرِيقِ الْفَتْنَا فِي الصَّدْرِ لَمْ يُبْقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدًا
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى تَجَرَّى وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدًا
قَالَتْ وَعَبَّرَتْهَا مَخْلُوطَةٌ بِدَمٍ أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رَوْحًا وَلَا جَسَدًا
لَا تَطْلُبِ النُّطْقَ مِنِّي بِالسَّلَامِ فَمَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينعب بالفرق ، فيلتاع لوعة تستعر بين جوانحه ، ويتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدراراً مرسله

(١) ديوان ابن هاني (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاساً حارة ملتبة ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوحة هذا الفراق لمحباته في الديوان مراراً بمثل قوله (١) :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُه والبين صعبٌ على الأحباب موقِعُه
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ مافيه وأضْلَعُه
كأننى يوم ولّت - حسرةً وأسَى - غريقٌ بَحْرٍ يرى الشاطئ ويُمْنَعُه

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، ونحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتميم يبادلها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه ليذوب حسرةً وأسَى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولاً إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدراان الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ اسمَحْ لى بتقبيلِ أعيش به قالت : وأىُّ محبٍّ قَبْلُ القمرَا
ومرَّبنا فى ترجمة ظافر الحداد أن له غزلاً رقيقاً يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهى قصيدة غزلية ، تجرى على هذا النمط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَاذُهُ ماسَحٌ وابلٌ دمعُه ورَدَاذُهُ
من كان يرغبُ فى السلامة فليكن أبداً من الحَدَقِ المراض عِيَاذُهُ
لا تَخْدَعَنَّك بالفتور فإِنَّهُ نَظَرٌ يَضُرُّ بِقَلْبِكَ اسْتِلْذَاذُهُ
يا أيها الرِّشَا الذى مِنْ طَرَفِهِ سَهْمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُهُ
دُرٌّ يلوح بِفَيْكِ مِنْ نِظَامِهِ خَمَرٌ يجولُ عليه مِنْ نَبَاذِهِ (٤)
وقناةُ ذاك القَدِّ كيف تقوِّمُ وسِنَانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولاذُهُ
رِفْقاً بجسمك لا يذوبُ وإننى أخشى بَأَن يَجْفُوَ عليه لاذُهُ (٥)

(٤) النباز : صانع النيد

(٥) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملأ صورته النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حبِّ القلوب وسويدائها ، ويخال دُرّاً ملء فيها ويتساءل من نظمه في هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخمر حقيقية ويتساءل من التباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبتة واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتُّخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة . وإن جسد صاحبتة ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه وراهاقه . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكه فيه ^(١) :

عَتَبَ وَلَكِنِّى لَمْ أَعِ وَأَيْنَ مَلَأَمَكَ مِنْ مَسْمَعِ
وَمَا قَدَرُ عَتَبِكَ حَتَّى يَزِيلَ غَرَامَا تَمَكَّنَ مِنْ أَضْلَعِ
وَمَا دَامَ لَوْمُكَ إِلَّا وَائِدَ تَقْدِيرُ أَنَّ جَنَانِى مَعِ
مَضَى كَى يودَّعُ سُكَّانَهُ غَدَاةَ الْفِرَاقِ فَلَمْ يَرْجِعْ
فَوَادَى فِي غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَخُذْ فِي مَلَامَتِهِ أَوْدَعَ

والقطعة توج برقة الحسن ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتهر بهما أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجدانى الصافى الذى سنعرضه عند ابن التيبه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يعثفوا بلائيمهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود اريق .

وربما كان من تنمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الديماطى يتغزل بجمارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظنُّ من قبح السواد ، يقول ^(٢) :

وعاذلٍ مُحْتَفلٍ مجتهدٍ في عَزَلٍ
 يلومني في ظَنِيَّةٍ مخلوقةٍ من كُحْلٍ
 إن السَّوَادَ عَلَّةٌ من نورِ هذى المُقَلِّ
 والحَجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغيرِ القُبَلِ
 والقارُّ - مذ كان - وعاءُ السَّلْسَبِيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تردان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المنبثق في الكون ، وإنه ليزكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقييله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذها في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يستنون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير ^(١) :

إذا أحرقت في القلب موضعَ سُكناها فن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثَواها
 وما الدمعُ يومَ البَيْنِ إلا لآلئُ على الرَّسْمِ في رسمِ الديارِ نثرناها ^(٢)
 وما أطلعَ الزَّهرَ الربيعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلَّاهَا
 ولما وقفنا للوداعِ وترجمتُ لعينيَ عما في الضمائرِ عَيْنَاهَا
 بدتْ صورةً في هيكلي فلو أننا ندينُ بأديانِ النَّصارى عبدناها

وهو يشكو من النار التي دلعتها صاحبتة في قواده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلم سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعيث جماها بفؤاده ، حتى لتبدوله وكأنها صورة في هيكلي تقدَّم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري ، إذ يستحيل وجدًا وصباة ورقة وخفة من مثل قوله ^(٣) :

هُمْ نُصِبَ عَيْنِي أَنْجَدُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا^(١)
 فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ
 تَرَكَوا الْمَنَازِلَ وَالْدِيَارَ فَهَلُمَّ إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ
 وَاسْتَوْطَنُوا الْبَيْدَ الْقِفَارَ فَأَصْبَحْتُ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِي وَهِيَ قِفَارُ
 فَلَنْ غَدَتْ مَصْرٌ فَلَاةٌ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجَوَازِ الْفَلَا أَمْصَارُ^(٢)
 أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَلِي مِنْ بَعْدِهِمْ جَارَانُ : فَيُضِ الدَّمْعُ وَالتَّذْكَارُ
 وَالْدهرُ لَيْلٌ مَذْ تَنَاطَتْ دَارُهُمْ عَنِّي وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارُ

إنه لن ينسأهم أبداً مهما أنجدوا أو غاروا ومهما أنصفوا أو ظلموه ، لقد
 فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم
 منزلاً عظيماً ، لا تزايله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبيب . وينظر إلى الديار والمنازل
 حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها قفرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة
 فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جاره في قفره الحَرْبُ إلا جاران : تذكّارهم ودموعه المنهلة
 التي لا ترقأ أبداً ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلماً داجياً ، فقد أخذوا معهم
 كل شيء حتى النهار وضياءه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله^(٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بُعْدُكُمْ مِثْلَمَا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا
 لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدُوَّةَ أَيِّ شَيْءٍ صَنَعَ الْدهْرُ بِنَا
 وقوله^(٤) :

أَحِبَّابُنَا مَا بَالُكُمْ فِينَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَغْدَى
 وَحَيَاةُ وَدُّكُمْ وَتُرْبَةُ وَصْلِكُمْ مَا خَنَتْ عَهْدًا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري ، فالوصل مات وقبر
 والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُرْبَتهم أو قبورهم - بتربة الوصل العزيز
 وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ١/٢١٩ .

(٤) الخريدة ١/٢١٤ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أي

نهامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة ^(١) :

يأربُ إن قَدَّرْتُهُ لِمُقَبَّلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسْوَكَ أَوْلَاكُوسِ
ولن قضيتَ لنا بصحبة ثالثٍ ياربُّ فليكَ شمعَةٌ في المجلسِ
وإذا قضيتَ لنا بعين مراقبٍ في السرِّ فلتكُ من عيون التَّرجسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعته تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يحنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله ^(٢) :

يأطرفُ مالك ساهداً في راقِدٍ ياقلبُ مالك راغباً في زاهدٍ
من يشتري عمري الرخيصَ جميعه من وصلك الغالي بيومٍ واحدٍ
عائبته فتوردت وجناته والقلبُ صخرٌ لا يلينُ لقاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا تكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واجد ، وعائتها فتضرجت وجناتها بالحنجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلتن له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله ^(٣) :

تُرى الحنيني أو حنيني الحائمِ جرت - فحككت دَمْعِي - دموعُ الغائمِ
وهل من ضلوعٍ أربوعٍ ترحلوا فكلُّ أراها دارساتِ المعالمِ
لقد ضعفتُ ريح الصبا فوصلتها فبنيَ لامنها هبوبُ السَّائمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدرى أيحاكي السحاب في قطره المثل حنينه للمتاع أو هو يلي

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحائم وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سمائم لافحة .

ونلتقى بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يموج بوجود لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيارا ، مهما تأبّت عليه محبوبته ومهما صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمِهِ أنا أحنى عليه من قلب أمّة
ضنّ عنى بريقه فتحيدُ تلى إلى أن سرقته عند لثيهِ
وإلى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فمى حلاوة طعمه
إن قلبى لصدده ورقادى ملك أجفانه وروحي لجسمه
يكسر الجفنَ بالفتورِ ومالى عملٌ عند كسره غير ضمه

والأبيات تموج بالعدوبة والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوّه عليها حنوّ الأم . ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شيء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحي الكسر والضم عند النخاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعم المشوق وأنعم المشوق فالعيش كالخضر الرقيق رقيق
خضر أدير عليه معصم قبلة فكان تقبيل له تغنيق
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا حدود العشاقين طريق
فرشوا الحدود طريقه فكأنما زفرائهم لقدمه تطريق (٣)
وأفى وصبح جبينه متنفس وأنى وجيد رقيب مخنوق

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويراً بديعاً ، فقد سعد العاشق الوهّان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجيئها المشرق إشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله ^(١) :

سَعِدْتُ بِبَدْرِ خَدِّهِ بُرْجُ عَقْرَبٍ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمٍ
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحُ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَحَ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لَوْمِي
وَلَا سِيَّأَ لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِي كَفَضْلَةٍ صَبَّرَ فِي قَوَادٍ مَتِّمٍ
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بِغَوْدٍ أَرَاكِي تَعْلَقُ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْءُ مَبْسَمٍ ^(٢)
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثَمٍ مَبْسَمٍ شَهْيٌ لِقَلْبِي لَثَمَ آثَارِ مَسَمٍ ^(٣)
بَكَيْتُ بِكَلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدْ فَاتَ عَيْنِي مُتَمِّمٍ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول النجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصع برهان له عند لاثميه ، أنصع من الصباح في وضوحه وضياؤه . وقد مرّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوهّان ، وبأن له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لآلئه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يكيه حتى دمت عينه الغوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يذوب لطفاً ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتمل في غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن ، من مثل قوله ^(٤) :

فَتَنَّتْنِي مَكْفُوفَةٌ نَاضِرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(٣) النسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الجبيلة .

(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) مبسم : ثغر

فَهْيَ لَمْ تَسْلُلِ الْفُتُورَ حُسَامًا لَا وَلَمْ تَحْمِلِ اللَّحَاطَ بَيْنَانًا^(١)
وَهْيَ يَكْرُ الْعَيْنَيْنِ مُحْصَنَةً الْأَجْ فَاِنْ مَا افْتَضَّ مِيلُهَا^(٢) الْأَجْفَانَا
قَصَرْتُ عَشَقَهَا عَلَى فَلَمْ تَعِدْ شَقَّ فَلَانًا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فَلَانَا
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَخْتَا رَ عَلَى مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا
عَمِيْتُ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِنْ سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْلَى الْمَكَانَا
عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ أَنْ تَسْمِيَ غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنته بحسنها ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وستان اللحاظ ، ويصفها ببيكاره العينين وظهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يس ميل الكحل عينيها ، وإنها لتفرده بالحب إذ لم تروم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحي والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينيها ، فنحنت عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو يحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتساوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصدأوه الواسعة في غزل الشعراء ، فأنفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله^(٣) :

قَلَدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جَيِّدَ مَوْدَعِي دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) اللحاظ : مؤخر العين ممالي الصدغ . العين .

(٢) الميل : المكحل أو المروء وهو ما يوضع به الكحل في . (٣) فوات الوفيات ٢٣٦/١ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى
 يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم طيبَ الحياةِ فى البقا لا تطمعى
 هيات يرجعُ شملُنا بالأجرع ويعود أحبابى الألى كانوا معى^(١)
 بحياتكم جودوا على تكررًا فعسى خيالكُم يلمُ بمضجعى
 فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم وتضرمتُ نارُ الأسى فى أضلعى
 يانا زحين فهل لكم من عودةٍ نزعَ التفرُّق ما بقى من مدمعى
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا هلكت من شوق وفرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانه فيها صبره وتجلبده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أورجة تردُّ إليه روحه وتردُّ عنه أوجاعه من الحب الملهب وأوصابه .

ونلتقى بقى الدين^(٢) السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لركة انسجامه وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أنعم بوصلك لى فهذا وقتُه يكفى من الهجران ما قد دُقتُه
 يا من شُغلتُ بحبِّه عن غيره وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقتُه
 بالله إن سألوك عنى قل لهم عبدي وملكُ يدي وما أعتقتُه
 أوقيل مشتاقُ إليك فقل لهم أدرى بذا وأنا الذى شوقْتُه
 يا حسنَ طيفٍ من خيالك زارنى من عظم وجلي فيه ما حققتُه
 فضى وفى قلبى عليه حسرةٌ لو كان يمكننى الرقاد لحقتُه

وهو يتضرع لحبويه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذللًا له إنه عبده وملك يده ولن تُردُّ إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

١/ ٤٦٦ : خزنة الأدب للحموى (طبع يولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكبد بحققه أو يتحقق منه حتى قرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاده قليلا حتى يشفى منه غلة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزانته على هذه الأبيات بقوله : « ما نفثات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر الحبايب مع حلاوة التقييل عذوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قَصْدَ الْحِمَى وَأَتَاهُ يَجْهَدُ فِي السَّرَى حَتَّى بَدَتْ أَعْلَامُهُ وَقِبَابُهُ
وَرَأَى لِلَّيْلِ الْعَامِرِيَّةَ مَتَزَلًا بِالْجُودِ يُعْرِفُ وَالنَّدَى أَصْحَابُهُ
قَدْ أَشْرَعَتْ يَبْضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا مِنْ حَوْلِهِ فَهُوَ الْمَنِيعُ حِجَابُهُ
وَعَلَى حِمَاهُ جَلَالَةٌ مِنْ أَهْلِهِ فَلِذَاكَ طَارِقَةُ الْعَيُونِ تَهَابُهُ
كَمْ قُلِّبْتُ فِيهِ الْقُلُوبُ عَلَى الثَّرَى شَوْقًا إِلَيْهِ وَقُبِّلْتُ أَعْتَابُهُ

وهو يرمز لصاحبه بليل العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ البيد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليلي المتصلة حتى بدت أعلام حياها وقبابه أOXيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آمليين أملا يائسا في أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجي فخر الدين بن لقمان كاتب بيرس وفلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله ^(١) :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّي بِكَ مَغْرَمٌ رَاضٍ بِمَا فَعَلَ الْهَوَى الْمُتَحَكِّمُ
وَلَنْ كَتَمْتُ عَنْ الْوَشَاةِ صَبَابِي بِكَ فَالْجَوَانِحُ بِالْهَوَى تَكَلَّمُ
أَشْتَاقُ مِنْ أَهْوَى وَأَعْلَمُ أَنِّي أَشْتَاقُ مَنْ هُوَ فِي الْفَوَادِ مَحْجَمُ
يَا مَنْ يَصُدُّ عَنِ الْحُبِّ تَدْلُلًا وَإِذَا بَكَى وَجَدًا غَدَا يَتَبَسَّمُ
أَسْكَنْتُكَ الْقَلْبَ الَّذِي أَحْرَقْتَهُ فَحَذَارٍ مِنْ نَارٍ بِهِ تَتَصَرَّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنهل الصافي لابن تغري بردى (طبع دار الكتب

يكنمه بينا جوانحه تنطق به وتعلنه ، ويعجب أن يشاق صاحبه ويود لقاءها ، بينا هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لتمن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبسم . ويحذرهما من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللب . فقد أسكنها قلبه الذى أحرقت ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مندلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله ^(١) :

أهلاً بطيف على الجرعاء مُختَلَسٍ والفجرُ في سَحَرٍ كالنَّغَرِ في لَعَسٍ ^(٢)
والنَّجْمُ في الأفق الغربي مُنْحدِرٌ كشُعْلَةٍ سقطت من كَفٍّ مُقْتَبَسٍ
ياحِبُّدا زَمَنُ الجرعاء من زَمَنِ كُلِّ الليالي فيه ليلةُ العُرسِ
وحِبُّدا العيشُ مَعَ هيفاءٍ لو برزتِ للبدر لم يَزُهُ أو للغُصْنِ لم يَمِسِ
محروسةٍ بشعاع البيض ملتَمَعاً ونورٌ ذاك الحَيَّا آيةُ الحرسِ
يَسْعَى وَرَا لَحْظَهَا قلبي ومن عجبٍ سَعَى الطَّريدةِ في آثارِ مفترسِ
ليت العذولَ على مَرَاى محاسِنِها لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بالحرسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذى رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجريت تلج في الآفاق المظلمة تبليج الثغر في لعس الشفاء ، والنجم يسقط في الأفق الغربى منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالى الجرعاء المفرحة فرح ليالى العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيبته التى لورآها البدر لغضٍّ من زهوه ولو رآها الغصن لغضٍّ من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها مُتَمَعَةٌ محروسة بسيف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذى يُشِعُّه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضيائها أحال عيني العذول عشوائين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثر من الغزل النواجي ^(٣) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكيت في الخمر والتدماء وآدابهم ، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجرى ، توفي سنة ٨٥٩

٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني

١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار

المعارف) ص ٢٧ . ويदार الكتب المصرية مخطوطة من

ديوانه . ومن كتبه « عقود اللآل في الموشحات والأزجال » .

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .

(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد

الشفة .

(٣) انظر في النواجى وشعره الضوء اللامع للسخاوى

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خَلِيلِيْ هَذَا رَبِّعُ عَزَّةَ فَاسْعِيَا إِلَيْهِ وَإِنْ سَأَلْتُ بِهِ أَدْمُعِي طَوْفَانُ
وَجَفَنِيْ جَفَا طَيْبَ الْمَنَامِ وَجَفَنُهَا جَفَانِيْ ، فَيَاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ الْأَجْفَانِ

ونغضى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني الملتاع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرَّجه
وتلميذه يحيى^(١) الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بَدَا بِوَجْهِ جَمِيلٍ الْوَصْفُ وَالشَّانُ يَقُولُ : سَبْحَانَ مَنْ بِالْحَسَنِ وَشَانِي^(٢)
كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ غَنَاءُ مَزْهَرُهُ مِنْ دَمْعٍ عَاشَقَهَا تُسْقَى بَغْدُرَانِ
أَشْبَهْتُ فِي حُبِّهِ وَرُقَّ الْحِمَى فَعَدَا كُلُّ يَبِثِّ الْجَوَى شَجَّوًا عَلَى الْبَانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،
والخذ بالورد والشقيق والعين بالزرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه ييث جواه شجوا على أغصان البان وهو ييثه
على مَنْ قَامَتَا نَحَاكِي قَامَةِ الْبَانِ . ونُحْرَجُ عَلَى يَدِ الْأَصِيلِي يَوْسُفَ^(٣) الْمَغْرِبِي ، وغزله كغزل أستاذه
يسيل عذوبة من مثل قوله :

جَعَلُوا الصَّبَاحَ مِبَاسِمًا ثُمَّ الظَّلَا مَ صَفَائِرًا ثُمَّ الرَّمَاحَ قُدُودًا
وَالْوَرْدَ خَدًّا وَالْغُصُونَ مِعَاطِفًا وَالْبَدْرَ قَرْنًا وَالْغَزَالَهَ جِيدًا
وَرَأَتْ غُصُونُ الْبَانِ أَنْ قُدُودَهُمْ فَاقَتْ فَأُضْحَتْ رُكْعًا وَسَجُودًا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي
والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة في رشاقة الموسيقى وجمال
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي رباعية الألبا ٣٧/٢ وما
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيل رباعية الألبا ٣٨/٢ وسلافة
المصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .
(٢) وشاني : زيني .

عقيق دمعى غذا فى الجزع كاللبيم
 وانهل منسجا من نار مضطرم
 ظبى نفور أنيس ناعس يقظ
 إن أرض يغضب وإن أقرب نأى صلفا
 مهفهف مابت للغصن قامته
 وإن تبسم ما برق بكاطمة
 ما فيه عيب سوى تغير مقتلته
 مُذْ بَانَ سَكَانُ بَانِ الْحَيِّ وَالْعَلَمِ
 مَلَانْ وَجَدًا إِلَى خِشْفٍ بَدَى سَلَمِ
 بِاللَّيْلِ مَتَشِحٍ بِالصَّبْحِ مُلْتَمِ
 وَإِنْ أَذَلَّ يَتَهُ بِالْعَزِّ وَالشَّمِ
 إِلَّا اتُّنَى ذَابِلَ الْأَوْرَاقِ ذَا ضَرَمِ
 لَهُ وَمِضُّ يَحْلَى دَاجِيَ الظُّلَمِ
 وَفَتَكُهَا فِي قَوَادِ الْمُدَنِّفِ السَّقَمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال ييكنى حتى اختلط دمه بالدم القانى وتناثر فى الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بُعد سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بها من شجر البان ، وإنه ليكنى وأحشاؤه تضطرم بوجد مزبح إلى خشف أو ظبى من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبى نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازور عنه وإن قرب منه نأى يجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشما أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق التماعا فى الليالى الداجية . ويجعل عيه الوحيد فتور عينيه الذى طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وتفتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج فى خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

ابن النيه (١)

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقا بديعا وطبع طبع حجر فى القرن الماضى . وطبع الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) بيروت .

(١) أنظر فى ابن النيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وغرر الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وتفتحت ملكته الشعرية ، وورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعى الأدباء فى عصره ، وفى ديوانه مدائح مختلفة له ، ولىضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البىانية ضَمَّنَ جميع آيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها فى قوافيه بقوله فى مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُودِ إِلَّا قَلِيلاً ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكَمُ تَرْتِيلاً
وَوَصَلْتُ الشَّهَادَ أَقْبَحَ وَصَلٍ وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَمِيلاً

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَبْ بالقصيدة ، فلم يَعيِّنْ فى دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعيِّنْ فى دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولى شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفى بن شكر . ويبدو أن صداقة انعقدت حيثئذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرها سنة ٥٩٨ اصططحه معه واتخذته كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى فى بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرقّة لموقعها على الفرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار فى حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل فى سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورٌ وِنَارُ الحربِ موقِدةٌ وَأَنْتَ موسى وَهَذَا اليَوْمُ مِيقَاتُ
أَثْلَجَتْ صدرَ رسولِ اللهِ وانكشَفَتْ عَنْ سَرَحَةِ الدِّينِ والدُّنْيَا غَامَاتُ
اللهِ أَكْرَمُ أَنْ تُمْسِيَ مِزَامِرَهُمْ تُتْلَى وَتُنْسَى مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتُ

وهو يستغل اسمه فى مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته فى الطور ، ويذكر فى القصيدة أن عصاه تلفقت كل ما أفكروا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسبيًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بخزى لا يماثله خزى .

ويدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبتهجة يتمتع فيها بالرياض ومحالس الأنس والطرب حتى وفاته بنصيبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هناة لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حنينه يتفرق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكثياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضى المقدسة في المدينة المنورة الذى طالما تغنى به شعراء الصباية والحب الملتاع :

يَا بَارِقًا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجَنَهُ مَنْزَلُنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَكَنَهُ
وَمَرَبُوعُ اللَّهْوِ يَانِعُ خَضِيلُ أَمْ غَيْرَ الدَّهْرِ بَعْدَنَا دِمْنَهُ (١)
يَا تَرُقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنَى وَمَهْجِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَهُ
بَلَّغْ حَدِيثَ الْحِمَى وَسَاكِنَهُ لِمَغْرَمِ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ
أَشْقَى الْمُحِبِّينَ عَادِمٌ وَطَرًا فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ
سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الْقَى سَلَفَتْ كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقَرَنَهُ
لَوْ بَعِثَ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ كُنْتُ بِعُمُرَى مُسْتَرَحْصًا ثَمَنَهُ

وابن النبيه فى أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يعتلج فى أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادى النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مريع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أَمْ غَيْرَ الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهاً مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضناً وسقماً ونحولاً متمنياً لو يسمع شيئاً بطمئنته عن الحمى وساكنته . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المقتون الذى عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتخنى لوحج لى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إلهه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضياً بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبيه بذلك يصور تصويراً رائعاً تعلق المصريين فى غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمعهم إلى جرعة من نيله فى ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ فى ديوان ابن النبيه أحسننا بوضوح أنه يمثل فى غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدمثة والرقّة وخفة الظل لا فى موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضاً فى تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلماً يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجدانى سام ، دون

(١) خضيل : مبتل ندى . الدمن : جمع دمنة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لغزله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن ^(١) لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْلَيْدِهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَىٰ أَوْضِيْعًا مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَىٰ أَنْ أَصْنَعَا
مَنْ لَمْ يَذِقْ ظُلْمَ الْحَبِيبِ كَظْلَمِهِ حُلُوًّا فَقَدْ جَهِلَ الْحُبَّةَ وَادَّعَى ^(٢)
يَا أَيُّهَا الْوَجْهَ الْجَمِيلَ تَدَارَكَ الصَّبَّ النَّحِيلَ فَقَدْ وَهَىٰ وَتَضَعُضَعَا
هَلْ فِي قَوَادِكَ رَحْمَةٌ لِّتَنِيْمٍ ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ قَوَادًا مَوْجَعَا
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي أَوْ أَشْتَكِي بَلَوَايَ أَوْ أَتَضَرَّعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيَّعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحمده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتالا ، ويسترحمه لو هن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبث شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقلُ جمالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطْلُ فَمَنْ جَفَنَيْكَ أَسْيَافُ تُسَلُّ
يَزِيدُ جَالُ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلِي جَسَدٌ يَذُوبُ وَيَضْمَحَلُّ
وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ
إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ تَرَى مَاءً يَرِفُّ عَلَيْهِ ظِلُّ ^(٣)
وَقَدْ يَهْدِي صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا بَلِيلُ الشَّعْرِ قَدْ تَاهَا وَضَلُّوا

وابن النيه يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفניה وأن تبقي عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

(٣) الذوائب : ضفائر الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الفناء الصنعاني للدكتور محمد عبده

غانم (طبع دار الكاتب العربي ببيروت) ص ١٧٧ .

وترداد كل يوم دلالة وإعراضا . وماذا يبصر ؟ إنه لا يبصر إلا جمالا فاتنا وجسدا ساعرا رقيقا رقة الماء يهتز عليه من الشَّعر ظل ناضر باهر . ويقول :

ياساكفى السَّفح كم عَيْنٍ بكم سَفَحَتْ نَزَحْتُمْ فَهَىَ بعد البُعْد قد نَزَحَتْ
لَهْفَى لظِيَّةٍ أنسٍ منكمْ نَفَرَتْ لابل هي الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ
يَبْضَاءُ حَجَبُهَا الواشون حِينَ وَشَوْا عَنى ولو لَمَحَتْ صَبِغَ اللَّجَى لَمَحَتْ
يَقْتَضُ من وَجَّتِيهَا لَحْظُ عاشِقِهَا إن ضَرَجَتْ قلبه باللَّحْظ أوجَرَحَتْ
مَنْ لى بِسَلْمَى وفى أَجْفَانِ مُقَلَّتَا للحرب يَبِضُ حَدَادُ قَطْ ما صَفَحَتْ
وَأَسْوَدُ الخَالِ فى عَمْرٍ وَجَّتِيهَا كِمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فى جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفى القطعة جناس بين « السفع وسفحت » بمعنى صبَّت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و « نزحت » العين بمعنى نفذ دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و « وشوا » فى البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و « محت » فى آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر فى قياس الأنغام ، وهو فى أول القطعة يشكو لساكفى السفع من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفَّت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظلية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضئية على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتص بالانظر إلى وجنتيها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهى مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فك عينها الساحرتين ، ويتصور الخال فى خدها الوردى كجئة من المسك تعلقت بحمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذى يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى الله ما أَحْسَنَ شقيقًا حَفَّ بالسَّوْسَنَ
خُدودُ لَنَمُهَا يُبْرِى من الأسقام لو أمكن
فما تُجَنِّى وحارسُها يَقْفُلُ الصَّدْغُ قد زَرَقْنَ^(١)

(١) زرقن الصدغ : جعل الشعر المسدل على الخلود كالخلفة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حَرَقِ لَنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبتة واحمرار خدودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بنخصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خدودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خدودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خدودها قفلا كالخلفة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يذوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتفائه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكَمْ أَسْكَنَ محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقتة وأنت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَّا وَبِإِضَى مَبْسُوكِ النَّقَى	وَسَمَرَةٍ مِسْكَةِ اللَّعْسِ الشَّهِي ^(١)
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي	وَأَعْطَشْنِي وَصَالُكَ بَعْدَ رَيِّ
إِلَى كَمْ أَكْتَمُ الْبُلُوبَى وَدَمْعِي	يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْخَفِيِّ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي	فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنْ الْخَلَى
تَغَاذَلْنِي وَتَزَوَى حَاجِبِيهَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنْ الْقَيْسِ
وَتَحْتَرَقُ الصَّفُوفُ بِرَيْقِ فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَذَى الْمَسْكِ الشَّدْيِ
يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجْهِهَا	كَمَنْعِ الشُّلُوكِ لِلرَّوْدِ الْجَنِيِّ ^(٢)
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَفُهُ بِعَيْنِي	تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرَعَى وَيِّ ^(٣)

وابن النبية يُقَسِّمُ لمحبوبته بمبسمها الفاتن وسمرة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد رَيِّ ، ويقول إلى كَمْ أَكْتَمْتُ مخنق في الحب ودمعى يَبُوحُ بسرى وإلى كَمْ أَشْكُو للآهية غنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجي من الخلى . ويَعْجَبُ أنها تغاذله أو تمدله أسباب الغزل ، بينما تقطَّب حاجبيها وتزوى ما بينهما ، ويلتمس لها عذرا ، فكان حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لها كالقوس ووترها من الشد والجذب في أثناء الرمي

(٣) وي : ونعيم .

(١) اللعس : سواد الشفة .

(٢) شبا القنا : حد الرماح .

بالسهم والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجها يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبيه من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبتة بما يحميها من الرماح تذود عن وجتها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائنه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشغفه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني يموج باللهفة والظما واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الوهّان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتنازع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبيه في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وغذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجر شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبيه نزيل دياره حين كان الحاجر لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصلى الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتنازع يستضيء فيه بابن النبيه أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :
أَيَّ دَمْعٍ مِنْ الْجَفُونِ أَسَالَهُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَهُ
إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبيه :

بَدْرٌ يَمُّ لَهُ مِنْ الشَّعْرِ هَالَةٌ مِنْ رَأْيٍ مِنَ الْحَبِينِ هَالَةٌ^(١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النبيه أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافى أساليبه السلسة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه الملىء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدماء واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصبابة

(١) هالة الأولى : دائرة القمر . وهالة الثانية : من هالة

الشيء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

البهاء^(١) زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، انتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بني أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حجّها خامس ذي الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلاً صالحاً يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »^(٢) وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفياً أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكاً بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تَذَكَّرْتُ عَهْدًا بِالْمَحْصَبِ مِنْ مِئَى وَمَادُونِهِ مِنْ أَبْطَحٍ وَحَجَّوْنِ^(٣)
مَنَازِلُ كَانَتْ لِي بَيْنَ مَنَازِلُ وَكَانَ الصَّبَا لَمَنِي بِهَا وَقَرِينِي

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهي منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خذنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولي شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ . وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتاً من قصيدة مدح بها جلّده التقوى وإلى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضاً بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والتجويد الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ،

٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و « البهاء زهير » :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبدالرازق . وقد طبع ديوانه

بمكبرج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلرم مع مقدمة وتعليقات ،

وطبع في القاهرة مراراً وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق

ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجار بمنى . والأبطح :

أبطح مكة وهو واديه . والحجّون : جبل بها .

الدين إسماعيل اللطى يهته فيها بولايته على أعمالها ، وأُعجب به اللطى فأتخذه كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ومحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيه منشداً فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبَّيْكَ يَا مَنَ لَا مَرَدَّ لَأَمْرِهِ . وَإِذَا دَعَا الْعَبُوقُ لَا يَتَعَوَّقُ^(١)
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّنَقُ
سَجَدْتُ لَهُ حَقَّ الْعَيُونِ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة وهناك بها . وينتقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والعلی بجباله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيشِ وَبَرْقَةٍ مِنْ الْعَيْثِ هَطَالُ الشَّايِبِ هَتَانُ^(٢)
بِلَادٌ إِذَا مَا جَسَّتْهَا جَسَتْ جَنَّةٌ لَعَيْنِكَ مِنْهَا كُلَّمَا شَتَّ رِضْوَانُ
تَمَثَّلَ لِي الْأَشْوَاقُ أَنَّ تُرَابَهَا وَحَصْبَاءَهَا مِسْكٌ يَفُوحُ وَعَقِيَانُ^(٣)
فِيَا سَاكِنِي مَصِيرِ تُرَاكِمِ عَلِمْتُمْ بَأَنِّي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُوانُ
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ يَنِينَا قَتَدًا أَحْشَاءَ وَتَرْقًا أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العروق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٣) حصباها : حصاها . العيان : النعب الخالص .

(٢) الشايب : جمع شؤبوب وهو دفعة المطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادی من شرقه إلى غربه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادی جميعه فردوسا لا يشبه فردوس و ترابه و حصاءه مسكا و ذهابا خالصا ، وهو لا يسأل أهله ولا ينسأهم أبدا و يتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشأؤه الموجهة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن و يتزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهدده ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبيلًا ففجع - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمِلَ من هناك في محفَّة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عَزَلَ البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن القمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عَزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقيل : قَبْلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رَفْده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِهِ ومَرَّه بعد حُلُوه إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالقسطنطينية والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعنه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودمائة السجايا . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياة سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح حين صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بمُتَع الحياة وطرح المهوم عن عائق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ
مثل ما تَفَنَّى المسرُّ ت كذا تَفَنَّى المهومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمدُّ منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنى بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعَرِّض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الايوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يَشْرِكُه فيه - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلْس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادى في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أى صعوبات ، وعلى نحو ما يجرى النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرا به . وكما أن الوادى ينطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس

طُبعت على اللين والركة والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن التبيه . ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خُلِق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عذوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفيا أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكرا - وتدور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتبارحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبه في حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستبقى بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعا ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن ستحدث عنهم في غير هذا الموضع بثّوا في أشعارهم وجدا لا ضفاف له ، وكأن البهاء زهير استمد جذوة من هذا الوجد المبرّج نشر شررها في غزله . وكثيرا ما نعرثر عنده على أبيات تصور تأثره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد الحب بالمحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إليك المشتكى أنت العليم بحاليه

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعطفا ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلت نار الحب في قواده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

غیری	على السلوان	قادر	وسوائی	في العشاق	غادر
أشکو	وأشکر	فعلهُ	فاعجب	لشائئ	منه شاكر
لا تنکروا	خَفَقان	قَدْ	حي	والحيب	لدى حاضر
ما القلب	إلا	دارهُ	ضربت	له	فيها البشائر
يا لیل	طل	ياشوق	دُم	إني	على الحالين صابر
لی	فيك	أجر	مجاهد	إن	صح أن الليل كافر

والقصيدة في ديوان البهاء زهير ، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور ، وفي رأي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني ، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث ، وإن اختلف المترعان في الفكرة ، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحجوب . وفي البيتين : الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد السر . على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير . ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا ، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول :

لها خَفَرٌ يَوْمَ اللِّقَاءِ خَضِرُهَا فَمَا بِأَلْهَا ضَمَّتْ بِمَا لَا يَضِيرُهَا (١)
أَعَادَتْهَا أَنْ لَا يُعَادَ مَرِيضُهَا وَسِيرَتُهَا أَنْ لَا يُفَكَّ أَسِيرُهَا
وَهَا أَتَذَا كَالطَّيْفِ فِيهَا صَبَابَةٌ لَعَلَى إِذَا نَامَتْ بَلِيلُ أَزُورُهَا
مِنَ الْغَيْدِ لَمْ تَوْقَدْ مَعَ اللَّيْلِ نَارُهَا وَلَكِنِهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ تُشِيرُهَا
يَقَاضَى غَرِيمُ الشَّوْقِ مِنْ حُشَاشَةٍ مَرُوعَةٌ لَمْ يَبْقَ إِلَّا يَسِيرُهَا

والصور في القطعة دقيقة فَخَرٌ صاحبته أو خجلها وحيائها يحرسها يوم لقائه ، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها ؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها ؟ . وهو تضرع وتوسل لطيف . ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا انجيلا . ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طبيا حقا وزارها في المنام وتضاعف الأحلام . وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله . ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه . ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبها مفرغة . وفي القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف ، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها . ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة ، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله :

(١) ضمت : بخلت .

تَعِيشُ أَنْتَ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مَتَّ عِشْقًا
 حَاشَاكَ يَانُورَ عَيْنِي تَلْقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقًا
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَمَلِ إِلَى مَتَى فَيْكَ أَشَقَى
 لَمْ يَبْقَ مِنِّي إِلَّا بِقِيَّةٌ لَيْسَ تَبْقَى
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنِّي (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرفقة واللفظ مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يانور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ السَّيُّومُ تَعَارَفْنَا وَنَطَوَى مَا جَرَى مَنَا
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَثْبِ فَبِالْحَسَنِ
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجَعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورقّة ودماثة ، ودائمًا تجرّ في غزله هذه الرقّة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصَّروا مَدَّةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمَرَكُمْ
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محلكم من فؤادى لسركم
لو وصلتكم محبتكم ما الذى كان ضرركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبه مظهراً لها ما يحتمله من الصبر وجهده ، لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحerman . وهو لا يتحرج من إعلان تذلل فى الحب ، بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حباً زان فيك عبادتى وإن كان فيه ذلة وخضوع
أصلى وعندى للصبا رقة فكل صلاتى فى هوالك خشوع

فغزله فيها ليس شعراً فحسب ، بل هو أيضاً صلاة وتراويل يقدمها لمن شغفت قلبه حباً ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فُتّن به ، بل الذى عبث به حق جعله يعبد محبوته ، يقول :

لى حبيبٌ عبدتهُ ويَحَ مَنْ يعبدُ الوثنَ

وكأنه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبداً ، فقد ظل يُتشد تراويل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزانته من حوار^(١) له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرّون فى الغزل من أصداف التشبيهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقاً آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجرع » وقال له : أنشئ أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلاً وأنشد : « سقيتَ غيثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل ملّت من طربى ملهى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوي الشاعر الموصل الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونصّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلاوي قصيدة^(١) في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثيره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ وَلَكِنْ أَفقٌ قَلبي مَحَلُّهُ غَزالٌ وَلَكِنْ سَفْحُ عيني عَقِيقُهُ^(٢)
على خَدِّه جَمْرٌ من الحَسَن مُضَرَّمٌ يُشَبُّ وَلَكِنْ في قَوادي حَرِيقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

ابن^(٣) مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذة رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عين حاكم قوص مجد الدين اللمطي البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليستند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استلها بقوله :

لَكَ اللهُ إِنَّ العَفوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَمِثْلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ

٢٨٥/٦ ورمّة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن الحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ . وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعددة في المدينة

ونجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومَرَّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَا صَرَ الدِّينَ الحَنِيفِ بِسِيفِهِ وَمِثْلُ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطُّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا تعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومَرَّبْنَا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّهَا والرَّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متكر له إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجِنَ بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع قلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالقسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِي نَصِيحُ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا نَحْسِبُ أَنْ الزُّمَرِ - يَاطْبُلُ - رِيحُ
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْهَمِ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَازِرِكَ الْقَسِيحِ^(١)
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحُ
 وَقُلِّقَكَ اللهُ لَأَمْثَالَهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً لِأَخَذِ ثَارٍ أَوْ لِقَصْدٍ صَحِيحُ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوْاشِيُّ صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لَهِ دَرُّهُ ! فَمَا أَجَابَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ اللَّطْفِ وَالبَلَاغَةِ وَحَسَنِ التَّرْكِيبِ ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن مصر قرية النمل فإذا من دونها حُرَّ رِقَابِ الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشؤمة حتى يستريح منهم عيسى وتُخَزَّرَ رِقَابُهُمْ جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الحاسرة إلى الشرق ، ويقول له ساخرا متهمكا : لا تزال دار ابن لقمان التي سُجِنَتْ فيها على حالها ، ولا يزداد القيد أو الغل باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سَقُودٌ يَشُوهُ عليه ، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى وُجِدَ البَيِّتانُ التَّالِيَانِ في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَزَّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى جِثَّتْهُ فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكانت بيني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدني أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أبوي ، وربما كان حذف مدائحه من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عَزَّ عليه أن يُعزل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجنَّيا منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذ غالبا البدويات رمزا لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يثَّ في وجده وحبه شذا الحنان والشوق الذي يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطَوَّى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى	وذروا السيوف تهرُّ في الأغاد ^(١)
وحذارٍ من لحظاتٍ أعينَ عينها	فلکم صرَعن بها من الآساد ^(٢)
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادو	فهناك ماأنا واثقٌ بفؤادى
يا صاحبيّ ولى بجرعاء الحمى	قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى ^(٣)
سلبته منى يوم بانوا مُقلّة	مكحولةٌ أجفانها بسواد
وبحى من أنا فى هواه مَيّت	عَيْنٌ على العشاق بالمرصاد
كيف السبيلُ إلى وصالٍ محجّب	ما بين يبيض ظُبا وسُمر صعاد ^(٤)
حرسوا مهفَهفَ قدّو بمثقفٍ	فتشابه الميَّاس بالمَيَّاد ^(٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتباعد فيه برامة في نجد وظباطها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

صعدة : القناة أو الرمح .

(٥) الميَّاس : المتبختر . الميَّاد : التمايل ، والمثقف :

الرمح .

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٢) العين : بقر الوحش .

(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزنونة

(٤) الظبي : جمع ظبي : حدالسيف . الصعاد : جمع

آسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أولم بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فن دونها سيوف
ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرسَ قُدّها الرشيّق المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد
أواميَال . ويقول :

سَفَرْتُ وجاءتُ في القلائل تَنثَنِي فأرنتك حظّ المجتلى والمجتنى
ورنتُ فما تُغني التائمُ والرقيّ وأبيك عن لحظات تلك الأعين
بدويّة كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبِ السّطا لم يؤمن
لا يخذعنك لحظ طَرفٍ فاتِرٍ أبداً ولا تأمن لعطفة لَين
الْبَسْتَنِي ياهاجري ثوبَ الضنا وأخذتني يا تاركى من مأمنى

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدّت بصرها إليه فوقع في حبال
أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التائم والرقى ، ولانها لدوية أعراية تحميها السيوف المرفهة . وينصح
صاحبه أن لا تحذعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عايسىان له من آلام وأوصاب دون أن
يذوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خذوا جذركم من طَرفها فهو ساهرٌ وليس بناجر من دَهْتُهُ المحاجرُ
فإن العيون السود وهى فواترُ تقدُّ السيوف البيض وهى بَوَاترُ
ولا تُخذعوا من رَقَّةٍ فى كلامها فلان الحميا للعقول تُخامِرُ
من القاصراتِ الطَّرف غارتِ لحسنا ضرائرها والسيِّراتُ الضَّرائرُ
إذا ما انتهى الخَلخالُ أخبارَ قُرطها فياطيب ما تُملئ عليه الضَّفائرُ

وهو يحذّر من طَرف صاحبه ، فالسهام دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ،
وياللعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذّر من رقة كلامها المعسول
فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قريناتها
الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة فى البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى
تلمس خملها وكأنا تحدثه بأخبار قرطها ، ومن غزله فى بواكير حياته :

خَدُّ تَوَقَّد إذ تَرَقَّقَ ماؤُهُ لَهْفِي على المتوقِّدِ المترقِّقِ
حتى الحلىُّ لحُسْنِها متوسوسٌ فاعجب لحسن الجاد منطَّقِ

ياشمسُ قلبي في هوالِكِ عَطَّارْدُ لولا تعرَّضه لها لم يُحَرِّقْ
لم انس ما قالتْ وقد لمستْ يدي ماذا لقينا منه أوماذا لقي
وأقول ياأختَ الغزالِ ملاحَةً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرتَه يتلألأ فيه ويتفرق ،
مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنُها يُنطق حتى الجاد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه
بها ، وها هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنِها كما احترق عطارْد أقرب الكواكب السيارة
للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقينته وسلمتْ
أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شَبَّها بالغزالِ حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال
ولابقي ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هَـزُّوا القُدُودَ وأرهفوا سُمَرَ القَنَا واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأَعْيُنَا
وتسَقَدَّمُوا للعاشقين فكلُّهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لاخيرَ في جَفَنِ إذا لم يكتجِلْ أَرَقًّا ولا جسمٍ بمجافاهُ الضَّنَا
لما انتنى في حَلَّةٍ من سُندُسٍ قالتْ غصونُ البانِ ما أبقي لنا
شَبَّهتُه بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلما بينا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهنّ وسيوفها عيونهنّ وكل من
حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب
والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون
شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبها
بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلما بينا فهي أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن
أبياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقُبَلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ
والدمائة والظرف وعدوية الروح وخفة الظل .

برهان^(١) الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُضِعَتْ إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفي سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرس وحدّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له ورأسه : وله في وصف شعره ونثره تقييد بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائره . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمى بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرثى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أمسى ضريحك موطن الغفران ومحل وفدي ملائكة الرحمن

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة محدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراق والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين القاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين القاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماء مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦ هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١١/١٩٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٣٩٨-٣٩٩ و٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أوكما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصباية والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف والرقه ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقه من مثل قوله :

بأي لحظ غزالٍ قائلٍ في الفلوات^(١)
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلك النفثاتِ
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتِ حُسراني
أعشقتُ الشاماتِ منه وهى أسبابُ ممانى
إنَّ للموتِ بأقدا ح جفونى سكراتِ
قلت قد متُّ غراما قال لى متُّ بحياتي

والآيات تتطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قبلولته في الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتته وجمال وخلوده التى ملأت قلب الشيخ حشرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتعلّى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه ليزوب - أوكما يقول - ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ، ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلة عليه قائلة له : « مت بحياتي » ومن نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك ياقرى غريمى وذكركِ فى دُجى ليل نديمى
وملئنى الحميمُ وصدَّ عنى ومالى غير دمعى من حميمٍ
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديم
وعمَّ يسائلون ولى دموعُ تحدُّثهم عن النبأ العظيم
بدتُ فى خدِّها شاماتُ مسكٍ كحظى أوكليلٍ أو همومى
إذا نيرانُ خديِّها تبدَّتْ رأيتُ بهنَّ جنَّاتِ التَّعيم
ومن شغفى بِعُصْنِ القَدِّ منها أغارُ على العُصون من النسيم

(١) قائل : من قبلولة وهى وسط النهار ، وضعه قال

بقيل .

وكان في بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها نديمه طوال الليل . والتورية في البيت الثاني بديعة فقد مله الحميم والصديق في حب صاحبته ، ولم يبق له إلا دمع الحميم الحار يرافقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبأ » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجري على حدودها ، ويقول إن شامت حدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هوم حبها المشتعل في حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خذاها بحمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارةً وجنات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلم غيرة عليها حتى ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النَّاصرة . ويقول :

يا مَنْ هَجَرْتُ عَلَى هَوَاهِمٍ عَاذِلُ	أَيْحِلُّ فِي شَرْعِ الْهَوَى أَنْ أَهْجَرَ
طَلَعْتُ بِدَوْرِ الثَّمِّ مِنْ أَزْرَارِكُمْ	فَعَدَا اصْطِبَارُ الصَّبِّ مُتَقَصِّمَ الْعُرَا
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءِ الْقَوَامِ كَأَنَّهَا	غُضْنٌ يَحْرُكُهُ النَّسِيمُ إِذَا سَرَى
ذُكِرَتْ فَصَغَّرَهَا الْعَدُولُ جَهَالَةً	حَتَّى بَدَتْ لِلنَّاطِرِينَ فَكِبَرًا
وَجَهَلْتُ مَعْنَى الْحَسَنِ حَتَّى أَقْبَلْتُ	فَرَأَيْتُهُ فِيهَا يَلُوحُ مَصُورًا
لَمَّا دَرْتُ أَنَّى الْكَلِيمُ مِنَ الْهَوَى	جَعَلْتُ جَوَابِي فِي الْحَبَةِ لَنْ تَرَى ^(١)
يَأْمَنُ إِذَا مَا مَرَّ حُلُوْ حَدِيثُهَا	أَغْنَاكَ عَنْ مَرِّ الْعَتِيقِ وَأَسْكُرَا ^(٢)
أَرْخَضْتُ يَوْمَ الْيَمِينِ سِعَرَ مَدَامَعِي	وَتَرَكْتُ قَلْبِي بِالْغَرَامِ مَسْعُرًا ^(٣)

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفذ صبره إذ رآها مع صواحبا الفاتنات وهن يمسن ميس الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصورة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشقاق أو رجمة ، بل مضت تُدَلِّ عليه ، وتقول له : لن تراني . ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعي وأسعرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة . وفي البيتَيْن الأخيرين طباق وجناس مندحان في هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

(٣) في مسعر تورية لأنها إما من السعير وهو المعنى المتبادر غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

(١) الكلم : الجريح . لن ترى : لن تراني .

(٢) يريد بالعتيق الخمر المقتة .

علموا بأنّي لا أحولُ فعدّبوا ودروا بأنّي عاشقٌ فتغصّبوا^(١)
 قتلوا المتّيمّ في الهوى وتظلموا وجنّوا عليه بصدّهم وتعبّوا
 ومهفهفٍ لولا حلاوة وجهه ما كان مرّ عذابه يُستعذبُ
 إن كان يرضى أن أموت صباةً فجميعُ ما يرضاه عندي طيّبُ
 يا باخلاّ وله أجودُ بمهجتي رفقاً على صَبِّ عليك يعذبُ
 إن ملّت فالأغصانُ يُعهدُ مِثلها أو غيتَ فالأقمارُ قد تنغيّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حوّلًا عنها فتبادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكي منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنّى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت في سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تنغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا^(٢) طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفّس الصبحُ فجاءتْ لنا من نحوه الأنفاسُ مسكِيّة
 وأطربتْ في العود قُمريّة وكيف لا تُطربُ عودِيّة

وعودِيّة لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يخلّفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

نور الدين^(١) على العسلي

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيا تتلمذ لشيخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حذقة الزمان ونور (زهر) حذيقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابلته الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى اشتهاه بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَلَفَتْ من أدمعى ومن الوَسْخَى هَتَانُ^(٢)
لى فى الديار سقاها المزن صَيِّهْ غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق قَتَانُ^(٣)
ياربِّربِّ الحسن قد بالغتْ فى تلقى أما لهجركِ يالْمِيَاءَ هجرانُ^(٤)
هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً فكان يشفع منك الحسنَ إحسانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبدا فى الديار غزال سحره وخب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الذى أهوى على نفسه جَنَى قال على تلك المحاسن بالفتك
فاغرق خَدْيَه بماءِ جِمالِه وأوقع فى الظُّلْمَاءِ ناظرَه التُّركى
وهاجفنه ييكى عليه من الضَّنَا وها خَصْرُهُ من ثِقَلِ أردافه يُشكى

وهو يجعل المحبوب التركى جانبًا على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جباله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه ييكى

(٣) المزن : السحاب . صَيِّهْ : مطره .
(٤) الربرب : القطيع من الظباء أو البقر الوحش .
والاستعارة واضحة .

(١) انظر فى نور الدين العسلي وترجمته ربحانة الألبا
(تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات
الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

على ضناه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُؤَابَةٌ كَحِيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ
تَحْمِي ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِيٍّ رَدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كُلُّ فِعَالٍ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَاهُ
فَوْضَلُهُ قَطَعُ لَدَاءِ الْأَسَى وَهَجْرُهُ قَطَعُ لِقَوْلِ الْوِشَاءِ

فهو يرتضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التطرف والرقه ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بدیعة في دولاب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويش دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدا بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومرربنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية^(١) :

لله دَرَى إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْعُرُ
وَفِي يَدِي صَارُمٌ أَفْرِى الرَّءُوسَ بِهِ فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُتَّقَى وَلَا يَذُرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتبة ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . ويتزل مصر في أيام كافور الإخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتدارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، ولتلقى بعده بولى الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله^(٢) :

وَلَقَدْ سَمَوْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرِ اللَّهِ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَّمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَآخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدى منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . ولتلقى بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتبها على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصارى^(٣) :

مِنَالُ الثَّرِيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِنِّ عَاصَتْ عَلَى الْمَطَالِبُ
وَإِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَحِ الدَّهْرُ بِالْمُنَى فَلِي فِي كَفَالَاتِ الرِّمَاحِ مَآرِبُ
تُقَرِّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَّا وَالْقَوَاصِبُ

فا يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) منجم الأدباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُفْلَ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المذهب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقتلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعائها فسجنه وهمم بقتله مما جعل المذهب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرثته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصيبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول ^(١) :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمَمِي وهل يضُرُّ جَلَاءَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً لكان يَشْتَبُه الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغَرَّرَنَّ بِأَطَارِي وَقيمتها فإنما هي أصدافٌ على دُرِّ
ولا تظنَّ خفاءَ النجمِ من صِغَرٍ فالذَّنْبُ فى ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايا والمصائب التى نزلت به جَلْدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مها اضطربت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطاره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطار الحلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

ونغضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حرى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محقا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكان لأبد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولى الذى توجّها به صلاح الدين ، وتغنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكأن كل ما تجمّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع ^(٢) :

سِوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى وَغَيْرِي يَهْوَى أَنْ يَكُونَ مَخْلَدًا
وَلَكِنِّي لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا وَلَا أَحْذَرُ الْمَوْتَ الرُّؤْمَامَ إِذَا عَدَا ^(٣)

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طَرْفَهُ لحدَّثْتُ نفسى أنْ أمدَّ له يَدَا
توقُّدُ عَزمى يتركُ الماءَ جَمْرَةً وحِلْيَةُ حِلْمى تتركُ السيفَ مِرْدَا
وأظمأُ إنْ أبدى لى الماءَ مِثْنَةً ولو كان لى نَهْرُ الحِجْرَةِ موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذللٍ رأيتُ الهدى أنْ لا أَمِيلَ إلى الهدى
وإنك عَبدى يازمانُ وإننى على الكُرهِ منى أنْ أَرى لك سَيِّدا
ولو علمتُ زُهرَ النجومِ مكانتى لخرْتُ جميعا نحوَ وجهى سُجَّدا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجداد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لنأزله بعزم صادق يُشعل الماء جمرًا ملتها ويرد السيف كليلا صلدًا لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظمأ إن أبدى له الماء مِثْنَةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر الحجرة مورده وحقق له وروده كل ما أمله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة بسيطرته عليه حتى كأنما ذلَّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبدا مسترقًا ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعظيم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نبأته الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُربِ عن شعري ودولته أنْ ابنَ عبادَ باقى وابنَ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعتها فقد رأيتُ مقتلَكَ البحرَ والثونا
كأنَّ ألفاظها فى سمع حُسدِها كواكبُ الرُّجمِ يخرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنس ، فلا تزال حية نصرية ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم أبيات قصيده كشهد الرّجْم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح .
وقلنا نلتقى في الحَقبة العُثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشّمال والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقدفون بسهامه -
كما مربنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السويّ على نحو ما يصور
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبى داود
كان كثيرا ما يهجوهم مزريا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضَجَّةٌ للناس من خَلْفِ سِتْرِهِ تَضجُّ إلى قلبٍ عن الله مُغفَلٍ

فقلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابهِ وحرسه . ولا نشك
في أن ابن أبى داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبني جامعهِ المشهور وعهد إلى بعض
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة ، وقد ظلّمه بدوره ظلما بيّنا .
وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله في القسّاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين
ظهرانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبى الجوع وله
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح ^(١) :

هاجيك فيما قاله مادحُ فأنْت في صَفقتك الرابعُ
ياأيها الصّعُو الذى لم يزل يرقص حتى دَقَّه الجارج ^(٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقر أونسر
جارج . ونحضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تشره من عقيدتها الشيعة الغالية الرافضة .
وما زعمته للأئمة من نسبةٍ إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضع . ويُروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم جمعة ،
فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين ^(١) :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفر والحقارة
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كاتب البطاقة
فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس بينت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار
حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير
من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة
والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ
أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا
غاضبا ^(٢) :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزَّ فيهم والمال عندهم ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخريه من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل
الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا
كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين مرأ على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائى
وزير المستنصر وكان أقطع اليمين لحيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل
الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخطبه جاسوس الفلك قائلا ^(٣) :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودّعْ الرقاعةَ والتحامقْ
أمن الأمانة والثِّقْ قُطِعَتْ يدَاك من المرافقْ

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجاريا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى
بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول ^(٤) :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحريدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِن بَذِرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحَنْ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْقَةُ
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغِمَةً فَهِيَ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَةٌ

وهو هجاء مقذع لإقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره
يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)
بَأْيِدِ تَبْتَدِرُونَ إِلَى الرِّشَاوَى كَأَيْدِ الْخَيْلِ أَبْصَرْتَ الْحَالَى

فكأنهم يشبهون الزناير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم
الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بمحمتها أو إبرتها وكما يلسع الصِّل أو الأفعى بسمه القاتل .
ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهم على الرشيد بن الزبير وكان شديد
السواد (٣) :

إِنْ قُلْتَ مِنْ نَارٍ خُلِفْتَ تَ وَفُقْتَ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا
قُلْنَا صَدَقْتَ فَمَا الَّذِى أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْمًا

وهى دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء
بالسموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،
يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَائِهِ
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْنُ إِنَائِهِ

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكوهم
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يُصْفَعَ بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ
وَمَا عَلَيْهِ قُطٌّ مِنْ صَفْعِ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ٢٢٩/١ .

(٤) الخريدة ٢٣٣/١ .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

(١) الخريدة ٤٧/٢ .

(٢) حجات : جمع حمة وهى إمرة الزنبور والعقرب .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُضْفَعُ بالنَّعال ولا مغيث له ولا مجبر ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذى لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله ^(١) :

رَبُّ ثَقِيلٍ لُبْغُضٍ طَلَعَتْهُ أَحْشَاءُ حَتَّى كَأَنَّهُ أَجَلِي
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاءُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه ^(٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا
وَبَنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .
ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يريشون سهام الهجاء ، ويلقنا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم ^(٣) :

ثَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَاةٌ لِقَبْضٍ مُغْلًا كَالْمُقْطَعِينَا
نَحَيْلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمُوهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضلة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا^(١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضُّهُمْ صِدْقُ الْوَلَا تَطُولَا^(٢)
وما رَعَوْا عهدا ولا مودَّةَ ولا ولا

وفي كلمة «ولا» الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله^(٣) :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مَتَوَالِي
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالى مع كلمة برخيص - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعتمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظلم نلتقى بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجى من قصيدة جميعها على النمط التالى^(٤) :

يَا ضَيْعَةَ الْهَيْمَانِ مِنْ عَائِلٍ قَبِيلِ عِيدٍ أَعُوزِ الْفُطْرَةِ^(٥)
وَيَاقِفَا الْمَهْزُومِ مِنْ فَارِسٍ أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةٍ
وَبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمٍ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ قُوَّةِ^(٦)
وَيَانَعِيًّا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجُوزٍ مَالَهَا أُسْرَةٌ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المضمي تكيل الدم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة^(٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

-
- (١) ربحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبي) ص ٤١ .
(٢) تطولا : تفضلا .
(٣) النجوم الزاهرة ١٢٩/١٢ .
(٤) نفحة الربحانة للمحبي ٦١٢/٤ .
(٥) الفطرة : الثقل في لغة المصريين العامة . الهيمان : كيس النقود .
(٦) قرة : باردة .
(٧) تاريخ الجيفى ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثوب من لقاسم وأذل هامة
وكساه ثوب جناية يخزى بها يوم القيامة
ومضى يتهم بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، وردّ عليه
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنهما يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول
قاسم :

جلّ الذى . قسم الشقا لشبابة وله أدامه
بعمامة لوخالها ال قلا توهّمها برامة
موروثية عن جدّه من قبل أن تُبنى القيامة
لو كان يصلح للصلاة لحقّ للفرزدق الإمامة

والقلا مقصور القلاء وهو من يقلّ اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذى يُقلّى فيه . يشير
بذلك إلى ضخّم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت
حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر
والهجاء :

تميم ^(١) بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التى بناها
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التى ولد فيها تميم
حفيدة إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار
وعقيل ، وكان المعز قد بوع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدّدت له البيعة حين توفى سنة
٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حسيفا سيّوسا ، دانت له إفريقية من تونس
إلى المحيط ماعدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموى
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا فى غير هذا
الموضع - ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان على الهمة بحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) انظر فى تميم وترجمته وأشعاره البيّمة ٤٣٦/١ وابن
خلطكان ٣٠١/١ والحلة السراء (طبعة د . حسين مؤنس)
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر

واتضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تميما في مجونه ^(١) .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ^(٢) ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسميا باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عني بترية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكبّ على الشعر العربي في أزمته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، ففضى في سيرته ، يحيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيريثهما رثاء فاترا ، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغرفته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يردّ العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يغدق عليه إغداقا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطلّ على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له يستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضفي عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يحيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة ، وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطالع شبابه ، وقد عاد فصرفها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كتابة تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فعلا .

(١) سيرة جودز (تحقيق د : كامل حسين) ص ٦٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينتجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلاً في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قيانه . وفي ديوانه ما يصور كثوس اللهو والمجون التي كان يحب منها عباً ، ومرَّبنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تيم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخراً يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا	الصبحُ	أنا	الشمسُ	أنا	البدرُ	الذي	يَسْرِي
أنا	المرجوُ	في	العُسْرِ	أنا	المرجوُ	في	السُّرِّ
أنا	المُسْبِلُ	لِلنُّعْمَى	أنا	الكاشفُ	لِلضُّرِّ		
أنا	الراتقُ	لِلْفَتْقِ	أنا	القاصمُ	لِلظُّهْرِ		

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمى والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني	على	إن	نكنزُ	نُنَمَى	إلى	حَسْبِ	أنافَ	بنا	وَجَدُ	أَرْوَعاً ^(١)
فلقد	علمت	أنتي	أغشى	الوَعَى	وأنوبُ	في	الجُلَى	قَوُولَا	مُسْمِعَا ^(٢)	
ولقد	علمت	أنتي	رُضْتُ	العلا	يَفْعَا	وحاولتُ	المكارمَ	مُرْضِعَا ^(٣)		

(١) أناف : أشرف وارتفع .
(٢) الجُلَى : الأمر العظيم . قَوُولَا : صيغة مبالغة من
(٣) اليفع : الفق في إيان شابه .

القول يشير إلى بلاغته في شعره .

فَدَعُوا لِيَ الشَّرَفَ الَّذِي شَدَّتهُ إِذْ هَضَمُوهُ فَأُنْكَفَا وَتَضَعَضَا^(١)
 لِي فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ جَوْلَةً يَعْدُو بِهَا قَلْبُ الزَّمَانِ مَصْدَعًا
 فَادْفَعْ بِحَدِّ السَّيْفِ كُلَّ ظُلَامَةٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمًا سِوَاهُ مَدْفَعًا
 فَبِذَاكَ أَوْصَانِي الْوَصِيَّ وَرَهْطُهُ وَعَلَى قَرْصُ أَنْ أُطِيعَ وَأُسْمَعَا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والخط العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه
 فى الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها فى مطلع شبابه وأنه
 حاول المكارم منذ كان فى المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذى يمنونه منه ، وكأنه
 يندرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك
 وصية جده أبى الأوصياء على بن أبى طالب وأبناؤه من الأئمة وأن فرضا عليه أن يسمع ويطيع .
 ولا ريب فى أن هذه المعروفة التى كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها
 سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب
 طاعته .

ومعروفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر فى قيثارته ، ونقصد ردوده
 العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسى بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاءه موقفان : موقف
 يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز فى فخره بأسرته وينقصها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته
 الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يرد عليها ، وهو فى الموقف الثانى حر يختار أى
 وزن ينظم فيه وأى قافية ، أما فى الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التى يرد عليها وقافيتها على
 شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق فى نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز
 استلها بقوله : « أَيْ رَبِّعٍ لَّالَ هِنْدٍ وَدَارٍ » عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها فى الوزن
 والروى ، وفيها يقول ، رادًا على ابن المعتز والعباسيين جميعا :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلَى هَلْ تَقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقَارِ
 مَنْ لَهُ الصُّهْرُ وَالْمَوَاسَةُ وَالنُّصْرَةُ وَالْحَرْبُ تَرْغَى بِالشَّرَارِ
 مَنْ دَعَاهُ النَّبِيُّ خِذْنَا وَسْمًا هُ أَخَا فِي الْخَفَاءِ وَالْإِظْهَارِ

(١) هضموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على
 وشك أن ينجر .

مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنْى كَهَارُو نَ وَمَوْسَى أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نِجَارٍ^(١)
 ثُمَّ يَوْمَ الْغَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ خَصَّهُ دُونَ سَائِرِ الْحُضَارِ
 مَنْ لَهُ قَالَ : لَا قَتْلَى كَعَلَى لَا وَلَا مُتَّصِلٌ سِوَى ذِي الْفَقَارِ^(٢)
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَخْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ
 وَلَبْنَا حُرْمَةَ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْدَاءِ وَالسَّبْقِ وَالْهَدْيِ وَالْمَنَارِ
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادِسْنَا الرُّوحَ أَمِينُ الْمُهَيْمِنِ الْجَبَّارِ
 حُجَجُ كُلِّهَا تَأْمَلُهَا الْعَالَمُ لِمُ بَانَ لَهُ بَيَانَ النَّهَارِ

وتيمم يوازن بين جده على بن أبى طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويقاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن فى الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبى عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - فى اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدير خم وهو موضع بين مكة والمدينة أثني فيه الرسول ﷺ على ابن عمه على ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى فى هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيداً لهم . ويشير تيمم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لا فتى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترقاً حصاراً مسلحاً ضرته قرش حول بيته ، حتى لا تتبّه إلى خروجه ، وكانت قد بينت القضاء عليه (يريدون أن يُطْفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعلام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما نقص الشيعة من أن الرسول ألقى كساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تيمم - جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خيرٍ ردونه . ويذكر جهاد على المبرورى غزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاء عظيماً . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية على وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

يجرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتميم في الموقف الثاني الذي لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطربا بشرك كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجللى للدين الحنيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموى - ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجوهم ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب ^(١) . ولعل ذلك ما جعل تيمما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إن قُرَيْشًا بَعْلًا هَاشِمٍ	تفخر في عَقْوَة عَرِيْسِهَا ^(٢)
إن يك من ياقوتها هاشمٌ	فعبد شمسٍ من ضَغَايسِهَا ^(٣)
اسمٌ إلى الصفوة من هاشمٍ	أهل معاليها وَتَقْدِيسِهَا
دَعُ عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا	فقد بدا الله بِتَنكِيسِهَا
قبيلةٌ ما طَهَّرَ الله مَنْ	شايِعِهَا من إثمٍ تنجيسِهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنيه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيهم ، أما عبد شمس وبنيه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آثمة إنما فظيعة ، وإنها لتصم كل من شايِعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسيبهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضغاييس : جمع ضغبوس : الضعيف النعم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

طلائع^(١) بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شاباً واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولاً حسناً ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى ولّوه حاكمًا لمنية الخصب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربه حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفائز (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبياً لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تدبيرها ، حتى إذا توفي الفائز بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلاً لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدر عام في خلافة العاضد حتى دُبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاضد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئ : « كان رجل وقته فضلاً وعقلاً وسياسة وتديراً » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئ إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضاً بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجوهريّة في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت العصرية عليه وعلى حياته وأجاده ومدائحه ومدائح
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،
وأودع في مقدمته ثبناً مفصلاً بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١٧٣/١
والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٥٢٦/٢
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر
القهرس) وخطط المقرئ ١٩٢/٣ وبني عمارة اليمنى كتابه

يَا أُمَّة سَلَكْتُ ضَلَالًا بَيِّنًا حَتَّى اسْتَوَى إِقْرَارَهَا وَجُودُهَا
مِلْتَمٌ إِلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِتَقْدِيرِ الْإِلَهِ وَجُودُهَا
لَوْ صَحَّ ذَا كَانَ الْإِلَهِ بِزَعْمِكُمْ مَنَعَ الشَّرِيعَةَ أَنْ تُقَامَ حُدُودُهَا

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلقون إلى مجلسه في منزله وخاصة الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد العربية أمثال ابن الدهان الموصلي وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه يقول العماد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعماء » . وقد أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائح . وألف في أيامه الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه وافتتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأميني ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ، ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع في جزئين ، وكأن ديوانه المنشور إنما هو مقتطفات من ديوانه الأصلي ، واتهمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما كان يرجع إليهما لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانا يصلحان له شعره . وأكثر الديوان المنشور في مديح آل البيت وراثتهم وراثا الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير الكثير في الموت ، حتى في يومه البهيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه في دَسْت الوزارة :

انظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حَلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرُ
وَلَكُمْ تَبَخَّرَ آمَنَّا وَسَطَ الصَّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ
ذَهَبُوا فَلَا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ
وَلِثَلْ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاثلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لاينى آيبا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوبى فلسطين وذقُّ أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

تَوَالَتْ عَلَيْنَا فِي الْكَتَائِبِ وَالْكَبِيبِ بِشَائِرُ مِنْ شَرْقِ الْبِلَادِ وَمِنْ غَرْبِ
جَعَلْنَا جِبَالَ الْقُدْسِ فِيهَا وَقَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا عَتَاقُ الْخَيْلِ كَالْتَفْتِفِ السَّهْبِ^(١)
وَقَدْ أَصْبَحَتْ أَوْعَارُهَا وَحُزُونُهَا سَهْلًا تَوَطَّا لِلْفَوَارِسِ وَالرُّكَبِ
وَلَمَّا غَدَتْ لَأَمَاءَ فِي جَنَبَاتِهَا صَبَبْنَا عَلَيْهَا وَابِلًا مِنْ دَمٍ سَكَبِ^(٢)

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمائهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيزَرِيِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استلها بقوله :

أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعَزَائِمُ وَتَمْضَى لِي الْحَرْبُ السِّيُوفُ الصَّوَارِمُ^(٣)
وَتُغْزَى جِيُوشُ الْكُفْرِ فِي عُقْرِ دَارِهَا وَيُوطَا حِجَاهَا وَالْأَنُوفُ رَوَاغِمُ^(٤)
خِيُولُ إِذَا مَافَارَقَتْ مَصْرَ تَبْتَغِي عِدًّا فَلَهَا التَّصْرُ الْمَبِينُ مَلَاظِمُ
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامُ فِي كُلِّ مَازِقٍ وَمَا يَصْحَبُ الضَّرْغَامَ إِلَّا الضَّرَاغِمُ^(٥)
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَا قُلَّ حَدُّهُ وَلَا حَكَمْتُ فِيهِ اللَّيَالِي الْقَوَاشِمُ^(٦)
تَجَهَّزْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَا تَهِنْ وَتُظْهَرْ فَتَوْرَا أَنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ

(٤) عقر : وسط .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأمد .

(٦) القواشم : الشديدة الظلم .

(١) عتاق الخيل : كرامها . التفتف : الفلاة . السهب :

المستوى .

(٢) وابلا : مطرا شديدا . السكب : الماطل السائل .

(٣) الصوارم : جمع صبارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يحجب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثمر بالقرب من حمص يسمى أنطربوس ونكل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يشير الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفد حرنج مالا يناله التأميل
فحوى من عكا وأنطربوس عدة لم يحط بها التحصيل
أبلغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تهاطل الدين في الكف ار فاحذر أن يغضب الممطل
سير إلى القدس واحتسب ذاك في الد ه فبالسير منك يشفى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماساته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقى الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعد حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمالى ومن جاء في أثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما يهيب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن يدا أئمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، ورثاه عمارة وغيره من الشعراء مرثى حارة .

ابن (١) اللزوي

هو الوجه على بن يحيى اللزوي أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجحاته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدخ الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن اللزوي شاعرا مجيدا ثوّه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يَابَانُ إِنْ كَانَ سُكَّانُ الْجَمَى بَانُوا فَبَيْضُ شَانِي لَهْ فِي إِثْرِهِمْ شَانُ
مَنْ لِي بِأَقَارِئِ أَنْسٍ فِي دُجَى طَرَرٍ أَفْلَاكُهَا الْعَيْسُ وَالْأَبْرَاجُ أَظْعَانُ (٢)
مِنْ كُلِّ قَانِيَةِ الْخَدَّيْنِ نَاهِدَةٌ لَوْ كَانَ لِلْضَمِّ أَوْ لِلثَّمِّ إِمْكَانُ

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقاربا مضيئة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهم ركب العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

١) انظر في ابن اللزوي وترجمته وأشعاره الخريدة .

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقدمات شعر المرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

(١) انظر في ابن اللزوي وترجمته وأشعاره الخريدة

١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والفوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروصتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والحزاة ص ١٢٣ وابن خلكان

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَظُنُّنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عِيًّا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ
وَكَذَلِكَ الْقِسِيُّ مُحْدَوْدِيَاتٌ وَهِيَ أَنْكَى مِنَ الظُّبَا وَالْعَوَالِ (١)
وَإِذَا مَا عَلَا السَّنَامُ فِيهِ لِقُرُومِ الْجَمَالِ أَيْ جَمَالِ (٢)
وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَنْسِرِ الْكَأ سِرِّ يُلْفَى وَمِخْلَبِ الرَّثْبَالِ (٣)
قَدْ تَحَلَّيْتَ بِإِنْخَاءٍ فَأَنْتَ الْد رَافِعِ الْمُسْتَمِرِّ فِي كُلِّ حَالِ
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ زَرْكَ فِي الظَّهْرِ بِرِ فَامَنَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ
كَوْنُ اللَّهِ حَدْبَةً فِيكَ إِنْ شِئْتَ سَتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنَ الْإِفْضَالِ
فَأَنْتَ رِبُوءٌ عَلَى طَوْدِ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٌ بِبَحْرِ نَوَالِ
مَارَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَتَّتْ لَوْ غَدَتْ حَلِيَّةٌ لِكُلِّ الرَّجَالِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَجْرُودِ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حُصَيْنَة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الهلال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهى مصدر جمال كالسنام للجمال ، وما كان الانخاء عيبا في منقار النسر ومخلب الأسد المصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فينبى عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسد تعجل حمله في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتأدى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ
لَا إِلَى هَوْلَاءَ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجُدُّهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءَ

(١) الظبا : جمع ظبه وهى حد السيف . والعوالى : (٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرثبال : الأسد .

(٢) قروم الجمال : عظامها

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حَوْضِهِ جارٍ
كأنه فوق شَفَافِ الرُّخَامِ ضُحَى ماءٍ يسيل على أثوابِ قَصَّارِ
والقَصَّار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكأن الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتبه الصديق ابن الذرؤى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يَحْرِقُه من فَرَطِ إِذْكَاءِ
أقام يُجْهَدُ أياما قَرِيبَةً وشبَّه الماءَ بعد الجُهدِ بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرؤى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرؤى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلُوفَرٌ أَبَدَى لَنَا باطِنًا له مع الظاهر المخضَّرُ حُمْرَةً عَنَدَمٌ^(١)
فَشَبَّهَتْهُ لَمَّا قَصَدْتُ هِجَاءَهُ بكاسات حِجَامٍ بها كَوْنُهُ الدَّمُ^(٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبَّح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذي طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصباغة .

(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالمحجم .

أحمد^(١) بن عبد الدائم

هوشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرمَسَاحِي نسبة إلى شَرْمَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زَمَنِ المَالِك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكْبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيه شهاب الدين الحَوَّيِّي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحّل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهته فيها بعودته إلى عرشه وهجو المظفر بيبرس ويعرّض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَأَمَّا الْمَظْفَرُ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ	وناصرُ الحقِ وَأَمَّا وَهُوَ مُتَّصِرٌ
فَقُلَّ لِيَبْرَسَ إِنْ الدَّهْرُ أَلْبَسَهُ	أَثَابَ عَارِيَةً فِي طَوْلِهَا قِصْرٌ
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرُ عَنْ أَمِّ	لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا ^(٢)
وَكَيْفَ تَمْشِي بِهِ الْأَحْوَالُ فِي زَمَنِ	لَا النَّيْلُ وَأَمَّا وَلَا وَاقَاهُمْ مَطَرٌ
وَمَنْ يَقُومُ ابْنُ عَدْلَانَ بِنُصْرَتِهِ	وَإِنْ الْمَرْحَلُ قُلَّ لِي كَيْفَ يَتَصَرُّ؟

(٢) تولى الأول بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره القوات ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصر النيل في فيضانه أجديت بعض البلاد وارتفع السعر. وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامها ضده إلى بيرس الجاشنكير، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها، ومُرَّ به ابن عبد الدائم فأنشده:

والله ما سرتني عزلُ ابن عدلانِ

فقال له: جزيت خيرا. فأكمل البيت قائلا:

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة. وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف، وكأنه أراد أن يبتزّه، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعًا مثل أبيه، وتمضى القصيدة على هذا النمط.

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ وأوقافها ما بين عافٍ ودارسٍ^(١)
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْبَعُ بالأوقافِ أهلُ الطيَّالِسِ^(٢)

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء، وكلها كذب وبهتان وافتراء، وكاد القاضي ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه. وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً، وساءت حالته، فإن لحوم العلماء مسمومة. وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه.

حسن^(٣) البدرى الحجازى الأزهرى

يقول الجبرقى في ترجمته: «كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً متقدماً على أهل عصره وأبناء عصره» ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة: صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبى داود وسنن التيسالى وجامع الترمذى. وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

الجبرقى ٧٥/١ وما بعدها.

(١) عاف ودارس: محو زائل.

(٢) الطيَّالِس: جمع طيلسان وهو كساء كان خاصاً بعلماء الدين تميزوا لهم.

مبكرة وعُني بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرة السنية في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبري شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما نجد في نظمه حشواً أو تكملة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجاء الإياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاء وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلوك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعامل من اجتنابهم وفر منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأبعد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أخى فطناً كنّ واحذر الناس جملةً ولا تك مغرور الظنون الكواذب
ولا سماً نوع الأقارب إنهم عقابك في الدنيا وعقر العقارب^(١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثرياً ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم خسيساً أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سيئ الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سباط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذر أولى التسييح والسبحة	والصوف والعكاز	والشملة ^(٢)
قد صار إبليس لهم تابعاً	يقول يا للعون	والشجدة
مما حوَّيتم علَّموني فما	لي عنكم في المكر من غنية	
لكم قيادي وانقيادي وما	مثلكم في الناد ^(٣)	والندوة ^(٣)
وأنتم تاجي على هامتي	ماهمت إلا كنتم همتي ^(٤)	

(٣) الناد : النادي حذفت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى

أين يتوجه .

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) الشملة : شال كالطليسان يتلقع به على المنكين

والصدر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومستولياته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطْبًا
عَلَمًا هُمْ بِهِ يَلُودُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَائِلِينَ فَلَانَ عَنْ جَمِيعِ الْأَثَامِ يُفْرِجُ كَرْبًا
وَإِذَا مَاتَ يَجْعَلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبًا

وكاننا يلزأء داعٍ مصرى يدعو ضد-الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالمجنوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتا . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك وراءها في مصر أثراً . على أننا نجد به وجه ذمه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

٣

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى نافعاً لعبه من حوض إلى حوض ، بآثا الحياة والجمال في كل ما يسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرحون الطرف فيها والخيال ، فتتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتعمقهم الشعور بما خص الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أى وصف عن تصويره . وطبعى أن يتردد ذكر النيل على السنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . يتحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نبيلة له من الفسطاط إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احتفظ بها الكندى . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المربى القاسم بن يحيى شاعر خارويه ينخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله ^(١)

وَمَطَايَا لَا يَغْتَنِدِينَ وَلَا يَسْ أَمَنْ كَدَّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوَّاحِ ^(٢)
أَصْلُهَا الْبَرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْ بَحْرِ سَكْنَى إِقَامَةٍ لَا بَرَّاحِ
وَإِذَا أُوقِرَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ مِرَاحٍ ^(٣)
جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيحِ وَطَوْرًا كَاسِرَاتٌ بِالْجَرَى جِدَّ الرِّيحِ
سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِينَ سُرَى اللَّيْلِ لَ لَا يَرْتَقِبْنَ ضَوْءَ الصَّبَاحِ
لَا يَخْفَنَ الْغَارَ يُقْدَفْنَ فِيهَا وَيَخْفَنَ الْمُرُورَ بِالضُّحَضَاحِ ^(٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقى ، وهي من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجدّ في سيرها دون اعتزام جهاج ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعى ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابل للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرّون من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول ^(٥) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصَرٌ
وَالسُّفُنُ تَجْرَى كَالْحَيُولِ بِنَا صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ
فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عُكْنٌ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرٌ ^(٦)

(٤) الغار : جمع غمر وهو الماء الكثير العميق .
الضحضاح : الماء القليل لاعتق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) المعن : جمع عكنة وهي مائتة من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا عن المربى لجلال ناجى بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة
(٢) الرواح : الرجوع في العشى .
(٣) أوقرت : حملت حملا ثقيلًا . المراح : المرح والنشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أمواجه عُكَنَ أو ثُنَّيات أمامية لأجساد عارية وكأنما
قواراته أو داراته في فيضانه السُّرر أو النقر الصغيرة أو الثُكَّت في بطون من كن يهدين إلى النيل-من
عرائسه . ولهم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريقة قوله في
الناعورة^(١) :

تثنّ وليست بمحزونة أنين الحب الكتيب الحزين
فتنطق بالصوت لا من فم وتقف بالدمع لا من جفون
كان لها ميتا في الثرى فادمعها همع كل حين^(٢)
إذا زمرت أطربت نفسها فغنت بمخيلفات اللحن
غناء يرقص كيزانها ويظهر فيهن وثب المجون
فتهوى فوارغ في بثرها وتضعد منها ملاء العيون

والناعورة تن أنين الحب اليائس الحزين وتشكو لا بفم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف
للحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في
الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبُسرُه أو بلحه^(٣) :

النَّخْلُ كالهِيف الحسان تَزَيْنَتْ فَلَيْسَنَ مِنْ أَثْمَارِهِنَّ قَلَائِدًا

وكانها في خياله فانتات تتزين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعهما
الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق
من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله
الصفراء فكاحل من زبرجد رءوسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحت البلح الأحمر
فزبرجد يثمر عقيقا « وكانما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر بركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة
الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختا لها بجوارها
بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول^(٤) :

(٣) حسن المحاضرة ٤٣٥/٢ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(٢) همع : سائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حُمْرَةِ الشَّفَقِ
 غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلفها كأنما احترقت بالماء في العرق
 ولللهال فهل وافى لِيُنْقِذَها في إثرها زورقٌ قد صيغَ من ورقٍ^(١)

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقاً من فضة جاء لإنقاذها من الغرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد^(٢) :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصْعَدَاتٍ بنا ومنحدراتٍ
 ولياليُّ بالجزيرةِ والجِيزةِ فيما اشتيتُ من لذاتي
 بين روضي حكي ظهورَ الطواويـسِ وجوُّ حكي بطونَ البِزاةِ^(٣)
 حيث مَجْرَى الخليجِ كالْحَيَّةِ الرُّقْ طاء بين الرياض والحِثَّاتِ
 هاتِ زِدْنِي من الحديثِ عن النِّيلِ ودَعْنِي من دِجْلَةٍ والْفِرَاتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتنى صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجيزة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مراراً بهذا الحنين في أشعاره . وتُظِلُّ مصرَ أيامَ الممالك وَيَظِلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصَفَ لشجرة سُرَّو باسقة قصَّد موضعها مع بعض رفاقه ، وَوَصَفَ معها القارب المطلق بالقار الذي ركبهه ، يقول^(٤)

مالتْ على التَّهْرِ إِذْ جاشَ الحَرِيرُ بِهِ كَأَنَّهَا أَذُنٌ مالتْ لِإِصْغَاءِ

(١) ورق : فضة .

طويلة الساق والذنب .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٤) خزنة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

(٣) البزاة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

كَانَ صَنَعْتُهَا الْحَمْرَا بِقَشْرَتِهَا الدَّكْنَاءُ قُرْصٌ عَلَى . أَعْكَانِ سَمَاءِ
نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جَرْدَاءَ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءُ
سَوْدَاءَ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعَسَاءَ

والتصوير في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصفى إلى
خَريره ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص
ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سَعَوْا إِلَيْهَا فِي سَفِينَةِ حَدْبَاءِ كَهْلَالِ
الْأَفْقِ سَوْدَاءَ ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطَّر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على
خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدًا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ،
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمركثوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثر أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ
على ما جرَّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمركثوس ،
إما إدماها عليها وإما محاكاة وتقليداً لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما يساعد على ظهور هذا النفر
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاورة الخمر ومثله ابنه خارويه ، ويقال
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ^(١) . فحاكاهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشافى في كتابه الديارات ،
وهي دير القصير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خارويه كثيرا ما يزوره ،
ودير مَرَحْنًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار خلوان .
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن
محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :^(٢)

أَتَرَكُ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةٌ وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَثُورٌ
وَالْغُصْنُ يَهْتَرُّ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوًى وَمَنْشُورٌ

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الخالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة يتهتك في شربها ويجترئ على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه (١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطُهرٍ
سُجَّدٌ للكُتوس من دون تَسْيِيحٍ سوى نَعْمَةٍ لعودٍ وزَمَرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المحنون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار .
ونلتقى بتميم بن المعز ، ومربنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صوابه ، ومن قوله فيها وفي الورد (٢) :

ورِدٍ أَعَارَتْهُ الْغَوَايِ خُدُودَهَا وَأَهْدَى إِلَيْهِ الْمَسْكُ أَنْفَاسَ مَقْتَرَةٍ
كَأَنَّ النَّدَى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقٍ أُرِيقَتْ غَدَاةَ الْيَنِّ فِي خَدٍّ مَعشوقه
أَدْرَنَّا كُتُوسَ الرَّاحِ فِي جَنَابَتِهِ عَلَى حُسْنِ مَرَاهِ وَرَقَةٍ تَوْرِيقه

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغواي وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشق تئاثر على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبته قوله (٣) :

ناولْتُها مِثْلَ خَدَّيْها مُشْعِشَةً صِرْفًا كَأَنَّ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ (٤)
فَقَبَّلْتُها وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وَكَيْفَ تَسْقِي خُدُودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ
إِذَا تَنَاوَلْتُ خَدَّيْ كُنْتُ نَائِلَةً نَفْسِي وَهَذَا لِعَمْرِي غَيْرُ مِقْبَاسٍ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقي خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدّم لها خدودها لتشربها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٤٩ .

(٣) المقياس : شعلة النار .

(٤) الديوان ص ٢٩٨ .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريه له ^(١) :

وممّھف أبدى الشبابُ بخدّه صدغاً فرّق ورده في آسه ^(٢)
تلهبُ الصّهباءُ في وجنّاته فتسير من عيّنه في جلّاسه
حتى إذا ملأ الزجاجة خدّه نوراً وفاح الخمر من أنفاسه
خال الزجاجة أفعمت بدمامة فدنا ليشرب نوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خده فتلهب السحر في عينيه فيسير منها إلى جلّاسه ، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظنها ملئت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسبها .
ولابن سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله ^(٣) :

أين كثوسى وأين أنكوابى فهى وحقّ الجون أولى بى
يدو عليها الحبابُ إن مزجت مثل عيونٍ بغير أهداب
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها كأنه واقفٌ على الباب
أسجدُ شكراً لها إذا طلعت كأن كاسى لدى محرابى

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلمّا كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله ^(٤) :

باكر صبوحك أهنّا العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره ^(٥)
والليل تجرى الدارارى في مجرته كالزّوض تطفو على نهر أزهرة ^(٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدارارى : الكواكب المتلألئة . المجرة : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الخريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) ررق : مزج .

(٣) الديوان ص ٣٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتٍ لها حَبَبٌ تَوْبٌ عَنْ نُغْرِ مَنْ تَهَوَّى جَواهُرُهُ
 حمراءُ في وَجْنةِ الساقِ لها شَبِيبَةٌ فهل جَنَّاها مع العنقودِ عاصِرُهُ
 ساقٍ تَكُونُ من صُبْحٍ ومن غَسَقٍ فايضٌ خَدَّاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ^(١)
 تَعَلَّمْتُ بَانَةُ الوادِى شِمائِلُهُ وزَوَّرتُ سَحَرَ عَيْنِهِ جَاذِرُهُ^(٢)
 فلو رَأَتْ مُقَلَّتَا هاروتَ آيَتَهُ الـ كُبْرَى لآمنَ بعدَ الكُفرِ سَاحِرُهُ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء متوَّرة بكواكبها الساطعة ، وحجاب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانه الوادى رشاقها ، وزوَّرت جاذره سحر عينيها الخلابتين ، ولورآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاكة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إنمائها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط^(٣) .

ليذهبوا في ملامى آيَّة ذهبوا في الخمر لا فِضَّةً تَبْقَى ولا ذَهَبُ
 لا تأسفنْ . على مالٍ تَمَزَّقَهُ أيدى سُقَاةِ الطَّلَا والخِرْدُ العُربُ^(٤)
 فما كَسَوْا راحتي من راحيها حُلَلًا إلا وعَرَّوا قَوادى الهمِّ واستلبوا

وقد مضى يحبب فيها ويفرغى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يهتمه بمعاقرتها ، وقُدِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيروطى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٧/٢ .

(١) السق : الظلام . الغدائر : الضفائر

(٤) الطلا : الخمر . الخرد : جمع خريدة وهى البكر الحية .

(٢) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية المروقة . بجال عينيها .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول^(١) :

كم ليلة نادمتُ بدرَ سماءها والشمسُ تُشرقُ في أكفٍ سقائها
والبدرُ يُستّرُ بالغيومِ وينجلي كنتنفسُ الحسنةَ في مرآتها
خالفتُ في الصُّبهاءِ كلَّ مقلدٍ وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتها
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا سكناؤها وقفتُ على حركاتها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي قامتُ إلى وصلي برغمِ وُشاتها
ياخجلُ الأغصانِ من خطراتها وفضيحةِ الغزلانِ من لفتاتها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرتها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة المجان لزمّنه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الأبيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهاء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد نوّه بها الأسلاف طويلا لروعها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر في عصر الماليك تعايط الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة^(٢) :

احذرْ نديمي أن تذوق المُسكرَا أو أن تحاولَ قطُّ أمراً مُنكرَا
ذی دولةَ المنصورِ لاجينَ الذي قهر الملوك وكان سلطان الوری
إياك تأكلُ أخضرًا في عصره ياذا الفقيرُ يصير جِسْمُكَ أحمرَا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذي سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعايط الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة^(٣) مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

(١) النبل الصافي ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في

قم عاظمي خضراء كافورية قامت مقام سُلَافَةِ الصَّهْبَاءِ
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تبة على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يُزْعَمُ منها كثيرٌ بستان كافور في القاهرة ، وبلغنا كثيرون يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكثوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، ومما نقرأ لهم قول أبي المواهب^(١) البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوة تَنْضَحُ مِسْكَاً ولا بَدَعَ فِي الْفِنْجَانِ شَكْلُ الْغَزَالِ^(٢)
تديرها هيفاء ممشوقة خَوْدٌ تَنْتُ فِي بُرُودِ الدَّلَالِ^(٣)
بِفَرَّةٍ أَوْطَرَّةٍ وَزَعَتْ أَفْكَارَنَا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ
تقول للشمس وقد أَقْبَلْتُ تَلْمِي مَا أَنْتِ إِلَّا خِيَالُ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخذين من نشوئها رمزاً لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث .

ابن^(٤) وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسباً طويلاً ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائباً في الحكم بالأهواز في إيران لعبدان الجواليقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

وتمة البيئمة ٢٩/١ وحلبة الكميت في مواضع مختلفة

والعبدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢١٦/٢ وابن

خلكان ١٠٤/٢ .

(١) ربحانة الألبا ٢٢٦/٢

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الشابة الحسنة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره البيئمة ٣٥٦/١ .

بتنيس ، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية ، وتمتد فى بحيرة المنزلة ، واشتهر أهلها ^(١) بصناعة النسيج والتفوق فى صنع الثياب الشفافة والملونة ، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون ، وأكثر أغذية أهلها السمك ، وهم مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكمة ، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى . ويبالغ الأسلاف فى وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التى اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض . وفيها وُلد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فعرف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنيس . ولا نعرف الأسباب التى دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته ، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف . ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها ، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار ، ولا ندرى متى كان ذلك تماما ، غير أن من المؤكد وجوده فى القاهرة حين نزلها المتنبى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حِزْابة وزير كافور ، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبى ، حيث ذكر رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا فى سرقات المتنبى سماه المنصف إرضاء للوزير ، ويقول ابن رشيق فى العمدة : « سماه كتاب المنصف ، مثل ما سُمى اللديغ سليما ، وما أبعد عن الإنصاف » . ولم يكن المتنبى من ذوق ابن وكيع ، وبون بعيد بين ذوقيهما ، فالمتنبى شاعر جاد منتهى الجد ، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون ، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون ، فاندفع يريد أن يسقط المتنبى من عليائه وأنى له ذلك ؟ ! ويبدو أنه كان ثريا ، فأعانه ثراؤه على انغماسه فى المجون ، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواة شعره يذكرون له قصائد فى ابن حِزْابة ولا فى الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم ، فحسبه دائما كأس وطاس ، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول :

وإن آتوك فقالوا كُنْ خليفتنا فقل لهم إننى عن ذاك مشغولُ
وارضَ الخمولَ فلا يحطَى بلدته إلا امرؤ خاملُ فى الناس مجهولُ
واسفك دمَ القهوة الصَّهباء تُحى به روحى فإِن دم الصَّهباء مطلولُ ^(٢)
فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة ، ويبدو أنه تمثل كل

(٢) مطلول : مهدر لا يُطْبأ ثاره .

(١) انظر فيهم نقول المقرئى عنهم فى كتابه الخطط

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السييء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعدده نظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه بجان بغداد نظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تنيس كما يقول المقریزی وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقا والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يظيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدوها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناءه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع وصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدَى لَنَا فَصْلُ الرَّبِيعِ مَنْظَرًا	بِمَثَلِهِ تُفْتَنُ أَلْبَابُ الْبَشَرِ
فَلْأَرْضِ فِي زَيْ عُرُوسٍ فَوْقَهَا	مِنْ أَدْمَعِ الْقَطْرِ نِثَارٌ مِنْ دُرَرٍ ^(١)
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ كَحَدْيٍ كَاعِبٍ	رَاوِدَهَا ، فَاِمْتَنَعَتْ مِنْهُ بَشَرٌ
كَأَنَّمَا الْخَمْرُ عَلَيْهِ نَفَضَتْ	صِبَاغَهَا أَوْ هِيَ مِنْهُ تُعْتَصَرُ ^(٢)
أَخْجَلَهُ النَّرْجِسُ إِذْ جَادَلَهُ	فَاحِرٌ مِنْ قَرَطٍ حَيَاءٍ وَخَفَرٌ
وَانْظُرْ إِلَى الْأَطْيَارِ فِي أَرْجَائِهِ	إِذَا دَعَا التَّاكُلُ فِيهَا وَصَفَرٌ ^(٣)
كَأَنَّمَا - تَصْفِيرُ فِي رِيَاضِهَا -	سِرْبٌ قِيَانٍ فَوْقَ بُسْطٍ مِنْ حَبَرٍ ^(٤)

(١) التاكل : من قدت ابتلاها .

(٢) حبر : جمع حبرة ، وهى القطعة من نسيج الحرير .

(١) النار : ما يثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم

الفضية

(٢) صباغها : لونها .

وَالْتَسْكُ فِي عَصْرِ الصَّبَا كَأَنَّهُ مِنْ قَبْحه خَلَعُ عِذَارٍ فِي الْكَبَرِ^(١)
فَاشْرَبُ عُقَارًا لَوْ أَصَابَتْ حَجْرًا لَطَارَ مِنْ خَفَّتْ ذَاكَ الْحَجَرُ
كَأَنَّمَا الْأَوطَارُ فِيهَا جُمِعَتْ فَلَيْسَ فِي الْعَيْشِ لِحَافِهَا وَطَرٌ^(٢)

وإنما أطلنا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير
الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت
تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فأنثت حياء
وتضرجت وجتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزجس جاد له فاحمر لقوة حجته خجلا . وفي
أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من
ستنس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك ومهجران
المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه .
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لومست حجرا لمسسه السرور ، وأنها تجمع الأوطار
والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباهج الطبيعة ، غير مرمو ولا مزدجر على
شاكلة قوله :

جَانِبْتُ بَعْدَكَ عَفَى وَوَقَارَى وَخَلَعْتُ فِي طَرِيقِ الْمَجُونِ عِذَارَى
خَوَّفْتَنِي بِالنَّارِ جُهْدَكَ دَائِبًا وَلَجَجْتُ فِي الْإِرْهَابِ وَالْإِنْدَارِ
خَوْفِي كَخَوْفِكَ غَيْرَ أَنِّي وَاثِقٌ بِجَمِيلِ عَفْوِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
أَنْظَرْتُ إِلَى زَهْرِ الرَّيِّعِ وَمَا جَلَّتْ فِيهِ عَلَيْكَ طَرَائِفُ الْأَنْوَارِ
تَاحَتْ لَنَا الْأَطْيَارُ فِيهِ فَأَرْهَجْتُ عُرْسَ السَّرُورِ وَمَاتَمَ الْأَطْيَارُ^(٣)
فَاشْرَبُ مَعْتَقَةً كَانَ نَسِيمَهَا مَسْكٌ تَضْوَعُهُ يَدُ الْعَطَّارِ^(٤)
مَعَ مُسْمِعٍ حَلَفْتُ لَهُ أَوْتَارُهُ أَنْ لَا تَنْفَارَ رَنَّةَ الْمَرْسَارِ
فَطَنِي بِمَرْكٍ كُلِّ عَضْوٍ سَاكِنٍ تَحْرِيكُهُ لِسَوَاكِنِ الْأَوْتَارِ

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخويفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أرهجت : أثارت .

(٤) تضيوعه : تذكى رائحته وتشرها .

(١) خلع العذار : كتابة عن التهلك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا في خمرياته ، ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الراححة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

الشريف (١) العقيلي

هو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفي قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء للمعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئ ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

لَمْ يَنْجُ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ وَلَا تُضَحَّ ضَحًى إِلَّا بِصَهْبَاءِ (٢)
أَدْرَكَ حَجِيجَ التَّدَامَى قَبْلَ نَفَرِهِمْ إِلَى مَنَى قَصَفِهِمْ مَعَ كُلِّ هَيْفَاءِ

(١) الخليلي . بتحقيق د. زكي الحاسني .

(٢) النحر : أذبح . يوم النحر : يوم الأضحية . تضحي : تليح الأضحية . الصهباء : الحمر .

(١) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره اليتيمة

١/١٥٠ والمغرب (قسم القساطر) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفرن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع)

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنغمات حُداة الملاحى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بحوار القاهرة) في كيبكة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين^(١) » وكأن ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة (للعماد الأصبهاني) على ترجمته فدلّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرا في القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد : كان له بها متنزعات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعا من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تمنا شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمه سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجا بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشر كأنما يتنفّض أمامها انتفاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها ويركها ، حتى لتتحول أمامه معبدا ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكنوسها المترعة ، وهو يدعو دائما إلى احتساء هذه الكنوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنانها ، مع القدرة البارة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعيا إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الغَيْمُ ممدودُ السُّرَادقُ والزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ^(٢)
والقَاشُ قد نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ المجالسُ والمرافقُ

أشـجـارـه وثماره مثل التراب والمخائق^(١)
 قد غنّت الأطيّار في طرقاته كل الطرائق
 فاعتق فؤادك فيه من ريق الهموم بشرى عاتق^(٢)
 فالأقحوان غصونه بيض النواصي والمفارق
 ومراد الأمطار قد كحلت بها حدق الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفل بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكاته كأنما قد قُطعت وقُصّلت من القاش أو من نسيج حريري متعدد الأصباغ ، بينما تطلّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فائن ومغنى ساحر ، جدير بالشراب المزبل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زيتته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراد تتمم بها زينتها وحسنها الفائن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بُيِضَت قُبَّةُ السماء وزُوِّقَت قَاعَةُ الفضاء
 فالسما بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّة بُيِضَت ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشت ونُمِقت بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة في مناظر يمثّل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلُ الصباح بين دايات الرياح
 وقوله :

السُّحْبُ تُرْضِعُ من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها الفصونَ مهودا
 وقوله :

أمهاتُ الثّمارِ بين الرّوائى
 وبناتُ الكروم تُجلى بما قد صاغه الماء من عقود الحبابِ

فطفل الصباح يحبو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ،
وأمهات الخمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من بنات
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحباب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي
باندماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحرا لا حدود له ،
سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى في غزله كقوله :

قامتُ قِيامةً روحها لرواحي إن النوى لقيامةُ الأرواحِ
وبكتُ فصار الدمعُ في وجناتها مثل الحباب على كئوس الراحِ
وكانُ صفحةً وجهها لما بكتُ روضُ يرصعُ ورْدُه بأقاحي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر
الرياض ومباهجها ، وهى أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقى في
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تخصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته
اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن قادوس^(١)

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي
ألفها عن الشعراء المصريين حوالى سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مر بنا
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، ومازال
يترقى بها حتى أُسندت إليه - مع الموفق بن الخلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

المخاضة للسيوطي ٦٣/١ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مليكُ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّهِ يُعيد وَيُبدى والليالى رواعمُ
وكم كربةٍ يوم التزالِ تكشَّفتْ بِحِمَلاته وَهَى الغواشى الغواشمُ^(١)
تشيد بناءَ الحمدِ والمجدِ يَبْضُهُ. وهن لآساس الهوادى هودام^(٢)

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهودام » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شىء ، فإنه يلتمس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهنا بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبية مخلوقة من كحل
والحجر الأسود لم يُخلَقْ لغير القُبَلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفى أشعاره توريات يصنعها تظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمير وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشرها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُمْ قبل تأذين النواقيسِ واجلُ علينا بنتَ قيسِ
عروسَ دَنْ لم يَدْعُ عَتَقُها إلا شعاعا غيرَ ملموسِ
تُجَلِّى علينا باسمًا نَعْرِها فلا تقابلُها بتَغْييسِ
مُذْهَبُ اللَّوْنِ إذا صُفِّتْ مُذْهَبُ لَهْمٍ والبوسِ

نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكَيْسِ
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رِيشُ السُّطُورِ

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دير ، وهو يعب منها متمليا بحال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرج الموم حين يمس الخلق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه آمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا كئوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلَيْلَةٍ كَاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَّرَهَا وَصَلُ الْحَبِيبِ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْأُمْلِ
بَثْنًا نَجَازِبَ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا كَفَّ الْمَلَامَ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ
وَكَلَّمَ رَامَ نَطَقًا فِي مَعَاتِبِي سَدَدْتُ فَاهُ بِطَيْبِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ
وَبَاتَ بَدْرُ تَمَامِ الْحَسَنِ مُعْتَنِي وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَقِلْ (١)
فَبْتُ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ لَهَا الْمَجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
رَاحٌ إِذَا سَفَكَ التَّدْمَانُ مِنْ دَمِهَا ظَلَّتْ تُقَهِّقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ (٢)
فَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ مُغْرَى بِهَا مِثْلَ مَا أُغْرِيتَ بِالْعَدْلِ (٣)

والخمرية بديعة يصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله ، يعاتب فيها صاحبتة مصرحا بما اقتطفها فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تتفقت أشعتها من أفلاكها في الكئوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها المجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شربها كفى عذلا ، فإنتى مولع بها ولوعك باللوم والعدل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

(٣) العدل : اللوم .

(١) نفل : تغرب .

(٢) جدل : سرود .

عبد^(١) الباقي الإسحاق النوفى

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بحلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشّت لنا تُحجِّلُ الكوكبا فناديئُها مَرَحَبًا مَرَحَبًا
أدارتُ بحضرتنا قهوةً وطافتُ بكأسِ الطَّلَا مُذهبا^(٢)
رَكْتُ ورمئتُ بالأحاطها وقد أذكرتنى عهدَ الصِّبا
وغنّتُ لنا فطربنا لها وياحُسْنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لُبّه ، وقد دارت عليه بكئوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويحبال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجاها فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أنسًا فاجعلِ الجرّةَ كأسا
واسقنى بالزُّقِّ والطّا سِىْ فإنى طِبتُ نفسا
وأقمِ لِّلْهُو والدَّ لذاتِ فى حانى عُرْسا
كيف لا وهىَ ترينى فى دُجَا الظلماء شمسا
وتقيم المميتَ حيّا بعد ما جاور رمسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يحالها فيه شمساً ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نفحة الرّيحانة
للمحبى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لى الكاس تماما واسقنى جَامًا فجَامًا^(١)
 اسقنى بالكوب والكاس سِ فرادى وتوَامًا^(٢)
 ثم بِالْجَرَّةِ فالج رَّة حتى أَتَّـرامى
 اسقِنى حينئذٍ بال رَزَقٌ حتى لا كَلَامًا
 ثم أَزهى موضعٍ فى ال رَوْضِ فاختَرَه مقاما

وهو صَبَّ بالخمر يريد أن يحتسبها حتى الثالثة ، بل يريد أن يشربها أرتالا جاما فجاما وكثوسا وأكوابا وَجَرَّت متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها فى أزهى موضع بالروض قد عبقت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاقى فى أيام العثمانيين ذكرى أبى نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الدينى من قديم ، ويكفى أنها هى التى أنشأت فى المسيحية نظام الرهبنة الذى شاع منها وانتشر فى العالم المسيحى . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيانها تسهم منذ زمن الولاية فى نشر مذهبى مالك والشافعى ، كما أسهمت فى القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوى وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم فى الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله^(٣) :

كُنْ بِمَا أَوْتِيَتْهُ مُغْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ الْقَنُوعِ الْمَكْنَى
 إِنْ فِي نَيْلِ الْمَنَى وَشَكَّ الرَّدَى وَقِياسُ الْقَصْدِ عِنْدَ السَّرَفِ
 كَسراجِ دُهْنُهُ قُوَّتُهُ فإِذَا غَرَّقَتْهُ فِيهِ طُفِي

(٣) نكت المبيان ص ٢٩٨

(١) الجام : إناء من فضة .

(٢) توام : توأم : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مَنى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مَنته وقوته ، أما إذا لُفِط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتقيم بن المعز قصيدة في القرافة ومقابرها وما تبعث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا (١) :

رجوتك ياربُّ لا أنى أطفعتك طوعَ أولى الانتهاء
ولكننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الورى والسَّماءِ
وأنتك أهلُّ لحسنِ الظنونِ وأنتك أهلُّ لحسنِ الرجاءِ

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشئ من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء (٢)

أيها التائه الذى ضلَّ عما يراد به
إنَّ للعَرَضِ وقفةً أمرها غيرُ مُشْتَبِه
فانتبه قبل أن تُرى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

(٢) ديوان الشريف العقيلي ص ٧٩ .

(١) ديوان تميم ص ٢٧

ونلتقى بظافر الحداد بعد تيمم ، وهو يذكر دائما بالموت كقوله ^(١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الْأَجَلِ
تَخْدَعُ الْإِنْسَانَ لَذَّتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي الْعَسَلِ
أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالَى فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن التضر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة ^(٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِآدَابِ الْقِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ
فَإِنْ جَنَحْتَ لَذَلِكَ وَاسْتَجَابَتْ وَخَالَفَتْ الْهَوَى فَهُوَ الْإِرَادَةُ
وَإِنْ جَمَحْتَ بِهَا الشَّهَوَاتُ فَاكْبَحْ شَكِيمَتَهَا بِمَقْمَعَةِ الْعِبَادَةِ
عَسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ الْمَعَالَى وَتَرْفَعُهَا إِلَى رُتَبِ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جماحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومروض مذلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه ^(٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَائِ الْمُسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مُفَرِّجَ لَيْلِ الْكُرْبَةِ الدَّاجِيِ
قَدْ أُرْتَبَجْتُ دُونَنَا الْأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنْ مَنَعٍ وَإِرْتَاكِ
نَخَافُ عَذْلَكَ أَنْ يَجْرِيَ الْقَضَاءُ بِهِ وَتَرْتَجِيكَ فَكُنْ لِلْخَائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أغلق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا ين سناء الملك^(١) :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى
فى وحشة القبر والدود المقيم به شغلٌ لنفسى عن دارى وبُستانى
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنما لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطناها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رسمه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله^(٢) :

يامنَ علا فى ملكه فاقربْ ومنَ بدّا فى نوره فاحتجبْ
ومنَ هو القصدُ لأهل الثهى والمطلبُ الأسنى وكلُّ الأربِ
عودتنى الأنسَ فلا تَنسَنِى وهبْنى الرُحمةَ فيما تهبْ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسنى وكل الأرب والأمل ، والذى عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن الممالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنى القوصى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بعفو ربه^(٣) :

قلتُ لى النفسُ وقد شاهدتُ حالى لا تصلحُ أو تستقيمُ
بأى وجهٍ تلتقى ربنا والحاكمُ العدلُ هناك الغريمُ
فقلتُ حسبي حُسنُ ظنى به يُنبئنى منه النعيمُ المقيمُ

(١) الديوان ص ٧٨٧ .

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٩٨/١٠

(٢) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف

قالت وقد جَاهَرْتَ حتى لقد حَقَّ له يُصْلِكَ نَارَ الْجَحِيمِ
قلت معاذَ الله أن يَتَّبِلَى بِنَارِهِ وهو بِحَالِي عَلِيمٌ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريقة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فبرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أنجهز بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار ، فيقول معاذ الله أن يصليه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته فى إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبوالمعالى ابن القحاح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة^(١) :

اضْبِرْ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرِّهِ واعلم بأن الله بالغُ أمرِهِ
واثْبِتْ فِكْمَ أَمْرِ أَمْضُكَ عُسْرُهُ ليلا فبَشِّرْكَ الصَّبَاحُ بِبُسْرِهِ
واضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسْلُ بَشْرًا فليس سواه كاشفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتى به القضاء من حل ومرار ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف النعم ومفرج المحن .

ونلتقى ببتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التتسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة^(٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي فَسامِحْ ما لعفوك من مشارِك
أَغْنِ يَاسِيدِي عَبْدًا فَقِيرًا أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه ببابه ، آملاً فى قبول تضرعه ، ويورثى تورية واضحة فى قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يئأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير فى الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الختادى فى الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد^(١) :

تَأْنٌ وَلَا تَجْزَعُ لِأَمِيرٍ تَحَاوُلُهُ فَخِيرُ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ مَا اللَّهُ فَاعِلُهُ
تَفْيَأُ بَظِلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقَنَّكَ فَوَاضِلُهُ^(٢)
وَعِزُّ تُهْنٍ دُنْيَاكَ وَاعْنِ بِتَرْكِهَا وَلَا تَحْفَلَنَّ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصري ، وممر بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه^(٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهُونُ
لَكَ عِزٌّ بَأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فِيكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، مادًا بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول^(٤) :

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(١) سلافة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٤) طبقات الصوفية للسلمي ص ٢٧ .

(٢) تفيأ : استظل .

أموت وماماتُ إليك صَبَابِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صَدَقِ حَبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فِيكَ مَالَا أَبْنِي وَإِنْ طَالَ سُقْمِي فِيكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي

فصباياته بالحب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات ويدخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفئ على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجته في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا ننظر أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرَّبنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحَمَال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو على الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية ^(١) مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخرة من أيام الفاطميين بصوفي كبير هو ابن الكيزاني وسنترجم له عما قليل . ومرَّبنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان ، اتجاه فردى فلسفى واتجاه جماعى سنى ، ومثل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية ^(٢) :

وَحَجَّبَ عَنَّا حُسْنُهُ نَوْرَ حَسَنِهِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالْهُدَى
فِيَانَارَ قَلْبِي حَبْدًا أَنْتِ مُصْطَلَى وَيَادَمَعَ عَيْنِي حَبْدًا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله ^(١) :

حَضَرُوا فَمُدُّ نَظَرُوا جَمَالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذَّ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا
فَكَانَهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمَرٍ حُبُّكَ طَافَتِ الْأَكْوَابُ
أَنْتَ الَّذِي نَاوَلْتَنِي كَأْسَ الْهَوَى إِذَا سَكَرْتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول ^(٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ وَمَنْ صَفَوْتَ لَهُ مَاذَا يُكَدِّرُهُ
هِيَّاتَ عَنْكَ مِلَاحُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكأن الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفى .

ويلقانا صوفى من أتباع ابن عربى ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربى إذ يقول ^(٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدُّ جَامِعٍ لِحُدُودِي
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزِ إِشَارَاتِي وَفَكِّ قُيُودِي
فَأَصْبَحْتَ مِنِّي دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِجُمُودِي

ويقول ابن حجر معلقاً على الأبيات : « وهذا نفسُ الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربى ، وكان له ديوان

(١) انظر ترجمة ككاكت في الفوات ١٠٨/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٥/٧
(٢) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢
(٣) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها العسوب وهي ملكة النحل .
ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر
تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل
الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء
الله السكندريّ الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى ، ومن
شعره قصيدة يقول فيها ^(١) :

ويا صاحِ إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودُ ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى الخلفَ بعدهم صريعَ الأمانى والغرامُ ينازعُ
وهذا لسانُ الكونِ ينطقُ جهرةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قواطعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ،
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه .
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله
كثيرا ليمثلوهم حماسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح
القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أنَّ تركَ الحبِّ ذنبٌ آثمٌ في مذهبي مَنْ لم يُحِبَّ
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهوى فهو عَذْبٌ وعذاب الحبِّ عَذْبٌ
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبوةٌ عُذْرِيَّةٌ ماذا قلبُ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زَقَّاعه ،
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله في
الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

رأى عقلى ولَّبى فيه حارا فأضرمَ في صميم القلب نارا
ألا يالائى دَعْنى فلانى رأيت الموتَ حَجًّا واعتمارا
وأهلُ الحب قد سَكروا ولكنَّ صحا كلُّ وفِرَقَتنا سُكارى

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حبه للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا في أثناء حبه بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجاً وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجارحة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية ، والسادة البكرية لا في أيام الماليك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين من مثل قول علي وفا :

تَغَيَّبَ عَنْ عَيْنِي فَغَيْبُكَ شَاهِدِي وَوَجْهُكَ مَشْهُودِي وَمَا عَنْكَ عَائِقُ
فَإِنْ غَبْتَ فَلْأَشْبَاحُ مِنِّي مَغَارِبُ وَإِنْ لُحَّتْ فَلْأَرْوَاحُ مِنِّي مُشَارِقُ
ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُفِيضَتْ عليها العلوم اللدنية^(١) .

ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم يريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم ، وقد يبالغون في ذلك ، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح^(٢) . وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء يمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره الحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة الحمديدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرض وأن يكون دائما معنا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حرباً دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعياً أن يزدهر المديح النبوى للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقاً ذريعاً . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصرى حيثئذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنه مادم مصرى للرسول ، بل أنه مادم عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه ﷺ (١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإنْ يَفَتْ ودَعَتْ أيام الحياة وداعا
لا أستلذُّ لغير وجهك منظرا وسوى حديثك لا أريد سماعا

وكان العزازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوى ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم (٢) :

أَفَى النَّبِيِّنَ بَرهَانًا ومِعْجَزَةً وخَيْرٌ مَنْ جَاءَهُ بِالوحي جبريلُ
سَلِّ إِلَهُهُ بِهِ سَيْفًا مَلَّتِهِ وذلك السيف - حتى الحشر - مسلولُ
وَيْلٌ لِمَنْ جَعَدُوا بَرهَانَهُ وَتَنَى عِنَانَ رُشْدِهِمْ غَيٌّ وتَضَلِيلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نيانه وبرهان الدين القيراطى مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويتردد ذلك في الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجى وغيره (٣) ، كما يتردد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوى من مثل قوله متوسلا (٤) :

الخطي (٤١٣/٤) وما بعدها ، وقد أنشد المحي في كتابه قطعا

كثيرة من المدائح النبوية .

(٤) تاريخ الجبتي ٣٥٣/١ .

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .

(٢) النبل الصافي ٣٤٣/١ .

(٣) وانظر نفاحة الرحانة للمحبي (طبعة عيسى البابي

يَا رَبُّ بِالْهَادِي الشَّفِيعِ مُحَمَّدٍ مَنْ قَدْ بَدَا هَذَا الْوَجُودُ لِأَجْلِهِ
كُنْ لِي مَعِينًا فِي مَعَادِي وَاكْفِنِي هُمْ الْمَعَاشِ وَمَا أَرَى مِنْ ثِقَلِهِ
وَاسْتَرْ بِفَضْلِكَ زَلَّتِي وَاغْفِرْ بَعْدَ لَكَ سَيِّئِي وَاشْفِ الْحَشَا مِنْ غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له في معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستريحه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلاً في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوي :

ابن^(١) الكيزاني

هو محمد بن إبراهيم الكنانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزاني ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد دون منه العماد الأصهبانى فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة .. وله ديوان شريتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكنون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلّ بها اعتقاده ، وزلّ فى مزالقه سداً ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة « وهم أشباه الكرامية بخراسان » فهو عالم

والواقى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزاني فى مجلة الثقافة ، العدد ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزاني وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقرن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورهما ، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقه ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العباد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومربنا آنفا أن العباد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهد في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتنق نحلته ، ويقول القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تسمى إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالته » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه ذات هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصادق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغري بردي : « لا يلتفت لقول الخبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العباد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تلذُّ لي في هوى ليلى معاتبي	لأنَّ في ذكرها بَرْدًا على كِبدي
وأشتهي سَقَمي أن لا يفارقني	لأنها أودعته باطنَ الجسدِ
وليس في النوم لي ماعشتُ من أرب	لأنها أوقعت جَفَنِي على السُّهدِ
ولو تبادتْ على المهجران راضية	بالمهجر لم أَشْكُ ما أُلقي إلى أحد
اللومُ أشبهُ بي منها وإن ظلمتُ	أنا الذي سَقَتُ حَتْفِي في الهوى يَدِي

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بـليلي ، وينادى في العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزاني مثله مثل شعراء الحب الإلهي جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذري ، معبرين بما في غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزاني يقول :

أترعم ليلي أننى لا أحبها وأنى - لما ألقاه - غيرُ حَمُولٍ
فلا ووقوفى بين أَلوية الهوى وعصيانِ قلبي للهوى وعذولى
لو انتظمته أسهمُ الهجر كُلِّها لكنتُ على الأيام غيرَ ملولٍ
ولست أبالي إذ تعلقتُ حبَّها أفاضتُ دموعى أم أضرتُ نُحولى
وماعبئى بالنوم إلا تغلُّلُ عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولِ

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذري ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانَه للعذول أو العواذل وصبره على الهجران الأليم وما يعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل في طيف يزوره في الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهري للأبيات فابن الكيزاني إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيامٌ لا نهائى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلّع شره في كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف في ألمه ، حتى ليبدل دمه في سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضيء في جنات قلبه وقواده ، وهو الخمر الروحانية التى سرت في شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جُرَّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ المحبَّةِ فى محبتهِ سقي

إنه لم يعد في حال صحو بل أصبح في حال سكر بالعشق الإلهي الذى لاحدود ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزاني :

ياحادى العيسِ اضطِرَّ ساعةً فهجنى سارتُ مع الركبِ
لأتحدُّ بالتفريق عن عاجلٍ رفقا بقلبِ الهائمِ الصَّبِّ

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلا - ببيكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَمَا عَرَجْنَا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلَلِ الدَّارِسِ
فَفَيْضُ الدَّمْعِ عَلَى رَسْمِهِ يُتَرْجَمُ عَنْ حُرْقِ الْبَائِسِ

ودائما يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملحّة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هام على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتَّبِعُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطِفْ عَلَى الصَّبِّ الْمَشُوقِ النَّائِبِ
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ

ودائما تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي مايزال يذوقها ويصطلي بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحبة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لحبه دواء ولا شفاء - يقول :

أَصْرَفُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعَوْنِي وَخَبِيبِي
عَلَّلُوا قَلْبِي بِذِكْرَا هُ فَقَدْ زَادَ لَهْيِي
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ النَّفْسِ سَ مَا دَامَ نَصِيبِي
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطَى نَبَ فِيهِ بِمَصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْيِي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الرابانية المصنّى ينسيه الحريق وناره المتلظية التي لا تنطفئ في سويداء قواده أبداً .

ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حماة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمربى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشرعية ولُقِّب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولِي نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضي القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسك ، وعُني بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثاني من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسنَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرا من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميري رَوْحٌ بِمَكَّةَ رَوْحِي شَادِيَا إِن رَغِبْتَ فِي إِسْعَادِي
كَانَ فِيهَا أَنْسَى وَمِعْرَاجُ قُدْسِي وَمُقَامِي الْمَقَامُ وَالْفَتْحُ بَادِي

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أيا ما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية . ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للدكتور محمد مصطفى حلمي وكتابنا فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغني النابلسي وهو شرح صوفي رمزي ، ومع شرح حسن البوريني على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في جبهه الإلهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار توج بوجد ملتاع لحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذرين ومايدكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضاً مايدكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الحجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدثه نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بمالا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحب فاسلّم بالحشا ما الهوى سهلُ فما اختاره مُضنى به وله عقلُ
وعش خالياً فالحب راحته عنا وأوله سُقمٌ وآخره قتلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيداً ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكنائنه وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غاب عني - كلُّ جارحة في كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهج
في نعمة العود والثأي الرخيم إذا تألفا بين ألحانٍ من الهزج^(١)
وفي مسارح غزلان الخائل في برد الأصائل والإصباح في البلج^(٢)
وفي مساقط أنداء الغمام على بساط نورٍ من الأزهار مُنتسج
وفي مساحب أذيال التسيم إذا أهدى إلى سحيراً ، أطيّب الأرج^(٣)

فهو يرى الله وجلاله وجلاله مائلاً في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والثأي المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصباح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطة الطبيعة البهجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريج العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبعث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل منظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولعه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يصلى فيه من هجر ، هاتفا من قواده :

تَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ وَتَحَكُّمٌ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَتَلَاقَى إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافِي بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ
فُقِّتَ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي فِيهِمْ فَاقَةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري ، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعبق في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتئلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزا لهذا الحب ، ولا خمر ولا كتوس ولادنان ولا سقا ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائما منتشي غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو - إِذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ
وَأِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ أَمْرِي أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ
وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا تَرَى قَبْرَ مَيِّتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سكره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والبياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراج القديس بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنمحاءه حيثئذ فى الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم فى بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه فى معراج من أهوال وخطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها فى معراج ، خالصا إلى الانمحاء والفناء فى الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهْزِنِيْ مالم تكنْ فَمِيْ فَانِيَا ولم تَفْنَ مالم تُجْتَلَبْ فَيْكَ صُورِيْ
كلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع فى كلِّ سَجْدَةٍ
وما كان لى صَلَّى سِوَاىَ ولم تكن صلاتى لغيرى فى أَدَا كلِّ رَكْعَةٍ

وكانه يشعر فى البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهى لاتصاله بل لانتصافه بالصفات البشرية . ويقول فى البيت الثانى إنما ينبغى أن تُمَحَى فيه حتى يفنى فى الذات الربانية وتتجلى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول فى البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا فى ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودى فى شهودى وَبِثْتُ عَنْ وجودِ شهودى ماحيًّا غيرَ مُبْتِ
وفى الصَّحْوِ بعد المحوِّ لم أَلِكْ غيرها وذاتى بذاتى إذ تَجَلَّتْ تَجَلَّتْ

فهو قد انمحق وفنى فناء كلياً فى الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره فى حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الربانى ، بل أيضا يعتره فى حال الصحو ، فهو دائما محوٌّ فإن فى الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الخيانة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليذ الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري مأمقُتْضَى حِرْمانى دون غيْرِى والألْفُ للرَّحْمَنِ
أترانى لا أَسْتَحَقُّ لكونى جامعا شَمَلَ قارئِ القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائلة في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصرى المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائح من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أننى وحدى لكنتُ مريدًا فى رِباطٍ أوعابداً فى مَعَارَةٍ

وكانه كان يشعر فى أعماقه بأنه خُلِقَ لالكون إنسانا يضطرب فى الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا فى رباط صوفى أو فى كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم فى سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عدَّ ثانى اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندرى ، وفى ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزیه فى شيخه أبى الحسن حين توفى سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، يقول :

اسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةَ حَقِيقَةِ وَمُحَمَّدِيَّ الْمَحِيدِ
 إِنَّ الْإِمَامَ الشَّاذِلِيَّ طَرِيقُهُ فِي الْفَضْلِ وَاضِحَةٌ لَعَيْنِ الْمُهْتَدِي
 قُطْبُ الزَّمَانِ وَعَوْنُهُ وَإِمَامُهُ عَيْنُ الْوُجُودِ لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوى ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شأهت وجوهمهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديحه النبوى ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المحرفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوى ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزية النور المحمدى المعنوى لب الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوى الذى يستمد منه الكون وجوده والذى تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسى مادى هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسَنَةِ مَا لَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ فَلَمْ يَفْتَهُ عَلَى الْخَالِقِينَ تَكْمِيلُ
 مِنْ آدَمَ وَلِحَيْنِ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ أَلْ حَمَكُونُ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ
 فَلِلنَّبْوَةِ إِتِمَامٌ وَمُبْتَدَأٌ بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد اللتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائماً يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبیین وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سِرّاً في ضمير الغيب من قبل أن يُخلَقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوأُن من أنواره كلما أودعها الله جَبِينا
ختم الله النبیین به قبل أن يَجْبَلَ من آدم طِينا
فَهُوَ في آباءهم خَيْرٌ أبٍ وَهُوَ في أبنائهم خَيْرٌ ابْنِنا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجْبَلَ أو يُخلَقَ آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوى الأزلى ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهى . ويكثر البوصيرى في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيرى بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهى في نحو أربعائة وخمسين بيتاً وعنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة الحمديدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذى يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَفَى رَقِيكَ الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء
إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضلٍ فما تصد لدر إلا عن ضوئك الأضواء

فالرسول لاتبغ منزلته ودرجته الرفيدة منزلة أى نبىٍ أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثل النجوم المتراية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود اقترائهم على الدين الحنيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجته إلى مكة وأداء المسلمين

لنأسك الحج . وينوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته
أبى العباس المرسى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبُرْدَة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان
قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها
ويبكي ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبى ﷺ يمسخ على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ،
وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية
من ذى سلم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه
السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جراح النفس ورداها عن شهواتها .
ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
ويسترسل فى تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقِي وَفِي خُلُقِي وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمِي وَلَا كَرَمِي
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِلْتَمَسُ غَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ شَفَاً مِنَ الدَّيَمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلُمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من
نوره ، فنوره يتجلى فى الأنبياء جميعا ومهما تعددوا فى الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة
واحدة هى الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن
معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى
استسلموا صاغرين . ويتضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به فى
دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات
الذكر الصوفى وله بجانبها فى المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبي الحسن^(١) البكري الصديق

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ فَلِحَالِي بِاللَّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ
كُلُّ قَطْرٍ أَصَابَنِي مِنْكَ بَحْرٌ كَيْفَ وَالْحَالُ فِيَّ تَجْرَى بِحَارُكُ
كُلُّ جِزْءٍ مِنِّي لِسُرِّكَ دَارٌ عَمَّرَ اللَّهُ يَاحِبِي دِيَارُكَ
مَنْ رَأَى رَأَاكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَيْ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَزَارُكَ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ فإِذَا الْبَكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ
نَعَمْ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي بَعِيدٌ فَقِيدٌ طَرِيدٌ غَرِيبُ
بُكَائِي عَلَى لَأَنِّي بُلِيتُ بَدَاءَ الصُّدُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائماً هو واله ملتان يبغي الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويثن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصديق للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن ربحانة الألبا للخفاجي ٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبي المواهب ص ٢٢٣ وراجع شلوات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا راجيا ويردد ماررده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكرى استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قربه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لا يخيب أمله ، والذى ينال سؤله اللائذ . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرم الخلق على ربِّه وخير من فيهم به يُسألُ
قد مسنى الكربُ وكم مرة فرجتَ كربًا بعضهُ يُذهِلُ
وأنت بابُ الله أىُّ امرئٍ أتاه من غيرك لا يدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفرج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندر والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر ^(١) » . ولا يلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل ^(٢) » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القسطاط) ص ٢٧٠

تتسع ، إذ ينبز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصمهاني إذ يلقانا فيه شاعر يُقْب بِشَلْع وثان بالوضع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنساس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بغلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهى تكثرت في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التى يكثر إلقاؤها إلى الفضاء فى الأعياد ، فلا تزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولا يزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونايه أو ناياته (١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبُهُ تكثُرُ في صناعته عجائبُهُ
يحجب صبرَ المرء عنه حاجبُهُ كأنما نايأته ذوائبه

والتورية واضحة فى حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية فى الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر فى غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول فى ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد (٢) :

هذا ابنُ أفلح كاتبٌ متفردٌ بصفاته
أقلامه من غيره ودوائبه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء فى زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعاية مشهورة للقاضى الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طبيب تعهّده وكان محموماً ، فلم ير أعلى يديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ بِلَيْتِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السَّقَمِ الْمَلْحُ بِعَسْكَرَيْنِ
طَبِيبٌ طِبُّهُ كَغُرَابٍ بَيْنِي يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي
أَتَى الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ فَرَدُّ لَهَا الشَّبَابَ بُسْخَتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرٍ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حُتَيْنِ (٢)
وَكَانَتْ نُوبَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرُهَا بِحَذَقٍ نَوْبَتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخَتْ وبَاخَتْ أو فُتِرَتْ فإذا هو يردُّ لها الشباب بورقتين من سَفَوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذرّوى في الحَقبة الأيوبية ووصفه لحدة ابن أبي حصينة وصفا سآخرا لاذعاً . ومن طريف ما نقرأ من دعايات في هذه الحقب دعاية البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لَكَ يَا صَدِيقَ بَغْلَةٍ لَيْسَتْ تَسَاوَى خَرْدَلَةً
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيُو نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَةً (٤)
وَتُخَالُ مَدِيرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجِلَةً
مَقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطَّو يَلَةً حِينَ تَسْرِعُ أُنْمَلَةً
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَةً

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولاتتحرك كأنما هي زلزلة .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص

٥٤ .

(٤) مشكلة : مقيدة .

(١) الخريدة ١٩٢/١ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرّة من أطباء القرن

الثالث ومثله حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله مشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل^(١) :

بِاللهِ قُلْ لِلنَّيْلِ عَنِّي إِنِّي لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ الْفَرَاتِ غَلِيلاً
وَسَلَّى الْفَرَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ أَنْ كَانَ طَرَفِي بِالْبِكَاءِ بَخِيلاً
يَا قَلْبُ كَمْ خَلَّفْتَ ثُمَّ بُيِّنَتْ وَأَظُنَّ صَبْرَكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن إلى ماء الفرات لن يشفى غليله ، ولن يكف بكأؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبثينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان^(٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله^(٣) :

مَلَكْتَ الْخَافِقِينَ فَتَهْتَ عُجْبًا وَلَيْسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَفَرَطَكَ

فهى لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمّامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور^(٤) :

أَقُولُ وَقَدْ شَتَّوْا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً دَعَوْنِي فَإِنِّي آكُلُ الْخَبْزَ بِالْجُبْنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات النصير الحمّامي قوله في بعض غزله^(٥) :

وَيُظَنِّي حَيًّا رَوَيْتُ بِرَيْقِهِ فَإِذَا دَعَا قَلْبِي بِجَاوِبِهِ الصَّدَى

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

٣١٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصَّدَى المتصل بالدعاء والجواب رجع الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورئى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرا رديئا غالبه نوى ، إذ كتب إليه ^(١) :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته بيد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسوم فودنا باقى ونحن على النوى أحباب
والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراد ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكائس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لا يفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكاه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن ^(٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ . وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما ت وكورت شمس المديح
ماذا أرجى فى حيا تى بعد موت أبى مليح

والخريدة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزائن الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبتهجاً والغيثُ فى يدهِ يَهْمِي فيجمعُ بين الشمس والمطرِ
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ حِلْمِهِ وَأَنَاتِهِ وَالسَّيْفُ حاسدٌ بِأَسِهِ وَمَضَاهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها
أوسابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قلتُ إذْ عَقْرَبَ الدَّلَا لُ على خَدِّهِ الشَّعْرُ
مارئِي قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ القَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،
وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَةٌ حَمْرَةٌ رَقَّتْ فى الياقوتِ طَبْعُ الجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسنُ فى وَجَتِهِ وطَرَفِهِ يفتح وَرْدًا وَيَغْضُ نَرَجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى المحون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات
بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبُّ من إبريق :

إبريقنا عاكفٌ على قَدَحٍ كأنه الأُمُ ترضعُ الولدا
أوعابدٌ من بنى الجحوس إذا توهَّم الكأسَ شُعْلَةً سَجْدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نواذر وأشعار كثيرة ،
كان فيها يتاجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان
دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبث الجرذان فيها وبنات وَرْدان أو الصراصير ،
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لَى بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابْنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ
أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ
بَقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذَّ سَكَّتْهَا - فِي الْكُسُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيـف من أشعار ابن حجـاج المـفحـشة ، ويقول إنه - مذ سـكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهى تورية واضحة . ومن قوله الفكـه يشكر شيخـوخـته ووهن عظمه وكلال بصره :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ لَدْ رَقِيعًا كَمَا تَرَى
أَحْسَبُ الْمُقْلَ بُنْدُقًا وَكَذَا الْمِلْحَ سُكْرًا
وَأُظِنُّ الطَّوِيلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
قَدْ كَبُرَ بِرِّي بِرِّي تٌ وَعَقْلِي إِلَى وَرَا
عَجَبًا كَيْفَ كُلُّ شَيْءٍ سَنِىءٍ أَرَاهُ تَغْيَرًا
لَا أَرَى الْبَيْضَ صَارَ يُؤْ كُلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
وَإِذَا دُقَّ بِالْحِجَا رِ زَجَاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن فى مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكف عن رقاـعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمدور ، ويحس ارتعاشه فى شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكـد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فـه مـكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شىء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق فى الضحك ، إذ تحولت الحقائق فى عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب فى أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هى التى جعلت المصريين لزمـنه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزائر^(١)

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من برة ، ويذكر دعوته له مرارا للترجمة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يقدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزق من حسن الاهتداء لغرائب المعانى وبدائع الالفاظ مايدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى تميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة فى وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة فى الفسطاط لزمه ، فطبيعى أن لا ينجح فى أشعاره إلى الالفاظ الغربية إنما ينجح إلى الالفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الماد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزغول ١٩١/٢ ومابعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمتبنيات من شعره بخط الصفدى فى ١٨٠ ورقة .

(١) انظر فى الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المخاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العبرى (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحامى ، وكان له حَمَامٌ يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ تيسٍ

ورَدَّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

يرجئنا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبد أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لا أشكرُ الجزارة ما عشتُ حِفَاطًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّى نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبَّه بآبن مكنسة وأبى الشمقمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهاً بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْعَةٌ صفراءُ لا أبالى إذا أتانى الشتاءُ
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مُدَارٌ وسَقَفُ بيتى السماءُ
لو ترائى فى الشمس والبردُ قد أُنْزِلَ حَلَّ جسمى لقلتُ إني هَبَاءُ
كلما قلت فى غَدٍ أدرك السُّو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فتحى الثياب لايحدها ، وبيتته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شبعا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكونُ بها أو أكونُ على القارعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأتُ : (إذا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ : (الواقعه)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولا سقف ولا حيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقض حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعه ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ مِنَ الْعُمُوسِ سِنِيًّا غَسَلَتْهَا أَلْفُ غَسَلَةٍ
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقْرُ وَمَا تُقَرَّرُ بِعُمَلَةٍ
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمُ وَذَاكَ التَّيْسِيُّ فِيهَا وَخَطَرُنِي وَالشَّمْلَةُ
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَهُ

فهي نصفية أو « جبة » طالما لبست وغُسلت وصُبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجنابة وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهي فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنّا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال تَوَا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسْمَا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَلَا تَسْؤَمُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكَنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : المظللان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، فضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزُوجُ الشَّيْخُ أَبَى شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تَبَصُّرَهَا الْجِنُّ
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ
وَقَائِلٍ قَالَ فَمَا سَيِّئُهَا فَقُلْتُ مَا فِي فَهْهَا سَيْنٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنّها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا في رثائه لأنثاه ، وجمع بعض معاصريه مرثيه لحماره في مجلد ، وهى مرث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِيْبًا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَنِيزُ أَكْبَرُ

وفى الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزممه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قُلْتُ لَسُقْمُ الْجِسْمِ مِنِّي وَقَدْ أَفْرَطَ بِي فَرَطُ ضَنَّا وَاكْتِنَابُ
فَعَلْتُ بِي يَأْسُقْمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتْلِسُ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج ^(١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبعي ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، ومازال الشعر يصعد به حتى عيّن كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدّها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيقٌ وشامٌ
ولا تذكرنّ يوما نظاميّةً لها فليس يضاهي ذا النظام نظامٌ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومررنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مراثية بديعة في المعز أليك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمٌ عليه مآتما بعد ماتمٍ ونسفحُ دمعا دون سَفْحِ المقطمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات

الوفيات لابن شاکر ٢/٢١٣ والنجوم الزاهرة ٨/٨٣

وشفوات الذهب ٥/٤٣١ وخزانة الأدب للحموي ص

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدر ١/٩٠ وخطط المقرئ

٣/٣٤١ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية

ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا أَلِلشَّقَائِقُ أُمٌ لِلوردِ نِسْبَتُهُ
فَذاك بِالْحَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذا دَلِيلُهُ أَنَّ ماءَ الوردِ رِيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حَشْرِهِ لَعَلَّ النَّاسِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِي خَدِّ صَاحِبَتِهِ ، فَإِنَّ الصُّورَةَ تَبْدُو بَعْدَ ذَلِكَ بِدِيعَةٍ وَمَعْرُوفٍ أَنَّ الشَّقِيقَ قَاتِمَ الْحَمْرَةِ ، وَقَدْ أَبْدَعَ فَعَلًا إِذْ جَعَلَ دَلِيلَ نِسْبَةِ الْخَدِّ إِلَى الْوردِ رى صَاحِبَتِهِ الشَّيْبَةَ بِمَاءِهِ . وَمَنْ غَزَلَهُ أَيْضًا :

لَا نَحْجُبُ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبْقَ مِنِّي لِفَرْطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ
وَلَا تَتَّقْ بَأَنِّي إِنْ مَوْعَدُهُ بَأَنَّ أَعْيَشَ لِلْقِيَا الطَّيْفُ مَكْذُوبٌ
هَذَا وَخَلْكَ مَخْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ يَقِيضُ عَلَى خَدِّيَّ مَخْضُوبٌ
تَأَوَّدَ الْغُصْنُ مَهْتَرًا فَأَنْبَأَنَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خُلِقْتُ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيئات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخند صاحبتة في حمرة . ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبتة . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصرى كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بطن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانٍ قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ التُّحُورَا
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ فاقطعْ لِسَانِي أَزِدْكَ نُورَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقى حين يقول « اقطع لسانى » وهو إنما يريد النوال الذى يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَاخْجَلْتَنِي وَصَحَافَتِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَافَتُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضيحتي لمعنفٍ لى قائلٍ أكذا تكون صحائفُ الوراقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجهي عن أناسٍ لقاءَ الموتِ عندهمُ الأديبُ
وربُّ الشعرِ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لهمُ حبيبُ

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبوتام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُوَيْنَى وانتصبْ واكتسبْ واكْدَحِ فنفسُ المرءِ كدَاحَةٍ
وَكُنْ عن الراحةِ في عَزَلَةٍ فالْضَفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقله معروفة في مصر باسم « الرجلَة » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلا :

وأحمقٍ أضافنا ببِقْلَةٍ لنسبةٍ بينها ووُصَلَةٌ
إذ مَدَّ في وجه الضيوفِ رِجْلَهُ

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجلَة على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فسَّرَ لى عابِرٌ منامًا فَصَّلَ في قوله وأجْمَلَ
وقال : لا بد من طُلُوعٍ فكان ذاك الطُلُوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لانقل عنها لطفًا وبراعة .

ابن (١) دانيال :

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتىً إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى واضيقتى فيهم وإفلاسى
ماحال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على السنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب الليالى ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمّنه من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عُصَيَات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجهز على بصره فيصبح ضريراً محتاجاً إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقوده الله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيتك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشترت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقّلتنا والعقلُ أى وثاقٍ وصبرنا والصبرُ مرٌّ المذاقِ
كلُّ من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابتنا الفكاهة في مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ وما بعدها .

(١) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبحر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما نسميها بابات لتمثّل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمّي متحركة متحاورة ، واسم أولاهـا « طيف الخيال » ، والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهريبيرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأُمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهى مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرّباً شديداً إلى عامة أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنيا بفضلـه وجِدّه وهزله ، ويسلّم سلام القادـم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحـدبته بمثل قوله :

قسماً بحُسنِ قَوامِكِ الفتّانِ يا أوحدَ الأمراءِ فى الحُـدُبانِ
يامشبهَ الغُصنِ الرطيبِ إذا انثنى من حـدْبـتـه يـميسُ بالرمّانِ
ياعجلاً شـكَلَـ الحلالِ بـقـدّه حاشاك أن تُعزّزى إلى نُقصانِ

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب رِدْقَيْن ، وهو جمل جليل السّنام ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضّ الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر فى سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريسه فى الطرقات وفى عنقه دَنّ نبيذ أو نبادية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حدُّ السُّكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان فى شرّنا جُلداً
فلما بدا المـضـلُوبُ قلتُ لصاحبى ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحدَّ
والتورية واضحة فى كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشئ لحده

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحذب ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوائى الخمر ودينانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شيخنا إبليسُ وخلا منه ربيعُه المأنوسُ
والقناني به تكسرنَ والخمُّ - أارُ من بعد كسرِها محبوسُ
وذو القَصَفِ ذاهلون وقد كا دتْ على سبيلها تسيلُ النفوسُ
والحرافيشُ حولها يتباكو ن بنارِ تُراع منها الجحوسُ
وقصيبُ ونرجسُ وسعادُ باكياتُ ونزهةُ وعروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا واقتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَعَر انتقاما منه حين هزى به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الملاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شروى نقيز كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورش الطيب على الحضور ويُنشد :

أُمسيتُ أفقرَ مَنْ يروحُ وَيَعْتَدِي ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فى منزلٍ لم يَحْوَ غيرى قاعداً فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ مَهْدِي
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تَمَكَّنَ فوق عِرْقٍ يَفْصِدِ
والفارُ يَرْكُضُ كالخيلٍ تسابقتُ من كلِّ جَرْداءِ الأديمِ وأَجْرَدِ
وترى الخنافسَ كالزئوجِ تصفقتُ من كلِّ سوداءِ الأديمِ وأَسْوَدِ
هذا ولى ثوبُ تراه مرقعا من كلِّ لونٍ مثل ريش الهدهدِ

ومع ذلك يُزَفّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور مايتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه خطأ . وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالنُّوح والتعديد بعد فقد العجوز أم رشيد
هلكت آخر الليالى السود ياليلى الوصال بالله عودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويطرّد فيها التسلسل ، وشخصوها في غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . ومازال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور في أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر^(١) الأنبوطى

يقول الجبرتي في ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزناً وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهّلها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى أحمد ربى لست بالقنوطى^(٢)
وأستعين الله فى ألفيّه مقاصدُ الأكلِ بها محويّه
فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعم لذتُ لكل جانعٍ وهانم^(٣)
طعامنا الضانى لذيذٌ للنهم لحما وسمنًا ثم خبزًا فالتقم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليأس

(٣) الهانم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتي

فلإنها نفيسة والأكل عَمَّ مطاعمٌ إلى سَنَها القلبُ أَمْ^(١)
والأصلُ في الأخبازِ أن تُقَمَّرَا وجُوزوا التَّقْدِيدُ إذ لا ضرراً^(٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئاً من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقاً ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تَرِياقُ من العللِ وَأَصْحُنُ الرِّزِّ فيها منتهى أُملى^(٣)
ولا خليلٌ يَدْفَعُ الجوعَ يرحمَنِي ولا كريمٌ بَلَحْمِ الضَّانِ يسمح لى
طال التلهف للمطعم واشتعلتْ حُشاشَتِي بِحِمَامِ البَيْتِ حين قُلِي
أريد أكلًا نفيسًا أستعين به على العبادات والمطلوب من عملى

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعاً حكماً وأمثالاً ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبَصْلٍ في عِشاءٍ فَهُوَ للعقل خَبْلٌ
وعَنِ البِصَارِ لا تُغْنِ به تُمسِ في صَحَّةِ جِسْمٍ من عِلَلٍ
واحتفلْ بالضَّانِ إن كنتَ فتى زاكِيَّ العقلِ ودَعْ عنكَ الكسْلُ
من كبابٍ وضلوعٍ قد زَكَّتْ أَكلُها يَنْقِي عن القلبِ الوَجَلُ

وطعام العدس والبصل وكذلك البصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه في القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة ألوان

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني الطعام وطهيه الكبيرة .

(١) أَمْ : قصد .
(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على النار

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والخشاف . ومازال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤهما جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية ، ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تحتل الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحمامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليا استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربى وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمّته مصر بُلُغًا وجمّعتة على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحماض ، ومنه ما سمّي قَرْصًا وهو ما تضمن الهجاء أو الغزل ، ومنه ما سمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومرر بنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان يختم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .
وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت
تلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام
أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان
بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن
بُليقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحقاني
نرجع لديني الأول عن النسا لَسْ نتحوّل
إن كنت في ذا تتقول اضعف وقطّع آذاني

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره^(١) . واشتهر في القرن
السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق^(٢) ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين
القوصي وقدرى له ابن حجر بُليقا^(٣) ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدرى له ابن تغري
بردى بُليقا^(٤) ، هزليا رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلقُ فقد صدق
عندي قبا من عهد نوح على الفتوح^(٥)
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أي هرم إلى بليغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ،
وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . وبجانب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا
العصر ، من ذلك مطلع زجل رواء صفي الدين الحلّي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من
القرن الثامن الهجري ، وهو يجري على هذا النمط^(٦) :

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥
(٢) انظر بعض بُليقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص ٣٢٧
(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣
(٤) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .
(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنق عليه .
(٦) العاقل الحال لصفي الدين الحلّي نشر ولهم هو نرباخ
بألمانيا ص ٢٧ .

مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْعِدَارُ
عَرَضْتُ لَوْ بِالْأَلْمَاخِ صَارَ وَرَدُّوْ كَالْبَهَارِ^(١) وَتَبَدَّلُ لُونُو بِالْصَّفَارُ

وأنشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقتهم
ولطفهم وظرفهم ، ومما جاء فيه ^(٢) :

لَسْ غَرِيبُ مَنْ فَارَقَ أَوْطَانُو أَوْ يَعِدُ عَنْ نَازِلُو الْحُبُوبُ
إِلَّا مَنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنْ نَازِلُو مُحْجُوبُ
حَيَّى عَنِّي حَجَبِيَّوْ أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حُفَاظُو
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُو عَنِّي حَتَّى عَنِّي قَبْدَ الْفَاطُو
كُلْ يَوْمَ لِأَجَلُو يَغِیْظُ قَلْبُو رَبِّ غِیْظُ قَلْبِ الَّذِي غَاظُو
مَآخِطَرُ إِلَّا وَهُوَ خَائِفُ أَوْعَبَرُ إِلَّا وَهُوَ مَرْعُوبُ
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفْظُهُ لَا وَلَا يَرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبُ
زَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّیَاضِ يَمْرُحُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَثْرَابُو
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لِقَى أَحْبَابُونَسِي أَصْحَابُو
قَالَ لِي قَدْ ضَجَّتْ بَنَاتُ أَعْدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعلوبة . وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن
القماح في وصف النرجس ^(٣) . ولما توفي السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا
عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم ^(٤) :

كُوكِبُ السَّعْدِ غَابَ مِنَ الْقَلْعَةِ وَهَلَالُو قَدْ انْطَفَأَ بِأَمَانُ
وَزُحَلُّ قَدْ قَارَنَ الْمُرْبِخُ لِكُسُوفِ شَمْسِ الضُّحَى شُعْبَانُ

ومن أطراف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة ^(٥) نظمه زجال
مصرى في رثاء الغيل مرزوق ، وهو قيل كان قد أهداه تيمورلنك في أوائل القرن التاسع الهجري
إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(١) البهار : زهر أصفر .

(٢) العاقل الحالى ص ١٠٩

(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانتحست به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبه هندية قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت جيرانها^(١)
من كثر مانحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بودانها^(٢)
حتى الزرافة جاءتها متحسره
تبكى على الفيل الى مات في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفئات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعد في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفي دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهى الفن الشعبى العامى الثانى الذى استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجدته فى ديوان ابن الفارض الصوفى ، واشتهر به فى عصر المماليك أبو بكر بن العجمى عين كتاب الإنشاء فى مطلع القرن التاسع الهجرى وكان إمام فن المواليا^(٣) لزمه وضروبه المتشعبة ، ومن موالياته :

للحب قالوا معنأك الذى اذبلتو جدلوا بقلبه فقلبو فيك خبلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو ومات ، للشرق ما درتو وقبلتو^(٤)

قد تكون من القبله بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسيقها
بكلمة البوس ، وقد تكون من القبله بكسر القاف أى
مأداره نحو القبله بعد موته وهو المعنى المراد .

(١) مبطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزائن الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أى أدرته . وفى قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام الممالك وأيضاً في أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البُلْبُق ، وموضوعة الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوِي :

خَطَرَ عَلَى غَزَالِي مَرَّ مَا أَتَكَلَّمُ فَوْقَ جَفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحَشَا أَكَلَّمُ
إِيشْ كَانَ يَضْرَهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسْرَ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثاني القَرَقِيَا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّة .

قَالُوا تَحِبُّ الْمَدْمُسُ؟ قُلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَيْشُ الْإِبْيَضُ تَحِبُّهُ قُلْتُ وَالْكِشْكَارُ
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبَقُ؟ قُلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا اشْ ثَقُلْ فِي الْخَضَارَى قُلْتُ عَقَلِي طَارَ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفّر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواعظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بِاللّهِ يَا قَلْبُ دَعْ عَنْكَ الْهَوَى وَاسَلِّمْ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَفَى عَهْدِهِمْ أَسَلِّمْ
وَالزَّمْ حَمِي سَادِقٍ مِنْ أَمْتِهِمْ يَسَلِّمْ وَاسَلِّمْ سَبِيلَ الثَّقَى يَوْمَ اللَّقَا تَسَلِّمْ

ويقول صفي الدين الحلي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكان قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق ^(١) . ويحكى ابن تغرى بردى منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النمط (٢) :

مَنْ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانتِ ألا كدابة

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراق أيضا ، إذ نرى الجبرقي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذلك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق^(١) . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

إبراهيم^(٢) المعار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الخائنك وقيل المعار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيما في الأزجال والبلاليق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيما في الأزجال والبلاليق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القرينة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِحَ الطاعون داءً فَقَدْتُ فيه الأُحِبَّةَ
بيعتِ الأنفسُ فيه كُلَّ إنسانٍ بِحَبِّهِ

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبينِ
وأنت يادمعُ إن ظهرتَ بما يُخفيه قلبي سقطتَ من عيني

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوفاي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

(١) انظر الجبرقي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمثل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجته مداعبا :

لما جَلَّوْا عِرْسِي وَعَايْنَتْهَا وَجَدْتُ فِيهَا كُلَّ عَيْبٍ يُقَالُ
فقلت للدلال ماذا ترى ؟ فقال : ما أضْمَنُ إِلَّا الحلال

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته
مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

ما كان صَفْعٌ بِالرُّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ أُذُنِي
لولا يَدٌ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنِي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع
وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ،
وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وَنَخَادِمٍ يَعْلُو عَلَى عِشَاقِهِ بَرْتَبَةً مِنَ الْجَمَالِ نَاهَا
وِإِسْمُهُ - وَهُوَ الْعَجِيبُ - مُحَسَّنٌ وَكَمْ دَمُوعٍ فِي الْهَوَى أَسَا لَهَا

وفي كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو
الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَصْرُ إِلَّا مَنْزِلٌ مُسْتَحْسَنٌ فَاسْتَوْطَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا
هَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ بِهِ فَتَيَمَّمُوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فتيمموا صعيدا طيبا) وهو لا يريد معنى
الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ،
ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْخَزَّانُ لَمَّا أَنْ رَأَى نِيلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَبَلُ
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أُخْرِجَتْ سُبُلَاتِ ذَاتِ حَبٍّ فَاخْتَبَلُ
وَبَكَى إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عُرُوقًا وَسَبَلُ

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمراء ، وهو لا يريد هذا المعنى
فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبل كما
تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولى فراقه يوم عيدي
فقل شيع بست فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ،
ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُغنِ
كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجْتُ يوما مع الحُبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهَى على من قَبْلَكَ في الحَدِّ
فَسَلَّ سيفو من أَجْفَانو لقتلى حَدَّ قلت انتهى الأمر يا حِجِّي لهذا الحدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية
المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أَصاب صميمَ القلب زين الزَّيْنِ وَأَصْبَحْتُ مُضْنَى قَلْقٍ أَخْشَى حلول الحَيْنِ
وكنت قَبْلُ خَلِيٍّ لم أَشْكُ وشكَّ البين سألَمُ من العشق حتى صابني بالعين

ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة الحب بحبوه بعينه وسهامها القاتلة . وله
مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها تظرفا لأهل زمنه .

(١) الغُبَارَى

هو وخلف بن محمد الغُبَارَى عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا
ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه
منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثذنة

للنواجي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بئنة
ص ٢١ .

(١) انظر في الغُبَارَى تاريخ ابن إلياس في مواضع متفرقة
من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمته ،
فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه في موضوعات كثيرة : في المديح والثناء والأحداث
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبَّ قلبي شعبان موفِّق رشيدٌ وجمالو أشرقُ ومالو حدودُ
وأبوه الحسن وعمه الحسينُ وارث الملك من جُودود لجودود
زَعَى السعد بين يديك شاويشُ فروح القلب بعد ما كان حزين
ونصَّب لك كرسي على المملكة وظهَّر لك نصره بفتحو الميين
والعصائب من حولك اشتالتُ - خفقت في الركوب عليك - البنود
فاحكم احكم في مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤتمرا
بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفعت البنود والأعلام
كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على
(٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظما الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه في
وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الحَيْرَ يوم الأربعاء بأنو في ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خدوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشدُ
فبرز أيتمش سريع بمالك وجند نُوبُ
وعُدد ماها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضرُوا ما التقوا أخذ من جميع العرب حضرُ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :
في الناس رأينا للخير معادنُ والدرَّ يوجد في كثر مثْلُهُ

وَأَنْ رُمْتُ جَوْهَرَ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِعْلُهُ
وَأَنْ كَانَ تَرِيدَ صِحَّةَ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مُحَرَّرٌ
خُذْ فِرْعَ بِإَيْدِكَ مِنْ أَوَّلِ حَنْظَلٍ وَازْرِعْ جَنْدُورَهُ فِي أَرْضِ عَنَبٍ
وَاسْقِيهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرَدٍ مَمْزُوجٍ وَعَقِدْ جُلَّابَ وَحَلٍّ سَكَّرَ (١)
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلٍّ فَصْلُهُ
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرَّ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفِرْعَ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الرجل تختلف عن لغة الرجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكثظ بالصور والاختيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياها في هذا الرجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَخْتَقِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ
كَمْ حَيٍّ خَامِلٌ يَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَهِيمِ مِنْ اسْمِهِ
وَأَنْ جِيتَ صَاحِبَتَهُ فِي يَوْمٍ بَيَانُ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفُهُ وَيَنْجَلِي عِلْمُهُ
وَيَشْبَهُ الرُّوضُ حِينَ يَبْدُو شَوْكُهُ وَالْوَرْدُ مُسْتَوْرٍ مِنْ تَحْتِ سَيْلِهِ
وَالْبَحْرُ تَلْقَى الرِّيمَ تَعَوْمُ بِهِ وَالْدَّرَ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرِمْلِهِ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جواهره ، والسَّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الرجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقلود الأغصان تشبه به الحسان .
والجلاب : ماء الورد والزهر .

ابن^(١) سودون

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُني في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُيِّن إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُني بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العيوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجيبة والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا اقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجعلك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تَلَوْنِي	لما بدا زَهْرُهُ في حسن تلوين
قد عَطَّرَ الأرضَ نَشْرَ الفول حين سرتُ	نُسِيمَةً سَحْرا منه تَحْيِي
كأن زهرته أُمُّ الخُلُول إذا	فَلَقَّتْهَا فوق نَعْناعٍ بَصَحْثُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً	لولا شعورُ كأعرافِ البراذين ^(٢)
واعجب من الماء وَسَطَ البحر كيف غدا	يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطَّيْنِ
مُسَلْسَلًا قد جَرَى ياصاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الصُّدَيْنِ في حين

نزهة النفوس ومضحك العيوس مطبوع في القرن الماضي
وطبع حديثا .
(٢) البراذين : جمع برذون وهو البخل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧
ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العديدين رقم
١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمزج في الحديث عن الجمال الهاج في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر القانع من نبات الفول وإلى زهره الذي يشبه صدقة أم الخلول التي يطعمها المصريون واضعين على الخلول التنوع والبهارات . أما القمح فتشبه سنبله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنبله من شعور كأعراف البغال والخيول . ويعجب عجباً لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلًا إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ بَقَرَا تَمْشِي وَلَهَا ذَنْبٌ
وَلَهَا فِي بُزَيِّزِهَا لَبَنٌ يَبْدُو لِلنَّاسِ إِذَا حَلَبُوا
مَنْ أَعْجَبَ مَا فِي مَصْرِ يُرَى الْكَرْمُ يُرَى فِيهِ الْعِنْبُ
وَالنَّخْلُ يُرَى فِيهِ بَلْعٌ أَيْضًا وَيُرَى فِيهِ رُطْبٌ
وَالْمَرْكَبُ مَعَ مَاقِدٍ وَسَقَتْ فِي الْبَحْرِ بِجَلٍ تَسْحَبُ
وَالنَّاقَةُ لَا مَنْقَارَ لَهَا وَالْوَزَّةُ لَيْسَ لَهَا قَتَبٌ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيّات غاية في البدهية ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشي ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلع بُسْرًا ورطبًا ، والملاحون يجرّون بجبالهم المركب الموسوق ، والناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها يجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشي على أربع ، ويتساءل عن قتبها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تعتدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلغى فيه المنطق السديد إلغاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السَّرُورُ بِهَذَا الْعَقْدِ مَبْتَدِرًا وَنَجْمٌ طَالَعَهُ بِالسَّعْدِ قَدْ ظَهَرَ

و«الْفُلُّ» كُلُّ وَجَهٍ الْأَرْضِ فَانْعَطَفْتُ
وَالطَّيْرُ مِنْ فَرْحِهَا فِي دَوْحِهَا صَدَحْتُ
تَقُولُ فِي صَدْحِهَا : دَامَ الْهَنَا أَبَدًا
هَذَا وَعَقْلُ عُرُوسِي كَانَ أَصْغَرَ مِنْ
فِي السِّنِّ قَدْ طُعِنْتُ مَاضِرٌ لَوْ طُعِنْتُ
فِي وَجْهِهَا نَمَشْتُ فِي أُذُنِهَا طَرَشْتُ
يَا حُسْنَ قَامَتِهَا الْعَوْجَا إِذَا خَطَرْتُ
تَظَلُّ تَهْتَفُ بِي : حَسَنًا حَطَّيْتُ بِهَا

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافة على عروسه ،
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نَمَشٌ وفي عينيها
عمش وقد حَتَّى قَامَتِهَا الهرمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها ،
ويتمنى لو طُعِنْتُ بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب .

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أُمِّي أَرَى الْأَحْزَانَ تَحْنِينِي
وطلما دَلَّعْتَنِي حَالِ تَرْيِينِي
أَقُولُ : « مَمَّ مَمَّ » تَجِي بِالْأَكْلِ تُطْعَمُنِي
إِنْ صَحْتُ فِي لَيْلَةٍ « وَأَوَّا » لِأُسْهَرَهَا
كَمْ كَحَلَّتْنِي وَلِي فِي جَبْهَتِي جَعَلْتُ
وَمَنْ فَقِيهِي إِنْ أَهْرَبُ وَرَامَ أَبِي
وَزَعْرَدَتْ فِي طَهْوَرِي فَرَحَةً وَغَدْتُ
وَحَلَفْتَنِي يَتِيمًا ابْنُ أَرْبَعَةٍ

والمرثية طويلة اقصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما تألف في
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكى على صدرها وهى تهزه فى حنان ، كما يذكّرها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّى من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحبته حين يهرب من الكتاب . ويذكّرها بيوم ختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للرثاء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونتهادى معه فى الضحك . وقد جاء فى المراثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم فى هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمُسْتَهْي عَقْلِي ابتداءً
بقيتُ أقول : نُتُو تُتُو تاتَهْ ودَحُو كَخْ وأُمْبُو مَمَّ آءْ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح فى اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جعّبة هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تهوي من أبراج عالية ، هى أبراج المنطق والعقل الواعى ، فنضحك ونسترسل فى الضحك .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يحملهم الولاة معهم من العراق ^(١) ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتناقله الألسنة ^(٢) » . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي ^(٣) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فبذلكان يقابلها في العربية عبيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خماروية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادي .

وابن عبد كان يتدبّر بمصر سلسلة كتبها المشهورين ، ودوّت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصائبي كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالجمع ، وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » (طبع) (٢) صبح الأعشى ٩٥/١
دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها . (٣) صبح الأعشى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . ويمدده بغير قليل من التصاوير ^(١) ، وتوقف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى لى ذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء فى افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبة الكتب ^(٢) . وكان أهل بغداد فى زمنه يغبطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كاتباً - يقصدون ابن عبد كان - لیس لأمر المؤمنین بمدينة بغداد مثله ^(٣) . وكانت رسائله متداولة بین الكتاب حتى زمن یاقوت فى القرن السابع الهجرى ^(٤) .

ونخصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب دیوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غیر أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حیثئذ إبراهيم بن عبد الله النجى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ بها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفخر فيها ويمجِّن عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا یکتب إلا خلیفة ، فکال له النجى الصاع صاعین ، ولإعجابه برسائله كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرها بها مباهايا ^(٥) .

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم دیوان الإنشاء فى زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأیضا لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرین فى العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيما دقيقا ، فكان من الطبیعى أن یهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لדיوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وولیه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بین مسلم وذمى ^(٦) » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاها - كما يقول القلقشندى - إلا أجلُّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلِّ ويلقب بکاتب الدُّست ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطقات .. وله حاجب من الأمراء والشیوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخادَّ والمسند والدواة العظيمة

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٤٩ وما بعدها . (٥) المغرب فى حلل المغرب لابن سعيد : القسم الخاض

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها . (٦) صبح الأعشى ١٦٧ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣ . (٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة^(١) . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن برى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية^(٢) . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث^(٣) للقاضى الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاها لصالح الدين القاضى الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العمد الأصهبانى في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدّست وكاتب الدّرج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعاً كبيراً في عهد الماليك ، مما جعل الظاهر يبرس يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدّست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر^(٤) . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر الماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائياً وأصبح أثره بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه^(٥) سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه^(٦) سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى^(٧) ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيراً ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومربنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فلان تركه فلان صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

بعدها

(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف

ص ٣٣٨

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للمقريزى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً^(١) : وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان بلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتد بشعره وكتابته مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسنىهما خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائى - فيما يبدو - برسائله^(٢) . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »^(٣) ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ^(٤) ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ^(٥) ولا يَكِفُّ ، ووزنك فى سدِّ ثلم الفساد يَرَجح ولا يَنحِفُّ . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يَكِفُّ ويَكِفُّ وقد طابق بين يرجح وينحف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجري ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وستترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى أثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وستترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمان ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية^(٦) . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله^(٧) ، وعلى يديه تحرّج القاضي الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

(٥) يكف : يسيل .

طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١ و ٣١٦ وانظر فى ترجمته

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشذرات الذهب

(٤) يجف : يسرع . وفى الأصل يوجف

٢١٩/٤ .

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة .
 وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصهباني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن مماتي وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشئونهم المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضبّة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكان كتابا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) .
 وبلغنا إبراهيم^(١) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيلك وقطز ويبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كتابا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح^(٢) الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيّطه شافع^(٣) بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حُرّم على عساكره الغارات على البلاد^(٤) .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

الزاهرة ٥٠/٨ .

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٤) صبح الأعشى ٢٣٧/٧ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشنرات الذهب

ويلمع في رئاسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو عبارة أخرى رئاسة الديوان عبد^(١) الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة فى سنة ٧٢٩ أخوه^(٢) محيى الدين يحيى ، وكان يَشْرُكه فى كتابة السراية شهاب الدين أحمد ، وفى سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السراية حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه^(٣) علاء الدين ، وظل فى الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين^(٤) إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكانس ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع فى أوائل عهد المالك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين فى زمنه وسنترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رئاسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه .

ابن^(٥) الصيرفى

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولابد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل فى ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

المخاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقرئى
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة - طبع دار
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩
(٢) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٤٦/٢
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .
(٥) انظر فى ابن الصيرفى وترجمته ورسائله معجم الأدباء
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر فى مواضع مختلفة وحسن

الزبدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رؤوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهتئا فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمير برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغائهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله وينزع منزعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أبرع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمهم بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جُلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأئمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخفى الذى

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجيجة فيه ثم يقول :

«وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكتون ، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى ^(١) الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إثثار العدل ، وإننى - فيما استرعيته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه » .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعلى وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعهم من العلوم على السر المكتون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام متقللاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لاتحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أو لعل القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجبالى صاحب الأيادى السابقة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

أشرنا إليها وردّها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحُ الْمَلَحِ »^(١) وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لي قريحا ، وإذا كانت عازر فكنّ مسيحا » .
والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل ببليلته النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرّون فيه من الملاهى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرّون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لي جريحا ، يطلب منه أن ييث فى دنائه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّبُ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عُصِّده بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده^(٢) ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونُقِبَتْ^(٣) فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت^(٤) بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على مآظهم سُمُوقه^(٥) فى البلاغة وُسُوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكنّا السيد الأجلّ الأفاضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(٤) نفق : راج .

(٥) سُمُوقه ويسوقه : ارتفاعه

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : مَلَحُ المَلَحِ .

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .

« فيجب على كل من صَفَّتْ فكرته ، وصَحَّتْ فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بِبَرِّقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه ^(١) من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه ^(٢) العالى به ، مما يُطرب مورهه ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة والبسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق ، شرابا يتمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نَقَبَتْ فى البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : (فَتَقَبَّوْا فى البلاد هل من محيٍص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزًا له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد ^(٣) وجرح ، وتقبل فى تركيته شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريثان واضحتان فالتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى عدلهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل فى هاتين التوريثين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية فى نثره أحيانا ومرَّبنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها ^(٤) فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديمهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغى أن يتحلَّى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) فى المغرب : أفسد ، وأقصَد السهم : أصاب

(١) فى المغرب : يصنِّفه .

(٤) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(٢) فى المغرب : محله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

القاضي ^(١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللحى أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليَساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء يَسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سرى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعنى أبوه بترتيبه ، وبدأ بإرساله إلى كُتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من يسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمَّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُني به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأل في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلّ شعر ديوان الحماسة ، فحلّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

الكتب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروستين . ونشر له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات محي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل رسائله وشعره عبر الذهبى ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والخريدة للعاد الأصهباني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحسَّ أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورَحَّب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كنبه تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزىك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ هـ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائز بن الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليا بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لابد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبثُ شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ ، وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليه النصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين مرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاضد بين يدى الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاية بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شريكه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضاً العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكتف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذ وزيراً ، فلما يرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى أثناء غزواته للصليبيين أبقاءه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تنظنوا أنى ملكت البلاد بسيفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصهبانى فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللّسن واللسان ، والقرينة الوقادة ، والبصيرة النقّادة ، والبدية المعجزة ، والبدية المطرزة ، والفضل الذى ماسمّع فى الأوائل بمن لو عاش فى زمانه لتعلق بغيره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يفتخر الأفكار ، ويفتخر الأبيكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذو الفضائل واغرقت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغثك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجية ^(١) ، وشيمة ، وشيمة ^(٢) ، وخلاتق ، فيها ماتحب الخلاتق ، ونحاتر ^(٣) ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن ^(٤) ، وماثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ^(٥) ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال ^(٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومسامي لديك كرائم ^(٧) نورها تنفتح .. وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبي ^(٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود ^(٩) الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

ولنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت وتهايت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمى ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٢) وشيمة : جميلة

(٣) نحاتر جمع نحيزة : طبيعة .

(٤) آسن : متغير الطعم .

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

(٦) جلال : عظام .

(٧) كرائم : جمع كريمة وهي غطاء النور والزهرة .

(٨) حبي : جمع حبة ، وهي الثوب يديره الجالس

حول ساقيه وظهره للاستناد عليه

(٩) أود : اعرجاج .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلها بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فماء المحاسن غير آسن والجَدَّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجعه فيأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فيأتى بسجعتين تداخلها فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الحصان تتوضح ، وكأهم نور المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا مایصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعاته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أدهم ^(١) ، وقلدتم بيض أيامه صوارم ^(٢) ، وأفنيتم شمسوه وأقاربه فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم ^(٣) فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أدهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

« وهذه القلعة عُقاب في عُقاب ^(١) ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأتملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضوؤُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُدتْ من الظَفَرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأتملة إذا خضبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأتملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حطّين وفتح العظم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا في غير هذا الموضع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحيا له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محيى الدين ^(٢) بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وفقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ و ٣٦٦، ٣٠٠/٨، ١١٧/١٠، ١٦٣، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي الرقبة الضعب في الجبال .

(٢) انظر في محيى الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشنرات الذهب ٤٢١/٥ والتجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و ٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدُّسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلجئ نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العقود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المماليك ، وكان ابنه فتح الدين على غرارته مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديداً .

وقد أشاد بمجىي الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويري في نهاية الارب : « كان مجىي الدين أجل كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقى مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاكر في كتابه الفوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يطيل السجعة الثانية ليضمَّنَهَا ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حلَّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصري في جبال شامخة مذلِّلا فيها طريقه ليعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدونة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار ما يتردد الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من النعبة ^(١) ، نسبق وفد الرّيح من حيث ننتحي ، ونكاد مواطئ خيلنا بما تسجبه أذيال الصوافن ^(٢) تمحى ، تحمل همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعت أئهذا الهام نحن نبت الرّبي وأنت الغام

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع ، وتتمنى العين بها هجمة هجوع ، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفى الرفيق عن رفيقه ، وتشتغله عن اقتفاء طريقه ، يتبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بعثرت ، أو جبال تفتطرت ^(٣) ، بينها مخاض لا بل مغائص ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعمت بالثلوج ، وعُميت مسالكها فلا أحد إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعدوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينو ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذى ما قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر يتنسّم من مهاب تأمله الفلاح ، ويتبسّم ثغره فتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقسّم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جلا بهى جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن رواه ويمن

(١) النعبة : الجرعة .

(٣) تفتطرت : تشققت .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو القرس

آرائه يَهِيم ، وكم أبرأ مورده العذب هِيم^(١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم^(٢) .
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالذال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية
أخرى في لفظ أبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،
وهو لا يريدُه إنما يريد بالكلمة أنه أبراهيم أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى
صاحب اليمن مبشراً بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كرامَ أموالهم وهم صابرون
لا مصابرون ، وكم شكت منه حِمة تنبئ بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معرةٌ وما من
معرةٍ خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون
والصياصي^(٣) ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي^(٤) .
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : (حتى
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما
يكثر حلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرةٌ الثانية من
العار مقدماً لها بذكر حِمة والمعرة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع
العاصي » وهو إنما يريد نهر حِمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه
يستمد من نبع فياض لا يفيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالبيان ،
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنحيوهم من جبال
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لا مرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك
الجنادل انحطاط الأجادل^(٣) ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال^(٤) ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجادل : الصقور .

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) الصياصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولاجل شاق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأياقي بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لايرحم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعَمَ الله وإن كانت متعددة ، ومِنَحِهِ وإن غدت بالبركات مترددة ، ومِثَّتِهِ وإن أصبحت إلى القلوب متوددة ، فإن أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها ، وأتمها وأعمها ، وأضمها وألمها ، نِعْمَةُ أَجْزَاتِ الْمَنِّْ وَالْمَنْحِ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرَكِ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ أَغْزَرَ سَفْحِ ، وَأَتَتْ بِمَا يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ ، وَيَعْجِزُ الْبَرْقَ اللَّمَّاعَ ، وَيُعَلِّقُ ^(١) الْقِطَاعَ ، وَيُعَلِّقُ ^(٢) الْأَقْطَاعَ ، وَيَأْتِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرِ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حَمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزُضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ ^(٣) ، إِذَا هُوَ فِي الْاجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْمَجَارَى ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارَى ^(٤) » .

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صب . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرّاع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخالط النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيض النيل وأنه سرعان ما يملأ مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عبابه ويتأدى طوفانه ، فيينا يدخل سُدّة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(١) يعل القطار : يروى قطع الأرض مرارا .

(٤) السواري : يريد الأعالي .

(٢) يغلق الأقطار : يجعل الضياع تغطي الثلّة والهار .

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخرق الآفاق فيها لا يغرقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السوارى وأعلى الأعلى .

ولم يكن محي الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سنلّم بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمته ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهى أحد مصادر المقرئى في خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشرىف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئى وكذلك القلقشندى في صبح الأعشى . ولعل فيما قدما من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البليغة والبلاغة .

ابن^(١) فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى ، من سلالة أسرة مصرية تنسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وَلَيْتَ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى ، وقد وُلِدَ لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقلية ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهبة وابن الزمِّلَكَانى ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئى ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

والشذرات ١٦٠/٦ والوفاء ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطُبِعَ له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطُبِعَ له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفَاط الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتبا بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليها كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حادّ الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغيّر عليه وصرفه ، ووَلَّى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في الحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبِلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتبا ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوييت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوّه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلَهَّب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبَّب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاءؤه بالبورق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويغوص في لجّة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز ترؤى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها .. صرّف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمّنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثانى فى العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع فى الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس فى حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس فى مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع فى الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هى التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذة الكتاب إماماً لهم وجعلوه نصب أعينهم فى كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثله ، واعتمد عليه الفلقشندي فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه فى وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر بابه ، ويسهل حجابيه ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدماً الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر الماسى والمصاحب ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . ولا يصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمناءه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء أناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسمم فى تحلية بشىء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه » .

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحر يتدفق ، وفى تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيبة ، تارة يطابق وتارة يجانس فى سرود أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفاً سال المَنُون من لُعبه ، وسار الموت في إهابه ^(١) ، وتناوم غِرَارُهُ ^(٢) ملء جفنيه فاهجع ، وتناوب ^(٣) للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرق على من سلم فتوقدت ضلوعه ناراً وترقرقت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كاس : « تَكُونُ من جوهر مكنون ، وتجسّد من هواء مظنون ، وأتخذ خِذْرًا لابنة العنب ^(٤) ، وطاف به الساقى فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، فَهَقَّ عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقبل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر ، ومنها صُباية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبجاراتها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربي بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٤) الخنزير : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار السيف : خده .

الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهئة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتجوير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تدبيجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخباء العسقلاني الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخضه بحديث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن ^(١) بن زيد الأنصارى الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفي في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخباء ، وقتلها بدر الجمالي وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثار له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب » ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأخوال وأعمام » ويقول العماد الأصبهاني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قدَّم الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، وخلصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسرَّ ، ومتشاركين فيما نفع وضرَّ ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الحريدة (قسم شعراء

ومعجم السلفي ص ٤٤٨ .

مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرّقت بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجنى ، وأما برؤها فقد سرّها وأبهجنى .

ومهارته فى صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعدل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة فى السجعة الثانية تعانق أختها فى السجعة الأولى فى عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له فى تعزية :

« الخطبُ الحادث ، فادحُ كارث ^(١) ، كادت له القلوب أن تتبرأ من أضالعها ، والعيون أن تتعوّض بدمائها من مدامعها ، والضحى أن يدّرع ^(٢) جلباب الدُّجّة ، والحوامل أن تُجهّض بما فى بطونها من الأجنّة . وإن المنية حوّض كل الناس وارده ، ومنهل كل الخليفة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولا فقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع فى الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يحبّيه عن كتابه ^(٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالته التى يهيج قشيبها ^(٤) ، ويضوع ^(٥) طيبها ، ولا يُترَف قلبها ^(٦) ، فخلتُ أنى أختال أىّ اختيال فى حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرضاب ^(٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدّ والاجتناب :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَنْ لَمْ أَفْزُ بِهِ
وَعَيْشًا كَأَنْى كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثَبًا
ثم نزهت ناظرى ، وجلوت خاطرى ، ببذائع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أنى أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كى أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجنى مثل تلك

(٥) يضوع : يفوح

(٦) قلبها : معيها

(٧) الرضاب : الريق

(١) كارث : محزن .

(٢) يدّرع : يلبس . الدجّة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة فى ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .
وظاير يعنى فى رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جال اللفظ وحسن الجرس ،
حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن
الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتابهم يدبج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف
منها محيى الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة فى مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من
ترسل عبد الرحيم » ومن قوله فى إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :
« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد برّدها ، وورد وردّها ، واخضر نباتها ، وحسن
نعّمها ، وصفا ماؤها ، وضفا ^(١) رداؤها ، وتغنّت أطيارها ، وتبسّمت أزهارها ، واقتتر ^(٢) زهر
أقحوانها فحكى ثغور غزلانها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فأنثت ثنئى ولدانها . فلما قربتُ من
بساتينها ، ولاح لى فسحُ ميادينها ، وتوسطت جنة واديا ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ،
سمعت عند ذلك حماما يغرد ، وهزاراً ^(٣) ينشد ويردد ، وقُمريّاً ^(٤) ينوح ، وبلبلا بأشجانها
ييح . »

وأسلوب القاضى الفاضل واضح فى هذه القطعة لا بأسجاءه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال
الجرس والإيقاع بين أوائلها وتوالها ، بل أيضاً بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة
وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وما عرف به من
العناية بمراعاة النظر . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح
لابن سناء الملك أن يجمع منها كتاباً يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحفظ دار
الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء
الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء
الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد
الفاضل فى رسائله الشخصية بالشعر حتى ليرى له القلقشندى فى الجزء الأول من صبحه ^(٥)
رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات .
ومن كتاب الديوان حينئذ البارعين فى تحبير الرسائل الشخصية الأسعدين ماقى ، وسنترجم له عما قليل .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(٥) صبح الأعشى ٢٧٦/١ .

(١) ضفا : سبخ .

(٢) اقتتر : تفتح .

(٣) الهزار : الغندليب .

ونمضي في زمن الممالك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها يحيى الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردّ على عائبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة ^(١) ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعتفّه تعنيفا شديداً ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور ، ونلّم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ منى .. وزعم أن إناءً إبانى غير مُفْعَم ^(٢) ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة ^(٣) ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُثَقِّح بأقلامى ، وأنى لا أعدّ في جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للكرم لا أدخل معهم في باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى ^(٤) به إليه مجابوا : ما كل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولا كل المراعى تُنصَّبُ بها الحبال ، ولا كل زخار ^(٥) يُخاض ، ولا كل جناح يُهاض ، ولا كل جامع يُراض ، ولا كل سابعة تُفاض ^(٦) .. ولا يَصُرُّ الزناد الوارى ^(٧) قَدَحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نِجْحُ النابح . »

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورّى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح في عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر في الرسائل الشخصية حينئذ تقريظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقريظ شعره ومصنفاته كما قرّظ ابن نباتة . ومرّ في ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوّق » ترجم فيه لكل من قرّظوا كتابه « بجمع الفوائد » . وتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرّت ترجمته بين الشعراء تقريظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه ^(٨) :

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابقة ضافية

(٧) الوارى : المتقدّم .

(٨) خزنة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

(١) انظرها في نهاية « تمام المتنون في شرح رسالة ابن

زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملىء

(٣) قريحه : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

« لاغرو أن فضّح بديع^(١) الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجاً ، وأعلى هممه التي لا ترضى الشهب جياداً والأهله سُروجاً .. وقد زهت أمداحه المؤيدية^(٢) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العماذ) وراقت محاسنه التي (لم يُخلَقْ مثلها في البلاد) .. وظالما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام^(٣) ابن سُكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباقي فوجدها مسكّره^(٤) ، وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لا محاله ، والمرسل الذي نهض دونه بأعباء كل رساله . »

والتقريظ زاخر بالاعتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماذ . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذاً من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماذ) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباته أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباقي يريد شعر ابن نباته الحلّو . وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخياً غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضاً للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة^(٥) طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكناس يدعو له مجلس أنس وشراب ، واصفاً له ما سيمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول : « هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك - في عذراء مصونة ، كالدرّة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها (صرّح مُرّرد من قواريبر) ليلها من حسنّها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أدبها كلما تعقّ يغلو ،

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد (انظر ترجمته) .

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبي .

(٤) مسكرة : مغلقة .

(٥) مطالع البدور للغزولى ١٥٢/١ والأدب في العصر

الملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

ووردها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطُرف » في كل قَصْر وهى على الإطلاق ذهبية العصر .. لانتزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان . وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنّ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذى شمّرت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبه لُجَّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير) أى من زجاج شفاف لا يحجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التى دعا ابن مكناس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرمها . وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد . بلفظة « راحتها » كنهها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذى يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حيثذ من رسالة محمد بن أبي الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العُسلَى ليتسلى بمجلسه فى ممتزه نُصْر يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول ^(١) :

« سيدنا البرّ الذى يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورد والصّدْر بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرا لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف ^(٢) زخّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فُلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لا جُزْر عن الجزر مدّه المديد ، واستلّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

(٢) سيف : شاطئ .

(١) ربحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبي) ٢٢٩/٢

عشر المجرى وشعرائه رسالة^(١) هجا بها القاضي عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رثّ ، وحديثه غثّ ، ياكثير الثّباح ، ياخائباً في الغدوّ والرواح ، ياتارك السّنة والقرّض ، يامنّ سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع العيّ والملاهي .. ياكثير الشكوى ، يا أثقل من رَضَوَى^(٢) ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصّبيان ، ومن كِراً^(٣) الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبى مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، ولما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

ابن^(٤) أبي الشخباء

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلاني ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكراً بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضي إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدران الجمال وزير المستنصر هو الذي أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن علي كما مر بنا آنفاً في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبي الشخباء شاعراً بارعاً كما كان كاتباً بارعاً ، ولذلك لُقّب بالحميد ذي الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « الحميد مجيد كنّعتة ، قادر على ابتداع الكلام ونحّته ، له الخطب البديعة ، والملاح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم اليّساني منها استمّد ، وبها اعتدّ .. كتب في ديوان

(٤) انظر في ابن أبي الشخباء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والذخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثاني) ص ٦٢٧ وابن خلكان . ٨٩/٢

(١) نفحة الرّبحانة للمحبى (تحقيق عبد الفتاح الحلوطية

الجلبي) ٦٠٥/٤

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرائه زمانه « ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسم في الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودات إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المرمضة ^(١) ، ولم تزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها ألسن مختلفة ، وعلتها برود من اللفظ مفوّهة ^(٢) ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقعة ، وجنوب ^(٣) مودته قد عادت مروعة ، وصرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ماعهده :

تُبْنَى طَلَاقُهُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ فَتَكَادُ تَلْقَى التُّجَحَّ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءُ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُ صَادِي الْجَوَانِحِ ^(٤) لَارْتَوَى مِنْ مَائِهِ
لم أنجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتياح بودّه ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دقائمه ، ويحبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يُسمه - نقل إليه عن فشن الغارة على وفاته ، وزلزل أواخى ^(٥) وده وإخائه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكاية ولا نكايه ^(٦) ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لا إسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ^(٧) ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَعْتُ ^(٨) ، وتألفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصوفة ^(٩) جديدة ، فحسن تلك الشئائل ، أن تجمع شمل الفضائل .
والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(٦) نكايه : غلبة وقهر .

(١) المرمضة : الموجعة .

(٧) الماحل : الساعي بالقيمة .

(٢) البرود الموفقة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٨) أوضع : سار سيراً سريعاً ، ومثلها أوجع .

(٣) الجنوب : ريح لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .

(٩) محصوفة : محكمة متينة .

(٤) صادي الجوانح : عطشان .

(٥) أواخي : أواصر .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرتي لي بالأمس قد قطَّب^(١) حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحي ، أم عَصَب^(٢) به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكمة ، والفظنَّ صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفَّع به ، والخور العين^(٣) تشكو لآعج حبه ، وثمار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقَبَّسُ من زنده ، والكوثر يمدُّ من معينه ، والسموات مطوياتٌ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذي شمع بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكباراً ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلاً . ولا أمراً ناهياً ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع القطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقبَّس من زنده الواري المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، ونخال السموات مطوياتٌ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد في الصميم ، وفي آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطوياتٌ يمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه في رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجاً له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شيعاراً لهم وسُنناً في رسائلهم . وله من رسالة في هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلاً قد استعار من قلب العاشق حرّاً ورَهْجاً^(٤) ومن أخلاق مالكة ضيقاً وحرْجاً ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِطَ على جدرانها بالقار ، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قطب : عبس وضم حاجبيه .

(٢) عصب به : ضمَّ إليه .

(٣) العين : جمع عياء : واسعة العينين جميلتهما .

(٤) رهجا : غبارا .

الخِوان^(١) ، فرأيت أرغفة قد أُحكمت في الصغر والإطاف ، ولم تتعوّذ^(٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، واسعة الأكثاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعِل في قرارة كل منها ما لا يدفع السَّعْب^(٣) ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقتنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظنَّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورصانته والقدرة البارعة على الملازمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسنغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن مَمَّاقِي^(٤)

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَمَّاقِي ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّاقِي جوهريا واشتهر بأنه كان يصيغ البِلُّورَ صبغة البياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متاخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسَلَّم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما يده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام

(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها

(٣) السعْب : الجوع الشديد

(٤) انظر في ابن مَمَّاقِي وترجمته ورسائله الخريدة (قسم

مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم

القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة

للقفطي ٢٣١/١ وخطط المقرئ ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة

١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات

الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية

للشيبكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الخريدة وقبله

في المغرب .

سنة ٥٦٤هـ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن مماتي ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديواني الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفي بن شكر أخذ الجوكيفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصدورت أمواله . واستمرت فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفي هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن مماتي مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذي نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئ في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن مماتي ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربيها ومتحصلها من عين (نقد) وغلة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطي في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعري سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمته شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفي المغرب .

وكان ابن مماتي يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب في الديوان الفاضلي ، ذو الفضل الجلي ، والشعر العلي ، والنظم السي ، والخاطر القوى ، والسحر

المانوى^(١) ، والروى^(٢) الروى^(٣) ، والقافية القافية^(٤) أثر الحسن ، والقريحة المقترحة صورة اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدّد^(٥) البراعة ، والفتنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد أن أنشد العماد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلاها بقوله : « ومن نور^(٦) نثره البديع ، ونور فجره الصديق^(٧) وغرر درره النصيحة^(٨) ودرر غرره الصنعة^(٩) ، ماتخذى^(١٠) له بهائم الغنم . وتحدثى^(١١) به كرائم المكارم ، ويرتّع الحسن فى روضه ، وتكرج الحسناء من حوضه ، وتغتبب الآداب بدابه^(١٢) ، وترتبط الألباب ببابه . »

ومن طريف مادونه له العماد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق فى إحدى الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه فى أخريات النهار ، وقد ظهر فى أطراف الجدران لفرق^(١٣) فراق الشمس اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تمّ فى المغرب على الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب فى طلب النثار ، كدراهم النثار^(١٤) وتشابهت زواهرها - وإن اختلفت فى الأسحار - بالأزهار فى الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف^(١٥) ، ومرت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف ، وظهر الوجوم ، فى وجوه النجوم ، وعيل صبر النسر^(١٦) فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفوا الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأفاح^(١٧) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزالة من أس الكناس^(١٨) طلقة الحيا . »

- (١) المانوى نسبة إلى مافى مؤسس مذهب المانوية الفارسية قبل الإسلام
(٢) الروى الأولى : الحرف الذى بُنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أى شافى الغلة .
(٣) القافية الأولى : نهاية البيت فى القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشيء أى تبعه .
(٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر
(٦) الصديق : المشرق نورا (٧) النصيحة : الناصحة
(٨) النصيحة : البديعة .
(٩) تحلى : تقطع . بهائم : الغنم . التعاويد
(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .
(١١) دابه : تسهيل دأبه أى غطه (١٢) فرق : جزء
(١٣) النثار : ما ينثر على العروس فى الزفة من الدراهم
(١٤) الكلف : ما يعلو وجه القمر أحيانا من كدرة
(١٥) النسران : نجان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى الثانى النسر الواقع
(١٦) أفاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه كاستنان المنشار وهو الأروالة ويشبه به الاستنان .
(١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال فى الشجر يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .

- (١) المانوى نسبة إلى مافى مؤسس مذهب المانوية الفارسية قبل الإسلام
(٢) الروى الأولى : الحرف الذى بُنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أى شافى الغلة .
(٣) القافية الأولى : نهاية البيت فى القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشيء أى تبعه .
(٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر
(٦) الصديق : المشرق نورا (٧) النصيحة : الناصحة
(٨) النصيحة : البديعة .
(٩) تحلى : تقطع . بهائم : الغنم . التعاويد

ويدل هذا الفصل على أن العباد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممتي الكتانية ، وهي براعة تكاد تبدو في كل سبعة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تعكس بصفتها على أطراف الجدران فرقا وفرقا لهول الفراق . وتَوَارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، ولبست المشارق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثأر ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوه في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقد صبرها فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتمس ثغر الصباح عن أضواء كالأقاح . وطالما شبَّ الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن ممتي ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس كناس الغزال والطباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممتي الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزناً على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممتي مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقد من صبرها . وتلاحق في تضاعيف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفاتٍ سَوامٍ تتصرَّم ^(١) ، وعبرات هوامٍ تتصرَّم ^(٢) ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيًّا فيتدَّمَّم ^(٣) ، بالصمت عن أن يتحرَّر ويتحرَّم ^(٤) ، وأفكارٍ تنزَّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدَّر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جَلَدَه ، فجَلَدَه بالقلق لما تجاوز حدَّه وحدَّه ^(٥) ، وأجرى من سوابق دموعه عسكري أجرى فشق

(٤) يتكرم : يحده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لا تبرح . تتصرَّم : تشتغل

(٢) هوام : سائلة . تتصرَّم : تقطع

(٣) يتدَّمَّم : يتوسل

خَدَّهْ وَخَدَّهْ^(١) .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوَّدةً ، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعدَّه ، وإخلاقه وَدَّهْ^(٢) وَدَّهْ^(٣) ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كافَّة أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلم المودة قد رُفِع ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِع ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملاذِّ مَلَاذًا^(٤) . وتناولوه بيد الإجلال ، وفَضَّهْ بيد الإِدلال ، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرصَّعة لما لاح مداده مُداماً ونَقَطَه حَبِيًّا . وألفاظ تتيح للخواطر طرباً ، وتعريضاتٍ لو كان التصريح فضةً لكانت ذهباً ، ومننٍ مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ^(٥) وأيَّادٍ ما استكفت فواضلها حتى عَمَّتْ وَكَفَتْ^(٥) .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تنصَّرم والعبرات تنصَّرم بينا يتدَّم بالصمت ويتحرم . ولاتلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حَدَّه ومنتهاه ، ويَحْدُّه كما يُحَدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموه فتشقى خده وتحدَّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتَحْلُق وتُبلى مودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت وَدَّهْ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجناس التام بين « الملاذِّ وملاذًا » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظير والطباق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف مآثره من تصويره لوفاء النبل قوله .

« وأما النبل المبارك فإنه عَمَّ الْبِقَاعُ^(٦) ، وطَبَّقُ^(٧) ، الْبِقَاعُ ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفْ بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوبٌ إلا إياه » .

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النبل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(١) خده : شقَّه وأثر فيه

الكفاية

(٢) اليفاع هنا : مرتفعات وادى النيل

(٣) طبَّق : مَلَجاً

(٤) إخلاق الشئى : جعله باليا

(٥) وده : زاره

(٦) ملاذاً : ملجأ

وأنه كان جديرا بأن تغنى كتب الأدب والتراجم . شعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين ^(١) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غرار ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبية ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) ذات مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السُّرياق منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلَّقتُ بالسُّرياقِ منتكسا لِجَرْمَةٍ أوجبتُ تعذيبَ ناسوقِ ^(٢)
لكنني مذ نفثتُ السُّحرَ من أدبي علَّقتُ تعليقَ هاروتِ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلى الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداها بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٤٤٧

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

(٢) لجرمة : لجرم أى الذنب . ناسوق : جسد .

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصح الأعشى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرقّة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس » وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلا :

« رَبَّنَا اجْعَلْنَا فِي هَذَا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين . ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الحجر بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسئل ابن أبي الرَّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اللياب ^(١) ، وهال العباب ، كال فطفف ، وزار فما خفف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح ^(٢) ، وغداً التيار ينساب في كل يَم كالأيَم ^(٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرج مائي ، وتغيّرت الألوان فكل مافي الأرض سمائي .. وتحالى إلى أن أقرف ^(٤) الليمون الأخضر ، واحمرت ^(٥) عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرًا ^(٦) . ويزيد .. ولكم قال الهرم للسارين ، ياساريةُ الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفي من البلبل ، وكَم قال أبو الهول : لاهول إلا هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء ^(٧) النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرُ منه غير الآثار ، لبكى بعيني عُرْوَة ^(٨) ، وأوى من الرصد إلى ربوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلا ترجعي ،

(١) اللياب : القفر والخراب .

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٢) يريد السفن

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرق

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر

الإسلام

(٤) أقرف هنا : عطّر ، من القرقة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كتابة عن الحمرة في طمى النيل

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماء أفلعى ^(١)) .. ولقد طار النسر مبلول الجناح ، ودنا نهر
الجرة من السكارى بالشخايت ^(٢) إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجس البساتين وقد
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغصن البان وقد قيل له
طوبى لمن عانقك ولا باس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى فى شواطئ النيل حتى كادت أن تمتزج بالجرة فى السماء
كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للإبل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعالى
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزؤام . ويستمر ابن مكناس فى هذه الاستعارات ،
فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر
الصغير . ويستعير الكلمة الماثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو
يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلا بشطر من
الشعر : أنا الغريق فما خوفي من البلل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .
والمعشوق بستان ورباط عظيم كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى
القرآن الكريم : (وياسماء أفلعى) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة مثورة . وما أسرع
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وايضت عيناه من الحزن فهو
كظيم) . وورى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب
المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس
وظباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قيروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهن فى ديوان الإنشاء

(٢) الشخايت : لعلها القوارب .

(١) أفلعى : أمسكى عن الماء

بأن صديقه ابن مكناس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك ، وتأذى ابن مكناس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغني - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم النائر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يحلّي به العاقل ، ويُظَلّ تحت جناح أدبه القائل ^(١) - من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشي الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرُّبّ ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكلبل من التنصل ، ^(٢) ولابد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس ^(٣) ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمستول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرّج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالي فين أبا بكر أول من تصلّب ^(٤) في الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمّية كهذه فأصمى ^(٥) ، وتردّد إليه مرة أخرى فـ (عَبَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) .. »

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظَلّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائذين وملاذ المعوذتين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق متلطفاً بذكر حادث صلّاته بالمسلمين نزولاً على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكناس إلى التورية بأبي بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لايفتح بابه للواشي مقتدياً في ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ماينبغي على ابن العجمي من لقاء الواشي لقاء متجهاً على نحو ما تصور ذلك الآية : (عَبَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل في كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكناس وعذوبة سجمه وما يشيع فيه من سلاسة .

(٤) تصلب : تشدد .

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهي وسط النهار

(٢) التنصل : التبرؤ

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليه الرشيقه ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوَّاب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريري في مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتهما إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء في الأقطار العربية المختلفة إلى محاکاتهما ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكثفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريري بنحو عشر سنوات مقامة ^(١) ، صوّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرّ إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير ملىء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشيع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزههم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلّ جنّانى وبَنّانى ولسانى وإنسانى ^(٢) ، من الدّأب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

خطُّ أرقه^(١) ، فتأقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقَرَّع . فقلت له : ما الشأن ؟ فقال جاعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : ويحك عَجَلْ بفتح الباب ، وأُذِنْ للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمره الأنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد^(٢) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المذهب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنَّف كتاب جِنَان الجَنَان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكملة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهاني عنه : « أُوحد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويّاً لغوياً عروضياً مؤرخاً منطقياً . مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى والنجوم متفنناً » . ومن كتبه كتاب مِثْبَةِ الأَلْمَعِ وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصصية^(٣) ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تخرج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزئى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدرّون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصّر سيرّياه^(٤) ، وقصّ سيّاله^(٥) ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر)

٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

(٤) سيرياه : ثوبه

(٥) سياله : شاربه

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام ^(١) ، ويجلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين الحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعا يحل صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة ^(٢) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برهم بإيناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، وبأوى إلى أشرف ^(٣) أرومة ، على خيل مسومة ^(٤) ، مثقفة مقومة ، ما بين جؤن أدهم ^(٥) ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سنان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كريم ، له سالفه ريم ^(٦) ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج ^(٧) إن زجرته ألهب أديمه ^(٨) ، روضة بهار ^(٩) ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم ^(١٠) ، ويمرور الغيم ، لا ينبه النائم إذا عبر به ، ولا يحرك الهواء في سربه ، أخف وطأ من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فرش قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لجين وعسجد .. تهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للنخيل ولكلاب الصيد .

(٦) ريم : ظلي أيضا . والفرس الأشهب : يخالط يياضه

سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس في سيره بخترة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أيضا .

(١٠) الأيم : الحية الذكر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : معلمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام الممالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نسي أصلها عند الهمداني والحريري نهائيا ، فلا بطلٌ صاحب حيلٍ - ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهى للأدلة والبراهين ، مع السفسطة والمغالطة وقلب الحاسن مساوياً بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة ^(١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وهى براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة ^(٢) أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عُفاته ^(٣) المتواترة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذى لا يأتیه الباطل وسنةُ نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل ^(٤) .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علتْ أسرةُ الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب التُّفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من التُّفع ^(٥) » .

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذى يأمر بالجهاد والسيف نائمٌ في قرابه ، وهو الذى يأمر بالعدل والإحسان ، مع الحماية عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعلِّ فضلَه على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيَلاته والخيلاء وكبرياته . وينبرى السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعٌ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسُلُه بالغيب إن الله قوى عزيز) ويحمد الله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتفَضُّ القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف في حدة وعنف .

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعتاء وأنت لل منع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(١) خزنة الأدب للمحمى ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٥) التُّفع : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإيعاد

في الشر

(٢) قادمة الأجنحة : ريشات أربع كبار في مقدمة

الجناح

(٣) عُفاته : طلاب معروفة .

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْمَنْ يُنْشَأْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ) لقد تعدّيت حدّك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب .

ويرد عليه السيف مغيطاً محققاً ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدنين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبّجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الحقبة العثمانية ، وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الحفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان ^(١) لمصطفى اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بهما الأمير العثماني رضوان كنتخدا ، وإحدهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة ^(٢) في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلقوي ضمّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والموالي مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن ^(٣) أبي حجلة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل . ولد بزاوية جدّه أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

نفرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمقار .

(١) تاريخ الجبقي ٢٢١/١ وما بعدها

(٢) تاريخ الجبقي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبنا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و « ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سكر دان إثناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكي السلطان حسن بن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور في معظمه حول العدد ٧ وأهميته في تاريخ مصر وأحداثها . وقد جعله في مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر في الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث في الباب الثاني عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين في أسرته . ويعرض في الباب الثالث لإقليم مصر وصلته العدد سبعة به . ويعود في الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة في البابين السادس والسابع . ويتبع ابن أبي حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول في أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثاني لقصة موسى وفرعون ، والثالث لملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمي ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة ، والسابع للزهرات السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمي ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقتل وهو يلبس سبع جبات بعضها فوق بعض . ولأريب في أنه بالغ في ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو في ثلاثين باباً ويزخر بالمختارات الشعرية والنثرية في الحب والصبابة . ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحاديث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفائه ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدما لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبته إلى الطيور ^(١) محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش ، وكأن ابن أبي حجلة سمى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها : « إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصرات ثَجَّاجُهُ ^(٢) ، وأَعْيَى طيبَ الغِيْطَانِ ^(٣) علاجه : وشرّق حتى ليس للشرّق مشرقٌ وغرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فما فعل التَّغْيَرُ ^(٤) ، بجزيرة الطَّيْرِ ؟ قال : لم يبق بها هاتف يشترّ بالصباح ، ولا ساعٍ يَسْعَى برجلٍ (ولا طائر يطير) بجَنَاح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سُلماً في السماء) أو آوى (إلى جبل يعصمه من الماء) فأذاق بها الحمامَ الحمام ^(٥) في المروج ، وترك أرضها كسماء ماله من فروج ، وتلا على الحمام : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج) وكم في سماء مائها من نَسِيرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفّر على ديارها البلاقع ^(٦) :

ومَنهَلٍ فيه الغرابُ مَيّتٌ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فصر ؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطيَّار ، قلت فالجيزة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجرّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسّر ، فأصبح بعد اخضرار بَزْتِه ^(٧) شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقا في قعر بحر (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالِح كالالْح يمشى على الماء (فتنادوا مُصْبِحِينَ) : (أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغيطان : الحقول

(٤) التغير : طائر صغير كالصُفُور

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاع : الخالية

(٧) بَزْتِه : شارته وثوبه .

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك الناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٢) المعصرات : السحاب المطر تعصره الريح .

ثَجَّاجه : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عتوه حتى صافح السحب ..

وأدرکہم الغرق فأیسوا ^(١) من الخلاص (فَغَشَّيْهُمُ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيْهِمْ) (ولات حين مَنَاص ^(٢))
 و (خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّفْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) فَهَدَّتْ قَوَاهِمَ ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا
 الصالحات (وقليلٌ ما هم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكيام ^(٣) بزهره ،
 والكأس بِحَبَاب ^(٤) خمره :

فكَأَنَّمَا فِيهِ بَسَاطٌ أَخْضَرُ وَكَأَنَّهُ فِيهَا طَرَاؤُ مُذْهَبٌ ^(٥)
 فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مَرَجَهَا حين (مَرَج ^(٦) البحرين يلتقيان) :
 أَعِينِي كُفًّا عَنْ فَوَادِي فَلَانِهِ مِنَ الْبَغْيِ سَعْيُ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ ^(٧)
 قلت : فدار ^(٨) الثُّحَاس ؟ قال : أَنَحَسَ حَالَهَا ، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَالَهَا ، فدخل من حَمَامِهَا
 الطُّهْرَ ، وقطع الطريق بالجامع الظُّهْرَ ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورَقِيَ منه على درجتين في
 دقيقة .. قلت فجزيرة أَرَوَى ؟ قال : قد أَفْسَدَ جُلَّ ثَمَارِهَا ، وَأَتَى عَلَى مَغَانِيهَا ^(٩) فلم يَدْعُ شَيْئًا مِنْ
 رَدِّيْهَا وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف ^(١٠) ، وترك قُلُقَاسَهَا في الجروف ^(١١) على شَفَا
 جُرُفٍ ^(١٢) :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جَرَى على رأسه من شاهقي فتكسرا
 طالما تضرَّع بأصابعه إلى رَبِّهِ ، ولطم بروعته الحيطان مما جَرَى من الماء على قلبه ، وتمثَّل بقول
 الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قَاسَى فَقُلْ قَاسَى وَقُلْ قَاسَى وَقُلْ قَاسَى
 لم يُفِدْهُ تحصُّنه من ورقه بالدَّرَقِ ^(١٣) والستائر ، ولا حَنَّ عليه حين تضرَّع بأصابعه فصَحَّ أن

-
- (١) أيسوا : يشوا
 (٢) مناص : ملجأ ومفر
 (٣) الكيام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل أن تفتح
 (٤) الحباب : الفقايق على وجه الكأس
 (٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في فيضانه من الطمى
 (٦) مرج البحرين : أرسلهما في مجريهما متجاورين
 (٧) يشير إلى أن البحرين يأخذان بخناق جزيرة الروضة
 (٨) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة
 (٩) مغانيها : منازلها .
 (١٠) الأنف : الجديد
 (١١) الجروف : شقوق المحراث ومجاريه
 (١٢) شفا جروف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه الماء
 (١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقاً منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القسطاط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الحيزة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بزته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعاً الغرق في غيابه ، وخرّ عليهم السقف من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاطت بحجزيرة الروضة إحاطة السوار بالعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارد مجريه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بحريه من حولها آخذين بنخاقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بحجزيرة أروى ومغانيا وكيف عمّ ما بها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويمضي ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولانحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزاً لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثانى جناساً طريفاً مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى التماله . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فالحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبر إلى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيها قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

القلقشندي (١٨١)

هو شهاب الدين أحمد بن علي وُلد بقلقشنده بالقرب من قلوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي . ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعني بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملحق يحيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يحيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و « قبائل الحجاز في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترفا بفضلته أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقيظه صوّر فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف تَوّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتبدى القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتّاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفاخراته صبح الأعشى ١١٢/١٤ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسحّاوي ٨/٢ وشذرات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافي لابن تغري بردي ٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ٤١٦/١ . وراجع في

الإشياء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشطراً غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتب وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأفلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتب الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع وخاصة مايتصل بزمان المالك . وتحمل هذه المقالة كثيراً من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهى تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثانى عشر . والمقالة السادسة في متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسيم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطراً من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقريظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشتون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التى أشرنا إليها التى وصف فيها صناعة الإنشاء وقرط بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرّية فى المناقب البدرية » وهى محكية أو مروية على لسان الناصر بن نظام ويلقانا فى فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمرى مركزَ التكليف ، ويشترق جَمْعُ خاطرى بالكُلف بعد التأليف ، أنصِبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شواردِ العقولِ وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرَدُ عن روايضِ المنقولِ حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمةِ حيثُ وجدتها ، وأقيّد نادرةَ العلمِ حيثُ أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلومِ أشرفها ، ومؤثرا من الفنونِ ألطفها ، معتمدا من ذلك ما تألفه النَّفسُ ويقبله الطبعُ ، مقبلا منه على ما يستجلى حُسْنُهُ النظرِ وَيَسْتَحِلُّ ذكره السمعُ .. عارفا لكل عالمِ حقِّه ، وموفِّيا لكل علمِ مستحقِّه ، قد استغنيت بكتابي عن خلِّي ورفيقي ، وآثرت بيتَ خَلْقِي على شَفِيقٍ وشَقِيقٍ .. إلى أن أتيت لي من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة » .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصّع كلامه على نحو ما نرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيق وشفيق وشقيق ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروايض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشئ كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئ بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهة . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لابد لكل إنسان من حرفة يكتب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيقة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْكِ وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها المفقود الراشق . ويحاور الناصر بن نظام في كتابة الإنشاء والخراج أيها أفضل ؟ ويجيبه أنني لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعدى مالا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندي على لسان الناصر بن نظام في بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحل وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لابد من المعرفة بكل مذكره القلقشندي بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندي عن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ ويجيبه الناصر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر في سيلة البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بجّدتها الذى ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندي مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهى تتزع متزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندي مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكراً فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَصْعَة ^(١) منى ، تُسَنَدُ إِلَى وتُنْقَلُ عَنِ ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجملتك داخلة في حسابي ، حتى مَيَّزَكَ المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جَنَّى فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوىٌّ ضمن كَتَبِي ، نَسَبْتُكَ متصلة بنسبتي ، وَحَسَبْتُكَ لاحقٌ بحسبي . أنا مِلْحُ الكلام ، وَمِسْكُ الحُتَام ، لا يستغنى عني متكلم ، ولا يليق جهلى بعالم ولا متعلم ،

بى تتبين أحوال الألفاظ المركبة فى دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندى البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندبحين بعضها ببعض فى كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازنى علم الصرف بالتأليف وتبعه فى ذلك ابن جنى . ومضى المؤلفون فى العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندى يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقلُ عنه ويُسند إليه وأنه مطوى فى كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم فى آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين فى النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد فى عبارتها على الموصول ، معبرا بهما عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندى مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلِك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونَمَقْتَ محالا .. وإنى - وإن صَغُرَ جَرْمى - فإنى لكبير الفِعال ، وإن نَحُفَ بدنى فإنى لشديد البأس عند التزال . وإن عَرَى جسمى فكُم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعى فكُم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُرَ باعى فكُم أطلقت أسيرا وأنا فى سجن الدواة مأسور » . ويمضى القلقشندى بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

السيوطى^(١)

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفى أسيوطى هو همام الدين السيوطى ، وكان لأسرته وجهة ورياسة فى أسيوط ، منهم مَنْ ولى الحكم فيها ،

وبروكلمان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر فى مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر فى نشاط السيوطى النحرى تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر فى السيوطى وترجمته حسن المحاضرة ٣٣٥/١ والضوء اللامع للسحاوى ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للزى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٤ والبدور الطالع للشوكانى ٣٢٨/١ والنور السافر للعيدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنها مَنْ ولى الحسبة ، ومنها من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلده إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين الشبلي في الحديث والكافيحي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبحّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فاستأذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِع في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، وممرٌ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المشور في التفسير بالماثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيقان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصلصلة كما كانت عند الهمداني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والعمور بمقامته المسكية ، وخص الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصولة . ووضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه الزجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجّر .. فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا كسرت بقائم سيني شوكتك . وإني القائم لله في الدياجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : الزجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه بـ عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح » . وللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمّنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضير ؟ » ويحجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجَنَّب ماء البصير » والضير : حرف الوادي والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه ^(١) المخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

(١) المهامه : القفار والفلوات .

إلى أن نزلت بمكة الشريفة. ، فحططتُ الرِّحالَ بَعَثَها ^(١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّي بِمِسامرتِهِ الغُرْبَةَ ، وأديبا يُنِيلُ بِمِحاضرتِهِ الإِرْبَةَ ^(٢) ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسمَّرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بشيَاب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذة معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وَشِئْتُ ^(٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخير سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يسمح أمه ؟ فقال : لم يصحَّ يَأْتَمَهُ .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسبوطية بناها على ألفاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أي موضوع حتى لئلا يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لايشوبها أي شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عتبه . (٢) الإربة : الأمانة . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب ^(١) الخفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقه الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضيا في الرومللي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتيها يحيى بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضيا في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عرني ، ومن أهمهم عبدالقادر البغدادى صاحب الخزانة ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سببا في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالما ومؤرخا كبيرا ، صنف حاشية على تفسير البيضاوى طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه « ريحانة الألبا » الذي نذكره كثيرا في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطا . وكان شاعرا مجيدا ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيرا في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيرا الحجي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دوّن الشهاب الخفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدّ لعناقها ساعديه

٤٧٧ وخلاصة الأثر ٣٣١/١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

(١) انظر في الشهاب الخفاجي ترجمته لنفسه في نهاية

ريحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونفحة الريحانة ٣٩٥/٤ -

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماءها : ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عار على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذارا لإبليس في ترك السجود ، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختتم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كُذبة واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد قُدد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له في قسم إيران كتبها غيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا ، ونسج الشهاب الحفاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصمه مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجو هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول النوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، افترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحفاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والابتهالات

فَرَضَ الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن ^(١) علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن الفسطاط ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة ^(٢) خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه ^(٣) . ويبدو أن الخطب والمواعظ كانت تُعدُّ لهم - ولمن ينيبونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخباء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواعظ لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجمالي ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول ^(٤) :

« أيها الناس فكّوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة ^(٥) ، ولا تُسِيمُوا ^(٦) أطعاكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تُمِيلُوا صَعُوكُمْ ^(٧) إلى زيارج ^(٨) الدنيا المحببة .. أين الجبايرة الماضية المتغلبة ، والملوك المعظمة المُرَجَّبة ^(٩) أولو الحفدة ^(١٠) والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرّارة اللّجبة ^(١١) .. طرقت - والله - خيامهم غير منتهية ، وأصبحت أظفار النية من مهجهم قانية ^(١٢) محتضبة ، وأكلت لحومهم هوامّ الأرض السّغبة ^(١٣) ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبلُ فيه عُذرٌ ولا معتبه ، وتجازى كل نفس

والاستعارة واضحة

(٧) الصغو: الشق والجانب

(٨) زيارج: جمع زبرج: الحلية والزينة

(٩) المرجبة: الموقرة المعظمة

(١٠) الحفدة: الأعوان.

(١١) الجرارة: الكثيفة. اللجة: ذات الحلية والصوضاء

(١٢) قانية: حمراء. محتضبة: مصبوغة بالخصاب

الأحمر

(١٣) السغبة: الجائعة

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر

٢٤٧/٢

(٢) انظر سيرة الأستاذ جودر (طبع دار الفكر العربي)

ص ٧٦

(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة

١٩٢٩) ٥٤٥/١٠

(٥) الآصار: الذنوب. المستحقة: المرتكبة

(٦) أسام الدابة في المرعى: خلاها ترعى فيه كما تشاء

بما كانت مكتسبة ، فلما سعيدة مقربة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوبة ^(١) ، وإما شقية معذبة ، في النار مكبكة ^(٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثير . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ويخطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقترفة ، ويصرفوا أطاعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأثم الحالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كتوس الموت دهاقا ، وأكلت هوام الأرض وحشراتا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور ^(٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ ^(٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : (انفروا خفاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبكة : مجمعة .

ونلتقى في زمن المالك بـابن المنير ^(١) الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق ^(٢) العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، ويطلق مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخميم بالصعيد ، وفيها يقول ^(٣) :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على المغرور ، ونذكره بأيام الله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحُجْرَتِهِ عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد المهم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصره همة وهمة على حظ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر هومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عما كانوا يعملون) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل العذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برقائقه وعظه وكلمه التى كان يجلب بها وبما يضمها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويبيكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن المنير فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومراً بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام المماليك ، وكانت دوراً كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومراً حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطاً . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم ^(١) الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد ^(٢) البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقدره واقفات ، بالسَّعِج المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجارى الأفلاك . بالكرسى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق . »
وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس ^(٣) المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن وراجع الشعراى ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والواقى ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١
(٢) راجع ترجمة البدوي في الشعراى ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنّه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوّجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقى دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقاته فى الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، وتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعهم اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا نَقَطَفَ من ابتهالاته وأدعيته قوله ^(١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخصّنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدنى والعمل الصالح والرزق الهنىء على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخرّ لى الرزق واعصمنى من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهبّ لى لسانا لا يفتزعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبِعْضُ لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو ننسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف

المنن والأخلاق للشعرانى (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ما جعلها تشدد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئاً مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسى بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز^(١) الدميُّ الديرينيُّ ، ولد بقرية دميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفي بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالاً وجنوباً ، وكان فقيهاً شافعيًا ، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ، ونظم سيرة نبوية ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً محشوشاً ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهي ، عرّفنا بربوبيّتك ، وعرّفنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهي ، إن ظلمة ظلّمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز شامل ، والحصّر^(٢) حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهي ، ماعصيناك جهلاً بعقابك ، ولانعرّضاً لعذابك ، ولكن سوّلت^(٣) لنا نفوسنا ، وأعانتنا بشقوتنا ، وعرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من يستفيدنا ؟ وبجبل من نعّصم إن قطعته حبلك عنا ؟ واخجلّتنا من الوقوف غداً بين يديك ، وافضّحتنا إذا عرّضت أعمالنا القبيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولانتهك ماسترت .

إلهي ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربّاً يغفر الذنوب ولا يُبالي .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العي .

(٣) سوّلت : أغرت ، وتقال في الشرور والسوء .

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

المحاضرة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هو شمس ^(١) الدين بن اللبان محمد
بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العرشي
تلميذ أبي العباس المرسى ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جَلْتُ عَظْمَتِكَ أَنْ يَعْصِيكَ عَاصِي ، أَوْ يَنسَاكَ نَاسِي ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَوَامِرِكَ
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بِعَصْيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يَسْبُحُ بِحَمْدِكَ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِكَ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،
وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن
العاصي يطيع الله بعصيانته وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعد
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مِنْ إِيْشَارَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،
وهو في غاية الخلوة لفظا وفي المعنى سم قاتل .

وكان يعاصره يوسف ^(٢) بن عبدالله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد
دفن بزوايته بقراة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي
بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان
شيخا حقيقةً ومُتَقَدِّدِيَّ طَريقَةٍ ، كان إمامَ المُسَلِّكِينَ (آخذِي العهود على المريدين) في عصره وله
رسالة في التصوف سماها « رِيحَانُ الْقُلُوبِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى الْحُبُوبِ » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقة أو المرقعة الصوفية وتلقين
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١

والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشعراني ٧١/٢ وحسن

المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي

٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوافي بالوفيات للصفدي

١٦٨/٢ ومرة الحنان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أورداد وأذكار هائلة » وهذه الأذكار والأورداد سقطت من يد الزمن . وهو وأورداده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام الممالك وما كان لهم من أورداد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونخض إلى أيام العثمانيين ونلتقي في مطلعها بأبي السعود ^(١) الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعراي ، وأهم منه الشعراي ^(٢) نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، محاولا تأويل عباراته على نحو مایصور ذلك في كتابه « الكبرى الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلوشان الطريقة الخلوتية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلوي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى ^(٣) بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طوّف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرتي قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلك ، تأليفه تقارب المائتين ، وأورداده أكثر من ستين ورّدا . وأجلها ورد السحر ، ونقططف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله ^(٤) :

« إلهي ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : (اذعوني أستجب لكم) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، اين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف البراح عنك وأنت الذي قيّدتنا بلطائف الإحسان .

والشعراي إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكري الصديق الخلوي تاريخ الجبرتي ١٦٥/١ وملك الدرر ١٩٠/٤ ودائرة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر للبكري مجموع الأورداد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعراي ١٤٣/٢

(٢) انظر في ترجمة الشعراي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوي الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/١٤ وكتاب الشعراي والتصوف الإسلامي لطلح عبد الباقي سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قُتِّبَ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمتة ألبابُ العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، افتَحْ لنا فتحة صَمَدَانِيَا وَعِلْمًا رَبَانِيًا ، وَتَجَلِّيًا رَحْمَانِيًا ، وَفَيْضًا إِحْسَانِيًا .
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر وهو ملتبس أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى .

أبو الحسن (١) الشاذلى

هو على بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غارة بالقرب من سبته في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلاميه واللغويه حتى أتقنها . ولم يكبد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَةَ طَرِيقَةِ الصوفى المغربى أبى مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفى هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذة إماما وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أَدْمِنِ عَلَى الشَّرْبِ وَالْحَبَّةِ وَكَأْسِهَا مَعَ السُّكْرِ وَالصَّحْوِ ، كَلِمًا أَفْقَتَ أَوْ تَيْقِظْتَ شَرِبْتَ ، حَتَّى يَكُونَ سَكْرُكَ بِهِ ، وَحَتَّى تَغِيبَ بِجَاهِهِ عَنِ الْحَبَّةِ وَعَنِ الشَّرْبِ وَالشَّرَابِ وَالْكَأْسِ ، بِمَا يَبْدُو لَكَ مِنْ نَوْرِ جَمَالِهِ ، وَقَدْ سَ كَمَا لَهُ وَجَلَالِهِ » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشاذلى للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشاذلى في كتاب « لطائف المنن في مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهميان ص ٣١٣ والشعرانى في الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلية في الآثار الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالحجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينهما في الله ومحبه حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانها لمصرىون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرحل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماؤه الكبار من مثل العزيز عبد السلام وابن دقيق العيد ومحبى الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فتكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهر الشيخ العزيز عبد السلام ، فقام هاتفا منبراً قائلاً : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلاً كسيراً ، وارتحلوا عن دمياط خاضعين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلى إلى الاسكندرية والعلماء والناس يَكُونُ عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفى صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجاته لربه فى أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرِّفاً أزمته كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها فى كتابه لطائف المتن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلَّله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجى ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك فسعَ ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفرلى إنك على كل شىء قدير . يارزاق يا قوى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلِكَ فى ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيئنا من أرواحنا ، ومسخرنا من أنفسنا . (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك ديناً قَيِّما ، ونسألك العافية من كل بليَّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس . »

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينقِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال فى الورد يتمنى أن يهبه الله رضا وحبه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعز الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعر الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم فى العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم فى التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا فى الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقة الوفاية .

ابن عطاء ^(١) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفاً عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقته ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسى تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيهاً كبيراً ، كما كان صوفياً شاذلياً لسنياً ، فجلس مجلس أستاذه يدرس للناس الفقه والتفسير ويعظمهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكبَّ عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواظبه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائماً مبادئها الأساسية وهو أن الصوفي الحقيقي مَنْ يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسدُّون به رمقهم

(١٣٥١ هـ) . ص ٧٠ والواق ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابه عنه للدكتور الفتازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعراني ١٤/٢ والبدرد الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويحني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق » . وصنف ابن عطاء الله « لطائف المنن » في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأبي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح^(١) الفلاح ومصباح الأرواح » . ووضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دَوَّنَهَا أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة^(٢) آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حَقْلَةً لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إثره ، وإثره على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحيانا بعض مواعظه

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية)

وتكثر عنده مثل هذه التفرعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها وفروعها لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بالتكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتَصَوَّر أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟

والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهِر الكائنات جميعا وموجدها ،

وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسببته ، وإن وجوده

لأبدى أزلى ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،

أقرب إليه من حَبْلِ الْوَرِيد . ويا عجباً كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلى . وهو يُسَرُّ

في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن

الشكر ، فأجابته توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر

اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربِّك فحدث) . وشكر الأركان : العمل

بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو

المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فن الله » . وسأله لاجين : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟

فقال : إذا كان ذا علم فبالتيبين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان

ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » . وبحق ما قاله الشعراني من أن لكلامه حلاوة

وجلالة .

أحمد ^(١) الدردير

هو أحمد بن محمد العدوى المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببني عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبَّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلوتى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحنفى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجع من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعبدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعُيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدّد الجبرقى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورد الشيخ كرم الدين الخلوتى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّيَ عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفِنَ بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات ^(٢) والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، ومما يقول فى مسبعاته داعيا ربه مبتلا إليه .

« اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شتاة الأعداء ،

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرقى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد

وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفُجاءة النعمة .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْق وهم الرُّزْق ، وسوء الخَلْق .

اللهم إني أعوذ بك من الرِّبِّيع والجَزَع ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع .

ويظل يستعيز من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يَظلم أو يُظلم أو يَبغى على إنسان أو يَبغى عليه ذو سلطان أو يَطغى أو يُطغى عليه . ويستعيز من الشرك الظاهر والخبى ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائماً في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .
وننتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مربنا حديث عنها عند البوصيرى ، إذ يقول :

« اللهم اجعلْ أفضل صلواتك أبداً ، وأنمى بركك سرّمداً ، وأزكى تحيّاتك فضلاً وعدداً ، على أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .
اللهم صلِّ على مَنْ مِنْهُ انشَقَّت الأسرار ، وانفَلَقَت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسبق ولا لاحق ، فرياض الملكوت يزهر جماله موقنة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .
اللهم صلِّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار ، ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال . »

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئى في كل نور ، ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة المحمدية . وبوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ على سيدنا محمد واسئلكُ بنا طريقَ الرشاد .
وصلِّ وسلِّم وباركْ على سيدنا محمد واخلعْ علينا خلعَ الرِّضوان والوداد ،
وصلِّ وسلِّم وباركْ على سيدنا محمد وتوجَّنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَارَأْفَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ يَوْمَ التَّنَادِ (١) »
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين
لا ينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأفاصيص القصيرة التي تروّج عن النفس أو
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلق نبييل ، وتارة يراد بها أفاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم
أو قاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة
الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولادة العباسيين بمصر يستكتبه في ديوانها ،
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلم الأوائيل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خازويه وليس ذلك
فحسب ، فإنه وصله بعلم الأوائيل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتابا في الأقواس

(١) يوم التناد : يوم القيامة واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خازويه . وكتابه
المكافأة طبع مرارا .

(٢) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥

وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثرة في الفلك لبطليموس . وقد توفى سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسان تثير أموالهما في التجارة والزراعة ، فأغدا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوءهم وشهرهم لما يجرآن من أوحم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العقبي وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعايير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلى على الباب أى لحقنى - اعتذرت إليه من تقصيرى في حقّه - امرأة تُطلق (أى أصابها المخاض) - ست (أى سيدة) - امرأة مقربة (أى قربت ولادتها) . واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتّھوا علىّ صبيانى حلواء في العيد » والفصحى أن يقال « انتهى علىّ صبيانى » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبى في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن ^(١) زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد ^(٢) بن موسى الكندي المعروف باسم سيويه المصري ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمتنزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبلا على كتاب الكندي : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكماله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس في عصره ممزوجة بشيء من التباله ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزرع وينهر بالفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتمائيل العاكفة ؟ سُلِّطَتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِفَةُ) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرج ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسنن البدن ، قطع الله منه الوتين ^(٣) ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قِيلَ الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمرَ يحثته القلاة » .

(٢) راجع في سيويه المصري معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أو قل فى هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مأمراً بنا أنفاً أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظاً كبيراً . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ماكان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمه فيضحكون ويغرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقرّبه ويخالسه أملاً فى أن لا يكوهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولقّق أصحابه ، وحشد بين يديه حجّابه ، وشمّر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِقَ فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرِقَ فخرج لهذا الأمر ينكره » ؟ . ومع أن سيويه كان يصوغ نوادره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعاً فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصحى فلقطت ما بين يديه . وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن مماتى الذى مرت ترجمته ، وقد قصّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش ^(١) التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغبر قليل من الحمق ، فانتز ابن مماتى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » ^(٢) فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلاً : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمداً فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوفه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسّاً فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن مماتى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حُرمة فاشوش ، قد أتلّف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمّة ، لا يقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالاً لنا فى مجلة الكاتب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرّد كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . » . ويأخذ ابن ممانى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمّ بحبسها لولا أن شفعت فيها جارتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحي الطويلة جاءه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعذب بلحيتهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ فى الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتنف لحيته ، وصاح فى غلمانه أن يزجّوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبث الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءت به بحدّادٍ له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقبل له إنه حدادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس ، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشنقوا القفاص وسيبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممانى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تبائنا يضيع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُنفث ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ ويرى يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممانى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممانى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحقق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من العجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضعف والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من القول يسمى اليسار والمشي العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الربى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الفاشم وسوأته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومربنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما لقترن به من خوارق وحياته وما راقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية (٢) ومجانبا هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لباتشيا ترجمة الدكتور

حسين مؤنس ص ٥٥١ - ٥٦٤ .

الكاتب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .

ومحفوظا برغوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألقت في مصر - أو أخذت بها شكلها
النهائي - وهي سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره في السيرة بطلا عظيما للمحمة عربية تمتد فيها بطولاته من
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية
النفس في أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألف لهم
سيرة عنتره وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره في الزمان فحسب ، بل
تمتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام
وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من
قديم أن يشدوها الناس على الرابطة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عبس قبيلة البطل ، وتعرض
السيرة مولد عنتره وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقييلته ضد القبائل المنافسة
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا في السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابها منها الجوفران وربما كان تحريفا لجود فرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره في السيرة تتسع لالتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنتره أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب في الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب في الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائل النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورؤى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة (١) الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسلم ورياح وعدى وربيعة والأثنج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

للهلالية والزناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا في للسيرة الهلالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر في السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعارا

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطى . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمى فى عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها فى المستقبل . وحانت الفرصة لذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكى السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة فى تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يملكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبثه جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت فى سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغبة فى سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأثيج وعدى إلى إفريقية وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعع الإمارة بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها فى الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها فى هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبثت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاص للسيره أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبويها فى نجد ، حتى إذا قدمت معهم

مضوا مع أيها في الرحلة إلى إفريقيّا ، وهناك زوّجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبا له . وهى قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بنى هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بنى هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلاؤهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سمّي القصاص بطلها أبا زيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناته : الزناتي خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجى ، كما غاب زعيم القبائل بجي الرياحى وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبى زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها ألفت في القرن السابع الهجرى أو بعده في القرن الثامن وهى مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالي وأبناء أخته بجي ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التغرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتي خليفة من دخولها وتفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبى زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقي بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتي خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهى تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس^(١)

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السراى كاتب السر وناظر الجيش والصاحب والدويدارى (تحريف للدوادار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الخوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأليك وقطر . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصبّاح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شبحه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، وترجع كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري .

سيرة ^(١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش فى أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى فى ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن فى سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة فى التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألفت بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف ^(٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخرافات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أُضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليلالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب فى بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتدخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتميز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائى وإبراهيم المهدى . ويشيع فى الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكره وتدينه البالغ وحبه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع فى هذه السيرة وماها من تأثيرات مصرية مقال يابوه عنها فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر فى ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات فى

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطعن به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصور حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويند . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضاً حكاية مريم الزنارية ، وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ماسبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى أخرجته بلغتها العامية فى صورته المعروفة لنا ولأسلافنا منذ القرن الثامن الهجرى .

وقد انتشرت ألف ليلة وليلة بلغتها العامية المصرية فى جميع بلدان العالم العربى ، وبالمثل انتشرت فيها بتلك العامية القصص الشعبية : قصص عنزة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث وأن الإذاعة والسينما أتاحا لها هذا التعرف فى عصرنا ، وهو - كما قلنا - تعرف قديم .

القسم الثاني
الشام

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب^(١) الأولى

(١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهى سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، وبردى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المساة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طبرية . ويجنوى دمشق هضبة حوران . وفي شمالى الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبيها الشرق جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهى ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيا البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شمالها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

تغرى بردى والمغرب (قسم القسطنط) لابن سميذ وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لقلهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن

إختانون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتقد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يَكُونُ الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلي بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكُونُوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الآشورى في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولت بعده شتونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الإمبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة النبط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا في الجنوب بشرقي الأردن وبُصْرَى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَلْعَمُرْ شمالي بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أَدْبِيَّة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، فقصوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّتْ طريقها إلى منطقة حوران جنوبي دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جَلْتُ أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حليمة بالقرب من قُسْرَيْن سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خُرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جيلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الخفيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدْرَأَ خطرهما . وهو ما جعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسير في سنة اثنتي عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرق من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وقَتَحَ بُصْرَى شَمَالِي البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الحجابة - جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها - وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمَّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرثهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخلَى القدس من اليهود وأجابه ملتسهم ، ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان وإلى دمشق ، وولاهها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيدو الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وعزله ، فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين علي بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى علي وأقيم حكام للفصل بين الطرفين : أما جند علي العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « يا عمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمنَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحزَّ وطبَّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل علي عن الخلافة لوقف الحرب وحقق دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش علي : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم ونكّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمرؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزباد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة علي في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى يزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشؤون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد وإلى العراق قبيل دخوله الكوفة في « كربلاء » غربي الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعه ، ولا يخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفي وخلفه حصين بن نمير السُّكُونِي ، قضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفي بعد أربعين يوماً من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتَهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بدؤوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مَرَج رَاهِط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائداً فيها ، وباع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكري العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي وإلى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير وإلى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفي وخلفه ابنه عبد الملك وسر سورا عظيماً لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وباعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل في قتال القوم حتى خرَّ صريعاً . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائياً على المعارضة في المغرب .

وبعد زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقاً وغرباً ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هيا لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هيا للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بال عمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيّنت جدرانها وسقوفها بالرخام المطعم والفُسيفساء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، فقتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سبباً على بن أبي طالب على المنابر وعمل على استئالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوى بين العرب والموالى في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن على بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقتل وصلب ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومضى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغرب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانفض عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتى تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الايرانية تسقط فى أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها فى بوسير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية فى الكوفة وطورد الأمويون فى كل مكان وأبيدوا بوحشية ، ونُشِئت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم فى الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبد الرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبد الملك ، إذ فر إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(ج) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة فى الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا فى الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم فى الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صدها السيئ فى نفوس أهل الشام ، مما هبّ بعد نحو عشرين عاماً لثورة القيسية فى قُسْرَيْن يزعمه أموى هو أبو محمد السفينى ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفينى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر . ونمضى إلى سنة ١٩٥ فى عهد الخليفة الأمين فيظهر فى دمشق سفيانى جديد هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويأبىه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته . أعوان الأمين واختفى بالمِرّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياماً ومات . وفى سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفينى المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر المعروف والنهى عن المنكر إلى أن قويت شوكة فادّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم فى ألف فارس وأسرّه وحجسه ومات فى حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبد الله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد فى موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحتها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً فى مذبح مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبد الله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وحجسه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . وتابع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليا لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا في أن لا يُعنى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا في أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمينية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينها نار العصية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جزل طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها منه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منها . وأخيرا أرسل إليها هرون الرشيد وزيره جعفر البرمكي ، فأطفأ نار العصية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتشور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الوائى خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . وما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للدفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتة ذاهبة إلى شمال الشام آية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثناءها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دقا وأوطئوهم ذلا وصغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عمورية أمنع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا في أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور في شمال الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمي والفارس المغوار عمر

بن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبه ، وبني له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامراء عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون - القرامطة

١ - الطولونيون

رأينا في حديثنا عن مصر كيف تنقلت الأحوال بأحمد بن طولون حتى وليها وأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولي إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولاً بشورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأتاب عنه بها مولاه لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهزم الموفق بتلبسته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالحججور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولها

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السابقة في أول

الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي .

العهد ، ولم يرد على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعاً .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرق في فقراء دمشق والعوطة . وتوفي سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خجارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فبنى خجارويه بالهزيمة ، وتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و ٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابه ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرَّ خجارويه سروراً عظيماً ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام يجيشه الضخم كثيراً ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خجارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشه ، وكان لا يزال صبياً ضعيفاً ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فساداً في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكنى وأغااثهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلفه عنه شيان وكان لا يقل عنه ضعفاً ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدتنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري ،
وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ،
ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز البورى

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في « سَلْمِيَّة » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعائه إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطى يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنو العَلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِبَ لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يعيشون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه الملم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّبَ صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعاني ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفي ، ولجى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبْرِية فانتصر على أهلها ودخلها وقتل بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُضْرَى وأذرعات ، وتعقّبت جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهي حركة

ذكرويه وأولاده ودعائه في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاية مختلفين .

(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)

١ - الإخشيديون^(١)

مرّ بنا في مصر حديث عن الإخشيد وتأسيسه فيها الدولة الإخشيدية منذ سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد في القُرمَا ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ما ينتفضه ابن رائق ويتبأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شمالها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتزح الفرصة للإخشيد وجهاز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى القسطنطين في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوفي بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكريا ضخما ولقيه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين على

(٧) انظر في الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة في أول

الفصل وخاصة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن

تغرى بردى ، وانظر قسم مصر ص ١٩ .

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي باتفاق من أعيان مصر وجندھا. وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد ، وكان - كما مر بنا في قسم مصر - صيباً ، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب . وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين .

٢ - الحمدانيون^(١) (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مر بنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيا نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ماسلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة بالتنبي الذي نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحرية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

سامي الدهان) وراجع البيهية للثعالبي ١٥/١ وما بعدها
ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين
وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ
السالفة والجزء الأول من زبدة الحب في تاريخ حلب لابن
الديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصب عليهم فيها سنويا كل عصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته ونحوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مرعش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تذر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلى ، وأسر صهره بينا كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعريين حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهللون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ما بيني يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفي شمالي الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهم الجوبين المتنبي وبين البطل العربي . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربي فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنزل بهم ماتعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفي نهض البطل من فراشه وصد بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لبى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على كبة بقدر الكف جمعها مما علق بشيابه ودروع وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونفذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابي المعلم الثاني . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفي أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرجال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء » . وخلقه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخر أبو فراس في ميدان الحرب صريعا . وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرغويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وانهمز أصحابه وخرّب نفقور كثيرا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطالح مع سعد الدولة الذى ظل أميرًا لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جد هما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آباءه ولم يلبث أن فر إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى (نور الدين)

(١) الفاطميون^(١)

مر - في قسم مصر - حديث مفصل عن الدولة الفاطمية وفتح جوهر للديار المصرية سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى في المحرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام - بأمره - « حى على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يولية مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمدّه عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

القلاسى (طبع ليدن) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ .

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة

وما ذكرنا من المصادر في قسم مصر وذييل تاريخ دمشق لابن

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالى أن يثرى بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين والياً ، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كثورة قسّام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلى بلبنان ، ولاتزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعالي الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربوبيته إذ كانت تردّد - كما مربنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبيعياً في عهد هذا الخليفة الشاذ الخبّول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدا الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المقرّب بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبو الفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المقرّب بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو مرداس^(١)

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولا تخفى طويلاً في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلّابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المقرّب الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وقتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجوقي ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحليين غير أن الموت اختطفه سريعا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(ج) السلاجقة^(١)

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دقة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت لإرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبعيا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أئمز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتَش بن ألب أرسلان من أئمز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنطَرطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أئمز تاريخ دمشق

لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عار قاضى طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوق وظلث معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرَّ صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى في حرب مع ابن أخيه بَرْكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بورى حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسُلطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتفض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحداً أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمَان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجهها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

(د) الصليبيون^(١)

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ماغرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر مما عرضنا له في حديثنا عن مصر ، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور ، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبي . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما وضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البورين في دمشق والدولة الأرمنية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وما وراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها يزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوياء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلديون إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال التّصيرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلديون الأول وعهدوا إلى الكونت ريموند دى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلديون في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيدا وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلديون الثانى الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدى الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل زنكى ^(١) (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

من المنتظم والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والكواكب
الدريّة فى السيرة النورية لابن قاضى شعبة (طبع بيروت)
وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

(١) انظر فى آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر فى الدولة
الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس
لابن خلدون والخاص والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يمكن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لوائه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمال الشام مثل حماة وحمص وبعبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضي سستان على ماحقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى غياث الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم ثوا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية نجى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن فامية ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغام وشارب تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأمرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويحدثها بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف - كما مر في حديثنا عن الدولة الفاطمية بقسم مصر - وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ما بين ينازل حملة الصليب ، وفتح حصون « مرعش وإعزاز وحارم » وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبهارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

(١) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

مر بنا - في قسم مصر - أن الأمور استقرت بيد صلاح الدين منذ سنة ٥٦٧ للهجرة ، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعة وكفرطاب ، ويولّى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه قرخشا . ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهي آخر مرة يقارن فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتسع لسلطان حاكمين ، ولذلك لم تكد تَمْضِ سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويُعْفَرُ له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين . ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقي سرية له في حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية ، ويلتقي الجمعان في سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدقُّ أعناق حملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

الأصبهاني وسيرة صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلطين الدولة الأيوبية . وراجع ماذكرناه من مصادر أخرى في قسم مصر ص ٢٧ .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام ومفرج الكروب لابن واصل وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسى في الفتح القدسي والبرق الشامي للهاد

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريحنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال أبو شامة - كما مر بنا في قسم مصر - : « من شاهد القتل قال : ماهناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ماهناك قتل » وما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا ويبروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصُفد والكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل حملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملاها بالمدارس والخانقاهات والبيهارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبلبك لبهرام شاه وحمص لشريكه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحده والفائز والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك في قسم مصر . ونغضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فرديك القدس قامت قيامة الناس فلم يبق بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفي الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفي على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فأرى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يرض ذلك الملك الصالح فتحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتزعه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين في غرة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه ، واتجه توجا للقاء العدو بالمنصورة شمال الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لجى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مر بنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكنبه بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب في الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فجزاه ممالك أبيه جزاء سنار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقبت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) الممالك^(١)

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة الممالك ، وعدّهم الحكام الأيوبيون في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعماء الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيك التركمان في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرّبها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر ومكّ حرّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرّ الناصر يوسف وأسرّه التتار ، وبقي معهم في ذلك وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أهدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنّوهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة الممالك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاه قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للممالك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

(١) لأنى الفدا صاحب حماة وراجع العصر المماليكى لسعيد عاشور .

(١) انظر في الممالك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقرئى والمختصر في أخبار البشر

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسطبارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صفد وتبنين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون . وأعظم أجماده الحرية ضد حملة الصليب أخذه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثني عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأفق من حيثئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث أن استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنططوس ، وخرج من بقي من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعفة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثر من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (قيسيت) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فر منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُني عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ماسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يثنون من عار الهزيمة الفاضحة في عَيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكَسَرَتْهُمْ جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كَسَرَتْهُمْ على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحريك بيبرس فولوا مدبرين . وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعادوا الهجوم على عَيْتَاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويبيوعون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شتون التتار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أُعِد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعْمَل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتى على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصَب دمشق مثلُها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد بَرْقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم

المالِك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مَرَج دابق .

(ج) العثمانيون^(١)

مر بنا في قسم مصر كيف قضى سليم الأول العثماني على دولة المالِك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرها . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى معن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليماً ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابعها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حولت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توسم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فر إلى سليم من المالِك مملوك خائن هو الغزالي الذي زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ماعدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين ، وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّصريعا عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن توزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيدا ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيدا بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس في لبنان .

تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة ، وتاريخ العرب (مطول) لقليل حتى .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري ، ومقدمة

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدقردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دقردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أورييون من أجناس مختلفة كانوا يُربَّونَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن الممالك ، وكان أكثرهم من الدرروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حروفش يعلبك وآل فريخ فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولَّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولَّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدرروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدرروز . وتنهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . وتمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيسقط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . ويليه بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع^(١)

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفى قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس فى الشام ربما هو الذى هياها من قديم لأن تكثرت فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه فى الحكم وإدارة دفة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضاً غنى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضاً على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم ، وظلت تجاراتها تكون مصدراً أساسياً لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات الجمع العلمى العربى بدمشق .

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وقروح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والحباية

الأزمة إلى نهاية زمن الممالك الباب الكبير لمرور توابل الهند وغروص آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل . وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوّنون شطرا مهما في سكان الشام ، وكان الشطر الثاني ، وهو الأكبر ، متحصرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرّبون زعماء البدو ، ولكي يدعروا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرّج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم في الجيش العربي . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجالية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرققوا بالريعية فيما تؤدى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولى - خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفياه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استثمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُني عناية واسعة بأهله ونفقاته . وبنى لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشؤون المالدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضاً لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مرّ بنا - لصنع القسّيفساء في جدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مثّلت فيه أشجار وقرّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعہ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنع السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى في المعادن بالمصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عن أسلموا من الموالي بحيث يسوّى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوفّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلماً وعدواناً . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ماشاده في دمشق والبوادي من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم مائتة تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويرى أن بعض ولاية الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردا من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخما . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة ^(١) .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمته فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الإرهاق غايته فى ولاية الملعى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حيثند فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببائنه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تستخدَم فى مصالح الرعية كما صوّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحصر الحكم الفاطمى إلى

والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .

ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حيثند على العواصم

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتَكِين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثمان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبنائه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكي واستولى على شامى الشام ، وكان قد أصبح خراباً من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلات كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحماة وبلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والحب واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سَمَّنَ كيسه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ما صبَّ في حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهد بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظلمها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعا جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لافقة من تواصل الحياة بين العرب المدينين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - فى عافية : يتعاضون ويتبادلون السلع وعروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجارتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعياً والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تتوج بالأقشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مسجع مغنى مكة وغناه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بديحاً واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سريج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جارتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حبابة وسلامة القس ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قومت بألف دينار .. حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره . . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهو وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقع بالطليل ويمشى بالدُّف على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدنان ، وكان يهين لهم ذلك فى الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزجس والأفحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابن حجة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا في منزله ليلة ماجة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشاءهم ، فشربو ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والخلّى وسألهم في الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والتّرد أو القراءة في الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترقّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البغاء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقياً توفي سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المنحرفون بالجمتمع في لهوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيش ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعاً وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليا تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لذك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مرّ بنا - نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في حيال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عاقية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مرّ بنا من صفوة صناعتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عمارتها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمّن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمرأهم وبعض نسايم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظنون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكاهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهى ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التبعة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم غروضا وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدرّوز - الإسماعيلية الزارية أو القداوية أو الحشاشين .

(١) الإسماعيلية والإمامية

مرّ بنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سلمية قرب حماة بالشام حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن قرّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . ونشط دعائهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سمو باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبي القاسم محمد الذى اخفى وهو في الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعت لهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملا الدنيا حقا وعدلا ، ويسمون في أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعاني الباطنة أو المسترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النصيرية^(١)

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النعمري زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكته العالى ، ولا يلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلّص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلی قائلين : وحق على العلى الأعلى ، كما يحلفون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشرعية فى الإسلام لجولدستهر ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنومجنى والملل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ١٣/٣٥ ، ٢٤٩ ، والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعل : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول النوبختي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يحلون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعائهم لنحلهم الغالية المفرطة في الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته في الشام أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمرهم أن يعمرؤا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يحوا منها الخمر وكل ما يتصل بالآثام ، وصدعت قراهم لأمره .

(ج) الدرود^(١)

الدرود فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيب بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كرمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم فى أيدي عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلاؤا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا عُصَّة فى حلق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزي وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّدُ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الانسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعت وإنه يغيب ويظهر بهيته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص يتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطباعية في قولهم إن الطبايع هي المولدة ، والموت بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسطة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجعاعة .

(د) الإسماعيلية^(١) النزارية أو الفداوية أو الحشاشين

مرّ بنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابني نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعاً وحصوناً كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزاراً بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسماً عربياً في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسماً شرقياً في إيران يمثلها الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتي ابن جبر وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ،

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لافي أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم النجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تئش السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ هـ. ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن فامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر. وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من الموت ، وتقرب من طُفَيْكِين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق. وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون التزاريون في بانياس يمتدون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدْموس والخوانى والكهف والمينقة والعليقة ، مركزا للدعوة . ويُعدّ دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليعتالوه ونجى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرد لهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار - كما مرّ بنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانياً يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه دينه ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهم له ، وإن أصيب فهم لولده » . ويقول القلقشندى نقلاً عن ابن فضل الله العنبرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجن عن قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيعة » المدفون بدمياط .

الزهد ^(١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابع بعدة الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عمت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الخفيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزازر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقرئى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تفرى يردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافى وخلاصة الأثر للمحى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبى وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميانهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النوى وفى أبى الدرء البيان والتين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبد الحليم محمود) وكشف المحجوب للهجوئى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسم للمقدسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصفة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فلإنها تلهي وتحمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفل عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخط ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع ^(١) ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يُدرى أيومرني إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة في الشام العباد والأتقياء وولتقى بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقرءاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذي يخشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومربنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعاير عن الناس وأنه سوى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحط عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الزمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جاييا . ويفيض ابن سعد في ترجمته له بطبقاته في بيان زهده ورفضه لمتاع الحياة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النسك والتعبد حتى اصفر لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سالت الحدقتان - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتفي بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسجع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد ^(٢) ، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسي .

(٢) الاستشراف للأخرة

جبر^(١) . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وملتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغري بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماماً حافظاً كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثني عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجویری : « كان ربحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجعهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجعلاً وعنه راضياً » ويذكر بروكلمان له كتاباً في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراً . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبد الله ، وذكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ربحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابداً تقياً صالحاً توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكانما اتخذوه رباطاً لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مراراً في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان تغير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الخفيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

متى سئم اللقاه يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي (شمال الموصل) فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبر في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الحفير يتنقل على الغبراء من الخطباء والمعلمين لاف في دمشق وحدها بل أيضاً في القرى والضياع ، ومن سئم اللقاه فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما مربنا فى قسم مصر المتوفى سنة ٢٤٥ وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى . وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو متره عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدوم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقه المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما على السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقعته الصوفية فنظر إلى ورد السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عطشى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام وقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقى فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعر برى ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري ، وغيرهما كثيرون مثل الختلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجویری الغزنوی الأفغانی ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورأى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فائحة الثام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توفيقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تشش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ونساؤهم وأمرأؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط في ديار الشام ووقف الرواتب والأموال التي تنفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردى الإيرانى ، وكانت له فلسفة صوفية إشرافية ألمنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويخلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاهر على لسان يحيى الدين بن عربى المولود بمروية فى الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوفاً فى البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ » . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردى ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هبأ فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى - على قلة - حياً بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونهم من تهمة الإلحاد على نحو مامر بنا فى مصر عند الشرعائى .

وُعتى دولة المالك بالخانقاهات والرُّبط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مربنا آتفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهى حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدّهم نارا حامية ظل يُذكيها بوقود جزل يزيد لها واضطرابا ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد ترهّد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل فى سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختنى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السيمساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالى ، وشاع أمره فقبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزيّ والذهبي ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت فى الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التى تدين بالنظريات الحلولية ولا تقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقّس عليها والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السوى . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون فى العالم الإسلامى ، وكان لهم أثر غير قليل فى حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونغمض إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحَّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو مانجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفي وغير الفلسفي ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها فى مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل فى شواطئها فتشارك فى الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلال الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديبا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبنة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزاة لقرها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثالث المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثر الهيلينية في الشام أن نراها تتعمق باديها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامحة إليها في عهد أديئة . وحين خلفته في الحكم أرملة زنبيا اتخذت لونيحيوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصي الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يوناني ومسيحي ^(١) يعدها للمشاركة سريعا في نشاطها العلمي والأدبي بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذي كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعُني كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفي ، وكبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف في شيء رجع إلى أبي الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا ^(٢) . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطناً ، ثم

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزري (نشرة برجستراسر) ١/٦٠٦ .

(١) انظر في هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حتى - الجزء الأول - الترجمة العربية .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعى أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس فى شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومن يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجد من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسنته أو نحوه هذا فاكتبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا من كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمه وبعد زمنه . وما نلبث بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن نلتقى بفتية مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراته حقا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يعلمون الناس العربية فى المساجد حتى لا يخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصّر الخلفاء وأمرأ البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا لمؤدى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبُّنا له فلم نوحِّه إلى البادية »^(١) . وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لاتقصر ، بل دائما تُجرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظَلِّ الشَّامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إذارات الرواتب على العلماء ويطرَد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموى بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عبيد بن شريّة الجهمي ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طُبِعَ له في حيدر آباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير وبلغنا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون في الشام ، على نحو ماسيتضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) حين أظَلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرهما من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سَدًّا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَلَّ بهم وبمجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابي المعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جني وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبي ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامي والبيغاء والوُأواء الدمشقي والخالديين والسريّ الرِّفاء وكُشاجم وابن نباتة السعدي . ونخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكفي أنه نزل عنده لمدة

تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمته : المتنبى الذى ملأ الدنيا بوصفه لبطلته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفى أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر فى يدها لأوائل القرن الخامس الهجرى حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ولا يبق معها فى العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم فى تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التى كان يبدلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفى أن تكون الشام أنتجت فى هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامى . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمته ، يكفى ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، ويصور ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حيا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضى طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفته الحاكم ، فأنشأ بها دارا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها فى تنوع الدراسات بها وفى جلب الكتب الكثيرة إليها ^(١) ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا فى الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهى لا تزال ناشئة فى المهد . ويدخل أكثر الشام فى حكم السلاجقة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس فى المدن الكبيرة لدولتهم فى إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعى والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربى بجميع فروعهِ شعبيا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرية ^(١) بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتاكب العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة ^(٢) للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقي بدر الدولة أبو الريح سليمان

ويُظَلُّ الشام لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بجروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهائ المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم الممالك بحيث تزدهر في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضاً بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورَه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرها من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها في كتابه الدر المنتخب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعد لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر في حديثنا عن المدارس المصدرين السابقين .

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعى ثم المذهب الحنفى ثم المذهب الحنبلى ثم المذهب المالكى . ولم يُنَّ للمذهبيين الآخرين مدارس إلا فى عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفى ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبلك ومنبج »^(١) . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوى ، من ذلك دار الحديث النورية التى أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعى : النووى .

وبدون ريب بعث هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء فى كل علم حتى لبروى العماد الكاتب فى كتابه « الفتح القدسى » أنه وُزِعَ فى إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد^(٢) ، أى أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضره . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لا بد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته ، ويروى ابن خلكان فى ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة فى حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن فى بلادك إذرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديداً وزجر صاحبه زجراً عنيفاً . وكان صلاح الدين على شاكلته فى العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته مايعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مها بعدت الشقة كما حدث فى ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السُّلُف الحافظ المشهور^(٣) واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه فى الفقه وأنه ألف فيه كتاباً وأيضاً

(١) ابن خلكان فى ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ . (٢) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلقي أيضاً : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

(٢) الفتح القدسى ص ٤٨١ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو^(١) . فسلطين بنى أيوب كانوا مثقفين^(٢) ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويعدُّ صاحب الأعلام الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن الماليك وأخذوا يضيفون كثيراً من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة الماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلطين بنى أيوب ، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدارسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباى والغورى .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام الماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ ما يريد المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن^(٣) تيمية من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلا على جمود الفكر الديني حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبليا يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحرراً فكرياً ، وقد حارب الصوفية في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدانية الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلى وما يتصل به من تجسد الإله

والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافي ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلى في ترجمة الشيخ تق الدين بن تيمية الحنبلى لصنى الدين الحنفى والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمرعى الكرمى وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها
(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب في الفقه الحنفى كان للمنصور محمد الأيوبي صاحب حجة كتاب في تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبي صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونى ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفاً ما بعده شرف .

(٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١

في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجانه . وهى هجاء صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حجة عما في القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) و (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة : أن واجباً أن تؤمن بما جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بال مخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ماتهم الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية ومايموه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدعونها ، وشكوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مربنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضحاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه كاهماً وبضعة أشهر . ولبث في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما وقع به خصومه بدعوى حملته على أصحاب المتزعة الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدانية الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردَّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدُّ طلقة واحدة . حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصعد السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا في سنة ٧٢٠ وعقد بدمشق مجلس لمحاكمته ، وسُجن ولبث في السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدَّتْ إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصي ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنِع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهاداً منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلاً - كما مر بنا آنفاً - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً على مصاريعه طوال زمن الماليك حتى بين الحناابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملاكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملاكاني قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيي السنّة ومن عظمت به لله علينا المينة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظّل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة في بعض المدارس والجوامع وبخاصة في الجامع الأموي بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومربنا أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءاً شديداً ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي وضعه الظاهر بيبرس وظل قائماً طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضي عام واحد هو قاضي العسكر ، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليده بالعربية ، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مرّ بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها : صور وصيدا وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية طيبان من الأطباء المتميزين في دمشق حينئذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة^(١) ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية^(٢) . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتباً في الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتباً ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »^(٣) . ونمضى بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان^(٤) وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه^(٥) ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعاً من المراكز التي عنيت قديماً بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة (٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١

الحياة ببيروت) ص ١٧١ . (٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥ بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

أبجر ، ويتخذ طيبيا^(١) له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندري في الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه^(٢) البصرى . ولو أنه فكر حقا في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفا - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية^(٣) ، ويذكر بروكلمان أنه تُرجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم^(٤) . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل المعينون بعلوم الأوائل يتنفسون في هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها في القرن الثاني الحكم^(٥) بن أبي الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى^(٦) - على غراره - طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله في الطب كناش كبير . ويبدو أنه أُسس في دمشق مرصد كبير ، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال^(٧) ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير .

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح^(٨)

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف)

٩٠/٤

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجا

خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون

بدمشق ، انظر القفطي ص ٣٥٧

(٨) - انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودي بور ص ٢٢

وعلوم اليونان لأوليري ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغالط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعي ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أوروبوية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندري ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطَا^(١) بن لوقا المولود بيبليك في أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له ألدوميلي ترجات أخرى ، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة في العمل بالكرة الفلكية ، والجامع في الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حُيَيْش^(٢) بن الحسن الأعمش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله في كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقرات وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد^(٣) ابن يعقوب الدمشقي وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجات كثيرة ، ترجم إيساغوجي (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعُني بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفي مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتبًا لجالينوس . وهذه الأسماء التي ذكرناها إنما هي رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحققا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة في عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب في زمنه يلمون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاده في حلب أكبر فيلسوف عربي في زمنه الفارابي^(٤) ، وقد ظل عنده حتى لبى نداء ربه سنة

(٣) انظر في سعيد ابن أبي أصيبعة ٢٨٢ وبيروكلمان

١١٨/٤ وألدوميلي ص ٢١١

(٤) راجع في الفارابي وفلسفته ومراجعته كتابنا العصر

العباسي الثاني ص ١٤٠ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة قسطنطين القفطي ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة

٣٢٩ وبيروكلمان ٩٧/٤ وألدوميلي ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع في حييوش القفطي ١٧٧ وابن أبي أصيبعة

٢٧٦ وبيروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلي ص ١٤٣

٣٣٩. وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفياً وفكرياً ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد: ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ما ذكره القفطى عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسى كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتين بسبب إحسانه لعلمين وراتباً ثالثاً جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية ^(١). وذكر القفطى بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا ^(٢) وكان طبيباً مشهوراً عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهى بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضاً بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم ^(٣) الرقى ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك ما يلقيان من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل البيرودى ^(٤) في القرن الخامس وظافر ^(٥) بن جابر السكرى ومبشر ^(٦) بن فاتك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح ^(٧) وابن البزوخ ^(٨) في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنوناً من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباءهم يعالج بعض مرضاه علاجاً يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصبليين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطاً مزريراً ، على نحو ماضور ذلك في كتابه « الاعتبار ».

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى ومن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بیمارستانات ، يتزولونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤

(٦) القفطى ص ٢٦٩

(٧) القفطى ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

(١) القفطى ص ٢٥٠

(٢) القفطى ص ٤٠٣

(٣) القفطى ص ٤٢٩

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته بيارستانين رأهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفلها وأكبرهما وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء ييكرّون إليه كل يوم ، ويتفقّدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيمارستانات تُبنى في ديار الشام حتى لالتقى بمارستانات في صرّخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بشمس^(١) الدين اللبودي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في البيمارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخَّوَار^(٢) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بيارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفراد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقَفَّها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسعاً ، وثقافته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، وتلقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد^(٣) الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس في بمارستانها ، ثم انتقل إلى

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢ (٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

والدوميلي ص ٣٢٠

(٢) انظر في الدخوار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات

الوفيات ٥٦٣/١ والدوميلي ص ٣٢٠

دمشق وفُوضت إليه رئاسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسماؤها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّبْقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوره . وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصور في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت ييسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم ^(١) الدين اللبoudي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة ^(٢) الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الهوامش ، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في اليمارستان الناصري مدة ، ثم جذبه إليه أمير صرخد بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاية العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونخصي إلى زمن الممالك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف ^(٣) المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

- | | |
|--|-------------|
| (١) انظر في اللبoudي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤/٤٦ ، ٦/١٠٣ وألدوميلي ص ٣٢١ | ص ٣٣٠ |
| (٢) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ وابن كثير ١٣/٢٥٧ والشنرات ٥/٣٢٧ وألدوميلي | ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ |
| (٣) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ وألدوميلي | |

أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن ^(١) السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيدالة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم . وأيضا لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزياء والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن الممالك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في الممارسات المنتشرة في بلدان الشام .

ومن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين ^(٢) بن الشاطر الموقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفي سنة ٧٧٧ ومثله ابن ^(٣) الهائم الفرضي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفي سنة ٨١٥ . وعنى كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يترأى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافي وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة ^(٤) داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل

الصافي ١٢٤/١ وألدوميلي ص ٣١٩

(٢) راجع في علاء الدين الشنرات ٢٥٢/٦ وألدوميلي

ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوي ج ٢ رقم ٤٤٩

والانذرات ١٠٩/٧ وألدوميلي ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع في داود الأنطاكي البدر الطالع للشوكاني

٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وألدوميلي ص ٤١٧ .

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولايتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت وإلى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان^(١) . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينجب أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى^(٢) محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمعه من الثقات ، وما وجدّه فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منها ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لبيتر ٤/٢ وألدوميل ص

٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ وما بعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان

٢٥٣/٤ وما بهما من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليه فالشام فصر فالغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخورستان ففارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدتها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارى في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر ^(١) بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لاتعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمراتها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . وملتقى في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي ^(٢) بن محمد بن شجاع الرعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله « كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والبقايا الشريفة » .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسياً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذ ذهب الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدّى لذلك من الجغرافيين المشرف ^(٣) بن المرجى المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٣) انظر في المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي ٢٢٤/١ .

(٢) راجع في الرعي بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضرّوا حملة الصليب الضربة القاضية ويظهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر^(١) بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر^(٢) المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كي يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الذماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب منهم ولا يذر . وتكون لذلك فرحة مابعد فرحة في نفوس المسلمين . ولا يكاد يمضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم^(٣) ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرا على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على^(٤) الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصاتيساره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيّد له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن يتزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . وملتقى بعثان^(٥) النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتي وعين حاكما لحفاظة القيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر في القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨

(٢) انظر في الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم

والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر

الأدياء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام)

٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

٢٧٤/١ وللتنظيم ٢٦١/١٠ ورمّة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة

(٤) راجع في الهروي ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات

الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر الذهبي ٢١٢/٤ ورمّة الجنان

٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

٣٩٢/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان

(٥) انظر عثمان النابلسى في كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

ترتيب بلاد الفيوم» ويؤلف ^(١) ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية . وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس ^(٢) الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطبيعي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أوبعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعي أن يعنى إبراهيم ^(٣) بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابه : « الإعلام بفضائل الشام » و « باحث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد ^(٤) إسماعيل الأيوبي صاحب حمة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، وهما الثاني وعنوانه « تقوم البلدان » وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب ^(٥) الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر ^(٦) بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة في كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد ^(٧) الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية

١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١

وكراتشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع في عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢

وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر العليمي في كراتشكوفسكى ٥١٥/٢

(١) انظر في عز الدين بن شداد تاريخ ابن القرات (طبع

بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب

٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١

(٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كراتشكوفسكى

٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦

وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك المؤيد في فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن ^(١) طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله فى ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامى » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر ^(٢) الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية فى المنازل الرومية » وتلاه محمد ^(٣) بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية فى كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . وملتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد ^(٤) بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف محمد ^(٥) بن أحمد بن حافظ الدين القدسى المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة فى كتابه « إسفار الأسفار فى أبكار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى التابلسى الصوفى الذى سترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبيعلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك فى زمن العثمانيين أحمد ^(٦) المنيى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتيى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والتقد والبلاغة

أخذت الشام تُعنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

(٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢

(٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢

(٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢

(٦) انظر فى المنيى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١

وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢

(١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبع بدمشق

بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع

الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشرحات الذهب ٢٩٨/٨

وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ ومابعدها

(٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لاتعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال ^(١) رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخباري يسمى علاقة بن كرم الكلابي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال ^(٢) والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموي فزودتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ^(٣) أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب ^(٤) الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهني مؤدبا ^(٥) لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافته الزهري المحدث مؤدبا ^(٦) لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما - تخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني وتخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحتري - وضعا أُقيِم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنهما ، وسمي كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخلافة - تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ٢٥١/١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في

الأمثال لصحار العبدى معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به في الشام الزجّاجي^(١) عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُنسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله آمال تترخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجّاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حيثئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النقيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حيثئذ أبو الطيب^(٢) عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه^(٣) اللغوى النحوى واتخذ سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألّف كتابه « ليس فى كلام العرب » وعقب عليه الحافظ المصرى مغلطى فى مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

النحويين وبغية الوعاة وبروكلان ٢٤٢/٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومعجم الادباء ٢٠٠/٩ وبيّمة الدهر ٨٨/١

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٦٩/٣

(١) انظر فى الزجّاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابتنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبروكلان ١٧٣/٢

(٢) راجع فى أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطي وعلى بن محمد العدوي وعبد^(١) الله بن عمرو الفياضى ، وكان معهم النامى الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويا فى بلدته المصيصية ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كُشاجم على شاكلة النامى لغويا وشاعرا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب فى البيزرة وكتاب ثان فى أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف فى الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومى . ولمع حينئذ فى سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوى والنحوى فى كتابنا « المدارس النحوية » وبهنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتننى فى بلاط سيف الدولة وبعد ذلك فى بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعرى ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزى سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت^(٢) بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفى ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بنى مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التى بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلدًا عربيا لم يظفر بما ظفرت به الشام فى أبي العلاء الشاعر اللغوى العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشريعة وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله فى أشعاره وفى رسائله وكتاباتهِ النثرية ، وكان للغة وغماتها الحظ الأكبر ، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها فى أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان فى مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهى فى الزهد والعظات شرحا ، أنشأه فى غريبها وسماه « السادن » كان فى

(١) انظر كتاب (أبو الطيب المتننى) لبلاشير (ترجمة) (٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغي أيضا أن يُقَرَّدَ عنه شرح غاية أوقافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتنظم في تضاعيفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها ويوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزير الدولة فأتك الذي كان واليا للفاطمين على حلب^(١) من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السندية إلى والي حلب الذي خلف فاتكا : سند^(٢) الدولة بن عثمان الكُتامي . ولعل في الرسالتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطميين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعمل أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّبنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحترى وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتب لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماما كبيرا في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري »^(٣) ويعدد الصفدي من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا^(٤) ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في العربية^(٥) » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المعرة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كجني كوثر^(١) ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان ميثوثا لافي مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا في مدنها وبلدانها الصغرى .

وفي كتب التراجم نخبة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء ، أحمد^(٢) بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره على^(٣) بن أبي الفتح بن جني المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية في صور وصيداء وولتقى من شراح المتنبي بالوآء^(٤) الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوآء الدمشقي شاعر سيف الدولة ، كما ولتقى في شيزر بمهرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح^(٥) على ديوان المتنبي ، وتوفى معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد^(٦) بن الحسن نحوي دمشقي المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار ، أولهم يعيش^(٧) بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نخبة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جني ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزنجشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي علي الفارسي ، وهو بذلك يُسلِّك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفيذ إلى آراء جديدة في هذه المسألة أو تلك ، وفي كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٦) سذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٢) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباه الرواة ٨٦/١

(٧) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

(٤) انظر في الوآء الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

والعلم الثانی لم یکن شامیا بل کان مصریاً ، ومنذ العصر الأیوبی کان علماء الشام ومصر یتبادلون التدیس والتعلیم فی البلدین ، وکثیراً ما درّس وعَلَّمَ جِلَّةُ العلماء الحلبیین والدمشقیین والمقدسیین فی مدارس القاهرة ومساجدها مثل یحیی بن معطی المتوفی بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بین نحاتها المصریین . وکثیرا ما نزل بیت المقدس ودمشق وحلب مصریون واستوطنوها وأمضوا حیاتهم هناك یعلمون ویدرسون ویفیدون ، لا علماء النحو فحسب بل جمیع العلماء من کل فرع من فروع العلم . وکان العلم المصری النحوی الذی نزل الشام ابن الحاجب ^(١) عثمان بن عمر المتوفی سنة ٦٤٦ وهو مذكور بین النحاة فی القسم المصری . ویهما هنا أن نعرف أنه حین أحسّ نضجه العلمی رحل إلى دمشق وکان مالکیا ، فنزل بزأویة المالکیة فی جامعها الأموی ، وأخذ یدرس لطلابه هناك کتابیه الرائعین فی النحو والتصریف : الکافیة والشافیة ، وأملی شرحین لها . وتوالت بعده لنفاستهما الشروح علیها بین عربیة وفارسیة حتی بلغت علی الکافیة - کما استقصاها بروکلان - سبعة وستین شرحا ، وعلى الشافیة - ستة وعشرین . وظل ابن الحاجب طویلا فی دمشق وطلاب العربیة مکبّون علیه حتی دخلت سنة ٦٣٩ وتخالف الملك الصالح إسماعیل مع حملة الصلیب ضد ابن أخیه الملك الصالح نجم الدین آیوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شقیف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وکان یخطب الجمعة فی المسجد الأموی ، وکان إسماعیل قد ملک دمشق برهة ، وغلا الدم فی عروقه فقطع اسم الملك إسماعیل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجة علی عمله المزری ، وردّ علیه إسماعیل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسکندریة وبها توفی سنة ٦٤٣ .

والعَلَمُ الثالث لم یکن مصریا ولا شامیا ، بل کان أندلسیا ، وهو ابن ^(٢) مالک محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعکف علی دراسة اللغة والنحو فی بلدته جِئان ، حتی إذا شعر باکمال تکوینه العلمی رحل سنة ٦٣٠ وهو فی الثلاثین من عمره إلى دمشق ، وظل مدة فی حلب يأخذ عن ابن یعیش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متولیا بها مشیخة المدرسة العادلیة ، ولم یلبث أن طار صیته فی آفاق الشام ، فقصدته الطلاب من کل فجّ ، وکان یحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمی فنظم فی النحو ألفیته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتی بلغت تسعة وأربعین شرحا ، غیر ما علی بعض شروحها من حواش . وألف فی النحو بجانبها کتابه التسهیل وله عشرة شروح ، وله فی

(١) انظر مصادر ابن الحاجب بین النحاة المصریین

(٢) انظر فی ابن مالک ومصادره کتابنا المدارس النحویة

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود في المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومشتور ، وأوضحت في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منبجاً بغدادياً مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلاً في السّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقاً إنما هو في الأنديسين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولاً بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نخبة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء^(١) الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع موطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسبُ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ^(٢) محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعراً كما كان لغوياً ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحّة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء^(٣) الدين ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مراراً وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن نل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطاً ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعاً في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضاً في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضاً

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبغية

الوعاة ص ٦ والشفرات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصائغ فوات الوفيات ٣٨٠/٢ والبدية

والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩

(٣) راجع في مصادر ترجمة ابن عقيل قسم مصر

ص ١١٩

في كل العالم العربي الاوهى تعنى بدراسة اللغة والنحو . وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونغضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون في مقدمتهم الشيخ ياسين^(١) بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصرين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل مع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تحقّق بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث في الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمي فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتّابي الشاعر الشامى لزمّن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار^(٢) زعيم المجددين في العصر العباسى الأول . وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينمّيها حتى ليتخذها كالمذهب له ، وما يلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني . (هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي)^(٣) . وآثرنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » أن نسميه مذهب

(١) انظر في الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحبي ٤/٩١

(٢) أنظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقه بديوانه نشر

الدكتور سامى الدهان

وحاشيته طبعت بمصر مرارا

(٣) البيان والتبيين ٥١/١

التصنيع أى التتميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام^(١) . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية^(٢) . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتاتى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازع .

ومانتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبىلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مظار ، وسرعان ماالتفت حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طوالا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدونون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظه فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده^(٣) :

وفأؤكما كالرُبُع أشجَاهُ طاسِمُهُ بأن تُسْعِدَا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهُ

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتْ فما وصل الأمر إليك^(٤) . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف) ص ٢٣٩

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

(طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبه لى على عادة العرب .

أشجاء : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة

مايينها طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مأب . والمهم أنه كان ينقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوي حول شعر المتنبي في حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ما كانوا يتحاورون في سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذي يصقل الملكة الأدبية ، وصورٌ ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصص ، فقال : « ما فتى قلبي وشحد فهمي وصقل ذهني وأرهف حدَّ لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصنُ الشباب رطيب ورداء الحدادة قشيب » (١) .

ونلتقي بعد هذه الحلقة بأبي العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوي ، فهو يضمناها شروحه لدواوين أبي تمام وسماء ديوان حبيب وديوان المتنبي وسماء معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحرى مرارًا ناقداً له ولذلك سمي شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحترى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثلاثة عما في أشعارهم من غريب وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبا تمام والمتنبي أخطأ فيه . ولأبي العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقي الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسي كتابا بعنوان : « النقد واللغة في رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطا في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعي (٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ مؤلف كتابين نفيسين في النقد والتاريخ الأدبي ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و« الصبح المنبي في الكشف عن حيشية المتنبي » وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضاً تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيها ، ولا يكاد يترك خبراً مهما يتصل

(٢) انظر في البديعي خلاصة الأثر ٤/٥١٠ .

(١) اليتيمة للعلابي (بتحقيق محمد محي الدين

بسيرتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارها مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب ^(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ واسترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بمحدث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويخوض في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . وولتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ واسترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويصنف الزمركاني ^(٢) « الدمشقي عبد الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعاني والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وولتقى سريعا بيدر ^(٣) الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه « المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذبلا لعلمي المعاني والبيان ، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب ^(٤) القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصا دقيقا واضحا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٧٢٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبيغة
ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ »
ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤
والنجوم الزاهرة ٩/٣١٨ والشذرات ٦/١٢٣ وراجع في
تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥
وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر في ترجمة الزمركاني السلوك للمقرئ ١/٣٨٩
والسبكي ٨/٣١٦ والشذرات ٥/٢٥٤ وبيغة الوعاة ص
٣١٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص
٣١٤ .

(٣) راجع في ترجمة بدر الدين السلوك ١/٧٣٨ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُني ببسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنّف ابن قيم ^(١) الجوزية دمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُني بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحتام في التورية والاستخدام وبنار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ بديعة في مائة واثنتين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصريين والشامي في تلك الحقبة ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبي مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغني النابلسي الذي سنترجم له في غير هذا الموضوع بديعتان ^(٢) ومع كل بديعة شرح خاص بها .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قراءتها في الصدر الأول أبو الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صَلَّى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومررنا ذكر ذلك وأنه كان

ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ

٣٦٤ وما بعدها

(١) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤

والبدر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات

الحنابلة للشطبي ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ »

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوون به في مساجدها . وخلف أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد^(١) الله بن عامر اليمنى العربى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، فقرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ما جعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى في ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى^(٢) بن الحارث الذمارى الدمشقى إمام الجامع الأموى المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب^(٣) بن تميم الدمشقى المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد^(٤) الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثانى عراك^(٥) بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام^(٦) بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبى ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثانى فقد نزل المدينة عتبة بن حاد الدمشقى ، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته^(٧) ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر^(٨) الغسانى عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

(١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة

لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١

وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٣/١

(٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢

(٣) ابن الجزرى ١٧٢/١

(٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١

(٥) ابن الجزرى ٥١١/١

(٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢

(٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١

(٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١

ومرّ بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضاً فإن له في توجيه تلك القراءات كتاباً معروفاً . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئاً كبيراً هو أبو الطيب عبد ^(١) المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر ^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير المشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي على الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي على الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد ^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبي في القراءات . وملتقى بالحسن ^(٤) بن على الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى نلتقى بابن ^(٥) الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وملتقى في أيام الأيوبيين بأبي اليمن ^(٦) الكندي زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥٦/٥

(١) انظر في عبد المنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٨/٣

(٦) راجع في أبي اليمن ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم

(٢) راجع في «طاهر» ابن الجزرى ٣٣٩/١

الأدباء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداءة والنهاية

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

٧١/١٣ وإنباء الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجوم

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثاً وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم ^(١) الدين السخاوي على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفاً وأربعين سنة حتى توفي سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة في القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدروا القراءة في دمشق أبو الفتح ^(٢) محمد بن علي ولي مشيخة القراءة بترتبة أم الصالح ، وأبوشامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضي عبد السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالترتبة الصالحة بعد وفاة شيخها أبي الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام في القرن الثامن ابن ^(٣) جبارة المقدسي ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفي سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان ^(٤) الدين الجعبري استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفي سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنّف في القراءات كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة . وولتقى بابن البارزي قاضي حاة ومفتي الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة في قراءات السبعة . وما نزال نقرأ عن مؤلفات شامية في القراءات حتى نصل إلى ابن ^(٥) الجزري محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر في القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية في طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسي في الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملي الدمشقي أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموي حتى توفي سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كال تفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عُنيت الشام بالقراءات عُنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبري

(٤) راجع في الجعبري ابن الجزري ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزري لنفسه في كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوي ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في مصادر علم الدين السخاوي قسم مصر ص ١١٨

(٢) راجع ابن الجزري ٢١١/٢

(٣) انظر في ابن جبارة ابن الجزري ١٢٢/١ والدرر رقم ٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦

تفسيره أكبت عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد (١) الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعانى الألفاظ القرآنية . وتلتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير (٢) للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » (٣) . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي (٤) بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيراً كبيراً في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع . وللعز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزى وابن تيمية ، أما هبة (٥) الله فكان قاضياً لحما وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتي المودتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية

والنهاية ١٣/١١٤

(٥) انظر في ابن البارزى الدرر ج ٣ رقم ١١٠٣

وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين

للسيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكليان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد على ٤١/٤

(٣) تمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « التبيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين^(١) الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويًا مقرئًا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . ونلتقى بابن^(٢) كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الخفيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون محدثون به الناس من أمثال مكحول^(٣) مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد^(٤) بن شهاب الزهري أول من دوّن الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب ٢٨٩/١٠ والشذرات ١٤٦/١
(٤) انظر في الزهري صفة الصفوة ٧٧/٢ وابن خلكان ١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩ وطبقات القراء ٢٦٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١ والإدر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦
(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر ج ١ رقم ٩٤٨ والشذرات ٢٣١/٦ والبدر الطالع ١٥٣/١
(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوى وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداؤه فى الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثورى فقيه العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعى فى الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرر دمشق ومفتيها الذى مرّ بنا ذكره بين القراء . ومن حمل عنه الحديث القاضى عبد ^(١) الصمد بن عبد الله قاضى دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقى شيخ الشام فى الحديث توفى سنة ٢٨٢ . وملتقى بخيثة ^(٢) بن سليمان الطرابلسى أحد الحفاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولاتلبث بلدة طبرية بل الشام أن تقدّم سليمان ^(٣) بن أحمد الطبرانى المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، وقد جمع فى الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا . وكان يعاصره الحسين ^(٤) بن محمد الماسرجسى الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار ، صنّف المسند الكبير مهذبا مغلّلا فى ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنّف فى الإسلام أكبر من مسنده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء . وملتقى بحافظ من صيّداء هو أبو الحسين ^(٥) محمد بن أحمد الغسانى المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة . ويلقانا حافظ من صور هو محمد ^(٦) بن على الصورى المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات . ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد ^(٧) بن طاهر المقدسى المعروف باسم ابن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات فى الحديث النبوى متعددة ، منها : « أطراف الكتب الستة » وهى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن

ماجة .

(٤) انظر فى الماسرجسى النجوم الزاهرة ١١١/٤
 (٥) راجع الغسانى فى النجوم ٢٣١/٤ وبروكلمان ١١٤/٣
 (٦) انظر فى الصورى تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣١١/٣ وبروكلمان ٢٣١/٣
 (٧) راجع فى ابن القيسرانى المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوفاء للصفدى ١٦٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبي ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

(١) راجعة فى النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر فى أبى زرعة النجوم ٨٧/٣
 (٢) انظر فى خيثة تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢
 (٣) راجع فى الطبرانى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبي ٣١٥/٢

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم ^(١) بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبني له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله وراء ذلك أمال كثيرة . وجاء بعده عبد ^(٢) الغنى الجماعلي المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزرى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطاي بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وملتقى بابن ^(٣) الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محي الدين النووى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرس بدار الحديث الأشرفية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النووى اليونى على ^(٤) بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر الهروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيلى وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعاني . وكان بجواره في تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملئ كتابا مستقلا

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجماعلي تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات

الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعبر

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة

الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية

١٦٨/١٣ والشدرات ٢٢١/٥

(٤) راجع اليونى في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك

٥٢٤/١ والنجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشدرات ٣/٦

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهى نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهى ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا « البحث ^(١) الأدبي » .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجرى الميزى ^(٢) يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف « طبع في الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من حفاخر دمشق في زمنها وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثي القرن التاسع بدر ^(٣) الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى في شرح صحيح البخارى » والخيزرى ^(٤) الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخارى وشرح النووي على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية ، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهباً فقهياً ظل فيها طويلاً بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢
(٣) انظر في العيني حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البية ٢٠٧ والضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧
والبدر الطالع ٣٩٤/٢
(٤) راجع في الخيزرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها
(٢) انظر المزي في الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠
وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤
والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات
الحفاظ للسيوطي ٥١٧ واللباس في أخبار الملباس ٣٥/١

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي ^(١) صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بيبعلبك ومنشؤه ببيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن يلي القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها - لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي ^(٢) . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد ^(٣) إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملهما وأنها كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفي لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد ^(٤) بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حياً في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة ^(٥) ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالاً عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة في الدولة الإسلامية كان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفي ، ونظن ظناً أنه كان يوجد في دمشق أحياناً قاض حنفي بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي ^(٦) بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظناً أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفي السبكي ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعاني ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ

بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب

١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ ومحاسن المساعي في مناقب

الأوزاعي (طبع القاهرة) صفته مؤلف مجهول سنة ٨٥٠

وضحي الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٣٢٦/١

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم^(١) التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيهاً حنفياً بارعاً . ولتقى في حلب بأحمد^(٢) بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين ييغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي . ويلقانا المفضل^(٣) بن محمد المعري الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء ببلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني^(٤) محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يمكّنوه وعزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرة سنة ٤٩١ وبعد ابن شداد من فقهاء حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيهاً حنفياً ، وذكر النعمي بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعاً وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهاءها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مر بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

(١) النجوم الزاهرة ٣/٣١٠ وتاج التراجم رقم ١٣٥

(٢) انظر ابن زهير في تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم

الأدباء ٥/١٦ وما بعدها .

(٣) راجع المفضل في النجوم الزاهرة ٥/٥٢ وتاج التراجم

رقم ٢٢٤

(٤) انظر في البلاساغوني النجوم الزاهرة ٥/٢٠٤

والسبكي ٣٢٦/١

بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفى وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري ^(١) الذى انتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى : شرح مفصل فى ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر فى مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيبانى كتاب السير الكبير وهو فى الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب فى الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعنى فى المذهب حتى ألف فيه كتابا ^(٢) . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا فى عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وُظِّلَ الشَّامَ أيامَ المالك ويقرر الظاهر يبرس أن لا يُقْتَصَرُ فى مصر على قاض شافعى كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه فى القضاء قاض حنفى وقاض مالكى وقاض حنبلى وعم ذلك فى دولته بدمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة فى ازدهار المذهب الحنفى بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار يبرس عبد ^(٣) الله بن محمد بن عطا الأذرى المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذرى المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف فى كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطاً وافرأ أداه فقهاء الأحناف فى ديار الشام بالحبب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان ^(٤) الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملتقى

مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر فى الأذرى النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك

لمقرئى ٦١٩/١

(٤) راجع فى برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية

وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢

(١) راجع فى الحصري الفوائد البية فى طبقات الحنفية

٨٤ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم

رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ والنجوم الزاهرة

٢١٣/٦

(٢) انظر فى المعظم عيسى ونشاطه فى الفقه الحنفى مختصر

الأبجر في فروع الفقه الحنفى ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية ، وصنف شمس الدين المرتاشى الغزى المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفى ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، ويأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من الجبارستان النورى ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهتمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مررنا ذكره في قسم مصر بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي وعلم الأصول ، ودرّس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغربى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد^(١) السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رئاسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشى في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوى المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى^(٢) بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي لمصنفها سحنون ناشر المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين في التضاؤل والشحوب .

وكان أول من أدخل مذهب الشافعى - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة^(٣) بن عثمان الدمشقي ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولى القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

(٣) راجع أبا زرعة في قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢ والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(١) راجع في عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك

٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي كما أشرنا إلى ذلك في قسم مصر : لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حنبل قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرّ بنا . و مرّ بنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفي سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد ^(١) الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين ^(٢) بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو ^(٣) يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميائنجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري ^(٤) الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو ^(٥) الخير المروزي يستوطن المعرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . و نلتقي من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد ^(٦) الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر ^(٧) بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأينية في سنة ٥١٤ ويعدّ ابن شداد في

(٥) انظر أبا الخير في السبكي ٢٩٩/٤

(٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥

(٧) انظر نصر بن إبراهيم في تهذيب الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكي ٣٥١/٥ والعبر ٣٢٩/٣ و امرأة الجنان ١٥٢/٣ والنجوم الزاهرة ١٦٠/٥ والشذرات ٣٩٥/٣

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١٥٧/١١ والعبر ١٦٢/٢ والسبكي ٣٢٠/٣

(٢) راجع الحسين في السبكي ٢٨١/٣ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٢٩٨/٣ والشذرات ٣٢٦/٢ والعبر ٢٢٢/٢

(٤) راجع في الحصائري السبكي ٢٥٥/٣ وقارن مع ابن غلبون في السبكي ٣٣٨/٣

كتابه «الأعلاق الخطيرة» من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابيين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابها ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعمى فى كتابه «الدارس» وأيضًا فيما قبلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرًا عكسيًا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن ^(١) أبى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبني له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبلبل ، وبني هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه «صفوة المذهب» فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى ^(٢) المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النووى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية

٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة

٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك

٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء

الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥

ونكت الحميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤

والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية

والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

خمس وأربعين عاما ، ومربنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب الحرر للرافعي القزويني ، واختصر المنهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء^(١) الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزملاكاني حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفي سنة ٧٢٧. وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلة من هؤلاء الفقهاء ، ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل شيئا وأنصارا من المذهب الشافعي والحنفي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخرقني عمر^(٢) بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوت شهرته هو « المختصر » في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج^(٣) الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعلى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ١٧٦/٣
وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات
١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشنرات ٣٤/٦
(٢) انظر في الخرق تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات
الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن
خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق)
٨٥/١ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد ^(١) الوهاب بن طالب التميمي نزيرل دمشق وإمام مسجد الریحان .

وخلف أبه الفرج الشيرازی على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابعة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعللق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النعمي في كتابه « الدارس في تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق ^(٢) الدين بن قدامة الجماعلي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المغنى شرح به مختصر الخرق المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد نبليغ نهاية القرن السابع أيام الماليك حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن ^(٣) تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانباً من تحرره الفكرى واجتهاده في غير هذا الموضع ، ومربنا حديثنا عن منهجه في التفسير القرآنى ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التى سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهى مطبوعة قديما في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

إليهما كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحب القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقبنا بأخيه من أيام الماليك مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يتحدث بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدي الذي ألمننا به في حديثنا عن علم الكلام بقسم مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام في أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التي نشأت في بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعي والأشعري في كل مكان . ولم يلبث أن خصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضع . وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر في رده المفحم على الحسن بن علي الأهوازي المار بين القراء في كتابه « تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري » . ويشيد السبكي

بصنى ^(١) الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو ^(٢) زُرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . وملتقى فى أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقى محمد ^(٣) بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . وملتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التذهيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين الشلوات ٢٤٩/٨

(١) راجع فى صنّى الدين طبقات السبكي ١٦٢/٩

والوفى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرة

الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبرد الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهاني وفيه ألف كتابه « البرق الشامي » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام في عهده ، وهو في سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفتح القُسيّ في الفتح القدسي » صوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء^(١) الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة^(٢) للملك العزيز سماها التاريخ العزيزي : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد^(٣) الحلية في الفرائد الناصرية » . وللنووي المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعي ، ولابن عريشاه^(٤) الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور في نوائب تيمور » مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وما ارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جقمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » . ولبلدر الدين العيني المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد ، ولبلدر الدين محمد^(٥) بن أبي بكر الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباي . وله سير كثيرة في العصر . ولابن طولون الذي ذكرناه آنفاً بين الجغرافيين سيرة لابن العربي المتصوف . وصنّف شمس الدين الدمشقي المار ذكره سيرة لأبي حنيفة ، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلي سيرة صنفها عن عبد القادر الجبلاني المتصوف ، وهي مطبوعة ، ولمرعى^(٦) بن يوسف الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها في مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في

٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عريشاه في ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته في الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر في مرعى الكرمي خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

(١) راجع بهاء الدين في ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكي

٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردي ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ

١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية

١٤٣/١٣ والمختصر لأبي الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٦ والشنرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة (الطبعة الثانية)

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذبه بجذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقبلما يذكر في المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها وربطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومأمدحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عني ابن شداد بحلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم ^(١) عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولابن خطيب ^(٢) الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملة « نزهة النواظر » . وعني بكل ذلك أيام العثمانيين ابن ^(٣) الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضرب (غسل النحل) في تاريخ حلب » مع تكملة إلى سنة ٩٥١ . ولنجير الدين العليمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئیس الجليل في تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتويع لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكر أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فحسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم يبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الضوء اللامع ج ٥

رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشذرات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدياء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشذرات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه « زبدة الحلب »

في الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .
 وترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسي حمزة^(١) بن أسد
 المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذُيِّل به على كتاب التاريخ
 لـهلال الصابي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره
 العظيمي^(٢) الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ولمحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها
 وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم^(٣) الحموي قاضي حماة المتوفى سنة ٦٤٢
 وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى
 المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة
 الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة
 وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر
 آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء
 السالف . ولموسى^(٤) بن محمد اليونى البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرأة في نحو النصف مع
 ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير
 هو أبو الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار
 البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة
 ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى
 المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها « تنمة المختصر » طبعت مثل أصلها مرارا .
 وملتقى بالذهبي^(٥) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير
 الأعلام في ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(١) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦

والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر في الذهبي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهيمان ٢٤١

وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ

ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنان

٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفاء بالوفيات ١٦٣/٢

والنجوم الزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر

الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر

٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥

والشذرات ١٧٤/٤

(٢) انظر في العظيمى بروكلمان (الترجمة العربية)

١٣١/٦

(٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ

ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبي الفدا

١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياذ في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كإمام الحرمين الجويني والغزالي وأمثالها لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول من طعن فيه ، ويعيد ذلك ويبيده^(١) . وكان ينبغي أن يكون منصفًا في تاريخه وتراجمه فيه بريثا من العصبية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ المِندَره والإمام المِجَلُّ فما بالك بعوام المؤرخين » . وللذهبي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبته على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر الذهبي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرّخند ، وله كثر الدرر وجامع العُرر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . وولتقى بابن كثير الذي مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عُني فيه بالسيرة النبوية ممبزا بين الوثيق والمتمم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة^(٢) الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . ولتلقى بعده بيدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بجلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع في ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

ومن نلتقى بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى^(١) بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرماني^(٢) أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتباً فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَعُصْرَةُ الْقَطْرَةِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البنداري سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصرة ونخبة العصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة^(٣) الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسي الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحربي تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبق منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذبلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي^(٤) القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتنى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد^(٥) بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن^(٦) واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشره

(١) انظر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد

المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل

الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ

١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية

٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء

٣١٨/٥ والشذرات

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ

٢٦٢/٢ وفوات الوفيات ٣٢١/٣ والدرر ٦٥٠/٤

والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع

٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦

(٦) راجع في ابن واصل نكت الهيمان للصفدي ص

٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب

ومخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي

الفرج جرده من أسانيده ، ونشر في القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ الممالك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك في دولة الأتراك » ابتداء به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمعى الكرمى السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزاءه . ومنهم ابن^(١) شاعر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكلمة لما فاتته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدى خليل بن أيك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبته الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلدا نشرت منها طائفة . وله بجانبه « نكت الهميان في نكت العميان » في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفاء في العالم العربي على توالى الحقب ، وأيضا « أعيان العصر وأعوان النصر » في مشاهير معاصريه في نحو تسعة مجلدات ، وهو حري بالشعر . ويعنى نجم^(٢) الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف الحبي^(٣) محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » كما يصنف المرادى^(٤) محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهانى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أكثر أجزاء العراق . وُصّفت بعد العماد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد^(٥) بن عمر بن شاهنشاه

(٣) انظر في الحبي سلك الدرر ٨٦/٤

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

(٤) راجع في المرادى تاريخ الجبرى ٢٣٣/٢

٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

(٢) راجع في الغزى خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن .
ومما وصلنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق
وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبِعَ في مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن
أبي أصيبعة الذي مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن
وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعنى الشام بكتب الرجال من رواة
الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجماعلي - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »
عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين
تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنووى كتاب في رجال
صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين وعنى الذهبي باختصار
هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في
خمس مجلدات . وللذهبي كتاب المشبه في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة في
رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوي رتبة
على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات
ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ،
والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية
النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد في
الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون
المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،
وقد صُفِّ كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فلأحناف كتبهم وكذلك للشافعية
والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهاءهم ، ولعل في هذا مايدل على أنهم ظلوا
في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلاين طولون السابق ذكره كتاب
الغرف العلوية في متأخرى الحنفية .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضىة في طبقات الحنفية
لعبد القادر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم ومن اشتهر كتابه في تلك الطبقات السبكي وكتابه مذكور مرارا وتكرارا في الهوامش. وكتاب ابن^(١) قاضى شهبة الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو مطبوع. ونشط الحنابلة في كتابة تراجم فقهاءهم ولابن رجب^(٢) الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع في مجلدين. ولمحمد^(٣) بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع، ونحتم كلامنا في هذا الفصل بالاشارة إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعمي^(٤) المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور الحركة بل النهضة العلمية التي ظلت أضواؤها تشع في الشام، حتى مع ماغشيها من سحب العثمانيين.

(٣) راجع محمد بن عبد القادر في الدرر لابن حجر ١٣٨/٤. وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦
(٤) انظر النعمي عبد القادر بن محمد في الكواكب السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

(١) راجع في ابن قاضى شهبة للضوء اللامع ج ١١ رقم ٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١
(٢) انظر في ابن رجب ذيل طبقاته الحفاظ ص ٣٦٧ والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦ ومقدمة الدكتور سامي الدهان لطبعة الذيل بدمشق

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعها الشام ، وتآقت فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهياكل ذلك لأن تعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لالجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونيسط الحديث عنها الآن بعض البسط ^(١) . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلي الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٤١٦/١ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغوطتها الخصبية ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطلع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكتاباتا العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تُلْمُرُ أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزاً كبيراً للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملاً فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكش ثائية التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقت بعد خراب سد مأرب ، واستقرت فى شرق الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جفنة بن عمرو مُزَيْقِيَاء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحياناً باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الأنقلاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعي أسقفا على الكنيسة المونوفسيتية السورية ، وكانت تحالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونَصَّب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالة البعيدة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة البعقوبية . وكان الغساسنة كثيرون الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على أسنة مادحي ملوكهم من الشعراء ذكر جِلَقْ وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بَرْدَى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جِلَقْ الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

وإنما أطلنا في بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعته السمة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا فصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضرويا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهابا لا يطاق ، بينما رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشيء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عشائر وبطون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعتن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعراجه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذى مر بنا فى الفصل الماضى عن أبى الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا فى تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألع وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لا يحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب فى الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحى لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التى كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبى كالعربية ، ولا كان لها جمالها فى الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأنى الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين فى الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكب كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغى أن لا ننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة البيعوية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين فى إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفى بعض المصادر سرجون) ويظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربى الإسلامى واتخذ معاوية مستشارا له فى الشئون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحى ، وكان حفيده يوحنا الدمشقى يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، وما زالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء فى شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء ^(١) . ولا شك فى أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان فى ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومى الذى أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار إليها ^(٢) .

(٢) انظر ترجمة خالد فى ابن خلكان ٢٢٤/٢

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨

ولم نتحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين . ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الفساسة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتوَلَّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . وملتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرِّقاع العاملى اليمنى والطرماح الطالى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَعَصَّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُعَدِّقُونَ على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجريرو عبد الله بن الرُّبَيْرُودَى الرُّمَّة والعجاج وابنه رُؤبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثير والأحوص وابن قيس الرقييات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعى التَّمِيمِي . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلواهم في العطاء ، وكانوا مازالون غادين عليهم راغحين بقصائد طنانة يرونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بني أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمير حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتنتقل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون في شعرهم عن النزعات التجديدية التي نُظم الشعر العربي على أضوائها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفَلَجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميين البُتّابي وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حَدَّوْشَ بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غرارهِ تلميذه منصور النمرى الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء الناهيين شاركوا في نهضته وازدهاره ، بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهباً جديداً هو مذهب التصنيع أو التتميق الحسى والفكرى ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا المذهب الذى أعطاه صبغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحاً تاماً في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحتري ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسى مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليدهِ في الصياغة ، وكان لا يبارى في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكْبَتُ الأجيال التالية في العالم العربي على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجاً للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجاً للبديع الحسى والمعنوى الذى يرضى المتفلسفة والمتعمقين في المعانى . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صنفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبى تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحتري ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني ». ونشرف بعد البحتري على نهاية القرن الثالث ، ولا تزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصَّنَوْبَرِي وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونغض في عصر الدول والإمارات ، وقد غنى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبي في يتيمة ، متحدثا عن الشعراء النابهن في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ في فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خَفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمة بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وصلاحية ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومدخلتهم إياهم .. ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويتقده ، ويثيب على الجيد منه فيُجذِل ويفضل » . ولستأ نريد أن نناقش الثعالبي في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبئ عنها الأبواب التالية في اليتيمة ، فقد جعل الثعالبي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشمال الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومر بنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي على الفارسي وابن جني وغير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولا يهمننا الآن بيان ذلك إنما يهمننا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أوفى إيران إلا أمها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر « منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبّاخة - والخالديان - وكانا خازنى مكتبته - والسّلامى والسّرى الرّقاء والوَأواء الدمشقى والنامى المصيصى وابن نباة السعدى والبيّغاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يقدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعتاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخريزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوق نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العمد الأصهبانى فى الخريدة . ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حيوس وله ديوان ضخم فى مجلدين . ويعرض العمد الأصهبانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنا ، وأسحُ مُرنا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صيغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبى تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويرجم فى هذا الجزء لابن الخطاط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العمد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العمد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخراط . وكان العمد لم يترك فى الشام لزمه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العباد في أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاعر الكتب والوفاء بالوفيات للصفدى ومطالع البدور للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وريحانة الألبا للخفاجى ونفحة الريحانة للمجى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام في حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابههم في تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتزوج رفوف المكتبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهى ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته فى عقد تلتقى عندها أملاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، ومن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن قوله فى أحدها (١) :

كَمْ رُضْتُ نَفْسِي بِالسَّلْوَانِ فَاثْمَعْتُ وَكَمْ أَضَاعُوا مَوَائِقَ الْهَوَى وَرَعْتُ
وَمَا نَقَمْتُ عَلَيْهِمْ غَدْرَةً فَصَنْتُ^(١) وَلَا أَضَعْتُ لَهُمْ عَهْدًا وَلَا أَطْلَعْتُ
عَلَى وَدَائِعِهِمْ فِي صَدْرِي الثَّهْمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسي الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات في دواوين ابن الساعاتي والصاحب شرف الدين الأنصاري وأيلمر المحبوي زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء في الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدي ، ونظّل نلتقي بها في الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثاني والرابع في القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ » و « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » وقد أخذت تشيع على السنة الشعراء في هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفي خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفوف الميَّاس ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسٍ
يهتزُّ كأنه قضيبُ الآسِ سكرانٌ ولم يَلُفْ حِمِيًّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهاني ديوان صغير جميعه دُوِّيَّاتٍ أرباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين في الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله^(٢) :

لا راحةَ لي في العيش إلا أغزو سبي طربًا إلى الطُّلَى يهتزُّ^(٣)
في ذلٍّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرة في غير جهادٍ عجزُ

(١) صغت : مالت

وادی النيل) ٢٠٧/١ .

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (طبع مطبعة

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دويئات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه في ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنتيكِ زاهٍ زاهرٌ والسَّحَرُ بِمَقْلتيكِ وافٍ وافرٌ
والعاشقُ في هواكِ ساهٍ ساهرٌ يرجو ويخافُ فَهوَ شاكٍ شاكرٌ

ونظّل نلتقي بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام المالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملي وعبد الغني النابلسي وغيرهم من الشعراء^(١) وحين شاعت التورية بشها الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا^(٢) :

لما حُجِبَ الكَرَى عَنِ الآماقِ وانقاد مع العِدَا على العُشاقِ
ناديتُ وقد تزايدتُ أشواقُ ياغُصْنُ رُضيتُ منك بالأوراقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد .

(ج) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خَرْجَةٍ يسمّى بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يجري على هذا النمط^(٣) :

قولى لَطِيفُكَ يَتَشَنَّى عَنْ مَضْجَعِي عِنْدَ الْمَنَامِ

عند الرِّقَادُ عند المَجْجُوعُ عند المَهْجُودُ عند الوَسَنُ
فَعَسَى أَنَامُ فَتَنْطَقِي نَارُ تَأَجَّجُ فِي الْعِظَامِ
فِي الْقَوَادِ فِي الضُّلُوعِ فِي الْكِبُودِ فِي الْبَدَنِ

ويستمر المسمط الموشح على هذا النمط ، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروي جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافي شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجلياني الأندلسي الطبيب نزيل دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودوبيّات » أو رباعيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقي بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توسيع ^(١) التوسيع ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن علي الدهان ، ويقول ابن شاكرا أنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني فيه المغنون ^(٢) ، ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدي ، ويستلهه بقوله :

بَأَيِّ غُصْنٍ بَانَةٍ حَمَلَا بَدَرَ دُجَى بِالْكَمَالِ قَدْ كَمَلَا أَهَيْفَ
فَرِيدَ حُسْنٍ مَامَاسٍ أَوْسَفَرَا
إِلَّا أَغَارَ الْقَضِيبَ وَالْقَمَرَا
يُبْدِي لَنَا بَابَتَسَامَهُ دَرَرَا

(١) حقق هذا الكتاب أليير مطلق ونشره بدار الثقافة
(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوفاء
٢٠٩/٤ وانظر فهرس عقود للتواجي
بيروت .

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم . وذكر الصفدي بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفي الخطيب المعاصر له ، وهو يفيض بالعدوبة وجمال اللفظ والصور كقوله :

ساحرٌ بالدلائل ساحرٌ بالصَّبِّ فائقٌ في الكمان لائقٌ بالحَبِّ

بَشْدًا المسك فَاخُ ثَغْرُ هذا الغزالُ
باسمُ عن أَقَاخُ كَفَرِيدِ اللّآلُ
رَدْ نورَ الصِّباحِ كَظلامِ اللِّيانِ

وأنشد الصفدي لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، وقلمها يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها ، ويغلب التكلف على موشحاته ، وفي أحيان قليلة يَسْلُسُ في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة موشحة لابن اللبّانة الأندلسي :

بات بَدْرِي وهو معتني أحتسى فاهُ وأرتشفُ
وبه أمسيت مٌتَّحدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بدر السما كَمِدا

وقد أنشد النواجي في كتابه عقود اللآل ثمان موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحين لابن حجة الحموي^(١) .

ويلقانا وشاحون مختلفون في زمن العثمانيين على نحو ما يذكر المحبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر العصفوري^(٢) . ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين ابن الخطيب استلهه بقوله^(٣) :

يا ليلي السَّقْحُ من عهد الصَّبَا ياسقَى مغناكِ صوبُ الدِّيمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبَى خلَّسًا مرَّتْ كطيفِ الحُلُمِ

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمي العربي بدمشق

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجي

(٢) نفحة الربخانة للمحبي ٢٢/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشّاحين مهمين هما أيدير المحيوى والمخّار الحلبي .

أيدير المحيوى^(١)

لأنعرف شيئا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدا بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان في المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَزَّ عِطْفَ الغصن من قامتو
مُطْلعا للشمس من طلعتو
ثم نادى البدر في ليلته
أيها البدر تغيب ويحك ما احتياجُ الناس للبدر معي

وعذوبة موسيقاه واضحة في هذا الموشح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولا تفارقه هذه العذوبة حتى حين ينجح إلى التكلف على نحو مانلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وسُمّاره النجوم	ساهر	فن تُرى	عَلِمَكَ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصابي	صابي	لا يعدل	
فجّبه خافق الجنايب	ناي	مُبَلِّل	
والطّرف من دائم انسكاب	كابي	مَجْبَل	

١٠٩/٤ وخطط المقرئ (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه
طبعته دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيدير فوات الوفيات ١٤٠/١ والأنصار
لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق)

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لبالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصاى مستخرج من التصاى وبالمثل ناي مستخرج من الجناى ، وكاى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحار^(١) الحلبي

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمَحَر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر الحيوى في موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

ماناحت الورق في الغصون إلا هاجت على تغريدها لوعة الحزين

هل ماضى لى مع الحبايب	آيب	بعد الصدود
أوهل لأيامنا الذواهب	واهب	بأن تعود
بكل مصقولة الترائب	كاعب	هيفاء رُود

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصيح إكمالا بديعا للتلحين والتنظيم على نحو مايتضح في كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره في العراق ، افتتحها بقوله :

مذشمتُ سنا البروق من نعمان بات حَديق

(١) انظر في المحار قوافل الوفيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، وانظر توشيع التوشيع للصفدى إذ توارد مع صاحب القوافل على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللال رقم ٥٢ ، ٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢٢١ والوفاء ٤/٢٨٠

تُذَكِّي بمسيل دمعها الهَتَّانِ نَارَ الحُرْقِ^(١)
 ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا
 إلا وأَجَدَّ لى الأَسَى والحُرْقَا
 هذا سببٌ لَحْنَتِي قد خُلِقَا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المخار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها وما يُطَوَّى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرَّبَّنَا أن الشام - منذ أواخر القرن الثاني الهجرى - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سميته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى^(٢) :

وما السلافُ دهنتى بل سَوَّالْفُهُ ولا الشُّمُولُ دهنتى بل شمائلُهُ

ولعل شاعرًا شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيَّوس المتوفى سنة ٤٧٣هـ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العباد الأصبهاني فى الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجّل ذلك مراراً على الشعراء

(١) تذكى بدمشق (٣٠٢/٢)

(٢) تذكى : تضم .

(٣) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيصرانى وفيه يقول :
« صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » ^(١) . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافى
استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من
الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية
وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين
وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية
ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار
الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة
المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حجة الحموى فى خزانته إذ
ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم
وتأزر نصرهم » وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز
الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠
وبجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة
٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى
محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة
أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ ^(٢) :

يَمُرُّ بى كُلَّ حِينٍ وَكَلِمًا مَرَّ يَحْلُو

وهو لا يريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مر من
المراة عكس الخلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول بجير الدين بن تميم ^(٣) :
أَبَاحُسْتُهَا مِنْ رَوْضَةٍ ضَاعَ نَشْرُهَا فَنَادَتْ عَلَيْهِ فِى الرِّيَاضِ طَيُورُ
ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

يضيق إذا قُعد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه ^(١) :

ولقد أتيتُ إلى جَنَابِكَ قاضياً باللَّثَمِ للعبَّاتِ بعضَ الواجبِ
وأُتيتُ أقصد زُورَةً أخطى بها فُرُدتُ - ياعني - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البُواب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزانته باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله ^(٢) :

قال لي العاذلُ المُفَنَّدُ فيها يومَ وافَتِ فسلَّمْتُ مُخْتَالََةً
قم بنا ندعى النبوةَ في العشدِّ حتى فقد سلَّمْتُ علينا الغزاة

وللغزاة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التي تشبه الغزاة وهو المراد .

ويتبع ابن حجة مأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتبع مأخذه الصفدي من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدي يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدي - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أبيك الدمشقي المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمن شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري فواصل « سورة الشمس » في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله ^(٣) .

قسماً بِشَمْسٍ جَبِينِهِ وَضُحَاهَا وَنَهَارٍ مَبْسَمِهِ (إذا جَلَّاهَا)

(٣) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري (نشر مجمع

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٣٤

اللغة العربية بدمشق - تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشْقَاهَا) . ومن طريف الاقتباس في الغزل قول فتح الدين بن الشهيد ^(١) :

في صدرها رُمانٌ نَهْدٍ زَانُهُ حَلَى (يُوسُوسُ في صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمن لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبي في وصفه لزهر اللوز إذ يقول ^(٢) :

أزهرَ اللُّوزُ أنتَ لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ
«لقد حسنتُ بك الأيام حتى كأنك في فَمِ الدهرِ ابتسامُ»

وعنى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمنها في قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجأتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفا حرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرها . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزمها فى حتمية شديدة . وليس هذا كل مافى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف مافيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تخصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئاً سهلاً فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله ^(١) :

أَشْرَاكَ ذَنْبُكَ وَالْمُهَيْمِنُ غَافِرٌ مَا كَانَ مِنْ خَطِيئَةٍ سِوَى الْإِشْرَاكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك في الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد في لزوم ما لا يلزم أوفى اللزوميات ، ولا يكتفى أبو العلاء بعقد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عقداً أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل ^(٢) :

بَقَائِي الطَّوِيلُ وَغَيْيُّ البَسيطُ وَأَصْبَحْتُ مضطرباً كَالرَّجَزِ

والطويل والبسيط والرجز من محور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطراباً لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعلل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرسى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافي قصيدة واحدة أوفى قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها ما لا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعاً ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيّوس متغزلاً ^(٣) :

أَوْصَابُ جِسْمِي مِنْ جِنَايَةِ بُعْدِكُمْ وَالصَّبْرُ صَبْرٌ بَعْدَكُمْ أَوْ صَابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مرّ . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عَنَيْن ^(٤) :

خَبَّرُوهَا . بِأَنَّهُ مَا تَصَدَّقَى لَسَلُّوْ عَنْهَا وَلَوْ مَاتَ صَدًّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموي في خزانته : « كان الشيخ صلاح

(٣) الديوان ٥٨/١

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص

الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحا فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دقاتره (شعرا ونثرا)
ويأتى فيه بتراكيب تحفٌ عندها جلاميد الصخور . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها
قول الصفدى (١) :

وكم شئتُ لما قسْتُ مقدار وُدِّكم بوارقَ يأسٍ في بوارٍ قياسِ
والجناس في الشطر الثاني ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه
غير قليل من الثقل فما بالناس بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين
الشعراء من يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها
تصك الآذان صكا عتيقا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة
٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهباً في نظمه ، يقول ناصحاً شعراء عصره (٢) :

إذا أحببتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعٍ
ولا تقصدْ مجانسةً ومكَّنْ قوافيه وكنهه إلى الطُّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء في القرنين الرابع
والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم في ذلك كثير من الأثانين .
وينشد العباد الأصهباني في خريدته صوراً كثيرة من هذه الأثانين ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى
المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العباد بصورة معقدة من تصنعه في
القوافي إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا (٣) :

قل للأمر	أخى الندى	والنائل	المطال	للشعراء	والقصاص
لازلت	تستهك	العبد	بالذابل	في الاحشاء	والأكباد
ووقيت	من صرف	الردي	والنازل	للأعداء	والحساد

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة
التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

التصنع والتعقيد . وينشد العادلا بن قُسيَم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاها من صاد وثانيها من سين أو العكس ^(١) . ومما أنشده العاد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون ^(٢) ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرأ على سبعة أوزان ^(٣) . ولابن عنين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان ^(٤) في مديحه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنْتُ سريرته وَقُدُسَ سِنْخُهُ وَسَمَا بِأَسْلَافٍ سِرَاقٍ شُوسٍ ^(٥)

بينما تشتمل كل كلمة في ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو مايلقانا في ديوان ابن عنين وأيضا في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع لمايلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه ^(٦) .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في الشام منذ القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مدّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي وفلسفي وأدبي ، على نحو ماؤربنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع

المقدام

(٦) فوات الوفات ٥٩٨/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١

(٢) الخريدة ٤٥/٢

(٣) الخريدة ١٠٨/٢

(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨

ومدائحهم بالعشرات - إن لم يكن بالآلاف - مسجلين للبطل العربي مجده الحربي العظيم ، وقد صورنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المتنبي فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغداد ، فكتاب اليتيمة للتعالي يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفي أن نشير إلى من حفوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد المصيصي المشهور باسم النامي ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب في المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه (١) :

أَمِيرَ الْعُلَا إِنْ الْعَوَالِ كَوَاسِيٌ عِلَاءَكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
يَمُرُّ عَلَيْكَ الْحَوْلُ ، سَيْفُكَ فِي الطُّلَا وَطَرَفُكَ مَا بَيْنَ الشُّكِيمَةِ وَاللُّبْدِ (٢)
وَيَمُضِي عَلَيْكَ اللَّهْرُ ، فَعَلُّكَ لِلْعَلَا وَقَوْلُكَ لِلتَّقْوَى وَكَفُّكَ لِلرَّفْدِ

سيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكي السلاح وبصره مصوب إلى فرسه الذي يعلك باستمرار شكيمته استعدادا للزوال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلل ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومحافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة التصيرية الشديدة الغلو لما ترعمه - كما مر بنا - من ألوهية علي بن أبي طالب . ومكّن لانتشار التشيع في الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام يتولون القاهرة معتنقين - على ما يبدو - لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلّس وفي مقدمتهم أبو الرّقعق أحمد بن محمد الأنطاكي ، وله في الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله في ابن كلّس بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ ضُ عَدُوًّا إِلَّا وَأَخْمَدَ نَارَهُ

اللجام

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٣) اليتيمة ٣١٠/١

(٢) الطلا : جمع طلية أو طلاة كما مر . وهي العنق أو صفحته . الشكيمة : الحديدية المعترضة في فم الفرس من

كلَّ يومٍ له على نُوبِ الدَّهْرِ وَكَرَّ الخطوبِ بالبَذْلِ غَارَةٌ
ولأبي العلاء المعري ديوان معروف يسمى «سَقَطَ الزُّنْدُ» أكثره مدائح نظمها على سبيل
العرين لا قصداً لمديح شخص بعينه إلا ماندر، فهو لم ينظم كثرتها طلباً للكسب ونيل العطاء،
ولأنما على سبيل التدريب اتباعاً لشعراء المديح المنتشرين بزمه في كل مكان، ومن قوله على
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مَكْلَفُ خَيْلِهِ قَنَصَ الْأَعَادَى وَجَاعَلُ غَايِهِ الْأَسْلَ الطَّوَالَا
تَكَادَ قِسِيَهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهِمُ الثَّبَالَا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن
عريته ليس غاباً بل رماحاً طوالا تخطف الأرواح خطفاً ، وإن قِسِيَهُ لتصيب أعداءه في الصميم
دون رام يتزع عنها النبل والسهام ، وهي مبالغة مألوقة عند أصحاب المديح لأيامه .
ومرَّبنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب ، وعُني منهم خاصة محمود بن نصر بجمع
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبي الربيعي وابن حيّوس الدمشقي
وابن النحاس الحلبي وابن سنان الخفاجي . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى في
شعبان سنة ٤٦١ على حصن «أسفونا» ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر
وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردّ محمود الحصن على أهله ، وهنّاه ابن سنان الخفاجي
بهذا النصر المبين قائلا في إحدى قصائده ^(١) .

إِنْ أَظْهَرْتُ لَعْلَاكَ أَنْطَاكِيَّةً حُزْنًا فَقَدْ ضَحَكَتْ عَلَى قُطْبَانِهَا
لَمَّا أَطْلُ لَه لَوَاؤُكَ خَافَقًا عُرِفَتْ وَجْوهُ الدُّلِّ فِي صُلْبَانِهَا

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قدّم له كثيرون من شعرائها
مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سيّوساً بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير
سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد
الشطرنجي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب ^(٢) .

(٢) دمية القصر ١٩٩/١

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١٤/٢ وما

بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣ .

ياخَيْرَ من خَفَقَتْ عَلَيْهِ رَايَةٌ وَأَجَلَ مَعْقُودٍ عَلَيْهِ لَوَاءٌ
لكَ كُلِّ يَوْمٍ مِئَةٌ سَيَّارَةٌ فِي الخَافِقِينَ وَغَارَةٌ شِعْوَاءُ

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقَرَّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، وذكر العباد الأصهباني في الخزينة نفرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلافى المعري ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم (١) :

يَحْتَاطُكَ التَّوْفِيقُ لَا يَأْلُوكَ فِي تَسْهِيلِهِ لَكَ كُلَّ صَعْبٍ أَوْعَرَ
دَامَتْ لَكَ النِّعْمَاءُ مُوَصُولٌ بِهَا تَوْفِيقٌ مُنْصَوِّرٌ اللَّوَاءُ مُظْلَفَرٌ

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلافى - فيما يبدو - شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقُدِّمَ مَدَاحُهُ إلى الوزير الأفضل بن بدر الجبالى ، وله يقول في إحدى مدائحه (٢) :

لِيَزِدَّ عَلُّوْا مُلْكُ مِصْرَ فَإِنَّهَا بِوَ حَرَمِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَرَمُ
فَكَةُ مِصْرُ ، وَالْحَجِيجُ وَفُودُهُ وَيَمْنَاهُ رَكْنُ الْبَيْتِ ، وَالثَّلِيلُ زَمْزَمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقي ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمرأ حصن شيرز : بنو مقلد بن مُنْقَذَ على شاكلة بنى عمار في طرابلس يتردد مديحهم على السنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شيرز » من أيدي الروم سنة ٤٧٤ ، وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها في القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه في حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيصري .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو العزى إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ . وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

إلى كَرَمَانَ وشيراز في فارس وهرات في أفغانستان وكلما ألم بيلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جَوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كَرَمَانَ مدائح بديعة من مثل قوله ^(١) :

مادعوناه من بني الدهر إلا أَهْلَ الدهر نفسه للثَّهاني
جُمِعَ الأُسْدُ والكواكب والأبْجَدُ حُرٌّ والناسُ منه في إنسانٍ
واستجابَتْ له مناقبُ شَتَّى لم تُجَلَّ في خواطر الإمكانِ

ويتنبه البطل المغوار أتاك الموصل عماد الدين زنكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تخاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعة إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لا بد من جمع كلمتها تحت لواء واحد. ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا في سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بمجموعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سباته الطويل . ويتبارى الشعراء في مديحه والإشادة بانتصاره ، وفي مقدمتهم ابن منير والقيصري . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير ^(٢) :

فتحُ أعادَ على الإسلام بهجتهُ فافتَرَّ مَبْسِمُهُ واهتَزَّ عِطْفَاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُتِيحَ له مَظْلَلُ أَفَقِ الدنيا جَنَاحاهُ

ومضى ابن منير في القصيدة يُعَلِّقُ - بحق - هذا الفتح على فتح المعتمد لعمورية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زنكي على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق . وبدا حينئذ - في الأفق - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يدٌ آتمة في الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يحاهد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

سريعا نور الدين وفرّ جوسلين ، وهنّاه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قُسيم الحموي بمثل قوله ^(١) :

تبدو الشجاعة من طلاقه وجهه كالرمح دلّ على القساوة ليئته
والدين يشهد إنه المعزّه والشرك يعلم إنه لمهينته
فتح الرّها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يذال مَصُونُهُ ^(٢)

وولّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ .
ونازل صاحب أنطاكية وجموعه ، وخرّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرت جموع الصليبيين
مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة
له ^(٣) :

أقوى الضلال وأقفر عرصاته وعلا الهدى وتبلّجت قسامته

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح
رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أرامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتكين على مدينة
دمشق سنة ٥٤٩ . ويهنّئه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا ^(٤) :

لقد بلغت بحمد الله منزلة عليّة فاقصد العالی من القرب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من التجاسات والإشراك والصلب

وفي نفس السنة يهزم الصليبيين بذلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية
عن نصف أعمال حارم . واستولى على شيزر ويعلبك وصرخند ، وشغل بإرسال نور الدين شيركوه
وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور
الدين محمود يُعدّ بحق منشئ الدولة الأيوبية . ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ،
وأخذت حصون كثيرة تساقط في يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العباد الأصهباني قائلا في مطالع
إحدى قصائده ^(٥) :

أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلّجت : أضاءت .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٢) يذال : يهان .

(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكرب ١٢٢/١ أقوى :

ياواحدا في الثَّصِرِ غيرَ مشارِكٍ أقسمتُ مالك في البسيطة ثانٍ
كم وقعةً لك في الفَرَنجِ حديثُها قد سار في الآفاقِ والبُلدانِ
وجعلتَ في أعناقهم أغلالهم وسحبْتهم هُونًا على الأَذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ، وقد صورنا فتوحه العظيمة في قسم مصر ، وماوافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي ، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل ، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادي وموفق الدين الإربلي والشاتاني الموصلی وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متناثرة في كتاب الخريدة ، وللمعاد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في قسم مصر ، ولابن الشحنة الموصلی فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين ^(١) :

وإني امرؤ أحبيتكم لمكارم سمعتُ بها والأذنُ كالعين تُعَشِّقُ
وقالتُ لى الآمالُ إن كنت لاسحقاً بأبناء أيوب فأنْتَ الموقِّعُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عَين الدمشقي فيه وفي ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة في العادل يستعطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول ^(٢) :

العادلُ الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرف منبرا
نسختُ خلائقه الكريمة ما أنى في الكتُب عن كسرى الملوك وقُصِرا
ملكٌ إذا خفتْ حلومُ ذوى الثَّهى في الرُّوع زاد رزانةً وتوقراً

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذي يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِخنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

وهو ممدوح فتیان الشاغوري دُبِّج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدّحين . ومن أسبغ عليهم مدائحهُ الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التتار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البسلاء ، وثوّه الصاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله ^(١) :

بَعَيْنَ جَالُوتَ خَضَّتْ بَحْرَ وَغَى يُخَالُ فُلُكَا بِالْأَمْنَدِ مَشْحُونَا
وَكُنْتُ لِلْجَيْشِ غُرَّةً شَدَخْتُ أَنْوَفَهُمْ فَانْثَنُوا مُوَلِّينَا

وطوال أيام الممالك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومربنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرق فخاض إليها لَجَجَةً وخاضها جيشه معه ومزقهم شرَّ مَزَقٍ ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الدمشقي ^(٢) .

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ
اِقْتَحَمَ الْمَاءَ لِيُطْفِئَ بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْمُغْلِ

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شعر المديح في الشام يتحوّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمّة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستمابول وكانوا لا يزالون غادين عليها رانحين ، مما جعلهم يكثرّون من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

العربية بدمشق) ص ٤٧٥

مايلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حيثئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرُونَ مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك في آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجُمْل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح النابهين .

ابن الخياط^(١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقي . ودائما يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيئا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة العلمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا حصر لهم .

وشهد ابن الخياط في صباه دمشق نائرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتَش أخو السلطان ألب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءا شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزها تنش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الخياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حماة ، ووفد على أميرها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذة كاتباً له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جَوْدُهُ عَيْشًا كَأَنِّي ظَفَرْتُ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِرَاقًا

خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع الجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرٌ بلدته ابنُ حَيُوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جالاً فلو كانت يدًا كنت السَّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْزَر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لخصمهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصَباءَ أرضهم أعزَّ منالاً من نجومِ القِيَابِ

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُوس ، فينزل طرابلس قاصداً بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليتة ، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال الملك عَيْناً إذا نزلت قَرَارُهُ كُلُّ وادٍ
فمن ذا مُبْلَغُ الأَمَلِكِ عِنا وسُوَاسِ الخواصرِ والسُّبُودِ
بأنَّا قد سَكُنَّا ظِلَّ مَلِكٍ مَحْوَفِ البأسِ مرجو الأيادي
فما نخشى محاربة الليالي ولانرجو مسالمة الأعادي

وهنئ بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أأتجى غيرَ عَمَّارٍ لِنائبةٍ إذنُ فلا آمسنى كفه الثُّوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له منعا لضاق به ذرعًا وإن رَجَا
البازلُ المالَ مسئولًا ومبتدئًا والصَّائِنُ المجدَ موروثًا ومكتسبًا

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فعزن حزناً شديداً.

وعَبَثَ بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلَّاهُ بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائنة ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفي سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما آتَى إلا حَيًّا مُتَهَلِّلٌ إذا جَادَ لم تُقْلَعِ مواطرُ سُحْبِهِ
أغرَّ غياثٌ للأنام وعصمةٌ يُعَاشُ بُنْعَاهُ وَيُحْمَى بِدَبِّهِ
ولم يُرَ يوما راجياً غيرَ سَيْفِهِ ولم يُرَ يوما خائفاً غيرَ رَبِّهِ
حُبَيْتَ حياءً في سماحٍ كأنه ربيعٌ يَزِينُ النُّورَ ناصراً عُسْبِهِ

والقصيدة رائعة حقاً ، نوه بها القدماء طويلاً كما نوهوا بغزلها وسنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُعَتِكين صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صيدا ، وفي ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنقراً الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إفْرِنجيةٍ جيوشُ كمثلِ جبالٍ تَرْدَى
أنوماً على مثلِ هَذِهِ الصَّفَاةِ وهزلاً وقد أصبح الأمرُ جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحت تَدُقُّ من الخوفِ نَحْراً وخَدًّا

فحاموا على دينكم والحريم
فقد أتبعَتْ أرؤُسُ المشركين
محاماةً مَنْ لا يرى الموتَ قددا
فلا تُغفلوها قِطافاً وحَصداً

وله وراء هذه القصيدة مريئة لبطل استشهد في حرب حملة الصليب سنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مر بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصَّروا في استشارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترشد ابن القلانسي المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فَرَّ لو تجسَّدَنَ لم يُفَضِّلُنْ إلا بهنَّ العُقودُ
فَيُظْلَمُنْ إن قيل نَوْرُ نَصِيرٍ وَيُحَسِّنْ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نزهة كثيرة في الغوطة وبساتينها ، ويدو أنه كان يولع بلعب الترد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بدويانه ، رواها العماد الأصبهاني في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغربة أو ما يشبه الغربة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن^(١) القيسراني

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشدرات ١٥٠/٤
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -
بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الحريدة (قسم
الشام) ٩٦/١ وابن القلانسي : ٣٢٢ ومرة الزمان لسبط
ابن الجوزي (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء
٤٥٨/١٩ وعبر الذهبي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤
والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والبروصتين ٥١/١ في حروب عماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية^(١) ، فنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليبي عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجدده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانجدها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

واقوا دمشق فظنوا أنها جدّة ففارقوها وفي أيديهم العدم
وغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلفوا أكبر الصُّلْبَان وانهمزوا^(٢)

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجو ، وعلم بهجائه فضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبغزّين ، وتؤكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) انجفلوا : تشردوا

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين .

حَدَارٍ مِنَّا وَأَتَى يَنْفَعُ الْحَذَرَ وَهِيَ الصَّوَارِمُ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ
وَأَيْنَ يَنْجُو مَلُوكُ الشُّرْكِ مِنْ مَلِكٍ مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقَدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آملين في الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

سَمَتْ قِبْلَةَ الْإِسْلَامِ فَخَرَا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَكُ يَسْمُو الدِّينَ لَوْلَا عِمَادُهُ (١)
مَصِيبُ سِهَامِ الرَّأْيِ لَوْ أَنَّ عَزَمَهُ رَمَى سَدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَصَمَى سِدَادُهُ (٢)
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْكُفْرِ تُسَلِّمُ بَعْدَهَا مَمَالِكُهَا إِنْ الْبِلَادَ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمر أو كانت حاجة شخصية ، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شَبَّ بِإِفْرَنْجِيَّاتٍ وَبِرَاهِبَاتٍ وَتَمَادَى فِي هَذَا التَّشْيِيبِ ، وسنذكر طرفا منه في حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقتل عماد الدين بيد آتمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغرجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكلا بالأرمن ، ويهني ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا :

لَيْهَنَكَ مَا أَفْرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ
وَإِنْ يَكُ فَتَحَ الرُّهَا لُجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامي جميعه . ويحشد حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كيفا لهم في بقعة تسمى « يَغْرَى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

مظفرٌ في دِرْعِهِ ضَبَعٌ عَلَيْهِ تاجُ الْمَلِكِ مَعْقُودٌ
وَصَارُمٌ الْإِسْلَامَ لَا يَنْثَنِي إِلَّا وَشَلُّوا الْكُفْرَ مَقْدُودٌ^(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « إنب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاني ، ولم يفلت من القتل إلا من خبر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هَذِي الْعِزَائِمُ لَا مَا تَدْعَى الْقَضْبُ وَذِي الْمَكَارُمُ لَا مَا قَالَتِ الْكُتُبُ^(٢)
أَغْرَتْ سَيُوفُكَ بِالْإِفْرَنْجِ رَاجِفَةٌ فَوَاذُ رُومِيَّةِ الْكِبَرَى لَهَا يَجِبُ^(٣)
غَضِبْتَ لِلدِّينِ حَتَّى لَمْ يَفْتَكْ رَضًا وَكَانَ دِينَ الْهُدَى مَرْضَاتُهُ الْعَضْبُ^(٤)
مَنْ كَانَ يَغْزُو بِلَادَ الشُّرْكِ مَكْتَسِبًا مِنَ الْمُلُوكِ فَنُورُ الدِّينِ مُحْتَسِبُ^(٥)
فَانْهَضْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بَذَى لَجَبٍ يُولِيكَ أَقْصَى الْمَنَى فَالْقُدْسُ مَرْتَقِبُ^(٥)

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحريين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يتغنى مغنا ، إنما يتغنى ماعند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .

إِلَّا تَكُنْ أَحَدَ الْأَبْدَالِ فِي فَلَكِ الْـ تَقْوَى فَلَا نَتَّارَى أَنْكَ الْقُطْبُ

وكانه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعيش ابن القيسراني حتى يمجّد بقیة انتصاراته الحیة على الصليبيين ، إذ توفي قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العباد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريججه وراوى ديوانه .

(١) محسوب : يحسوب أجره على الله

(١) الشلو : العضو وبقيّة الشيء . مقدود : مشقوق

(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصباح والجلبة .

(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع

(٣) راجفة : نفخة ممیة : يجب : يخفق

ابن^(١) الساعاني

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وبيع بعض ضروب اللهو مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيّا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتُ شَمُّ الممالك بعد الزَّرنج والمَلِك
فليعلم القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق فليطُل^(٢)

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حقوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :
موقعة حِطّين على حافة طبرية ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبداً ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِينَا	وَقَدْ قَرَّتْ عَيُونُ الْمُؤْمِنِينَ
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهُ	وَصَدَّقْتَ الْأَمَانِي وَالظَّنُونَا
فَأَلَمْتُ بِالسَّوَاهِلِ فَهِيَ صُورُ	إِلَيْكَ وَالْحَقُّ الْهَامَ الْمُتُونَا ^(٣)
وَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ وَلَوْلَا	سُطَّاكَ لَكَانَ مَكْتَبَتَا حَزِينَا
أَدْرَتِ عَلَى الْفَرْنَجِ وَقَدْ تَلَاقَتْ	جُمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا

أنيس المقدسي (طبع المطبعة الأمريكية - بيروت)

(٢) يطول : يفخر بها

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرؤوس

(١) انظر في ابن الساعاني وشعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣٩٥/٣ وعبر الذهبي ١١/٥ ومرآة الزمان : ٣٧٥

والغصون البانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب

١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب في ييسان وغير ييسان ، وتراعى له مدن الساحل الشامي ، وهي تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبتهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ في كُلِّ منطقي وشاع إلى أن أسمع الأسلُ الصُّمَّ (١)
فليت فتي الخطَّاب شاهدَ فَتْحَها فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أَصمَى
حَبَا مكةَ الحُسنى وثني يثربِ وأطرب ذِيكَ الضريحَ وماضِمَا
وأصبح نَعْرُ الدينِ جَدْلَانِ باسمَا وألسنةُ الأغَاد تُوسعه كَثَمَا

لقد فُتِحَ القدس عنوة ، وإن قعقة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحاً حريئاً بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغاد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وعن حول نور الدين كما يتضح من قوله في مدحة له :

أبَكُنْتِي الأَيَّامُ مذ ضحكْتُ لى عن نيوبِ نَوَائِبِ عُصْلِ (٢)
أفسدن خلاني فمَالِي في الد سَرَاءِ والضَّرَاءِ من خِلْ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفي في موطنه سببا في أن يشد رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور في مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح في السلطان

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصريتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياته .

الشهاب^(١) محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صيبا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يحلّه ويوده مودة مخلصة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتّه معاليه ولم يُرْ قبله كريمٌ مضى والمكرّماتُ نُوادِبُهُ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محبى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أدبيا كاتباً محسناً وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتباً بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرق

والثاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء
والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن
حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعمى ٢٣٦/٢

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن
شاكراً فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١
وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفنك بجمعهم وكاد أن لا يبق
 باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول
 فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمُنُ جَارُ وَاحْكُمْ فَطَوَّعُ مَرَادِكَ الْأَفْدَارُ
 خُضَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِحِ أَقْصَى مَنَى هَوَّجُ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ
 حَمَلْتُكَ أَمْوَاجَ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى بِحَرًّا سِوَاكَ تُقْلُهُ الْأَنْهَارُ (١)
 رَشَّتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَظِرَّ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا
 على منازل بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم
 يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسب الأهوال كالأميد الضارية إلى أن انكسر
 التتار والروم وفروا معتصمين بـجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة
 عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعِزَائِمُ وَلَا فَلَا تَجْفُو الْجَفُونُ الصَّوَارِمُ (٢)
 بِجَيْشٍ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّمَا عَلَى سَعَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيقِ خَاتِمُ
 يَحِيطُ بِمَنْصُورِ اللَّوَاءِ مَظْفَرُ لَهُ النَّصْرُ وَالْتَأْيِيدُ عَبْدُ وَخَادِمُ
 مَلِكُ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ بِشَائِرِ الْكَفَارِ مِنْهَا مَاتِمُ
 مَلِكُ لِأَبْكَارِ الْأَقَالِمِ نَحْوَهُ حَنِينُ كَذَا تَهْوَى الْكَرَامَ الْمَكَارِمُ

ومر بنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم
 مثل قيسارية وصفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدون ابن تغرى بردى شيئا
 من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازل
 الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك
 تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجّد فتوحه الشهاب محمود قاتلا .

الله أكبرُ هذا النصرُ والظفرُ هذا هو الفتح لاماتزعم السيرُ
هذا الذى كانت الآمالُ إن طمحتُ إلى الكواكب ترجوه وتنتظرُ
فأنهضُ وسِرُّ واملِك الدنيا فقد نَحَلْتُ شوقا منابرُها وارتاحتِ السرُّ (١)
إن لم يُوفِّ الورى بالشكر مافتحُ يداك فاللهُ والأُملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلّت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا فى شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوئة والإسبتارية فى أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أن فتحها تم فى السابع عشر من جادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار فى نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفى هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهتبا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذلّتْ دولةُ الصُّلبِ وعزّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتُ رؤياه فى النوم لاستحيّتْ من الطلب
مايعد عكّا وقد هُدّتْ قواعدها فى البحر للشرك عند البرّ من أرب (٢)
لم يبقَ من بعدها للكفر مذ خربتْ فى البحر والبر ماينتجى سوى الحرب
يايوم عكا لقد أنسيتْ ماسبقّتْ به الفتوحُ وما قد خُطّ فى الكتب
بُشراك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك الممالكُ واستعلتْ على الرُتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيدا

(٢) أرب : مطلب وأمنية

(١) السر : جمع سرير : العرش

وقلعة جُبَيْل وعتليت وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربي الفرات ، ويهتبه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحُ بدَا في إثر فتحِ كأنما سماءُ بدتْ تترى كواكبها الزُّهرُ

وعلى هذا النحو سجّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلالون وخبيل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أهنا المنائح في أسنى المدائح » وهو مفقود ، وسنشده له قطعا في حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك^(١) بن محمد بن منجك

شركسى دمشق نشأ في بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، أخذوا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفاى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب الذى شغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا في إسرافه ، فأنفق ماخلفه له أبوه ، حتى إذا تَرَبَّتْ يده وضاعت به دنياه ولَّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ما كان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه في الفقهاء والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفي مقدمة من مدحهم شيخه في القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَدْنَى أَنَامُلُهُ وَيُشْرِقُ وَجْهُهُ فَيَجُودُ بِالْآلَاءِ وَاللُّلَاءِ
يَقْطُظُّ لَأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا جُلِيَتْ عَلَيْهِ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم

(١) انظر في منجك ربحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي

٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤/٤٠٩ ونفحة الربحانة ، وقد

ديوان منجك .

ومهابةً سادَ الولاة ولاؤها محفوفةً بجلالةٍ وبهاء
وشمائلٍ رقتُ كما خطرتُ على زهرِ الربيعِ بواكرُ الأنداء

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعاني مكررة في المديح التقليدية ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها لإخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين الكرم والبشر المترقق في وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بالآلاء الوجه وإشراقه وما يجري فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء والآلاء والجناس بديع . وواضح كيف لاءم في البيت الثاني بين معناه وبين الممدوح وكان مفتياً لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وجامع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه في البيت الرابع فشمائل المفتي رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسام والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وعم فضله وبره أدبائها ، وله ألف البديعي كتابه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و « الصبح المنبي في الكشف عن حثيثة المتنبي » ويقول منجك في تهته له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُواليكَا يُثْنِي عليك ولا يأتي بثنائيكَا
إذا سَطَا فبأحكامٍ تنفَّذها وإن سَخَا ففِضْلي من مساعيكَا
من ذا يُضاهيك فيما حُزَّتْ من شرفٍ ومن يُدانيك في حِلْمٍ ويَحْكِيكَا
أعيادُنا كُلُّها يومُ نراك بهِ وليلةُ القَدَرِ وقَتٌ من لياليكَا

والملاءمة بين معاني الأبيات ومنصب المفتي - وكان حينئذ قاضياً بدمشق - واضحة ، والمبالغة واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثنائيكَا » وعاد إليها بقوة في البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعياداً ، ولكنه أبقى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتاً من ليالي الشيخ . ولأريب في أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع ما يوشيه به من جناس وطباق كما في البيت الثاني . ودائماً محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه المقرئ - وهو صاحب نفع الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو في مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسددةٍ ويقطع الليلَ تسبيحاً وقرآناً

وتلقانا وراء مدائحهم في الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المالك والعمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلى على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربيها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهن منهم يعتمدون على عقولهم الخصبية في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُخصى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالآلاف على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر الدمشقى ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبي أكثر سنوات عمره في الشام وبواديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما ينتثر في شعره من حكم أفردتها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهى مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد المتنبي وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكما وفيلسوفاً كبيراً ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ وستترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرَاي قد ملع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثل . ولامية الطُّغْرَاي لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هى من البسيط على شاكلة نونية البُسْتى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصف طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها ^(١) :

وإذا الكريم رأى الخمولَ نزيلةً في منزله فالحزم أن يترحلا
كالبدل لما أن تضاءلَ جدُّ في طلب الكمال فحازه متنقلاً
سقمها لحلمك أن رضيتَ بمشربٍ رنقٍ ورزقُ الله قد ملأ الملا
فارق تروق كالسيف سلَّ فبان في متنته ما أخفى القرباء وأخملا
للقفر لا للفقر هبها إنما معنك ما غناك أن تتوسلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدل وعز الشخص في تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسلَّ من قرابه أو غمده ، وعار مابعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المجدب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودائماً تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضاً منشورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي ^(٢) :

الدهر كالطيف بُؤساه وأنعمه عن غير قصدٍ فلا تحمد ولا تلم
لاتسأل الدهر في البأساء يكشفها فلو سألت دوام البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولا لبؤس أونعيم ، ولادخل لدهر في شيء من ذلك ، ولا يأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا ضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتاً . وفيها يقول ^(٣) :

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي

الحلي) ٣٠٦/١

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

اعتزلَ ذَكَرَ الأغاني والغزل. وقُلِ الفَصْلَ وجانبَ مَنْ هَزَلَ
 وأتَى اللهَ فَتَقَوَّى اللهَ ما مازجتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَلَ
 قاطعَ الدنيا فمن عاداتها تخفضُ العالی وتُعَلِّي مَنْ سَفَلَ
 لا تُثَقِّلْ أَصْلَى وَفَضْلَى أبداً إنما أَصْلُ الفَتَى ما قَدَ حَصَلَ
 مِلْ عن النَّمَامِ واهْجُرْهُ فما بُلِّغَ المَكْرُوهَ إلا مَنْ نَقَلَ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام المالك وأيضاً أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكماً وأمثالاً منشورة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزري المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة ^(١) :

حاذِرْ عِدَاكَ الْأَقْرَبِينَ مِنَ الْوَرَى فَأَضْرُهَا الْقُرْبَاءَ وَالْقُرْنَاءَ
 وَتَوَقَّ مِنْ كَيْدِ الْحَقُودِ وَلِيْنِ مَا يُبْدِي فَقَدْ يُصْدِي الْحَسَامَ الْمَاءَ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين علي بن محمد العاملي رحلة أودعها أشعاراً على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية وما فيه من حكم ومعانٍ خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله ^(٢) :

المرء لا يسلم من حاسدٍ أو شامتٍ في اليسر والعسر

وتكثر الحكم أيضاً في كتاب نفحة الرخانة للمحبي ، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلاً عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافي الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

أبو العلاء^(١) المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنُوخِي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى « مَعْرَةَ النعمان » من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبي العلاء » وفي ذلك يقول :

دُعِيتُ أبا العلاء وذاك مَبِينٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو التَّزُولِ

وأُسْرته تنحدر من قبيلة تَنُوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدري وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنني أَلْبَسْتُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت في ترجمته له بمعجم الأدياء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فَيُكَبِّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقدته لبصره مبكرا جعله يُعَتَى بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولا ومن في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتبني ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لَبَّت نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره معجم الأدياء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا في المراجع القديمة ومن أهم رسالة الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعري لابن العديم الحلبي وهي دفاع قوى عنه ونقى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لطف حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفصول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشرح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ١١٠/٢ .

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ هـ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لا يبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أراني في الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخير التَّيِّبِ^(١)
لفقدى ناظرى ولزوم يَتَّى وَكَوْنِ النفسِ فى الجسمِ الخبيثِ

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقدته لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله الفاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعُدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكتامى سنة ٤١٤ وقَدَّم له أبو العلاء الرسالة السَّنَدية فى مجلد واحد .

واعقل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعْتُ شَفِيعَا إِلَى صَالِحٍ وَذَاكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيُ فَسَدٍ
فِيَسْمَعُ مِنِّي سَجَعَ الْحَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْرَ الْأَسَدِ

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تحير وديانات .. وكان له أربعة من الكتَّاب المحوِّدين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحري » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) التَّيِّبُ : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب الزرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثلهُ أبو العلاء تمثلا حيا خصباً ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنِّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميها البلسن والبلس رافضاً ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يَقْنَعْنِي بُلْسُنُ يُارَسُ لِي فَإِنْ أَتْنِي حَلَاوَةُ قَبْلَسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ هـ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطي - وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِيزن ، فشئ حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خشن الملابس والمأكول والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين دينارا قدّر منها لمن يخدمه النُصف ، وأبقى النصف الآخر لمثوثته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البرديّ في الصيف ، وترك ما سوى ذلك » . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذاً بمذاهب الحكماء ولا اتباعاً لمذهب البراهمة الهندي ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقاً على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان في دُنياه ، ولعل ذلك ما جعله يعزف عن الزواج حتى لا يرزق بولد يكابد من دنياه ما كابدَه وصرّح بذلك قائلاً :

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنهجية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادي أبي القاسم المغربي وتلاها بالرسالة الإغريقية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضوع . ولأبي العلاء أيضاً رسالة الملائكة وهي في مسائل التصريف ، طُبعت قديماً بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثراً ثم يصوغه شعراً . وله ديوان صغير سماه الدَّرْعيات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طُبعت ملحفاً بديوانه الكبير سَقَط الزُّند .

ونقف قليلاً لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثاني للزوميات ، والسقط أول ما يخرج من نار الزند وشكره ، سمي أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرًا مثنياً إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طُبعت في مصر قديماً . وطُبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزي وشرح لأبي محمد البطلبوسى الأندلسي وشرح لأبي الفضل قاسم الخوارزمي ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهوره في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلاً « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذي ستر بَغْفَةً (بُلَغَةً) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجّه إليهم مديحه - كما قال - طلباً للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحبهم شعراً ، وربما مدحهم شاكرًا صنيعاً لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفاً عونه الحميد له في أثناء ترده على تلك الدار ومكتبته الكبرى المشهورة . وطبيعي أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامة - يحاكي المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسمّاه معجز أحمد بينا سمّى شرحه لديوان أبي تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحري « عبث الوليد » ويفجؤنا في الديوان فخر عنيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقريّة يكاد يخفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريق أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدّه لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكّا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُصفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنّي حُيْتُ الخُلْدَ فردًا لما أُحِبْتُ بالخُلْدِ انفرادا
فلا هطلتُ على ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عطارٍد المنسوب إليه السّلم لو خبرت الناس خبرته وبلاءه وجربت من كيدهم ماجرب وعرفت من خُبت سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا قرأت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظنُّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمنُ على سِرِّ قواد
فلو خبرتهم الجوّزاء خُبْرِي لما طلعتُ مخافة أن تُكاد

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السّودد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، ولأنه ليفلُّ نواثب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومُضائه . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مرثيته لأنها تُفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ في مِلَقٍ واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنُّمُ شادي
وشبيهُ صوتِ الثّعبيِّ إذا قيّد سسَ بصوت البشير في كل نادى

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ما تتحول البشارة بالمولود - مها طالت حياته - صراخا عليه ، حتى لكان الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجوا الحماة فلا يدرى السامع أتبكي محزونة أم تغنى مبهجة . ويمضى

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تراحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لا ضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرى بها صديقا من أبناء عمومته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارهُ لم يَفْخَرْ المولى على عَبْدِهِ
أُضْحَى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ مثل الذى عُوجِلَ فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المَيِّتُ فى قبرهِ بِذِمِّهِ شَيْعٌ أم حَمْدُهُ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَتْفِهِ كالحاشدِ المكثِرِ فى حَشْدِهِ
ورُبَّ ظمآنٍ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلمُ فى وَرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم مالا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول فى مقدمته - ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويّه يحىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضوع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعدُّ أول من وسّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيَّق بها الممرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شُغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَباً دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردّاً ، ويتسع به

التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه
 بأس ينقل عليه ثقلاً طويلاً ويملاً نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر
 فقيم إذن تلقى الأبناء لها من آباؤهم وفيهم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائماً بالكوارث
 والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَقُ الإنسانُ من مُلْكِ رَبِّهِ ويَخْرُجُ من أرضٍ له وسماء

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاً ولا خلاصاً ، وحرى به أن لا يتخذ ولداً حتى
 لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تقع
 دائماً على عاتق الإنسان بل تشغله أيضاً الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟
 شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعائهم بهالة قدسية ، حتى
 زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعمهم بصفات الله
 حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء بتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي .
 وهذا البهتان في العقيدة كان يروّج له دعائهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم
 المقصودون بحملة أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نادبْتُ على الدين في الآفاق طائفةً ياقومُ من يشترى ديناً بدينارٍ
 جَنَوْا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أَنَّ الصغائرَ تجنّي الخُلْدَ في النارِ

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمان نحس دراهم معدودة . وكما
 حمل على علماء الدين المروّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيراً
 من ذكرهم وتواجهدهم فيه ، وسماه رقصاً ومن قوله فيهم :

تَزَيَّوْا بالتصوف عن خداعٍ فهل رَزَّتِ الرجالَ أو اعتميت^(١)
 وقاموا في تواجهدهم فداروا كأنهم ثمالٌ من كُمَيْتٍ^(٢)

وهاجم الحكماء عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له
 أو أى مصلحة ، وفي ذلك يقول :

وأرى ملوكًا لائحوط رعيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعَدّوا مصالحها وهم أجراؤها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويغفون عليه ويكيدون له ويأترون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرى المشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف فى الود ولاتنقى للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها فى رأيه - الغزل والنسيج والرذن أو الحياكة :

علموهنّ النّسج والغزل والرّذن نَ وخَلّوا كتابه وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك - فى رأينا - فساد المجتمع فى بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمه والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس فى السراء والضراء ، يقول :

كيف لايشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر فى اللزوميات ، فقد أودعها كما مرّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه فى دنياه إزاء ما يُصَبُّ عليه من شرورها وهومها وأفاعيها التى تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء فى أشعاره حيرة تتراءى ظلّالها فى اللزوميات مما جعل بعض القلماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك فى كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذها السوفسطائيون - ويسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هَفَّتِ الحنيفَةُ والنصارى ما هتدتُ ويهودُ حارتُ والمجوسُ مُضَلَّلَةٌ

اثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٌ لا عقلَ له

والبيتان فى هجاء أصحاب هذه الديانات لزمه لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفرُ أختها فى داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلى الفاطمى قائما فى مصر ويدعوله الحكام وعلماء الدين فى الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

في الغلو غلواً شديداً ، بل المسرف في الانحراف عن الإسلام انحرافاً مفرطاً . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالالحاد وأثبتنا أن بينها منحولاً كثيراً انتحل عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديماً وأدخلت عليها فساداً غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامت إلى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الالحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ بعد أبي العلاء بسبعين عاماً وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامت إلى الفساد البرايا ونهتنا - لونتتهى - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتمدت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات ^(١) مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدتين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيف إليه بعض أشعار الزنادقة ^(٢) مثل ابن الراوندى . وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتاً ظنوا منها أنه يؤمن بقدوم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفاً بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعاً وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى في واقع الأمر أبيات شُبّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غيرَ فانٍ فسبحانَ المهيمَن ذى الكمالِ

وقوله :

ياشُهَبُ إنك في السماء قديمةٌ وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارٍ

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباء الرواة للقفطى ١/٧٥ .

(١) أشار د. حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسي في مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ما حرّف من شعر أبي العلاء ووضّح عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد ما يناقض الحدثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجوم ولا مذهبي قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل البيتين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحدثة ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبي العلاء بكتابنا المذكور آنفاً ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن بإيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الخفيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خمسى وصومَ الدهر ألفهُ وأدمن الذكر أبكاراً بأصالِ

فهو صائم الدهر ، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائماً يتجه إلى ربه مصلياً الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلاً صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مراراً بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغرّنى أنه بعيدُ
وعن يمينى وعن شمالى بصحبتى حافظٌ قعيدُ

وهو يستلهم في البيتين قوله تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكرو ونكير فيه للناس ، يقول مخاطباً الليالى :

خلّصنى من ضنكٍ ما أنا فيه وأطرحينى لمُنكّرٍ ونَكِيرِ
ويشعر في عمق بأنه مقصّرٌ منها قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائماً في عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعاً :

ومغفرةُ اللهِ مرجوةُ إذا أصبحتَ أعظمى في الرَّمَمِ
وباليتنى هامدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنقُضون اللَّمَمَ
ونادى المنادى على غفلةٍ فلم يَبْقَ في أذُنٍ من صَمَمِ
وجاءت صحائفُ قد ضُمَّتْ كَبائِرَ آثامِهِم واللَّمَمُ ^(١)
وليت العقوبةَ تحريقَةً فصاروا رمادا بها أو حُمَمَ ^(٢)

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتنى أن لا يبعث يوم القيامة (يوم يُنادِ المُنادِ من مكان قريب) كما جاء في سورة ق ، فيبُثُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلُّ إنسانٍ أُلْزِمناه طائِرَه في عُنُقِه ونُخْرِجُ له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضا ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يحجدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ماذرٌ شارِقٌ ومافَتْ مسكاً ذِكْرُهُ في المحافلِ

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهد والتقشف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا بِإِثْسٍ من عَفْوِ رَبِّي على ما كان من عَمَلٍ وَسَهْوٍ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماما له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقاليدَه إلا إليه ، لمثل قوله :

كَذَبَ الظَّنُّ لِإِمَامٍ سِوَى الْعَقْلِ لِـ مَشِيْرًا في صُبْحِهِ والمساء

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول آيات بشرين المعتمر المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي السماوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعري ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادي أن أظنَّ وأُحْدِسَا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكررا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرَهًا ورحلتى إلى غَيْرِها بالرَّغْمِ واللَّهِ شَاهِدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولا نرحل عنها اختيارا ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلي مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجود العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وإرادته العليا ولذلك يقول :

لَا تَعِشْ مُجْبِرًا وَلَا قَدْرِيًّا واجتهدْ في تَوْسِيطِ بَيْنَ جَيْنَا

فذهب في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريمة في مهبط رياح القضاء والقدر تسيره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات : ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُردُّ إلى فقدته لبصره صبييا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمدّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمدّه من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

منصور^(١) بن المسلم

هو منصور بن المسلم التميمي الحلبي المعروف بالذُمَيْك وبابن أبي الحُرَجِين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شيوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جني في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة

غَوْص . ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره في علم العربية . وروى العماد الأصهباني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رفاقة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أَحْبَابُنَا إِنْ خَلَّفَ الْبَيْنُ بَعْدَكُمْ قُلُوبًا ففِيهَا لِلتَّفَرُّقِ نِيرَانُ
رَحَلْتُمْ عَلَى أَنْ الْقُلُوبَ دِيَارَكُمْ وَأَنْكُمْ فِيهَا عَلَى الثَّأِي سُكَّانُ

ونمضى معه في هذا الغزل المتنازع وإذا هو يذكر غربته في دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلَّائه ، يقول :

وَمَا بِاخْتِيَارِ الْمَرْءِ تَشَعُّبُ نَيْئُهُ فَتَبَرَّحُ أَوَاطَارُ وَتَتَرَحُّ أَوَاطَانُ (١)
عَسَى مُورِدٌ مِنْ مَاءِ جَوْشَنَ نَاقِعٌ فَلَنِي إِلَى تِلْكَ الْمَوَارِدِ ظَمَانُ
وَمَا كُلُّ إِنْسَانٍ يَنَالُ مُرَادَهُ وَيُسَعِّدُهُ فِيمَا يَحَاوِلُ إِمْكَانُ
وَعِيشُ الْفَتَى طَعْمَانُ حُلُوٌّ وَعَلَقَمٌ كَمَا حَالُهُ قِسْمَانُ : رِزْقٌ وَحِرْمَانُ

وهو يألم لغرفته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لبيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحرم . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رَأَيْتُ الْفَتَى يَأْتِيهِ مَا لَا يَنَالُهُ بِسَعْيٍ وَلَوْ أَنْصَى الرِّكَائِبَ وَالرُّكْبَانُ (٢)
وَمَنْ رَامَ إِدْرَاكَ الْمُنَى بِفَضِيلَةٍ فَقَدْ رَامَ أَمْرًا لَيْسَ يَدْرِكُهُ صَعْبًا
وَيَذْهَبُ بِالْوَدِّ الْمِرَاءَ وَيَمْتَرِي حَفَائِظَ لَا تَبْقَى عَلَى صَاحِبِ صَحْبَانُ (٣)
تَوَقَّ قَلِيلَ الشَّرِّ خَوْفَ كَثِيرِهِ وَلَا تَحْقِرَنَّ النَّزْرَ رُبَّمَا أَرْبَى
فَإِنْ صَغِيرَ الشَّيْءِ يَكْبُرُ أَمْرُهُ وَكَمْ لَفْظَةً جَرَتْ إِلَى أَهْلِهَا حَرْبَانُ

(٣) يمتري : يستثير : حفاظ جمع حفيظة وهي الغضب

والحمية .

(١) تشعب : تبعد

(٢) أنصى : أتمب . الركائب : الابل

وهو يتكلم في أول الآيات عن الحظ وما يغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب ماناها أبدا ، ومها تدرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مراء ولا جدال مقيت لأنه يثير خفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع ما بينهم من صلات . ويوصى الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صغر وتضاءل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقْصُهُ وَيُبْغِضُ ما يَنْمِي به ويزيدُ
نريد من الأيام تَصْفُو من الأذى وَتَضْفُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ^(١)
وكيف نروم العيش خِلْوا من القَدَى وللماء من بعد الصِّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرءُ ما يستحقُّه تساوى شقى في القَضَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلِها يعيبُ ذميمَ العيش وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابعة رغبة ولا تنقض بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كريبا مذموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ من خَشِنَ اللَّمَسِ ومن لَبِنَ
مَرُّو تَوَقَّى الرَّجُلُ منه الأذى وإثْمِدُ يُجْعَلُ في العينِ^(٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصلْد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يرى العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالا . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

(٢) المرو : الحجر الصلد . الإثمد : الكحل

(١) تَضْفُو : تصبح رغبة هائلة

حسين^(١) الجزرى

هو حسين بن أحمد الجزرى الحلبي ، ولد بجلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفاً أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيراً من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . . العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقى بدائع آدابه ورقت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الخفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولاً ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابى والفتح بن النحاس فى مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها فى الشعر قائلاً :

الشعرُ ما شأقتك منه حكمةٌ لا ما يشوقك الكتيبُ الأوعسا^(٢)

فليس الشعر فى رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة وخبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدا من كتيان وعسا وغير وعسا شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرّفك كنهها وحقيقتها ، يقول فى تضاعيف غزل له :

إن المحبةَ محنةٌ لا منحةٌ ومن الغرام برى الحبِّ المغرما
وإذا مُنِعَ الماء أول مرةٍ ووردتهُ أخرى تذكّرتَ الظما
فى كل يومٍ روعةٌ أولوعةٌ والقد تُقعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تحارباً وتحارباً لن تلقى إلا إناءً مُقعما

وهى أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكماً وأمثالا ، فالحب محنة لا منحة يضنى صاحبه ، ومن تصدّه صاحبه أول مرة كمن يُصدّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكتيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للينة

(١) انظر فى ابن الجزرى وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣

ورحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه فى

مجموعة العقود الدرية

أتيج له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لا يبرحان ذاكرته ، وهل في الحب إلا صدّ وامتناع
وعذاب ، والمحـب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفعم بالتجارب كما
يُفعمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجا ذلَّةَ الفتى وطولَ المنى عجزاً وحبَّ الغنى فقراً
فلا تَضَجْرَنَّ من حالةٍ مستحيلةٍ كما نَلَتْها عُسراً سَتَرَها يُسراً
وإن الفتى كالغُصْنِ مادام نابِتاً فأَوْنَةً يُكْسَى وأَوْنَةً يَعْرِى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لا إحدى راحتين فحسب ، بل عزّاً مابعده عز ،
كما يرى الرجاء وخاصة في الناس ذلاً مابعده ذل ، واتساع الأمانى عجزاً لا يشبهه عجز ، والتطلع
إلى الغنى فقراً لا يمثاله فقر . فخير للإنسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن
لا يضجر من شدة تنزل به لأنها لا بد أن تستحيل وتتحوّل ، فكل عسر معه يسر ، وما أشبه الإنسان
بغصن شجرة يعرى من الأوراق ويكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنِي بالبؤسِ دهري دائماً دون الورى فأنا بذلك أفضلُ
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كلّها لم يحترقِ منهم إلا المندلُ

فهو يتقبل البؤس راضياً ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه ما يكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه
يحرق وحده دون ما عند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد في أشعاره ذكر الحرمان وأن
الكرم لا تضره قلة المال بينما اللئيم لا يُجديه ولا ينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء
والفضلاء تعلّلات للتضييق على نفر منهم في الرزق بمثل قوله :

لا تحسب الأرزاق تُقسَّمُ باطلاً كلا لقد ساوى المهيمُنُ بينَها
فإذا رُزِقَتَ الجهلَ أدركتَ المنى وإذا حُرِمَتَ الجدَّ أُعْطِيتَ الثمى

وكان أهل الأرض في رأيه اثنان : جاهل ثرى . له كل ما يأمّل ويتمنى وكان الدنيا طوع أمره ،
وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِمَ الجدّ أو الحظ وحرم معه إكسیر الحياة من المال والثراء والنعيم .
ويقول :

غيرُ بدعٍ إذا ظَلَمْتَ بدهرٍ رُزِقَ العَمْرُ فيه حَظًّا عظيماً
فالهواءُ الصحيحُ يُدعى عليلاً واللديغُ المصابُ يُدعى سليماً

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش
الكرام ، بينما المغمورون يعيشون فى بجموحة من الثراء والنعم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح
يدعى عليلاً واللدنيغ يدعى سليماً من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين
المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إِن بَعْدَ الضَّيْقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أَهْيَى وَأَبْهَجُ
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حُلُولِهَا الرَّحْمَنُ قَرْجٌ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى
خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف
الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لداثماً مع الصابرين الذين لا يئأسون أبداً
من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها فى أشعاره - كما قدمنا - مدائح كثيرة ، وله
فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلَيِّيكُ مِنْ قَبْلِ السُّؤَالِ نَوَالُهُ وَيَأْتِيكَ دُونَ الْإِنْتِظَارِ نُضَارُهُ

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان
شاعراً محسناً مجوّداً .

٦

شعراء التشيع

مرَّبَّنَا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرِفَ فى سَلَمِيَّةَ بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القُدَّاح
حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على
تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفراداً من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع العالى
المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيه بعض الباحثين أباً تمام لمثل قوله عن قصيدة
له مخاطباً المأمون ^(١) :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدٍ

وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلي ومواقفه في عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومراثي تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مراثيه (١) :

ياعينُ لالغَصَا ولا الكُثْبِ بُكا الرِّزايا سوى بُكا الطَّرَبِ (٢)
ياعينُ في كَرْبِلا مقابرُ قد تَرَكْنَ قلبي مقابرَ الكَرْبِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةِ أهلِ المعالي والسادةِ الثُّجْبِ
كم شَرِقَتْ منهم السيوفُ وكم رُوِيَتْ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ (٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المراثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا (٤) ، فتشيعه كان تشيعا معتدلا . ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالي إلا منذ القَدَّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَلَمِيَّة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسأله عن معاوية وما روى من فضائله فأبى أن يفضلها ، فازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية - لقيت لها آذانا صاغية بحلب منذ مطلع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيما يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلّي بالإمامة بعده ، وله مراث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله (٥) :

-
- (١) الديوان (في طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٥١/١٤
(٣) شربت : غصت . سرب : سائل .
(٤) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢
(٥) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شعر النسيب

يَوْمَ الْحَسَنِ هَرَقَتْ دَمَ حَ الْأَرْضِ بِلِ دَمَعِ السَّمَاءِ
 مَنْ ذَا لِمَعْقُورِ الْجَوَا دِ مَهَالِ أَعْوَادِ الْخَبَاءِ
 مَنْ لِلطَّرِيحِ الشَّلْوِ عُرْ يَانَا غُلِّي بِالْعَرَاءِ
 مَنْ لِّلْمَحِطِّ بِالْثَّرَا ب وَلِلْمَغْسَلِ بِالدَّمَاءِ
 ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن
 الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم
 العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتاحها بقوله (١) :

الدينُ مُحْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمٌ وَفِي آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

والقيس : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فبك وكانت فيثا لرسول الله في غزوته لخير والقرى
 حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ،
 فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت ثوا
 الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعلن في
 ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أئمتهم الاثني عشر في مثل قوله (٢) :

شَافِعِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَا عِيَّ عَلِيٍّ وَالْبَنْتُ وَالسَّبْطَانِ
 وَغُلِيٍّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّاحِبُ دَقُّ ثَمِّ الْأَمِينِ ذُو التَّبْيَانِ
 وَعَلِيٍّ وَالتَّقِيُّ ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ وَالْعَسْكَرِيُّ الدَّانِي
 وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمٍ لَا يَنْدُ فَعُ إِلَّا غُفْرَانُ ذِي الْغُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الأبيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن
 والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين
 موسى الكاظم ونجل الكاظم علي الرضا وابنه محمد الملقب بالتقي والجواد ثم ابنه علي الهادي ونجله
 حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر
 حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا (٣) :

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي
 الدهان) ٣/٤٨٨
 (٢) الديوان ٣/٣٩٧
 (٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها.

وابنه العسكري والقائم المظهر حَقِّي محمد بن علي

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العامل . ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي ، ومن آثار تشيعه في شعره قوله ^(١) :

وقالوا قد تغيّرت الليالي وضُيِّعت المنازلُ والحقوقُ
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خلقًا ولاعدوانه إلا عتيقُ
أليس يُردُّ عن فلكِ عليٍّ ويملك أكثر الدنيا عتيقُ

وهو يأسي لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فلك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بحديث أبيها عليه السلام واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصديق الزاهد الذ أنفق أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخّصه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري ابن حيّوس الشاعر الدمشقي ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العباد الأصهباني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا في القرن السادس الهجري ، غير أنه - على عادته كما ذكرنا في قسم مصر - لا يُعنى بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو تحلّه ، منهم ابن قُسَيْم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العباد في حب آل البيت قوله ^(٢) :

وَبَدَّ بِآلِ مُحَمَّدٍ عَلِقَتْ مَنَى فَلَسْتُ بِغَيْرِهِمْ أَزْصَى
جَعَلَ إِلَهُهُ عَلَى حَبِّهِمْ وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ قَرَضَا
فَأَنَارَ ذَلِكَ مِنْ زَنَادِقِهِ حَسَدًا فَسَمُوا حَبِّهِمْ رَفْضَا
وَعَجِبْتُ هَلْ يَرْجُو الشَّفَاعَةَ مَنْ يَنْوِي لَآلِ مُحَمَّدٍ بَعْضَا

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ويقول عنه العماد : كان غاليا متشيعا^(١) ولم يرو شيئا من شعره الشيعي الغالي . وكان طلائع بن رزيك وزير الخليفين الفاطميين : الفائز والعاقد شيعيا إماميا ، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بني أبي جردة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة^(٢) ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الخريدة عرقلة الدمشقي حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا^(٣) :

أنا من شيعة الإمام حسين لست من سنة الإمام يزيد
وهو يريد يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو مانجد عند فتیان الشاغوري الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفاً عليه الدمع مدراراً منشدا^(٤) :

لَمْ لَا أَسْحُ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ مَقْلَتِي دَمًا يَمَازِجُ مَاءَ
يَوْمًا بِهِ قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبَا بِهِ وَبَلَاءَ
ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته الحممدية الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المفعج بمثل قوله^(٥) :

أَلْهَنِي لِلْحُسَيْنِ غَدَاةَ أَضْحَى هُنَاكَ «بِكَرْبَلَا» شِلْوَا قَتِيلَا

بدمشق (ص ٦)

(١) الخريدة ٧٦/١

(٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو: العضو من الإنسان

(٢) الخريدة ١٩٩/٢

والجمع أشلاء ، كناية عن الموت

(٣) الخريدة ٢٠١/١

(٤) ديوان فتیان الشاغوري (طبع مجمع اللغة العربية

يَمَزُقُ جِسْمَهُ دَوْسُ الْمَذَاكِي وَقَدْ أَعْلَتْ وَايَاهُ الْعَوِيلَا ^(١)
 شَكَا ظَمًا فَمَا عَظَفُوا عَلَيْهِ وَلَا أَلْوُوا وَلَا أَرَوُوا غَلِيلَا
 رَسُولُ اللَّهِ سَمَاءُ «حُسَيْنًا» وَقَبْلَ ثَغْرَةٍ زَمْنَا طَوِيلَا

ويقسم فتیان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول في حجره فقبلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتیان غالِيًا في تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله في على والحسين وآلها ^(٢) :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا يَبْغِضِي غَيْرَهُمْ كَلَّا وَمَنْ قَرَضَ الصَّلَاةَ وَوَقَّتَا
 فَهُوَ يَقْسِمُ بِرَبِّهِ فَاضِلُ الصَّلَاةِ أَنَّهُ لَمْ يَحِبَّ آلَ الْبَيْتِ مِبْغِضًا لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٌ مِثْلُ غَلَاةِ الشَّيْعَةِ ، بَلْ
 هُوَ يَحِبُّ الْجَمِيعَ وَإِنْ كَانَ حَبُّهُمْ أَزِيدَ وَأَكْثَرَ ، كَمَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ قَصِيدَتُهُ السَّالِفَةُ .
 وُلِّقْتُ فِي زَمَنِ الْمَالِكِ بِالْوُدَاعِي الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٧١٦ وَيَقُولُ صَاحِبُ الْقَوَاتِ : كَانَ شَيْعِيًا ، وَمَا
 يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ^(٣) :

سَمِعْتُ بَانَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً فَكَحَلْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي
 لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمْعِ عَلَى الَّذِي أَذَاقُوهُ دُونَ الْمَاءِ حَرَّ التَّوَاتِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذي قتلوه دون جرعة ماء يحتسبها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو في التشيع فكان ينكر ذلك منحيًا على من يتهمه بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول ^(٤) :

قُلْ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أَتْ هَمْنِي أَضَلَّ اللَّهُ قَصْدَهُ
 أَنَا رَافِضِيٌّ أَلْعَنَ الْشَّيْخَيْنِ أَبَاهُ وَجَدَّهُ ^(٥)

وواضح أنه يقول إنه رافضي تهكما على خصومه . ونظلم نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(٤) القوات ١٧٥/٢

(٥) أباه مشددة الباء لصحة الوزن

(١) المذاكي : الخيل ، ولأياه : نساء أسرته .

(٢) الديوان ص ٦٨

(٣) قوات الوفيات لابن شاکر ١٧٦/٢

لا في أيام المالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين ، ومن يُظنُّ تشيعه حينئذ درويش^(١) الطالوي المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين^(٢) بن عبد الصمد العاملي وهو أبو بهاء الدين العاملي أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كشاجم^(٣)

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندی بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السندی من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السندی بن شاهك » وربما تلقن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السندی بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاء الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسلَّك حفيده كشاجم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شيبته بلدة الرملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولى الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . وينزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

الحريري طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببغروت ، وراجع في السندی جده ترجمة موسى الكاظم في ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودي (طبعة الصاوي) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص

(١) ربحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) أنظر في كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد

٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٠/١ والمتنخل للثعالبي

ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيرواني وذيل زهر

الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشي في شرحه لمقامات

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى فالآن عدت وعادت مِصرُ لى دارا
وتُروى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقليل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل
التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورناء وشكوى وهجاء وخمريات
ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرده وله كتاب فىهما
سماء المصايد والمطارد ، وأيضاً له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعياً إمامياً إما - كما
قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه
ابن شهر آشوب * إن صحَّ مارواه - من قوله :

نَبِيٌّ شَفِيعِي وَالبَتُولُ وَحَيْدَرُ وَسَيْطَاهُ وَالسَّجَّادُ وَالبَاقِرُ المَجْدِ
يَجْعَفُ بِمُوسَى بِالرَّضَا بِمُحَمَّدٍ بِنَجْلِ الرِّضَا وَالعَسْكَرِينَ وَالمَهْدِيَّ
وَالبَتُولُ : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى
عشرية وهم اثنا عشر إماماً : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على
زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورنحُم جعفر فى قَسَمِهِ ، والترخيم فى غير المنادى
شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد
الجواد نجل الرضا ، ويليه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكرين والمهدى هو
محمد المهدي المنتظر الذى مات صبياً حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعاً كشاجم - كما
رأينا - فى بيته واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع - إن صحَّ أنه ناظم البيتين - بتشيعه
وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولها الحسين ومن قُتلوا معه من آلِه فى
كربلاء قائلاً فى مطالعها :

يَا بُؤْسَ للذَّهِرِ حِينَ آلُ رَسُو لِي اللهُ تَجَنَّتْهُمُ جَوَائِحُهُ
أَظْلَمَ فى كَرْبَلَاءَ يَوْمُهُمْ ثُمَّ تَجَلَّى وَهُمْ ذَبَائِحُهُ
لَا بَرِحَ الغَيْثُ كُلَّ شَارِقَةٍ تَهْمِي غَوَادِيهِ أَوْ رَوَائِحُهُ^(١)

وتسيل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والغواذى

والزوائج : السحب المطيرة صباحاً ومساءً . تهنى : تصب

على تَبَرَّى حَلَّةُ ابْنُ بنتِ رسولِ اللهِ مجروحةٌ جَوَارِحُهُ
وسيقَ نِسْوَانُهُ طلائعَ أحْ زانٍ تهادى بهم طلائعُهُ

والقصيدة تفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوله الغيث أن يظل يهيم كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبه نساء آل البيت منهكات مُعْيِيَات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى هزمية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدير خم ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَتَرَ القَوْمَ فى بَدْرِهِمْ لَقَدْ ثَارَ القَوْمُ فى كَرْبَلَاءِ
بِهَا هَتِكْتُ حُرْمُ المصطفى وَحَلَّ بَيْنَ عَظِيمِ البلاءِ
وساقوا رِجَالَهُمْ كَالعبيدِ وحازوا نساءَهُمْ كَالإماءِ
ولو كان جَدُّهُمْ شَاهِدًا لَشَبِعَ أَطْعَامُ بالبكاءِ

والآيات بالغة التأثير فى وصفها هول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلمّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلاما سريعا ، وكأنما أراد أن يفرد لها لعل سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شَبِهَ بِهِدَاهُ جَلَا وَكم خَطَّةٌ بِحِجَاهُ فَصَلْ
وكم أَطْفَأَ اللَّهُ نَارَ الضَّلَالِ بِهِ وَهَى تَرْمَى الْهَدَى بِالشُّعْلِ

وكم ردّ خالقنا شمسهُ عليه وقد جَنَحْتُ للطفلِ
وكم ضربَ الناسَ بالمرهفاتِ على الدّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الإبلِ

وحقا كان على ملها في معرفة الحكم الفاصل في أى مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرفهة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُردّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغة ، على في غنى عنها ، بل هي بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه في القصيدة من تفضيل على درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى في بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبيّ حتى يؤمّه رجل من قومه » . وكل ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولا يلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير خجل ولا مستح - أبا بكر وعمر ، لأنها منعا السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول وما آل إليه في غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه .

ابن حيّوس^(١)

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من الثراء مما جعله يشيّد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضى غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأحواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفي مقدمتهم خاله ابن الجندى الغساني ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي المسمى أنوشتكين الدزبري ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره في مجلدين
(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤

وزبدة الحلب (نشر د. سامي الدهان) ٤٠/٢ والوافي

١١٨/٣ وعبر الذهبي ٢٧٩/٣ وشنرات الذهب ٣٤٣/٣

فانعدت صلة وثيقة بينها وأخذ كل منها يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمعلقة واحدة .

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناهما يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبني عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شيزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرדاسي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأساً من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحهم فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياهم عليه . وخلفه ابنه نصر ، فضى يحزل للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحهم فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطائه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذي نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الدَّم

وأجازه بألْف دينار ، وفي نفس السنة توفي ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولَّى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوٍّ بمصرٍ جادني زمنًا فداء نَوٍّ سقاني الرُّى في حَلَبٍ

وشاء له القدر أن يهدر مسئولته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نعما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بجلب ، وكان قد كتب على بابها :

دَارُ بَنَيْنَاهَا وَعَشْنَاهَا فِي نِعْمَةٍ مِنْ آلِ مُرْدَاسٍ
قُلْ لِبَنِي الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا فَلْيَصْنَعْ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ

ولم ينفعهم ما صنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيْلِي دولتهم استأذنه في إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القдах اتخذت سلمية بالقرب من حمة مركزها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبري الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قُبَس ابن حَيُّوس في مدحه للدَّزِيرِي سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أَمْتُ خَلَاقَتَهُ رِيحُ النَّدَى يَسْرًا وظل نَشَرُ الدُّنَا مِنْ نَشْرِهَا عَطِرًا ^(١)
وَحُصَّ بِالشَّرَفِ الْمُحَضُّ الَّذِي ارْتَفَعَتْ له النواظرُ والنورُ الَّذِي بَهَّرَا
هُمُّ الْأَلَى أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ لَهُمْ والناسُ ذَرٌّ عَلَى مَنْ بَرٌّ أَوْفَجَرًا ^(٢)
لَأَجْلِهِمْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهَا وَذَنَبُ آدَمَ لَوْلَاهُمْ لَمَّا غُفِرَا
وإن آلاءَهُ مالا يحيط بها وَصَفَتْ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَنْطِقُ الْحَجَرَا
مَنَاقِبُ عَدَدَ الْأَنْفَاسِ مَا تَرَكْتُ لِفَاخِرٍ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَفْتَحَرَا

(٢) الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلي من الطيفة والطيب ، الدنيا : جمع دنيا .
النافذة .

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النورى المتنقل في الأئمة - بزعم الإسماعيليين - حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود ، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم . ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العلى . ويكثر ابن حيّوس من ذكر إمام العصر وغيث المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض ، يقول للذيرى في إحدى قصائده :

يَاسَيْفَ مَنْ عِصْيَانُهُ وَوَلَاؤُهُ جَعَلَا شَقِيًّا فِي الْوَرَى وَسَعِيدَا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه . ونراه في مديح الوزير اليازورى يحرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى في سنتى ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمى ، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله :

عَجِبْتُ لِمَدْعَى الْآفَاقِ مُلْكًا وَغَايَتُهُ بِبَغْدَادَ الرُّكُودُ
وَمِنْ مُسْتَحْلَفٍ بِالْهَوْنِ رَاضٍ يُنَادُ عَنِ الْخِيَاضِ وَلَا يَدُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد ، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شيء مع الملك السلجوقى طغرل بك . وما يزال يدور في الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

وَلَكِ الْأَدَلَّةُ أَوْضَحَتْ حَتَّى رَأَى إِبْثَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّعْطِيلَا
غُرُّوا بِأَنْ شَرَّقَتْ عَنْهُمْ مَذْهَبًا فِي الرَّأْيِ مَا عَرَفُوا لَهُ تَأْوِيلَا

وهو في البيتين يعرض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة ، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل في القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم ، وكأنه يريد أن يعلن تبرؤه منهم وأنهم ضالون مضلون . وأشعار ابن حيّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجرالة والنصاعة ، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط .

بهاء الدين ^(١) العالمى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العالمى ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامى الشيعى ينتقل فى بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة فى أفغانستان . واستقر به المقام فى « البحرين » حيث توفى بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين فى بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحُبِّبَ إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور فى مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه فى الحديث النبوى والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المحلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته فى البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره فى أصفهان ، وقَرَّبَه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية فى أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفى أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البورينى فى دمشق . وقد هيأت إمامية أبيه ونشأته فى إيران مركز المذهب الإمامى إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتبًا فى الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير وفى الأصول وفى الفقه وفى العربية وفى الفلك ، وكان شاعرا مبدا .

ويقول الشهاب الحفاجى : « شعره باللسانين العربى والفارسى مهذب محرر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الحفاجى فى الرحانة وابن معصوم فى سلافة العصر والحجى فى نفحة الرحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو فى شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامى غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام ^(٢) الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

(١) انظر فى بهاء الدين العالمى وشعره سلافة العصر لابن

معصوم ص ٢٨٩ ورحانة لأبى الحفاجى ٢٠٧/١ ونفحة

الرحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي)

١٧٦/١ ، ١٩٧ وفى مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣

وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع فى إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية

العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيير (طبع القاهرة)

ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفضح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصروف لشئون الكون والعباد ، ولهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أوقائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ على ساكن القبراء من كل ديار^(١)
هو العروة الوثقى الذي منْ بذيله تمسك لا يخشى عظامَ أوزارِ
علومُ الورى في جنب أبحر علمه كغرفة كف أو كغصنة منقار
به العالمُ السفلى يسمو ويعلى على العالم العلوى من غير إنكار
همام لو السبع الطباق تطابقت على نقض ما يقضيه من حكمه الجارى
لنكس من أبراجها كل شامخ وسكن من أفلاكها كل دوار
أياحجة الله الذي ليس جارياً بغير الذي يرضاه سابق أقدار
ويامن مقاليد الزمان بكفه وناهيك من مجد به خصه البارى

وبهاء الدين يجعل محمداً المهدي الغائب في رأى الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذاً من الآية الكريمة : (ومنْ يُسلم وجهه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ في سعة علمه اللدنى بالقياس إلى علم الناس الذى لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شرف به وفضل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض ما يبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا نغصاه أبدأو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لا يزال حياً يصرف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شئ يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . القبراء : الأرض .

في رأى الشيعة - ضد على وحقه في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه في مثل قوله :

يا أيها المدعى حبّ الوصيّ ولم يَسْمَحْ بسبّ أبي بكرٍ ولا عمراً
كذبتَ والله في دعوى حجّته تَبَيَّنَ يداك سَتَّضِلِي في غَدٍ سَقَرًا
فإن تكن صادقاً فيما نطقْتَ به فائبراً إلى الله ممن خان أو غدرا
وأنكرَ النصَّ في خُمٍّ وَيَعْتَهُ وقال إن رسول الله قد هجرا
أَتَيْتَ تبغى قيامَ العذر في فَذَلِكَ أتحسب الأمرَ بالتصويه مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلَّى نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه - ويعلل لما قاله بأنها أنكرا نصّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلّ بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فَذَلِكَ قَبِيْرُ رسول الله ، وإنما منعها بوصية الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . ومامن ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بهاء الدين العامل كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالمح فيه من رفع إمامه الحق عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثّر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماء فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلّل عليه وتمتنع وقد تتأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وعبثاً يتدلّل لها ويستعطف ويتضرّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبداً ، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قد يما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرآ آرامها ، إذ هجر حيّتها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منظوياً على نفسه حالماً بليلي وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلاً عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المفرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعري ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا . ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامي من شعراء العصر العباسي الأول هو ديك الجن الحمصي ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وهتانا ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « علوة الحلبيّة » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربي - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجري . على أن بين الشعراء من لم يقتصر في غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقي الذي أضاف إليه الإسلام بمثلثه عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه في هذا الكلف عذابا متصلا . وفي الغزل بجانب ذلك الغزل الحسي الذي يصور جمال المرأة ومفاتها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمع الغواطف . وظل هذان النوعان : الملائكي الطاهر والمادى الصريح يتقابلان في الغزل العربي طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم في صاحبة له (١) :

السَّحَرُ في أَلْخَاظِهَا الْفَاتِكَةَ	وَالرُّوحُ من إِعْرَاضِهَا هَالِكَةَ
وَالْقَهْوَةُ الصُّهْبَاءُ من رِيْقِهَا	وَالْمَسْكُ من أَصْدَاغِهَا الْخَالِكَةَ
مَنْ لم يرِ الدَّرَّ وَتَأْلِيفَهُ	فِي سَيْلِكَهَ فْلَيْرَهَا ضَاكِهَ
قَدْ كَتَبَ الْحَسَنُ عَلَى خَدِّهَا	طُلَّ دَمٌ أَنْتِ لَه سَافِكَه

والآيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت)

محفوظة ، فريق صاحبه خمر والشعر على أصداعها مسك وأسانها درّ ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهي مبالغة في الخيال والتصور . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سَكَرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ وَمَالَ بِالنُّومِ عَنْ عَيْنِي ثَمَائِلُهُ
وَمَا السَّلَافُ دَهْنِي بَلْ سَوَالْفُهُ وَلَا الشُّمُولُ ازْدَهْنِي بَلْ شَمَائِلُهُ
أَلْوَى بِلَيْمَى أَصْدَاغُ لُؤَيْنَ لَهُ وَغَالِ قَلْبِي مَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبه وعينها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هي التي دهنته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمر أو الشمول هي التي استخفته بل خصاها الحلوة وما أروع أصداع شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديدهاته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولابن سنان الخفاجي (٣) :

أَتَرَى طَيْفَكُمْ لَمَّا سَرَى أَخَذَ النَّوْمَ وَأَعْطَى السَّهْرَا
أَمْ ذُهِلْنَا وَتَمَادَى لَيْلُنَا فَتَوَهَّنَا الْعِشَاءَ السَّحْرَا
يَا عَيُونًا بِالْحَمَى رَاقِدَةً حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُنَّ الْكَرَى
سَلْ فِرْعَوْنَ الْبَانَ عَنْ قَلْبِي فَقَدْ وَهَمَ الْبَارِقُ فِيمَا ذَكَرَا

وليس في الأبيات لفظة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبه أو ضواحيه - في البيت الثالث - أن لا يذق النوم دعاء ناب على ذوق الحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢

كثيرة يقدم بها لمدامحه نحس فيها لوعة الحب وحرقة قواده من مثل قوله (١) :

خُذَا مِنْ صَبَا نَجِدْ أَمَانًا لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبِهِ
تَذَكَّرْ وَالذِّكْرَى تَشَوْقُ وَذُو الْهَوَى يَتَوْقُ وَمَنْ يَعْلَقُ بِهِ الْحُبُّ يُضْبِئِهِ
غَرَامٌ عَلَى يَأْسِ الْهَوَى وَرَجَائِهِ وَشَوْقٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ وَقُرْبِهِ
إِذَا خَطَرْتُ مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ نَفْحَةً تَضْمَنْ مِنْهَا دَاءَهُ دُونَ صَحْبِهِ
أَغَارُ إِذَا آتَيْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّهُ حَذَارًا وَخَوْفًا أَنْ تَكُونَ لَحْبَهُ

فحب صاحبتة النجدية استأثر بقلبه حتى يطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتضيبه ، ويأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ في وصف غيره عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أنة يسمعها في الحى من حب لها محموم بحبها ودائه العضال . ولعاصره القزى المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة (٢) :

إِشَارَةٌ مِنْكَ تَغْنِي وَأَحْسَنُ مَا رُدَّ السَّلَامُ غَدَاةَ الْبَيْنِ بِالْعَمِّ (٣)
حَتَّى إِذَا طَاحَ عَنْهَا الْمِرْطُ مِنْ كَهَشٍ وَانْحَلَّ بِالضَّمِّ سَلَكُ الْعَقْدِ فِي الظُّلَمِ (٤)
تَبَسَّمْتُ فَأَضَاءَ اللَّيْلُ فَالْتَقَطْتُ حَبَاتِ مُتَتَبِّرٍ فِي ضَوْءِ مُنْتَظِمٍ

وهو تكفيه الإيماء من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها المِرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البراق الفاتن . ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له ، وكان في الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريًا ، خلبت له ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله (٥) :

(٤) المِرط : كساء من حرير أو صوف تلتف به المرأة

(٥) الخزيفة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخطيب ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية

عفائفُ إلا عن مُعاقرة الهوى ضعائفُ إلا في مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبي حنانيك سِرٌّ بي عن ملاحظة السَّرْبِ
تَقْضَى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهجرة فحتامَ لا يصحو فؤادى من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوَى له البدرُ ساجداً ألسْتُ ترى فى وجهه أثرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر التراب العالق بجبهته لتوالى
سجوده لصاحبه ولجلالها الساحر . ويقول إن زمانه تَقْضَى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة
المتصلة . ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله ^(١) :

ألا هل لماضى العيشِ عندك مرجعٌ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعٌ
لقد أولعتُ بالصدِّ عنى وإننى لفرقتها ، ما عشتُ ، بالوجد مولعٌ
أضاحكُ حُسادى فيغلبنى البكا وأكتمُ عَوادى وإنى لموجعٌ
إذا خطرْتُ من ذكرها لى خطرةً تكاد لها أنياطُ قلبى تقطعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال جبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه
والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدا ملتناعا . ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم
زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط قواده وعلائقه تنقطع
تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العباد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النصار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة
٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا ^(٢) :

مَنْ منصنى من ظالمٍ متعنّتٍ يزداد ظلما كلما حكمتُهُ
مُلْكته روحى ليحفظ مُلْكته فأضاعنى وأضاع ما مِلْكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد مَلِكها روحه لتحفظها
وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح ، فما أشقاه ؛
ويقول فتيان الشاغورى متغزلا ^(٣) .

ومفهفٍ بلغَ المنى بصفاته حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

والشمسُ تَحْجَلُ من ضياءِ جَبِينِهِ والجَلَنَارُ يَغَارُ من وَجَنَاتِهِ
أُضْحَى الجَمَالُ بِأَسْرِهِ في أَسْرِهِ فَكَأَن يوسُفَ حَازَ بَعْضَ صِفَاتِهِ
لَا تَقْطَعَنَّ يَا عَاذِلِي في سَلَوِي عَنْهُ فَمَا أَسْلَوْهُ ، لَا وَحْيَاتِهِ

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذي يمد ملاحه حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشرية بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكان يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبته أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وَتَنَبَّهْتُ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسَحَرَةٍ بِالوَادِيَيْنِ فَنَبَّهْتُ أَشْوَاقَ
وَرَقَاءَ قَدْ أَخَذَتْ فَنُونَ الْحَزَنِ عَنْ يَعْقُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقَ (٢)
أَنِّي تُبَارِئُنِي جَوَى وَصْبَابَةٍ وَكَأَبَةٍ وَأُسَى وَفَيْضَ مَائِي
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْجَوَى مِنْ خَاطِرِي وَهِيَ الَّتِي تُحْمِلِي مِنَ الْأَوْرَاقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملئ من خاطره حُرْقته ولوعته ، بينما هي تملئ من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد . ويقول المَحَارُّ الحلبي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

مَا بَثَّ شَكْوَاهُ لَوْلَا مَسَّهُ الْأَلَمُ وَلَا تَأَوَّهُ لَوْلَا شَفَهُ السَّقَمُ
وَلَا تَوَهَّمُ أَنْ الدَّمْعَ مُهْجَتَهُ أَذَابَهَا الشَّوْقُ حَتَّى سَالَ وَهُوَ دَمٌ
يُبْدِي التَّجَلُّدَ وَالْأَجْفَانُ تَفْضَحُهُ كَالْبَرْقِ تَبْكِي الْغَوَادِي وَهُوَ يَبْتَسِمُ
يَمْسِي وَيَصْبَحُ لَا صَبِيرٌ وَلَا جَلْدٌ وَلَا قَرَارٌ وَلَا طَيْفٌ وَلَا حُلْمٌ

والمحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

(١) الخزائن ص ٣٢٦

إسحاق الموصلي أشهر المغنين الملحنين في العصر العباسي

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

(٢) يعقوب هو النبي يعقوب وبكاهه على ابنة يوسف

حتى أبيضت عيناه من الحزن معروف . وإسحاق هو

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دماً قانياً . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد
وتملكه قلق لا حد له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال
مسهداً لا ينام .

ونخصي إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول
فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة^(١) :

طرقتُ طروقَ الطيفِ وَهَنًا مَبِالَةً الْأَعْطَافِ حُسْنًا
مَضْمُولَةً الْجَدَّيْنِ مَدَّ لَ السَّيْفِ الْحَاطِأَ وَمَتْنًا
فِي حُلَّةٍ مِنْ جِنْسٍ مَا يَكْسُو الرَّبِيعُ الْغُصْنَ دَكْنًا
الدَّلُّ يَنْبِتُ مِنْ مَسَا حَبِ ذَيْلِهَا وَالْحُسْنُ يُجَنِّي
لَوْ خَاطَبْتُ وَنَسَاءَ لَحْ نَّ مَعَ الْجُمُودِ هَا وَأَنَا

وليس في القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلها وحسنها ، ويقول : لو خاطبت
وثنا من الأحجار لحن لها وأن أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب
والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل^(٢) :

مَنْ عَذِيرِي فِي حَبِّ طِفْلِ لَعُوبٍ عَوْدُهُ سَفَكَ الدِّمَاءَ فَحَلَا لَهُ
كَلِمًا صَدَّ عَنْ سِوَايَ دَلَالًا صَدَّ عَنِّي تَبَرُّمًا وَمَلَا لَهُ
لَسْتُ أَنْسَى يَوْمَ الْفِرَاقِ وَقَدْ أَذْ رَكَّ مِنْ شَمَلْنَا التَّوَى آمَالَهُ
غَضَبَ الْبَيْنِ مِنْ يَدَي كُلِّ قَدْ سَرَقَ الْغُصْنَ لَيْتَهُ وَاعْتَدَالَهُ
مَرَّ نَشْوَانٍ مِنْ جَوَى يَتَنَّى ثَقُلَ الْوَرْدُ غُصْنُهُ فَأَمَالَهُ

والقطعة ترخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عودوا صاحبته
الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلاها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينة
واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبته تشنى للقل
الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الغزليين .

عبد^(١) المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبي : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيّوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة معرّى بشعره ، وكان يفضلّه على أبي تمام والبحترى والمنتبي . ويروى أنه مرّ في طريقه إلى حلب بشاعر المعرّة بل الشام بل العالم العربي لزمه : أبي العلاء ، وجرى بينهما حديث في الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصوري بقصر أشعاره وأنه لا ينظم في الغالب إلا مقطّعات فقال له ابن حيّوس : هو أشعر من طويلك يقصد المنتبي ، فدّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلاً : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارن بالمنتبي . وكان أبو العلاء معجباً بالمنتبي إعجاباً شديداً حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصوري لا يدفع أنه مجيد في قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب في فنه من أبي تمام في دقائق تصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسي يعجب بأشعاره حتى ليقرّنه في مقدمة ديوانه بالشريف الرضي ومهيار قائلاً : إنه تملّكته في شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا في ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصوري ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعاً يتغزل غزلاً رقيقاً ممتزجاً بالطبيعة وجمالها الهاجع في الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن في غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجاً فيه كثير من الطرافة في التصوير كقوله :

بِالَّذِي	أَلْهَمَ	تَعَذَّبَ	جِي	ثَنَايَاكَ	الْعَذَابَا
وَالَّذِي	أَلْبَسَ	خَدَّيْ	لِكَ	مِنَ	الْوَرْدِ نِقَابَا
وَالَّذِي	صَيَّرَ	حَقْلِي	مِنْكَ	هَجْرَا	وَاجْتِنَابَا
يَا غَزَالَا	صَادَ	بِاللُّحْ	ظِ	فَوَادَى	فَأَصَابَا
مَا	الَّذِي	قَالَته	عَيْنَا	لِكَ	لِقَلْبِي فَأَجَابَا

٢٣٢/٣ وعبر الذهبي ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤
ومرأة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

(١) انظر في ترجمة عبد المحسن الصوري وأشعاره
البيّمة ٢٩٦/١ وتتمّة البيّمة ص ٣٥ وابن خلكان

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثغر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتها وردا تنتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب قليله طائفة مستجيبة .
وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانباً ثانياً في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدمانة والنعومة على نحو ما نجد في قوله :

أُتْرَى بَثْرٍ أَمْ بِدَيْنٍ	عَلَقْتُ مُحَاسِنُهَا بِعَيْنِي
فِي لَحْظِهَا وَقَوَامِهَا	مَا فِي الْمَهْدِ وَالرُّدْنِي
وَبَوَجْهِهَا مَاءُ الشَّبَا	بِ خَلِيطِ نَارِ الْوَجْتَيْنِ
بَكَرْتُ عَلَى وَقَالَتِ اخْدِ	تَرَّ خَصْلَةً مِنْ خَصْلَتَيْنِ
إِمَّا الصَّدُودُ أَوِ الْفَرَا	قُ فليس عندي غيرُ ذَيْنِ
فَأَجَبْتُهَا وَمَدَامَعِي	مِنْهُلَّةٌ كَالْمِرْزَمَيْنِ ^(١)
لَا تَفْعَلِي إِنْ حَانَ صَدِّ	لُذْكَ أَوْفَرَاكَ حَانَ حَيْنِي
وَكأَنَّمَا قَلْتُ اذْهَبِي	فَفَضْتُ مَسَارِعَةَ لَبْنِي

والآيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختياراً دقيقاً ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطعة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بجلاوتها وعذوبتها في الآذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صُدُغٍ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجنتها وقد توقف مائلاً منحنيا :

جَنَى مَا جَنَى وَأَنْصَرَفَ	وَأَنْكَرَ ثُمَّ اعْتَرَفَ
سَلُوا صُدْغَهُ لِمَ جَرَى	وَلَمَّا جَرَى لِمَ وَقَفَ
وَكأنَ عَلَى أَنَّهُ	يَجُوزُ الْمَدَى فَانْعَطَفَ

وهو تصوير يديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجاله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبيهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقته سكرانَ منْ خمرة الصُّبا به غفلةٌ عنْ لوعتي ولهيبي
وشاركني في حبه كلُّ أغيدٍ يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تُلزِموني غيرةً ما عرفتْها فإنَّ حبيبي مَنْ أحبُّ حبيبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمتقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور .

ابن (١) منير

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغني في أسواقها ، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصماني كان شيعيا غالبا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ) . وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان في أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها . وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حيثن بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه في غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام ، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨ .

والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام)

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢

وتناول ابن منير في شعره أغراضاً مختلفة في مقدمتها المديح ، ومربناً - في غير هذا الموضع - حديث عن مديحه لعاد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب ، ويشيد العاد الأصبهاني بشعره وروعه . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نيل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير . وكان يحيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعاً منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجود متقد لا تحمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكَبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرُّدَيْنِيِّ	وموه السحرَ في حدِّ اليمانيِّ
وأنزل النِّيرَ الأعلى إلى فلكِ	مداره في الكساء الخسروانيِّ
طَرَفُ رَنَا أَمْ قِرَابُ سُلِّ صَارُمُهُ	وأغيد ماسَ أم أعطافُ خَطِيٍّ
أذُنِّي بعد عَزٍّ والهوى أبداً	يستعبد اللَّيْثَ لِلظُّبِيِّ الْكِنَاسِيِّ ^(١)
أما وذائب مسكٍ من ذوائبه	على أعلى القصب الخيزرانيِّ
وما يُجَنُّ عَقِيْقُ الشَّفَاهِ مِنَ الْ	رَيْقِ الرَّحِيقِيِّ وَالثُّغْرِ الْجُمَانِيِّ
أَرَبَى عَلَى بَشَى مِنْ محاسنه	تألَّفَتْ بين مسموعٍ ومَرُئِيٍّ

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح رديني مهيبٍ لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموهاً في حد السيف اليماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلِّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يشئ أو بإزاء أعطاف رمح خَطِيٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفانك للظبي الوادع الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذائب الشعر على أعلى هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فورهاها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضاً طريفاً . ويقول :

أَتَرَى يَثْبِيهِ عَنْ قُسُوتهِ خَذَّه الذائب من رِقَّتِهِ

(١) الكيناس : مأوى للظبي في الشجر يستتر به

أَفَاسْتَنجَدَهُ وَهُوَ الَّذِي لَوْنُ الدَّمْعِ عَلَى صِنْعَتِهِ
 وَهَذَا قَوْسُهُ مُوتَرَةٌ تَسْتَمِدُّ النَّبْلَ مِنْ مُقْلَتِهِ
 قُرٌّ لَا فَخْرَ لِلْبَدْرِ سِوَى أَنَّهُ صَيِّغٌ عَلَى صَوْرَتِهِ
 صُدْعُهُ كَرَمَةٌ خَمِرٍ قُسِمَتْ بَيْنَ خَدَيْهِ إِلَى نَكْهَتِهِ
 أَنْحَالُ الْحَالِ يعلو خَدَّهُ نَقْطَ مَسْكِ ذَابٍ مِنْ طَرَّتِهِ
 ذَاكَ قَلْبِي سَلَبْتُ حَبَّتَهُ وَاسْتَوَتْ خَالَا عَلَى وَجَّتِهِ

والقطعة تموج بالصور ، فخذُ صاحبته يدوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل في مقلتها يستمدّه . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صندغيها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمة خمر قسمت بينها واستحالت رضايا في ثغرها يرشفه الحب . ويقول : لا تظن الحال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها ، بل هو حبة قواده سلبتها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وَتَوَقَّدَتْ فِي الرُّوضِ مِنْ وَجَنَاتِهِ نَارُ الْحَيَاءِ يَشْبُهَا مَاءُ الصَّبَا^(١)
 وقوله :

وَكَمْ لَهُ فِي كَبْدِي لَسَعَةٌ بَرُّودَهَا الدَّرِّيَاقُ مِنْ فِيهِ^(٢)
 وقوله :

سَلَّمْتُ فَازَوْرًا يَزِي قَوْسَ حَاجِبِهِ كَأَنِّي كَأْسُ خَمِرٍ وَهُوَ مَخْمُورُ
 وقوله :

قُرٌّ مَا طَلَعَتْ طَلَعَتْهُ إِلَّا سَجَدَ الْبَدْرُ لَهَا

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه « تتر » أنشدها الحموي في خزائنه تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(١) يشبها : يوقدها .

(٢) برودها : شربها. الدرياق : الترياق الشافي

الشاب^(١) الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » وولّد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أوفى المنتزهات ، غير أنه لم يعيش طويلاً ، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي ، وكأنما تمثل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوى حار ، وبثّ منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاعر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سرى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقّ شعره فكاذ أن يُشرب ، ودقّ فلا غرو للقبْص (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيقي الألفاظ ، سهل على الحفظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلوه المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر » .

ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاعر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ

وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الطريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تَخْفِ ما فعلتْ بكِ الأَشواقُ واشْرَحْ هَواكَ فكلَّنا عُشاقُ
فَعسى يُعِينُكَ من شَكوتِ لَه الهَوَى في حَمَلِهِ فالعاشِقون رفاقُ
لا تَجْزَعَنَّ فلستِ أَوَّلَ مُعْرَمٍ فتَكْتَنِ بِهِ الوِجَناتُ والأُحْداقُ
واصْبِرْ على هَجْرِ الحبيبِ فرما عاد الوِصالُ وللهوى أخلاقُ
يا رَبُّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أَحْبَبَهُم عَنِ وَقْدِ أَلْفِ الْفِرَاقِ فِرَاقُ

والآيات تسيل رقة وعذوبة ، وهي تلتصق بالنفس لالما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الطريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدده ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أَعَزُّ الله أنصار العيون وخَلَدَ مَلِكَ هاتيكِ الجُفونِ
وضاعَفَ بالفتور لها اقتدارًا وإنْ تَكَ أضعَفْتُ عَقْلِي ودينِي
وأَبْقَى دولةَ الأعطافِ فينا وإنْ جَارَتْ على قَلْبِي الطَّعِنِ
وأَسْبَغَ ظِلَّ ذاكِ الشَّعْرِ مِنْهُ على قَدِّ بِهِ هَيِّفُ الغُصونِ

وهو دعاء لصاحبته مليء بالظرف والرقة والدمائة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُهُ وقَرِيبُهُ ولك الجمالُ بَدِيعُهُ وغَرِيبُهُ
يا من أَعِيدُ جِمالُهُ بِجِلالِهِ حذرًا عليه من العيون تُصِيبُهُ
إن لم تكن عيني فإِنَّكَ نورُها أو لم تكن قلبي فَأَنْتَ حَبِيبُهُ
هل حرمةٌ أَوْ رَحمةٌ لَمُتِّمٍ قد قَلَّ مِنْكَ نَصِيرُهُ وَنَصِيبُهُ
لم يبق لى سِرٌّ أَقولُ تَذِيعُهُ عني ولا قَلْبُ أَقولُ تُذِيبُهُ
والتَّجَمُّ أَقْرَبُ مِنْ لِقَاكَ مَنَالُهُ عِنْدِي وَأَبْعَدُ مِنْ رِضاكَ مَغِيبُهُ

والآيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيد جالها بجلالها حذرا من عيون الجاسدين . وهى نور عينه وَحَبَّةُ قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أَوْ حَرَمَةَ الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبا ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبا حتى ذاب التياغا لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَتَنَّى قِوامِكَ المَشْوقِ وبأنوارِ وَجْهِكَ المَعْشُوقِ
جُدْ بِوَصْلِ أَوْزُورَةٍ أَوْ بوعْدِ أَوْ كَلامِ أَوْ وَقْفَةٍ فى الطَّرِيقِ
أَوْ بِرِسالِكَ السَّلامِ مع الرُّ يح وإلا فَبِالْخَيالِ الطَّرُوقِ

وتدل تمكياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدمائه والظرف والتدله فى الحب واتقاد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن^(١) البوريني

هو حسن بن محمد البوريني ، ولد بالأردن فى قرية صَفُورِيَّة لِسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انظر فى حسن البوريني وشعره رِحانة الألبا ٤٢/١

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج الشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبثا حُفظة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنيًا شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحي في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبرلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الحفاجي : « دياجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارذ التي يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكنى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائما الفراق والحрман ، فايكاد يهنا بالحب لحظة حتى ينزع له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبه بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدعاء مؤثّر فقلت نعم لو كان ليلى له صُبْحُ
وياعجبًا متى أروم لقاءه وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمحُ
ولإنسان عني كيف ينجو وقد غدا يطول له في لُجٍّ مدمعه سَحُ
وليس عجيبًا أن دمعى أحمر وفي مهجتي قرَحٌ وفي مقلتي رَشَحُ

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها المشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه ، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن في مهجته جرحا لا يبرأ وفي مقلته رشحًا لا يبرأ . ويقول :

وكنا كعُصْنِي بانه قد تألّفا على دَوْحَةٍ حتى استظلا وأبنا
يغنيها صَدْحُ الحمام مُرَجَّعا ويسقيها كأسُ السحاب مُترعا
سليمين من خَطْبُ الزمان إذا سَطَا خَلِيَيْنِ من قول الحسود إذا سَعَى

ففارقني من غير ذنبٍ جَنِيتهُ وأبقى بقلبي حُرقةً وتوجعاً
عفا الله عنه ما جناه فإنني حفظتُ له العهدَ القديمَ وصيّعاً

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معاً وتناولوا الحياة تناولاً واحداً ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كنوس السحاب منتشين هائثين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبه جنايته ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرةً له بل حافظاً أميناً . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أو اهلاً وها هي من بعد الفراق طُلُوبُ
ويا ظبى هل بعد التفار تأنسُ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامتزلُّ الأحبابُ أين ترحلوا وهم في فؤادي - ما حييتُ - نزولُ
يميلون عني للوشاة وإنني إليهم وإن طال الصدود أميلُ
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإن جَنَوْا وليس إلى نقضِ العهود سبيلُ

وقد فارقتُه صاحبه وأصبحتُ منازل قلبه طولاً دارسة ، وإنه ليتساءل متحسراً هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الجيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قرياً أو كما يسميه ابن ورقاء أى حمامة رمادية اللون قائلاً :

وما هاجني إلا ابنُ ورقاء سَحَرَةً له فوقَ أفنانِ الرياضي هَدِيلُ
يُرَدِّدُ في صُحفِ الرياضِ قصائدًا من الشوق يُملِّها لنا وَيَمِيلُ
يَحِيلُ أن البَيْنَ آذَى فؤادهُ وكيف ولما يَنَّا عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يَبْنَ عليه لبَّيْنِ رَقَّةً ونحولُ
أما والهوى لو ذقتُ ما ذقتُ في الهوى لما ازدان بالأطواق منك تَلِيلُ

ألا إنه ما فارقَ الألفَ دَهْرُهُ ومالَى إلى وَصْلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قرى يتغنى سحرا بأشواق ما ينى يرددها في صحف الرياض ويمليها مخيلاً كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق ، فحييته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضنى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارحه ما ازدان تليله أو عنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوماً بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيما قلنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائماً مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران . وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحجاسة الحربية غلب عليها قديماً ، حتى سمي أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحجاسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزعمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر السنين - بينهم وبين الأمم وقوداً مستمراً للفخر والهجاء ، فلم تحمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفي بذكر شاعرين كبيرين قريين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحَق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربي كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لييان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فتجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له وبهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منلذين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبق ولا تذر . ويحانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالدين والسري الرفاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، وسنخصصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول ^(١) :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلٌ	عفاً وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
تعدُّ ذنوبي عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لي إلا العلاء والفضائل
وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملٌ
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لأت بما لم تستطعه الأوائل
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي	على أنني بين الساكين نازلٌ
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً	تجاهلت حتى ظن أني جاهلٌ
وواعجباً كم يدعى الفضل ناقصٌ	ووأسفاً كم يظهر النقص فاضلٌ
ينافس يومي في أمسي تشرفاً	وتحسد أسحاري على الأصائل

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليداً ومحاكاةً لسابقيه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب رداً على بعض شائتيه وخصومه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب العربي ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلي ، وهو يقول : من أين يلحقني الذم وأنا أنفض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية)

والإقدام الجريء والحزم النافذ والنائل أوالجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوباً وعبوباً ، ولن تعد المحاسن كذلك أبداً . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفائه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أقى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلا لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنًا . ولما رأى الجهل فاشياً تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلا فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلا ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفخر بقومه وبلاتهم فى حرب الثغور ضد الروم ^(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مُلِمَّةٌ بَسَطُوا رِمَاحًا دونها وسَوَّاعدا
وأولو الثَّقَى فإذا مررت عليهمُ لم تلقِ إلا مَكْرَمًا ومجاهدا
إن حاربوا ملثوا البلادَ مَصَارِعًا أو سالموا عَمَرُوا الديارَ مساجدا
بيتٌ له النسبُ الجلىّ وغيره دعوى تريد أدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر بياس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملثوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرّد له ترجمة - ولابن الساعاتى المار ذكره ^(٢) :

وإنى لآبى الضَّيْمِ من كل صاحبٍ وأكره قلبي أن يكون له خَدَنًا
وإن بلدٌ لم أعُدْ فيه مَكْرَمًا نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنَا ^(٣)
وما شانَ فَضْلِي بين أهلى خموله وقد بلغتْ غاياته الإنسانَ والجنّا
فإنى كعود الهندِ هينَ بِدَوَجِهِ وقد عبّقتْ أنفاسُهُ السَّهْلَ والحَزَنّا

(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢١٤/٢

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فثله مثل عود الهند لا يُعرف فضله في دَوْحته ، بينا رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتر بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره^(١) :

يَقْدُمْنِي عَزْمِي وَحَطَّيْ مُؤَخَّرِي وَيُوصِلْنِي حَزْمِي وَدَهْرِي يَقْطَعُ
وَهْمِي مِنَ الدُّنْيَا الْمَعَالَى وَيُنِيلُهَا وَمَا هُمُّ قَلْبِي الرَّقْمَتَانِ وَلَعْلَعُ^(٢)
وَلَا رَشَاءُ أَحْوَى وَلَا صَوْتُ قَيْتَةٍ وَلَا قَدَحٌ فِيهِ الرَّحِيقُ الْمُشْعَشَعُ^(٣)
وَلَكِنَّا لَدُنَّ وَأَجْرُدُ سَابِغٌ وَمَسْرُودَةٌ زَغْفَا وَأَبْيَضُ يَسْطَعُ^(٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدرهم . وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقتين وجبل لعلع من سمر الشفاء ، ولا بمن يتغنى غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بنجم ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوافر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعاية وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له^(٥) :

وَأَخْرَسَهُ نَزُولِي بِقَرْحٍ مِثْلَ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ رُوفِي حَكْمَهُ عَلَى الْحَرِّ قُبْحُ

- (١) ربحانة الالباء ١١٨/١
(٢) الرقمتان : قرنتان في شرق نجد أو روضتان
(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة :
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة :
درع . زغفا : سابعة . أبيض : سيف
(٥) اليتيمة ٣٠٠/١

قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكَّةِ وَالْهَمُّ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحَوُ
لَمْ تَغْرُبْتَ قُلْتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُضْحٌ وَنُجْحٌ
سَافَرُوا تَغْتَمُّوا فَقَالَ وَقَدْ قَامَ تَمَامُ الْحَدِيثِ صَوْمُوا تَصِحُّوا

وهي دعاية تلسع لَسَعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيقه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من
عَضُّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مَسَّهُ من الجوع قَرْحٌ لَا يَزَالُ يَنْزُرُ الْمَا ،
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) أى إن نالوا
منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ،
ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندي ، فأجابه لقول
رسول الله ﷺ : سَافَرُوا تَغْتَمُّوا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صَوْمُوا تَصِحُّوا ، وكأنه
يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤
في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه (١) :

رَأَيْتُ لَوْ مَا مَصُورًا جَسَدًا شَيْمَتُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ
عَلَى سَرِيرٍ كَالنَّعْشِ لَا رَهَبٌ يَعْلُوهُ مِنْ هَيْبَةٍ وَلَا رَغَبٌ
يَجِبُهُ بِالْهُجْرِ مَنْ يَخَاطَبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَبَيْنَهُ نَسَبٌ (٢)
يَقْرُقُهُ النَّاسُ لِلْسَّفَاهَةِ وَالْهَقَرُ يُخْشَى وَخَدُّهُ تَرَبُّ
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَبَدًا كَالْفِيلِ لَا تَنْشَى لَهُ رُكْبٌ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزى إلى ما يشبه
سياطا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للزوم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل
على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله ، لما عُرف عنه من شحٍ بغيض ، وأنه يصبك مخاطبه
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسبا ذميا . والناس يخشونه
لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه
مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقه شحاً بغیضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبي
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم
لا مالا ، بل شعيرا فقال (٣) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/١٨٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/١٩١

(٢) السعال : الغيلان

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من
مدوحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رقعا مسطرة دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام .
ومن كبار الهجائين في أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجف المتوفى سنة ٦٣٥
للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا رب كيف بلوتني بعصاةٍ ما فيهم فضلٌ ولا إفضالٌ
متافرى الأوصافِ يصدقُ فيهم الـهاجى وتكذبُ فيهم الآمالُ
جُبنا إذا استنجدتهم للممة لؤما إذا استرفدتهم بُجَالُ
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراهما جديرة بكل مذمة في مهجو إذ تكذب فيها دائما
الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جنباء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم في الرخاء أهل أو آل
كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولى السلطان
الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكي والحنفي
والشافعي والخبلي ولقب ممثل هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فاتخذ
الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخر . من مثل قول بعضهم (٢) :

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكم
إذ هم جميعا شمسٌ وحالهم في ظلام

وكان شرب الخشيش الخدر عرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدّد
الظاهر بيبرس التكرير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب
الظريف (٣) :

شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشْدِهِ
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فيه حمراءُ في عينه سوداءُ في كَبِدِهِ

وهو يقبِّحها غاية التقيح بآثارها في ماضعها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كَحَال^(١) :

دَعُوا الشيخ من كحل العين فكفُّهُ يسوقُ إلى الطَّرَفِ الصحيحِ الدواهِيا
فكم ذهبَتْ من ناظرٍ بسوادهِ وألقتْ بياضًا خلفها ومَاقِيا

فكحله يعنى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بَصيصا ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة^(٢) :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبِعوني
صُفِفْتُ بكلِّ مَضْفَعَةٍ وبعدَ الكلِّ باعوني

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفي كلمة « باعوني » تورية واضحة فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه مَنْ لا يروِّجهم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في بنخيل^(٣) :

بنخيلٌ لو يومٍ منه جادتْ أناملُهُ لغالتهُ النَّدَامَةُ
ولو في النارِ أُلْقِيَ أَلْفَ عامٍ لما عُرِفَتْ له يوما سلامَةُ
ولو صارتْ بِسُفْرَتِهِ رَغيفا ذُكَاءٌ لما بدتْ حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرَجَّى له سلامة من النار بل سيظل خالدًا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس ،

(٣) ربحانة الألبا ١٠٨/١

(١) فوات الوفيات ٥٤٠/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٤/١٤

ولو أنه ألقى رغيها عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوبا وخجلا أن يرى شبيها على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبوفراس^(١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقرن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة ، وعنت به أمه ، وأحضرت له المعلمين في صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبوفراس الذي كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدرسين يدربونه على الفروسية ، وبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، ففتح ضيعة بمنج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالقي يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفي ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوبا بصيد الحيوان إنما كان مشغوبا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومَرَّ بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى ، وقد عرضنا لميخته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حاراً ، وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدق أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا في تقتيلهم وتمزيقهم شرمزق ، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهرسه .

(١) انظر في أبي فراس وشعره البيهقي ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبوكلان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان

غلمانة وإذا بكيتية من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فیدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصبيه سهم في فخذة ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويقدم به تيودور إلى خرشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويدوق ذل الأسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوا وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فيترلونه في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما في أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب يتزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي بحرشة ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهمازات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قرعونة في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حقه ، ويقال إنه سقط جرحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيا قائلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّبابِ أَبُو فِرَاسٍ سِمْ لَمْ يَمُتْ بِالشَّبابِ

وطبعي أن لا يكون المديح الموضوع الذي يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكبس بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتعد روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجوانية في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كي يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على المستق حين طعن في العرب وبسالهم الحرية ، وفيها أخذ يذكره باندحارهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسرا بن أخته في اللّقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في رومياته يحنّ إلى ملاعب صباه وشبابه ويشّاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليّة وهي تسأله عنه الرّكبان حين أسر قائلا على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحَصْنِ خَرْشَنَةِ أُسْدَ شَرِّى فِي الْقَيْودِ أَرْجُلَهَا

ويرد عليها مسرعا

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَعْلُهَا تَارَةً وَنَنْهَلُهَا^(١)

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أُمى العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمى أبدا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَيْأَسِي اللَّهَ الْطَافُ خَفِيَّةُ
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيدِ لَمْ يَكُنْ خَيْرُ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابّة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في خَرْشَنَةِ ، إذ سرعان ما أنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أُسِيرَا فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا مُغِيرَا
وَلَنْ لَقِيتُ الْحَزْنَ فِي لَكَ فَقَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأنت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شماليّ إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانیه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نُزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حينئذ قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نعلها : نشرها تباعا . نهلها : نشرها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحيبه .

أراك عَصِيَّ الدمع شِيَمْتُكَ الصَّبْرُ أما للهوى نَهَىٰ عليك ولا أَمْرُ
بلى ! أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنَّ مثلى لا يُذاعُ له سرُّ
معلَّتني بالوصل والموتُ دونه إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القطرُ
تسألُنِي مَنْ أنت ؟ وهىَ عليمَةٌ وهل بفتى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شاءتُ وشاء لها الهوى قتيلُكِ قالت أيُّهم فهمُ كُثْرُ
وقالتُ لقد أَرَزَىٰ بك الدهرُ بعدنا فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدهرُ

وهو حوار وغزل فيها فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعري قلبه من لوعة إزاء معلته بوصل لا يناله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلاً لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكرفى معمعان المعارك وقيادة الكتائب الموعودة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترًا أو أكشف لهم ثوبًا ، وما يلبث أن يصبح بكل فتوته :

أَسِرْتُ وما صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَعَى ولا فرسى مُهَرٌّ ولا رَبَّه غَمْرٌ^(١)
ولكنَّ إذا حُمَّ القضاء على امرئٍ فليس له بَرٌّ يقيه ولا بحرٌ
يَمْنُونَ أَنْ خَلَوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا على ثيابٍ من دمائهم حُمْرُ
سيدكرنى قومي إذا جَدَّ جدُّهم وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ
ونحن أناسٌ لا توسط بيننا لنا الصِّدْرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا فى المعالي نفوسنا ومن خطب الحسنة لم يُغْلِه المهرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرمُ مَنْ فوق الترابِ ولا فخرُ

يقول : أَسِرْتُ وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبداً ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحاً

أبطال ، وما أُسْرَتْ جَبْنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَتُّوا عليه بتركه لأبسا لأمتة وعدته الحرية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دَقَّ نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فلما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليلبذلون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسنة لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثُلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جدية بأن يضمها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته - وهو فى سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحَتْ بقرى حامةٌ أيا جارتا هل تشْعُرِينَ بحالى-
معاذَ الهوى ما دُقَّتْ طارقةُ النوى ولا خَطَرْتُ منك الهمومُ بيالٍ^(١)
أتحملُ محزونَ القوادِ قوادِمُ على غُصْنٍ نائى المسافةِ عالى^(٢)
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا تعالى أفاستكِ الهمومَ تعالى
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقلَّةٌ ولكنَّ دمعى فى الحوادثِ غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه وسماع الشجون فى نفسه ، ويُعيذها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهومومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة قوادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينها ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حرته وتبكي حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطروما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية .

عرقلة^(١)

هو حسان بن نمير الكلبي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ و حفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتَكِين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة أبق آخر حكمهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محبة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدايح ، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سَنَةِ الإمام يَزِيدٍ
فهو ليس سَنِيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسمهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحضره مجالس أنسه . ووصفه العباد الأصهباني حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رُبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرًا للأمرء ؛ شاعرا مستطرف الهجاء ، لم يزل خَصِيصًا بالأمرء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نفه ، وله فيه

والشذرات ٢٢٠/٤ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١٧٨/١ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

مدائح ، ولديه منه منائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مر ذكره من قوله :

يقولون : لِمَ أرخصتَ شعرك في الورى فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازى على الشعرِ الشعيرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصته من بهائمِ

واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير لإضحكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضربه وتلحينه :

على صَوْتُهُ سَوَّطَ علينا لا على الفرسِ
وجملُهُ ضربه ضربٌ للدرعِ ومُتَّسِرِ
يقول السامعون له رماه الله بالخرسِ
وخُذْ ياربُّ مهجته إذا غنى : (خُذِي نَفْسِي)

فهو لا يجعل صوته يصلك الأسماع فحسب ، بل يجعله يكوها كي الشياطين للخيال ، أما ضربه فكانه ضرب حقيق يضرب به دروعا وتروسا لألحانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدقة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِي نَفْسِي » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنَّهُ الـ بَدْرٌ لكنْ إذا كُفِّ
وقوامٌ كأنَّهُ الـ غُضنْ لكنْ إذا انْقَصَفْ
وبنانٌ كأنَّهُ الـ بحرٌ لكنْ إذا نَشِفْ
وأبٌ أكذبُ الأنسا مـ ولكنْ إذا حَلَفْ

وهو في الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطربأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق في زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطبيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرا عليه :

لنا طبيبٌ شاعرٌ أَشْتَرُّ أراحنا من شخصه الله
ما عادَ في صُبحَةِ يومٍ فَتَى إلا وفي باقيه رثاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقذع أحيانا في هجائه ، حتى في الموت . ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسَنْتَ به اليومَ المراثي كما حَسَنْتَ به أمس الأهاجي
ولكنْ لَجَّ في شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللجاج

وهي شامة تدل على أنه كان عدواني المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض الحبان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكثوسها وقبانها المغنيات يبيكينه بكاء مرا .

أسامة^(١) بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى الشمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عني بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبني أسامة وأخذ يعبده للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكي قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

والمنحصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ و امرأة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقرئزي ١٢٥/١

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفي في العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث في مسقط رأسه لحايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، ففارقوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغْتِكِين لقاء حسنا ، وظل الجوينيها صافيا حتى سنة ٥٣٩ هـ إذ اكفهر الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤ - ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنٍّ عاش به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبي يجبو في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رُزَيْك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَمَلَة الصليب بعسقلان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة - الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فُقتل عباس ، وُردَّ نصر إلى القاهرة ، وقرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا في البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَمَلَة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكشُ
أيامه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوَّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدُّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره الحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدته موجدته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفًا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَبَّاهِ مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لبَّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلَّى في معارك عماد الدين زنكى ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى أن شَبْتُ فيها وخيرَ الخيل ما قَرَحَا (١)
أخوضها كشهابِ القَذْفِ مبتسما طَلَقَ الحَيَّا وَوَجَّهُ الموتَ قد كَلَحَا (٢)
بصارمٍ من رآه في قَتَامٍ وَغَى أَفْرَى به الهامَ ظنَّ البرقَ قد لَحَا (٣)
فَسَلَّ كُماةَ الوَغَى عني لتعلم كم كَرَبٍ كَشَفْتُ وكم ضيقٍ بِي أَنفَسَحَا

فهو قد نازل كُماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيئا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كثر الموت عن أنيابه . وإن سَيِّقَهُ ليلمع في غبار الحرب - وهو يحطم به الرؤوس حطما - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكُماة : الشجعان . فرح الفرس : بلغ الخامسة

من عمره

(٢) طلق الحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

(٣) قَتَامٌ وَغَى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق

كم قد أبدت بسفى كل مفتخر حامى الحقيقة يوم الجحفل اللجب^(١)
 وكم تركت بنى الإفرنج فى رعب فصرت أذعى لديهم جالب الرعب
 وكم جررت إليهم جحفا لجبا بالسابرية والماذى واليلب^(٢)

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم
 النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب فى قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزعا -
 جالب الرعب ، وكما قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلْ بى كماء الوعى فى كل معترك يضيق بالنفس فيه صدر ذى لباس
 يُنبشوك بأنى فى مضايقتها ثبت إذا الخوف هز الشاهق الرأسى

فهو يحلّى فى المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحلقوم ويرى الكماء فيها الموت
 نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الهاجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز
 الخوف والفزع الجبال الرواسى من الكماء العتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرها معددا لانتصارات البطل على حملة
 الصليب وتزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
 جعلنا الجهاد همنا واشتغلنا ولم يُلْهنا عنه السماع ولا الحمر
 بنا أيد الإسلام وازداد عزة وذل لنا من بعد عزته الكفر
 بنا استرجع الله البلاد وأمن ال عباد فلا خوف عليهم ولا قهر

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر فى ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من
 بلاد الشام وأمن فيها الناس ، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد
 الإسلام عزة . ونور الدين - بدون ريب - هو الذى هيا لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته
 المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته
 سنوات السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل :

(٢) السابرية : الدرع المحمكة النسج . الماذى :

السلاح . اليلب . الترس .

اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاى والسبعون قد أوهنت قواى عن سعى إلى الحرب
وكنت إن ثوب داعى الوغى لبيته بالطعن والضرب^(١)
أشقى بالسيف دجى نفعها شق الدياجى مرسل الشهب^(٢)
أنزل الأقران يرديهم من قبل ضرى هامهم رعى^(٣)

فقد وهن عظمه وضعفت مته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرؤوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعيهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن^(٤) عتین

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عتین ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركها أسرته إلى زرع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبو القاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشئه على حب الخير والشعور بالمرءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجئنى أن أفعل الخير والد ضيئل إذا ما عد أهل المناسب

والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسيط ابن الجوزى
٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكرب لابن وأصل
٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققة خليل
مردم (نشر دار صادر بيروت) .

(١) ثوب : دعا

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) يرديهم : يهلكهم

(٤) انظر فى ابن عتین وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم

الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣

بَعِيدٌ عَنِ الْحَسَنِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَاءِ وَضِعُّ مَسَاعِي الْخَيْرِ جَمُّ الْمَغَائِبِ
إِذَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو صَعُودًا إِلَى الْعَلَاءِ غَدَا عِرْقُهُ نَحْوُ الدَّيْتِ جَاذِبِي

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعفه أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطلي المغوار الذي أذلَّ حملة الصليب ودفع جمعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزير القاضى الفاضل وكتبه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ذُو عَمَشٍ وَالْوَزِيرُ مُنْخَلِبٌ

وكان القاضى الفاضل أحذب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عنين في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فضى على وجهه يحوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتَكِين (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مداخحه فلقبه لقاء كريما وخفَّ على قلبه فاتخذته نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أئثرى ، وكثر في يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفَّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوهُ بالشحِّ بينما يمدح عمه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

مَا كُلُّ مَنْ يَسْمَى بِالْعَزِيزِ لَهُ فَضْلٌ وَلَا كُلُّ بَرٍّ سُحْبَةٌ غَدَقَةٌ (١)
بَيْنَ الْعَزِيزِينَ بَوْنٌ فِي فَعَالِهَا هَذَاكَ يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاهكات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فأحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتطورت الظروف - كما مر بنا في قسم مصر - وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ - ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقربه منه واتخذ بأخرة من أيامه وزيراً له ، حتى إذا توفي رثاه رثاء حاراً . وأبقى له منزله ابنه داود (٦٢٤ - ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألقى محقق الديوان بتلك الأبواب مستتركاً بما عثر عليه من شعر ابن عنين في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقدمة شعراء دمشق بزمه إن لم يكن سابقهم المجلى ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرمه كان يهجومهم غير مراعاة فيهم إلاً ولازمة ، إذ كان ما يلبث أن يعرض أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلطاننا الذي نرتجيه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكن قاطعُ للرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشته وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى قواده التي طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقاً له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغى أن يرد شيطان هجائه عن الإمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبها مذ تَوَلَّيا على الناس وَلَّى الحَيْرَ عن كل مُسْلِمٍ
فوالله يا عيسى بمن شِئْتَ منها لُعِنْتَ ولو كنت المسيحَ بن مَرِيَمٍ
وَحَقًّا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسَمه له بأنه لُعِنَ لتوليته هو وصاحبه . وهجا
نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الخطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه
استعار منه - كما مرَّ بنا - هجاءه لأبيه . وأهداه طيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً
هزيلة جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفاً ما شككتُ بأنَّه حليفُ هوى قد شَفَّه الهَجْرُ والعَدْلُ
إذا قام في شمسِ الظهيرةِ خَلَّتْهُ خيالا سرى في ظلمةٍ ماله ظلُّ
فناشدته ما تشهى قال قَتَّةٌ وقاسمته ما شَفَّه قال لى الأَكْلُ
وظلُّ يراعبها بِعَيْنٍ ضَعِيفَةٍ ويُشدها والدمع في الخدِّ منهلُّ
أَتَتْ وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الحروف الهزيلة نَضَوَ
عشتي شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه
ما يشتهى فيقول قَتَّة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعبها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة
ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه
فروحه في الحلقوم .

ويصور ابن عنين بخيالا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا
أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين
حينئذ قائلا :

عهدى به واليدُ اليمنى يَكْفُ بها غَرَبَ المدامع والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز: لا يبعد مَدَاك ولا أَخْتى عليك الذى أخنى على لُبِّدِ

ولبد آخر نسور لقان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لحبزه أن لا يأتى الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفّع وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجّب قومٌ لصفّع الرشيدِ وذلك مازال من دأبه
رحمْتُ انكسارَ قلوبِ الثعالِ وقد دَنَسوها بأثوابه
فوالله ما صَفَعوه بها ولكنهم صَفَعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لالفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن^(١) النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره يثرى تلك الأيام أسفا محزوناً ، ويقال إنه تزوّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أديباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أديبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبي في كتابه : نفحة الرحانة : « أنا لا أجد عبارة تنفي في حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتى به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان ، وساحر إذا أُشربت كلماته العقول استغنت عن الكتوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استفده في المديح ، ويكثر في مقدماته من الغزل ، وقد يفرغ إلى الفخر بمثل قوله :

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ . و خلاصة الأثر ٣/٢٥٧ ونفحة الرحانة ٢/٥٠٧ .
وديوان ابن النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لي نفسَ الوقورِ وعَفَّةَ الدِّ
وما كلُّ مَعْسُولٍ اللَّمَى يَسْتَفْزِنِي
وأَحْتَمِلُ المَكْرُوهَ مِمَّنْ يَمْلَأُنِي
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضَيْمَهَا
ولا وَطِئْتُ خَدَّ الفَيَافِي رِكَائِي
ولا سَالَ حَزْنٌ بِالْمَطَى وَسَبَبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتال في قوة للأمور ، ولا يستثيره جبال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف ممن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تهن قواه فلا تظأ الفيافي ركائبه ولا يسيل بها حزن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يادهرُ مثلى لا يُقَدُّ قَلُّ عن سَنَامِ المجدِ جَنِيَهُ
أنا لا أبالى إن رُمِيَ سَتْ وَسَبَّ عِرْضِي مَنْ أُسِبُهُ
العَيْنُ يَدْمِيهَا الدُّبَا بُ وَيُعْجِزُ الآسَادَ دَبُهُ
والتَّيْبَرُ يَعْلُوهُ التُّرَا بُ وَفَضْلُهُ بَاقٍ وَلَبُهُ
تَكْنَى فَتَى العِرْفَانِ خِ لَانَا فَضَائِلُهُ وَكُتْبُهُ
وَارْقُبْ خُفُوقِي إِنْ سَكَدَ سَتْ فِعَاصِنِي يُرْجَى مَهَبُهُ
والبدرُ يَشْرِقُ فِي المَطَا لَع بَعْدَ مَا أَخْضَاهُ غَرْبُهُ
والروضُ يَدْبُلُ ثَم تَكُ سَى الثَّوَرِ والأوراقُ قُضْبُهُ

وهو يقول للدهر إن شيئاً لا يستطيع أن يزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقب حركتى ، فلانى كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تذبل

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله ؟ والمجدُّ أباه فيَّ والحسبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوء طلعها قبل لِحاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آباه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخي الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثي والشكوى

المراثى قديمة في الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة في الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا في شعره . وولتقى في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفضيعة فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة في أخت له يقول فيها^(١) :

أتزعم أنك خِدْنُ الوفاء وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حجبُ
فإن كنت تصدقُ فما تقولُ فمُتْ قبل موتك مَع من تُحِبُ
وكنْتُ أَقِيلُ إلى أن رمْتُكِ يَدُ الدَّهْرِ من حيث لا أحتسبُ
فلا سلمت مقلَّةً لم تَسُحَّ ولا بقيت لِمَّةً لم تَسِبْ
ولو رُدَّ بِالرُّزْءِ ما تستحقُّ لما كان لى فى حياى أربُ

وهو يتمنى لو غُيبَ الترابَ مع شقيقته وصُورَ روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمة . ويتمنى أن لا يتوقف انهيارها ، لعلها تشقى غلةً لنفسه وحرقةً فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بداهية أصمّت أذنه وصكّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجد أضراسه فضلا عن مقام أسنانه ، وينشد^(١) :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصَوِّغَ الشَّهْبَ شِعْرًا فَأَلْبِسَ قَبْرَهَا سِمَطِيْ نِظَامِ
مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَنِي رَضِيعٌ مَا بَلَغْتُ مَدَى الْفِطَامِ
فِيَارْكَبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ يَبْلُغُ رَوْحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافُورُ مِنْهُ بِمَثَلِ الْمِسْكِ مَفْضُوضِ الْخَتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جدتها الطاهر ، ومحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر بأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجها من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له^(٢) :

بِرَغْمِي أَنْ أَعْنَفَ فِيكَ دَهْرًا قَلِيلًا فَكُرْهُ بِمَعْنَفِيهِ
وَأَنْ أُرْعَى النُّجُومَ وَلَسْتَ فِيهَا أَطَّأَ التُّرَابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ويقول الباخريزي تعليقا على البيتين : « هذا أرقُّ ما يكون في المراثي ، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتتشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

ينحون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبيكه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله (١) :

بِالرَّجَالِ لِنَازِلٍ لَمْ يُحْتَسَبْ وَلِحَادِثٍ مَا كَانَ بِالْمُتَوَقَّعِ
تَاللَّهِ مَا جَارَ الزَّمَانَ وَلَا اعْتَدَى بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا الْمَصَابِ وَأَوْجَعِ
يَا قَوْلُ قَوْلَةَ مُكَمِّدٍ مُسْتَتَرٍّ مَاءَ الشُّونِ لَهُ وَنَارَ الْأَضْلَعِ
أَشْكُو إِلَى الْأَيَّامِ فِيكَ رَزِيَّتِي لَوْ تَسْمَعُ الْأَيَّامُ شَكْوَى مَوْجَعِ
صُلِّ بَعْدَهَا يَادْهَرُ أَوْ فَاكُفُّ وَخُذْ مَنْ شَتَّ يَصْرَفَ الْمَنِيَةَ أَوْدَعِ

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكرامتهم وفجيعة التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه ، ولينزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفي نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ فاهتزت الشام لفقد هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصمباني في إحدى مرثيته (٢) :

يَا مَلِكًا أَبَامُهُ لَمْ تَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةٌ فَاخِرَهُ
غَاصَتْ بِحَارُ الْجُودِ مَذْغِيَّتْ أَنْتُكَ الْفَائِضَةُ الزَّاحِرَهُ
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا وَسَرَتْ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَهُ

وتوفي بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاة أوائل سنة ٥٨٩ هـ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصمباني ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول (٣) :

أَيْنَ الَّذِي شَرَّفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية
شعراء الشام ص ٢٠٩ .
(٢) الروضتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل
٢١٥/٢ والنجم الزاهرة ٦/٦٠)
بالقاهرة ٢٢٨/١ .
(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلَّ العالمين مماته
لو كان في عصر النبيِّ لَأُنْزِلَتْ في ذِكْرِهِ من ذكره آيأته
ياراعياً للدين حين تمكنت منه الذنابُ وأسلمته رُعائهُ
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائماً رِضْوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام
ومصر ، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمره من المدارس والمساجد في
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولَةً أَحْنَى لها حَمَلَةُ الصليب رعوهم .
ولا يكاد يتوقى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاضٍ إلا ويرثيه الشعراء ، من
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣
للهجرة ^(١) :

قاضى القضاة وَمَنْ حَوَى رُبُّبًا سَمَتْ
عن أن تُسَام سَنًا وَبَزَتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين وَمَنْ رَفَى
رُتَبَ السلوكِ تعَبُّداً وتورُّعا
حاوى العلوم بما تفرَّق في الورى
إلا الذى منها إليه تجمُّعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان
يجمع بين الحسينين : المعرفة بالمعقول والبراعة فى المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبي المتوفى سنة
١٠٥٦ فى رثاء أخيه ^(٢) :

رُزُّ أَلَمٍ وحسرةٌ تَتَوَالى ومصيبةٌ قد جَدَّتِ الآمالا
وفراقُ إلفٍ إن أردتُ تَصَبُّراً عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كعُصْنَى دَوْحَةٍ قطع الرَّدَى منها الأغصنُ الأَرْطَبُ الميالا
أو كاليدين لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا فى أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

يلحّون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما ييلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملاً النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس (١) :

أراني وقومي فرّقنا مذاهبُ وإن جمّعنا في الأصول المناسبُ
فأقصاهم أقصاهم من مساعى وأقربهم مما كرهت الأقاربُ
غريبٌ وأهلى حيثما كَرَّ ناظري وحيدٌ وحولي من رجالِ عصائبُ
وأعظمُ أعداء الرجالِ ثقاتها وأهونُ من عاديته من تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعاً قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيراً بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائماً متق شره وخيائته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله (٢) :

يادَهرُ يامنجزَ إيعادهِ ومخلفَ المأمولِ من وَعَدِهِ
أَيُّ جديديّ لك لم تُبلِّهْ وأَيُّ أقرانك لم تُرَدِّهِ
تستأثرُ العقبانِ في جَوهَا وتُترّلُ الأعصمَ من فِئدِهِ (٣)
إن زمانِي برزاياه لِي صيرني أَمْرَحُ في قِدِّهِ (٤)
أفضلُ ما في النفس يَغْتالها فَنَسْتَعِذُ اللهَ من جُنْدِهِ
وربُّ ظمآنٍ إلى موردٍ والموتُ لويعلمُ في وَرْدِهِ

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائماً الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخلف دائماً

(٣) الأعصم : الوعل . الفند : قمة الجبل

(٤) القد : مأثقتُ من الجلد ويُشدّ به الأسير

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قرْن يدعى أنه يماثله في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والعُصم أو الوعول في أعالي الجبال ، فلا أحد ينجم من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يقتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعبد من شرها ، ويقول رب ظامئى إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ^(١) :

حذرْتَنِي تجارى صُحْبَةَ العا لَمْ حتى كرهْتُ صُحْبَةَ ظَلِّى
ليس فيهم خِلٌّ إذا ناب خَطْبٌ قلتُ مالى لدفعه غيرُ خَلِّى
كلُّهم يبدُلُ الودادَ لدى اليُسْرِ ولكنهم عِدَى للمقلِّ
فاعتزلُّهُمْ فى انفرادِك منهم راحةُ اليأسِ من حِذارٍ وذُلِّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمتقهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك في اليُسْرِ ، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طَوَلا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلثة ولا يقدم لك عوناً ، فاعتزل الناس وأيأس من أن يردوا لك معروفاً أو جميلاً تَعِشْ آمناً عزيزاً . ويقول ابن عُثَيْن في التَّشَوُّق إلى دمشق بعد أن ظل منفياً عنها طويلاً شاكياً محزوناً لغربته وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طُوف في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن^(٢) :

فَسَقَى دمشقَ ووَادِيَّهَا والْحِمَى متواصلُ الإرعادِ مُتَفَصِّمُ العُرى
فَارْتَقَها لا عن رِضَى وهجرَتُها لا عن قَلْبى ورحلتُ لا متخيراً
أُسْعَى لرزقٍ فى البلادِ مَشْتَتٍ ومن العجائب أن يكون مقفراً
لا عيشتى تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى يَعْقُو ولا جَفْنى يَصافِحه الكرى

فهو يدعو لدمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الأرعاد

أو الإمطار ، منضم العرى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقتها قسرا ، وهو إنما فارقتها
لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه
إلا الكفاف وإلا ما يسد رمقه ، فرزقه دائما مقتر أو قليل ، وعيشته دائما نكدية ، وهواه معلق دائما
بدمشق ودائما مسهد لا يلم بحفونه الكرى أو النوم لما ملكت عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحتون إلى الشام
وبلدانه ورياضها الفحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده
الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حجة الحموى صاحب خزانة
الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهد ، ويقول
متشوقا إلى بلدته حمة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله (١) :

ياساكني مَعْنَى حِمَاةً وَحَقَّكُمْ من بعدكم ماذقتُ عيشًا طَيِّبًا
أَرْضُ رَضَعْتُ بِهَا ثَدْيِي شَبِيبِي ومزجتُ لَدَائِي بِكَاسَاتِ الصَّبَا
وقد التفتُ إِلَيْكَ يَادَهْرِي بطو لَ تَعْتَبِي وَنَحْوِي أَنْ أَعْتَبَا
قَرَّرْتُ لِي طَوَلَ الشَّتَاتِ وَظِيفَةً وجعلتُ دَمْعِي فِي الْخُدُودِ مَرْتَبَا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه في حمة مسقط رأسه ، ويعاتب
الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار .
ولذلك عاد إلى حمة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، وممرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام
العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا (٢) :

قد صرتُ أَحْتَرَزُ الْأَنَامَ وَغَدَرَهُمْ إنَّ الطَّيِّبَ يَخَافُ مَسَّ الدَّاءِ
وقطعتُ بِالْيَأْسِ الرَّجَاءَ لَدَيْهِمْ وَالْيَأْسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ رَجَاءٍ
ولطالما أَصْفَيْتُ قَبْلَكَ خُلُقِي مِنْ لَا أَرَاهُ مُوَافِقًا لِإِخَائِي
وبلوتُ مِنْهُ وَدَّهَ فَرَأَيْتُهُ مَسْتَلُونًا كَتَلُونُ الْحَرَبَاءِ

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فينس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباراه ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحُرباء ، إذ تلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

ابن سنان ^(١) الحفاجى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ عندي وحالي شَرَحُها فى الجملة
همٌ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ وفراقٌ أوطانٍ وبُعْدٌ أحيّةٍ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزَّاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الحفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما منسوما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحس بالموت أنشد .

خَفَ مَنْ أَمَنْتَ وَلَا تَرَكْنِ إِلَى أَحَدٍ فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجْرِبٍ

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتها البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الحفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزءين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتحه بمرثية في الكاتب على بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

ومعدِّلْ جارٍ على غُلُوَائِهِ يُرَوِّى حديثُ نَدَاهُ عن أعدائِهِ
عَجَلْتُ عليه يَدُ الحِجَامِ وعودُهُ رَيَّانُ من خَمَرِ الشبابِ ومائه
عَجَبًا لحدِّ السيفِ كيف أصابه وَمَضَاوُهُ في الرُّوْعِ دون مَضَائِهِ
ولمصعبٍ ملأَ الزَّمانَ هديرُهُ قَادُوهُ بعد شِياسِهِ وإِيَائِهِ
إن يرفعوه فقد غَنَوْا بَعْلَانَهُ أَوْ شَهْرُوهُ فقد كُفُّوا بَنَائِهِ

وابن سنان يؤنِّصُ صديقه تأيينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذى شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نظرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزار زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في السماكين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثى جاعة من أهله وأصدقائه :

أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ لا زال للغيِّ سِ رِواحُ عليكمُ وبِكورُ
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يَمُـ لِك رِىُّ البحورِ إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها أثَرُ من عَفَاتِكُمْ مهجورُ
عَرَصَاتُ كَأَنَّهُنَّ لِيَالٍ فارقتها عند الكمالِ البدورُ
بأن ذُلُّ الأسي عليها فَلِلْغَيْ سِ بكاءٌ وللنسيم زفيرُ
يانجومَ العُلا غَرِثُم وما فى اللَّـ سِ ل من بعدكم نجومُ تَغُورُ

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حرى أن تُروى البحور من فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتُ وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسي والحزن عليها

والسحب تبكي بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها
في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت
الله :

أبكىك لو نهضت بحقك أدمعُ وأقول لو أن النوائب تسمعُ
لا يُعْبَطَنَّ على البقاء مرزاً إن المودع ألفه لمودعُ
قُبْحاً ليومك فالنوائب بعده جللٌ وكلُّ رزيةٍ لا تُفْجَعُ^(١)
لو كان ينفعني السلو نبذته أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع
عجباً لمن يُبْقَى ذخائر ماله ويظلُّ يحفظهن وهو مضجعُ
ولغاflر ويرى بكلُّ ثنيةٍ ملقى له بطن الصفائح مضجعُ^(٢)
ياقبرُ فيك الصالحات دفينه أفما تضيقُ بهنَّ أو تتصدعُ

وهو يقول إن أى دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن
أحداً لا يُعْبَطُ على بقاءه ، فما تلبث رضى الموت أن تطحن الباقيين المودعين . وما أقبح اليوم الذى
سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والزبايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو سلا ، ولكنه لا ينفع
أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع ، وللغاflر عن الموت وفى كل عطفة بطريق من
طرقه مضجع معدل : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع
وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديدة .

الغزى^(٣)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي الغزى ، ولد بغزة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ
وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاماً دخل دمشق وسمع من
شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ،
ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بها جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العباد الأصهبانى فى
الخريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

(١) جلل : أى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١

وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٥/٢٣٥

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع

فاللغة من ألفاظ الأضداد .

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمان ، وعاد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا منتقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثثانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبث في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤملين قتلوا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلتَ ضرورةً بابُ الدواعي والبواعثِ مُغلَقُ
خَلَّتِ الدِّيارُ فلا كريمٌ يُرتَجى منه النَّوالُ ولا مَليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائب أنه لا يُشترى ويُخانُ فيه - مع الكساد - ويُسرَقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العاد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن الغزى وما يعزُّ من المعاني الغرَّ معنى إلا إليه يُعزى ، يُعنى بالمعنى ويحكم منه المبني ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدف ، والبدر السَّدَف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أعينها ليرأ الناسُ من لومى ومن عدَلَى
كالشمع يبكى ولا يندرى أعبرته من صحبة النار أم من فرقة العسل

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فثله كالشمع لا يعرف هل يبكى من فرقة الرَّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ كما حمل العظمُ الكثيرُ العصائبَ
وليلٍ رجونا أن يدبَّ عذارُهُ فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبًا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفِيدُهُ فما كان منها كاسيًّا كان سالبًا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كبير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوَّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعْرِى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحِظُّ من جَوهرِ الأشياءِ سَلَهْ ولا تسألُ من الله قَدًّا زَانَه الهَيْفُ
فالقَوْسُ في قَبْضةِ الرامى لَعَزَّتْها والسهمُ من هُونِه يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبقَ لى زمنى شيئا أُسْرُ بهِ فالحمدُ لله لافوزُ ولا أَسَفُ
عَرَى أكابِرِه من ثوبِ مَحْمُدةِ فالقومُ فى السابغاتِ اللَّبَسُ الكُشْفُ
لم يقنعوا بحجابِ البُخلِ فاحتجبوا كما غلا بعد سوء الكيلةِ الحَشْفُ
وإن جَرَى غلَطُ منهم بمكرمةِ فيَنْصَةُ العُقرِ لا يُرْجَى لها خَلْفُ
أعجبُ بهم قَطُّ فى الآراءِ ما اتفقوا على صوابٍ وفى التقصيرِ ما اختلفوا

فهو يشكو حظَّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالخط مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز فى قبضة الرامى تصوب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شىء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عَرَى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمده ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردته وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشىء كان ذلك بيضة العُقر التى لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون فى الرأى على شىء سوى ما كان من يخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا تعذَّر ما تَبَلُّ به الجُفونُ
فا يَنْدَى لمدوحِ بنانٍ ولا يَنْدَى لمهجوِّ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلى جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بئانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو ينجى يندى جبينه خجلا وكسوفاً . ويقول :

جبلُ المنى مثلُ جبلِ الشمسِ متصلا يُرى وإن كان عند اللَّمسِ مَبْتُوتا

فلا تَقُلْ لَيْتَ صَرَفَ الدَّهْرِ سَاعِدَنِي فَإِنَّ فِي لَيْتٍ أَوْماً يَقْطَعُ اللَّيْتَ^(١)

والصورة في البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات اللبت أو صفحة العتق . فدع المنى والغنى فإنها يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم .

فتيان^(٢) الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حيثُ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكبَّ - مثل لداته - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويديرهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ على نحو ما مر بنا في قسم مصر ، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك - وهو أخو عز الدين قرخشاہ ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفا لها . وبلتحق فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولي ٢٨/١ والشذرات

٦٣/٣ . ودويان طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندي وتقديمه .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللَّيْتُ : صفحة العتق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة (قسم

الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاهها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حماة تقي الدين عمر (٥٧٤ - ٥٨٧ هـ) أعطاهها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فرُّوخشاه (٥٧٥ - ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ - ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مرثي لبي نداء ربه من ممدوحه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مرثياته مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ووفاته ، وفيها يقول :

أَيُّ رُكْنٍ وَهَى مِنَ الْعُلَمَاءِ	أَيُّ نَجْمٍ هَوَى مِنْ الْعُلَمَاءِ
إِنَّ رُزْءَ الْإِسْلَامِ بِالْحَافِظِ الْعَا	لَمْ أَمْسِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْزَاءِ
أَقْفَرْتُ بَعْدَهُ رُبُوعُ الْأَحَادِيدِ	ثِ وَأَقْوَتْ مَعَالِمُ الْأَنْبَاءِ
كَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْأَنَامِ بِأَسْمَا	رَجُلَ الْحَدِيثِ وَالْعُلَمَاءِ
كَانَ عَلَامَةً وَنَسَابَةً لَمْ	يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَنْتَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُحَدَّثَ بِوَصْفٍ	بَلِغْتَهُ بِلَاغَةُ الْبُلْغَاءِ

وفتيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجعية دمشق في محدثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يجارى . وهو في البيت الثاني يصور في ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقفار أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوي ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولى القضاء لعلمه الدين زنكى في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثال وهوت من أوجها شمسُ المعالي
ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا بعد أن كان جريئًا في المقال
وسماء الدين قد ران على بدرها النقصان من بعد الكمال
والقضايا قاضياتُ نحبا إثره حزنا على تلك الخلال
مات من كان لأهل العلم كهفًا وثيالًا مُحسِنًا أيًّا ثمال^(١)

وهو يكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمالا وسندا لهم وموثلا . ويعتق فتى الدين عمر صاحب حاة فيؤنه بمرثية يقول فيها :

أباح ثغور الكفر بالسيف عتوةً وسدَّ ثغور السلم بالطعن في الثغر
وكيف يُلام المسلمون على الأسى وقد عدم الإسلام ناصرَه عُمر
لقد كانَ يلقي المُرَهفاتِ بوجهه وسُمِرَ القنا بالصُدُر في الورد والصُدُر^(٢)
وكان يرُدُّ الجَحْفَل المَجَرَّ وحده يمسُون بالأيدى الظهورَ من الحور^(٣)

وهو يشيد ببسالته في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما معرضا وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم رد من جحافلهم الكثيرة وولوا أديارهم فزعين مروعين . ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤنه بمثل قوله :

لن كان خلقُ الخلق من طينِ آدمِ فمن نورِ خلقِ الله خلقك ياغازي

(١) النال : الملجأ والغيث

(٣) الحجر : الكثيف

(٢) المُرَهفات : السيوف . القنا : الرماح

فَنَ لِلْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ بَعْدَهُ يَقُومُ بِالْكَرَامِ عَلَيْهِمْ وَلِإِعْزَازِ
مَضَى مُلْكُهُ الْمَحْرُوسُ مِنْ عَيْبِ عَائِبٍ وَمَنْ عَبَّثَ الرَّازِي وَمَنْ عَنَتِ الرَّازِي

وكان الغازي مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع على الهمّة حسن التدبير
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه - كما يقول فتیان - من عيب
العائب وزرابة المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتیان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

عَلامَ تَحْرُكِي وَالْحَظُّ سَاكِنٌ وَمَانَهْتُ فِي طَلَبٍ وَلَكِنْ
أَرَى نَذْلًا تَقَدَّمُهُ الْمَسَاوَى عَلَى حُرٍّ تَوَخَّرُهُ الْحَاسِنُ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون ما يبتغون أو ما يرون أنهم
جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتیان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم
أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعد فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى ^(١) البابى

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - البابى ، ولد بالبابل إحدى قرى حلب فى القرن
الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من
علمائها وعين قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة
المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ،
ويتخلل المديح أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من
قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا
عليه ، وبلغت إلى الدهر شاكيا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن
النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الرخانة
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت

أَيُّ ذَنْبٍ نَعَابَ الدَّهْرَ فِيهِ وَعَتَابُ الْأَيَّامِ دَاءٌ غُضَالُ
 أَنَا مَا بَيْنَ فَرْقَةٍ تَجْمَعُ السَّقَمَ وَيُعْلِي تَدْنُو بِهِ الْآجَالُ
 وَخُطُوبِ الْفُتْهَا يَسْتَعِيدُ الدَّهْرَ خَوْفُ مِنْهَا وَتُذَعِرُ الْأَهْوَالُ
 وَأَمَانِ تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذَيْلَ الدَّهْرِ جَاذِبُ جَدَالُ
 هِمَّةٌ أَرَقَّتْ جَفَوْنَ الْأَمَانِ بُوْعُودِ الدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ
 أَتَمَّنَى مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءً وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مَحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدري لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيد الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفي صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لا ينى بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي ابْنِيَا لَنَا خَارِجَ الْعَا لَمْ دَارًا فَبِئْسَ دَارُ الزَّحَامِ
 وَاصْطَفَانِي أَلَسْنَا بَيْنَ لَيْلٍ وَنَهَارٍ مَالِي حَلِيفُ ظَلَامِ
 وَاسْتَعِيرَا لِمَقْلَتِي هَجْعَةً عَ لَمْ مَنَامِي يَعُودُ لَوْ فِي مَنَامِ
 مِنْ أُمُورٍ تَقْذِي الْعَيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخْرِ السَّهَامِ
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَذَى سَوْغَتِهِ الْفُ هَذِي النُّفُوسُ لِلْأَجْسَامِ
 مَنْ أَرَادَ الْعَيْشَ الْهَنَى فَلَا يُعْ سَلُّ فِكْرًا قَالِ الْعَيْشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنها يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والمنام ، وهيئات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكأنها مورد من غسلين أوزقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربّانية .

شراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابية ، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفة للطير وأحاسيسه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمري وقرية يتساقبان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحترى في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وملتقى في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثُ	أَنَا	مُؤَذِّنٌ	بِخَفْضِ	مُتَّصِلُ	الْوَيْلِ	حَيْثُ	الرَّكْضِ
يُضْحِكُ	فِي	بَرْقِ	خَفَى	كَالْكَفِّ	فِي	انْبِساطِهَا	وَالْقَبْضِ
وَالْأَرْضُ	تُجَلِّي	بِالنَّبَاتِ	الْعَفْصِ	فِي	حَلْيِهَا	الْحُمْرِ	وَالْمِيبِضِ
وَأَقْحَوَانِ	كَاللُّجَيْنِ	مَحْضِ	وَنَرَجِسٍ	ذَاكِي	النَّسِيمِ	بَضْ	
مِثْلُ	الْعَيُونِ	رَنَّتْ	لِلْغُمْضِ	تَرْنُو	وَيَغْشَاهَا	الْكِرَى	فَتُفْضَى

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلعب بين السحب ويتوارى كال كف تنبسط وسرعان ما تنقبض ، والأرض كأنها في حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألاً كالفضة الخالصة والزرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم ، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح (١) :

لَقَدْ	نَشَرْتُ	أَيْدِي	الْجَنُوبِ	مَطَارًا	عَلَى	الْجَوِّ	دُكْنَا	وَالْحَوَاشِي	عَلَى	الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا	قَوْسُ	الْغَمَامِ	بِأَصْفَرِ	عَلَى	أَحْمَرٍ	فِي	أَخْضَرٍ	تَحْتَ	مُيَبِّضٍ	

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلْتُ فِي غِلَالِي مَصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخزيدة ^(١) :

الشام شامةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانٌ مَقْلَتَا الْعَضِيضَةِ جَلَّقُ
مِنْ آسِيهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمِنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تَحْرُقُ
فَعَلَامَ تَصْحُو وَالْحَامُ كَأَنَّهَا سَكْرَى تَغْنَى تَارَةً وَتَصَفَّقُ
وَتَلُومُ فِي حُبِّ الدِّيَارِ جِهَالَةً هِيَاهُ يَسْلُوها قَوَادُ شَيْقُ

وهو يجعل الشام خالافى وجنة الدنيا ويجعل «جَلَّقَ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيفة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدّر بجبالها حاسيس مُشَاهِدَهَا ، فلا يصحو ، والحام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى فى وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاءً والثلوج تراكم على أشجارها ونباتاتها فى شهر كانون زمن الشتاء مهيتة لازدهار أزهارها فى زمن الربيع ^(٢) :

قَدْ أَجْمَدَ الْخَمَرَ كَانُونُ بِكُلِّ قَدْحٍ وَأُخْمَدَ الْجَمَرَ فِي الْكَانُونِ حِينَ قَدْحُ
يَا جَنَّةَ الزَّبْدَانِي أَنْتِ مَسْفَرَةٌ عَنْ وَجْهِ حُسْنٍ إِذَا وَجْهُ الزَّمَانِ كَلَحُ
فَالثَّلَجُ قُطْنٌ عَلَيْكَ السُّحْبُ تَنْدِفُهُ وَالْجَوُّ يَحْلُجُهُ وَالْقَوْسُ قَوْسُ قُزْحُ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء فى الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمدها القَرّ الشديد وأخمد الجمر فى الكانون أو الموقد حين اتّقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنات الدنيا ، وما يلبث أن يصوّر الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

(١) الخزيدة (قسم الشام) ٢١٧/١

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين بيبلك^(١) :
يا حادى الأظعان إن شارفت من بعلبك سفح لبنانه
فاقرأ تحياتي على نازل في محجر العين كإنسانه
والروض يهذى مع نسيم الصبا نشر خزاماه وريحانه
وراسل القمرى ورقاءه شدوا على أوتار عيدانه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبه ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبه شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه في زمن المالك ، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع^(٢) :

نثر الربيع ذخائر الندى سوار من جيب الغواذى
والورد محضوب البنا ن مضرج الوجنات نادى
حرسه شوكة حسنه من أن تمد له الأيادى
والعندليب أمامه بفصيح نغمته ينادى
من رام يعبث بالحدود فدونها خرط القتاد^(٣)

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغواذى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألى الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في منتزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق^(٤) الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

بمشقة شديدة .

(١) خزانه الأدب للحموى ص ٣٤٢

(٤) انظر مصادر ترجمته في قسم مصر ص ١٨٧

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الربحانه ١٢/٢

(٣) دونه خرط القتاد : مثل يضرب للشيء لا ينال إلا

لايستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن العراق الذى تحدثنا عن مجونه وهزله فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله ^(١) :

توهمتُ أمرا فلم أنبس بحرفٍ وناديتُ بالأكؤس
حُميّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح فى الجندس ^(٢)
يعاطيكها رَشًا طرفُهُ سريعٌ إلى تلفِ الأنفُسِ
بَحَدٌ يروقك توريده وعينٍ تنوبُ عن التَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينس ينس شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التى تلعب حُميّا بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع فى دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك فى الصميم بخد مورِدٍ وعين فاتنة .
ويقول الغزى الذى مرت ترجمته ^(٣) :

قَمٌ بَقَرِعَهَا كَأَنهَا الذهبُ بِكَرًا ، أبوها وأُمُّها العَنَبُ
أَرَقَّ مِنْ عَبْرَةِ الْيَتِيمِ وَمِنْ عِبَارَةِ الصَّبِّ قَلْبُهُ وَصَبُّ
مَدَامَةٌ تَصْقَلُ الْقُلُوبَ إِذَا رَأَتْ عَلَيْهَا الْهَمُومُ وَالرَّيْبُ
كُثُوسُهَا أَنْجَمٌ نَضِلُّ بِهَا لَا يَهْتَدِي مِنْ تَضِلُّهُ الشُّهُبُ
لَا قَدَمٌ فِينَا وَلَا قِدَامٌ لَهَا عَرُوسٌ دَنُّ عَقُودُهَا الْحَبُّ

وهو يقول لصاحبه قم نقرعها أو نفتضها ونشرها ، إنها فى رأيه - كعروس بكر - أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجه قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كثوسها أن تكون أنجما ولا تهدى ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينا عادة النجوم أن تهدى ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس فى رفاقه قدم أو أحق وأنه لافدام لها أو مصفاة إذهى شديدة الضفاء ، ويقول إنها عروس دَنُّ عقود جيدها لآلى الحَبِّ التى تعلقو كثوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتیان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا ^(٤) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(٢) حميا الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء .

الهندس : دجى الليل الشديد السواد .

بادرُ إلينا فإن الراحَ ممكنةُ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعُ
ويومنا طيبٌ صافي الأديم وما فيه هواءٌ ولا في رأسه قَزَعُ
والطير ترقصُ في الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع
لافيه عواصف ولا في سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رعوسهم .
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد
لهم الحموى في خزائنه فصولا طويلة هم بحير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محي الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله ^(١) :

باكرٌ إلى الروضة نَسْتَجْلِها فَشَغَرُها في الصبح بَسَّامُ
والزرجسُ القَصُّ اعتراه الحيا فغَضُّ طرفا فيه أسقام
وبلبلُ الدَّوْحِ فصيحٌ على الأ يكة والشَّخْرورُ تَمْتَلِمُ
فعاطني الصَّهْبَاءُ مشمولَةٌ عذراء فالواشون نُؤام
واحْتَمَّ أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نَمَامُ

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشاعتها مصر منذ
العصر الفاطمي عناية واسعة ، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى
المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشده الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير اللمتمة . ضرب
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون
نوام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نَمَام - وهو ضرب من السَّعْتَر مزهر - عن التَّام
الحقيقي من الأشخاص . ويقول محي الدين بن قرناص ^(٢) :

روضةٌ من قَرَقَفٍ أنهارها وغناء الورق فيها بارتفاع
لا تَلُمُ أَعْصانها إن رقصتْ ففَى ما بين شرابٍ وسماع

وقد ورى محي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذة السكر ، بل إن الأغصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول على بن محمد الحشرى الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مَنْشَرُجُ وَالبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلُمَاءِ مُسْتَبِحُ
عَجَلُهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مَنْسَدَلُ مِنْ قَبْلِ يَدُو لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ
وَاسْتَضْحَكَ الدَّهْرُ قَدْ طَالَ الْعُبُوسُ بِهِ لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكَ الْقَدَحُ
وَلَا يَطِيبُ الْهَوَى يَوْمًا لِمُغْتَبِقِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُصْطَبِحُ
وهو يخاطب ساقيا أن يتاوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملا الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقا وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صَبُوح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوَأَوَاءُ (٢) الدَّمَشْقِي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوَأَوَاءِ الدَّمَشْقِي ، من أهل دمشق ، وُلِدَ بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في اليتيمة من أنه لُقِبَ بالوَأَوَاءِ لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادى على الفواكه جلبا للمشتريين . وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي

طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي

الدهان وزايج مقدمته له .

(١) نفحة الريحانة ٣٥١/٢

(٢) انظر في الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون

من الشعراء للقفطي وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربي . ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة ما يزال يتردد عليها حتى يحسن ما يريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضا ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها بمدحه ، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقي أحمد بن الحسين العلوي ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدحا ، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري . وربما كان هو الذي قدّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و ٣٣٤ . وفي ديوانه ثلاث قصائد في مديحه ، ولذلك عدّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقي أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا ما يمزج بينها جميعا مثل قوله في الفصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجالَ بأسره فكأنما	قُسِمَتْ عليه محاسنُ الأشياء
متبسّمٌ عن لؤلؤ رطبٍ حكى	برّداً تساقطَ من عقود سماء
تُغنى عن التفاح حمرةُ خدّه	وتنوب ريقتهُ عن الصّهباء
فأمزجُ بمائك نارَ كأسك واسقني	فلقد مرّجتُ مدامعي بدماني
واشربُ على زهر الرياض مُدامةً	تنني الهموم بعاجل السّراء
لطفتُ فصارتُ من لطيف محلّها	تجري مجارى الروح في الأعضاء

والوَأَوَاء معروف بكثرة تصاويره في أشعاره ، فساقيته الخمر تبسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربُ على زهر الرياض الذكي الرائحة تلك الخمر التي تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :

وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ تكاد منها الأكفُ تَلْتَهَبُ
تَلْعَبُ في كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفْرِها طَرِبُ
في عَرَصَةِ الكَأْسِ حينَ تَمْزِجُها سماءُ تَبْرِ نَجْمُها ذَهَبُ
وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكَرَم ، ويقول إنها حارّة كأنها لسان لب ، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فتات التبر ، نجومها - أى حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحةَ الماء في الكأ س وكُفًّا عن شُرْب ماتسقياني
إنني قد أمنتُ بالأمس إذ م سْتُ بها أن أموت موتا ثاني
اسقني القهوةَ التي تنبتُ الور دَ - إذا شئتَ - في حدود الغواني
في رياضِ تريك في الليل منها سُرُجًا من شقائق النعمان
كتبتها أيدى السحاب بأقلام م دموعٍ على طُروسِ المغاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقيه الماء وإنما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيًا ، ومثله من ملمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرّج حدود الغواني بالخمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسبها في رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُونت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودأما يعنى الوأواء في شعره بالتساوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نَرَجِسٍ وسَقَتُ وَرْدًا وَعَضَّتْ على العُتَابِ بالبرَدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والزجس للعين والورد للخد والعُتَاب للأصابع والبرَد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريرى على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن قُسيمَ الحَمَوِيَّ

هو مسلم بن الحَصْرِ بن قُسيمَ التَّنُوخِي الحموي ، ولد ونشأ بجدة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتها .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبَا (حدَّ) شبابه ، وحل شعوب (الموت) بشعبه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفي شابا ويبدو أن ميلاده لا يعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فدح صاحب حمة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزَاغة وحاصر حصن شَيْزَر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسرع إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنْزُمدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أنْزُمدبر دولة آبق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنْزُمدبر . فانتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخصها العماد الأصبهاني بسنة ٥٤٢ . ولا نرتاب في أنه ظل متصلا بزنكي بمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ ومجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . واقتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

وهنا ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العماد الأصمباني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يفرق في اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرٌ مَا أَصْبَحْتَ مَخْلُوعَ الْعِذَارِ فَانْفِ عَنْكَ الِهْمُ بِالْكَأْسِ الْمُدَارِ
قَمِ بِنَا نَتَهَبِ اللَّذَّةَ فِي ظِلِّ أَيَّامِ الشَّبَابِ الْمُسْتَعَارِ
إِنَّمَا الْعَارُ الَّذِي تُحْذِرُهُ أَنْ تَرَانِي مِنْ لِبَاسِ الْعَارِ عَارِي
وَسَعِيدٌ مَنْ تَقْضَى عُمُرُهُ بَيْنَ كَاسَاتِ رُضَابٍ وَعُقَارِ^(١)
فِي اصْطِبَاحٍ وَاعْتِبَاقٍ وَاقْتَرَا بِرٍ وَاعْتِرَابٍ وَانْتِهَاكِ وَاسْتَارِ

وهو يصريح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجزؤه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءه وسعاده ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واعتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعضيان ربه متهاكما لحرماته . ومن قوله في خميرية ثانية .

بَاكِرَا شَمْسَ الْقَنَاقِ تَذَرُكَاءُ كُلِّ الْأَمَانِ
وَحَذَا فِي لُلُقِ الْعَيْبِ شَرِّ عَلَى رَغَمِ الزَّمَانِ
قَهْوَةً أَلْبَسَهَا الْمَزْجُ قِيصَا مِنْ جُفَانِ^(٢)
كَخُلُودِ الْوَرْدِ مِنْ تَحْ تِثْنُورِ الْأَقْحَوَانِ
إِنَّمَا الْبُغْيَةُ أَنْ أَصْ سَبَحَ مَخْلُوعَ الْعِنَانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قيصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها والماء آخذ بتلايينها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خلود وردية . ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصبانته لربه ، فكل ما يبغيه أن يظل سادرا في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره متهاكما ساجدا في قبلة الكأس لتسييح مثاني العود

وأوتاره . وكأنه بعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليفة المارقة .
ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من
ذلك قوله يصف رُمّانة :

وعمرّة من بنات الغُصو نِ يمنعها ثقلها أن تميدا
منكّسة التاج في دسّتها تفوق الخدود وتحكى التهودا
تُفَضُّ فتفتّر عن مَبْسَمِ كأن به من عقيق عقودا
كأن المقابل من حبّها ثغورٌ تقبّل فيها خُدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكّسة التاج في دسّتها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتبدل في
غصنها وعلى صدرها بقية ثوارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات
وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرا مجيدا ، ومربنا أنه كان
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي .

مجير^(١) الدين بن نعيم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن نعيم ، ولد بدمشق ونشأ بها ، وسال الشعر على
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه ورسالته في شعره
قائلا :

دَغْنِي أخطُر في الحروب بمُهجتي إما أموت بها وإما أُرزقُ
فسوادُ عيشي لا أراهُ أيضًا إلا إذا احمرَّ السَّنانُ الأزرقُ

وقرّبه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو في
التصمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بالفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة
لخيارات من ديوانه بخط الصفيدي في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن نعيم وشعره فوات الوفيات
٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموي ص ٣١٩ - ٣٢٥

الأول ، إنما أراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراهُ ولم أزرَ عن التضمين طيرى
أضمنُ كلَّ بيت فيه معنىً فشعرى نصفه من شعرٍ غيرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كرم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء المعدودين » .
ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولا يبارى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليقات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأملُ إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعها بين الرياض غزير
كأن نسيمَ الروض قد ضاع منها فأصبح ذا يبكى وذاك يدور

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرها بين الأرض والسماء :

يا جاعلَ الأفق مثلَ الأرض حُجَّتْهُ بالشمس إذ بزغتُ والبدر حين وَصَحَ
كم من شمسٍ وأقارٍ إذا سَرَحَتْ فى الأرض طرتَ إليها خَفَّةً وفَرَحَ
ولا تَقَلُّ : قُرْحُ فى الجوِّ زَيْنُهُ فى كلِّ غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوْسَ قُرْحَ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شمساً وأقاراً من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجمال قوس قرح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قرح نضرة أرجة .
ويقول :

سبقتُ إليك من الحديقة وردةً وافئك قبلَ أوانها تَطْفِئِلا
طمعتُ بلكمك إذ رائك فجمعتُ فَمَها إليك كطالبٍ تَقِيلِلا

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لاتزال في كمّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا
التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة
أوساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بآثَةٍ وبكاءٍ
وتعلّلتُ بلاقائه فلاجل ذا جعلتُ تُدير عيونها في الماء
فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها ،
وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لم لا أميلُ إلى الرِّياض وزهرها وأقيم منها تحت ظلّ ضافي
والغُصْنُ يلقاني بشجرٍ باسمِ والماءُ يلقاني بقلبٍ صافي
والشجر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالشجر كثيرا ، وفي البيتين رقة ودقة حس
وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبلَ خدَّ مَنْ أهوى وقد نامتْ عيونُ الحرّسِ
وأصابعُ المنتور تُومي نحونا حسداً وتغمزها عيونُ التّرجسِ
والمنتور زهر ذكي يزهو في أعلى سيقانه ، شبه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للترجس
بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول
في الخمر مداعبا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثير
فاعجبُ له أنّي يصونُ بلحظه مشمولاً وإنّاؤها مكسور
وكلمة « مكسور » إما من كسر الإيذاء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء
وهو كسر حميّاها وثورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلةٌ بتُّ أسقى في غياها راحاً تسلُّ شبّابي من يد الهرم
مازلت أشرها حتى نظرتُ إلى غزّالة الصبح ترعى نرجسَ الظلم

ويريد بالغزاة الشمس وينرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجناً مثل ابن قسيم ، ولا ندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة للمعنى نظراً . ومن طرائفه في الرياض قوله
بعث النسيم رسالةً بقدمه للروض فهو بقربه فرحانٌ
ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصانُ
والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح ما في ميل الأغصان لسماع شدة
الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة
الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحباً الفوات والخزانه
بدائع كثيرة .

ابن النقيب ^(١)

هو عبد الرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة
لأبيه النقيب الشريف ، وعُني بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة
إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف
الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك
يمكن أن تعد مدائحه في باب الإخوانيات ، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر
فتته بالطبيعة الدمشقية ومتزهاً بها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة .
ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زهر (حسان) أوزهر ، أو وصف روض مطلق على نهر ، وهو
من أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزي في فطرته ، أو لأن دمشق متروحة فكرته » . ولم
يطل به الدهر بين هذه المفاخر التي كانت تغلب له . فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة
١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافتيه :

التَّهَرُّ يَصْدَا بِهَاتِيكَ الظَّلَالِ كَمَا
وَالزَّهْرُ يَقْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارَقَتْ
رَبِيعَةُ الْوَشَى لَا يَنْفِكُ زِبْرُجُهَا

يَصْدَا مِنَ الْغَيْدِ حَدَّ الصَّارِمِ الدَّكْرِ
فِيهَا السَّحَابُ مِنْ رَيْطٍ وَمِنْ حَبِيرٍ
يَجْلُو لَنَا مِنْ جِلَافِهَا أَحْسَنَ الصُّوَرِ ^(٢)

مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجواهر .

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٣٩٠/٢ .

ونفحة الرمانة ٣٤/٢ وديوانه (طبع المجمع العلمي
العربي في دمشق) وانظر مقدمي أحمد الجندي و خليل

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لماعها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش في شطيه مارقت أو نقشت فيها السحاب من رَبط وحِبر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ريعى لا يزال زبرجه ونقشه يجلو من حلى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متزهات دمشق قائلا :

ومجلس حَقَّتِ الغصونُ بنا فيه ووجهُ الرياض مبهجُ
 كأن أوراقها يرفُّ بها فوق الندامى نسيْمُها الأرجُ
 خُضْرُ من الأزْرِ لاتزال بها مناكِبُ الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان - حين يرفّ نسيْمها فوق الندامى - كأنها أزُر أو شيلان تُظِلُّ مناكِب الراقصات المختلجة المتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثنيها الصِّبا والبدرُ من خللِ يلوح ويُحجِبُ
 حسناء قد عامتْ وأزختْ شعرها في لُجَّةِ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء في لُجَّة مرخية ذوائب شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بجمرة كقوله :

وزهرِ قَرْنُفْلٍ في الروض يَحْكِي عَقِيقَ دمٍ على صفحاتِ ماءٍ
 رأى وَجَنَاتٍ من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثرُ الحياءِ

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبتة ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والجنون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله الحبي من أنه كان يتخيل التخيالات البعيدة البديعة في التشايبه العجيبة » .

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنسائها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتبعها أصواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وبنزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة نقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صدها فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس (١) :

أما يَرَدُّعُ الموتُ أَهْلَ التَّهَى ويمنع عن غِيهِ مَنْ غَوَى
فيا لاهيًّا آمِنًا والحِجَامُ إليه سريعٌ قريبٌ المدى
إذا مامرتَ بأهلي القُبُورِ تيقَّنتُ أنك منهم غدا
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع القَوَى عن غِيهِ ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمِنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفوره فحرى به أن يكفَّ عن كل موقفة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد (٢) :

هِيَ النَّفْسُ تَهْوَى الرُّحْبَ فى كل موطنٍ فكيفَ بها إن ضاقَ فى الأرض قبرُها
وهل يَرْتَجِي خُضَرَ الملابسِ ظاعنٌ وقد مُزِّقَتْ فى باطنِ التُّرْبِ غُبرُها
نوائبُ أَلْقَتْ فى النفوسِ جرائحًا عَصَى كُلِّ آسٍ فى البريةِ سَبْرُها
لى القوتِ فَلْيَغْمُرْ سَرَنَدِيبَ حَظُّها من الدُّرِّ أو يكثرُ بغانةِ تَبْرُها

وأبى العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنَى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزيقاً . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس في الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سبها معرفة غورها على كل طيب ، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه ، ولتتلى سرنديب - أو كما تسمى الآن سيلان - بمعاوصي لآلها من الدرر وليكثر بغانة في غربي إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبي قوتي . ولمر بنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجي ^(١) :

استغفر الله القديم وعُدَّ به من شرِّ غاوٍ في الحطام منافسٍ
وافعلَّ جميلاً لا يضيع صنيعه واسمَحَ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنعْ ففي عيش القناعة نعمةً لاتقى كفَّ الزمان الخالسِ
لا تفخرنَّ وإن فعلتَ فبالثقى ناضلٌ وفي بذل المكارم نافسٍ

وهو يستغفر الله من شر كل غاوٍ منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصي بفعل الجميل ومد اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصي أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة ^(٢) :

عمرت دارَ فناءٍ لابقاء لها ظنًّا بأنك عنها غيرُ متعلٍ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها وأنت لاشكَّ في الأخرى على وجَلٍ
دارُ الإقامة أولى بالعمارة من دارِ نعيمك فيها غيرُ متصلٍ
فاعملْ لنفسك ماترجو النجاة به فليس يُنجيك إلا صالحُ العملِ

وهو يزهّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

ويقول الإمام النوى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة^(١) .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغنى فصرتُ بأذيالها مُمتسِكُ
فلاذا يرانى على بابهِ ولاذا يرانى به منهمكُ
وعشتُ غنياً بلا درهمٍ أمرُّ على الناسِ شبهَ المَلِكِ

وكان محيى الدين النوى إماما ورعا زاهدا مثابراً على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكماء - كما يقول - يراه على بابهِ طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولاً به منهمكا ، فانهماكه إنما هو فى العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذاً نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطوُّها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنِينَا عن الدروس بما تُنمُّ على علينا صحائفُ الأيامِ
من عَظَاتٍ تُثَلِّى بغير لسانٍ وسطورٍ حُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أَنَّ العيونَ زالَ غَشاها لرَأَتْ كُلَّ أَخْمَصٍ فوق هامِ^(٢)
بل وفى كل وردةٍ أَلْفُ خَدٍّ وقضيبٍ يَمِيسُ أَلْفُ قِوَامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لا يتخلو منهم ، وحتى لكأننا نطوُّهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - ويالهول مانرى - أقدامنا تطأ رموسا ، ولهالنا أن الورد الناتب من الأرض يستمد حمرة من أَلْفِ خَدٍ ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من أَلْفِ قَدٍّ . ويلاحظ المحيى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفَّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ إلَّ أَرْضٍ إلَّا من هذه الأجسادِ

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبي) ٣٠١/١

وقول مهيار :

رُويْدًا بأخفافِ المطىِّ فإنما تُداسُ جباهُ في الكرى وخدودُ
وكان البابی نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن مترع هذا كله قول المتنبي :
ويَذْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ويمشى أواخرنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولا يكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى البابی دقيق ، وفى رباعيات عمر الحيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، وبذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا غيرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلکم طوتُ تِرباؤنا أما وهل مَيّتٌ بغيرِ ثرائها لم يُلحَدِ
حتى كأن شَقِيقَها دُمُ أسرةِ سفكتُ دماءهم عيونُ الخُردِ
ويَنفَسِجُ الروضِ الندى كأنه خيلانُ وجناتِ الحدودِ الورْدِ

فالشقيق الأحمر القافى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القائم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .
وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك - كما مر بنا فى الفصل الأول - أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمنونها .
طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام .
وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ هـ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبو نصر السراج والقشيري فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينها . وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرّون من بناء الخانات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورصد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمالكيين مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك في غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار في القرن السابع يحيى الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع مادخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المالكي . وستترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعداده في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بترعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حبلان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويعا بخلقهم الكريم ورسائله العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأئمتهم العلويين وفي مراثيمهم للحسين على نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ورسائله النبوية الخالدة قائلا :

دعائكم إلى خير الأمور محمد	وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الصُّحى	وشُهْب الدُّجى من طالعَاتِ وآفل
فصلّى عليه الله ماذر شارق	ومافت مسكا ذكّره في المحافل

وعوالى القنا أو الرماح هي الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبرز تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفظه ببركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لا يضاهيه مسك .

ويستخدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب السكك ، إذ أحس الشعراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية ^(١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ وللشهادة تجريحٌ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسُ ولا قرُّ ولا الفراتُ وجاراه ولا النيلُ
مرتّلُ الوحي يتلوهُ ويدرسه ولم يكن لكلام الله ترتيلُ
وسيدُ الرسلِ حقاً لاختفاء به وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ
بثت نبوته الأخبارُ إذ نطقت فحدثت عنه توراة وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة الحمديّة وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالة العظمى . ويقول فتیان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملاً شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته ^(٢) :

أؤملُ من خير الأنام شفاعَةً بها فى نعيم الجنان أخلدُ
وددتُ بأنى زرتُ قبرك راجلاً وقبّلتُ تراباً أنت فيها موسى
ومرغتُ خدي عند قبرك ضارعا بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجدُ
وذاك ضريحٌ يحسُدُ المسكُ ترابه وكلُّ شريفٍ القدر لاشك يحسُدُ

وهو يؤمل فى شفاعته الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلاً وقبّله وعفّر خده بما حوله من التراب ضارعا متوسلاً بأرض

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوى . وفى مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منها بالبقة مثنوى الرسول الكريم (١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُثْبٍ سَقَاكِ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءَ مِنْ كُثْبٍ (٢)
يَاسَاكُنِي طَيِّبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمْنٌ يُدْنِي الْحَبَّ لَنَيْلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ
أَرْضٌ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا فَإِنْ تَغِبَ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكتباناً من كُثْبٍ أو قرب لتظل تزهو بالشذى العطر ، ويتمنى زمناً يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجذث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهاراً وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلاً حراسة يراعها الله جلّ علاه . وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النهائية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدائحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكى ، يقول (٣) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَاءَتْ مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِيَابِ الزُّهْرُ
وَتَلَقَّاهُمْ بَشِيرُ التَّلَاقِ بِقَبُولِ تَسْرِى قُبَيْلِ الْفَجْرِ
وَشَذَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى مَنِيرِ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ
حَبْذَا ذَاكَ مِنْ مَقَامٍ كَرِيمٍ يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمْرِ

وهو يصور فرحة ركه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاق وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثل أمام القبر الطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمركله . ولكمال الدين محمد بن على الزمّلكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٣) :

(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النهائية ١٧٣/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلهم . وفاتحُ الخير ماحي كلِّ إشراكٍ
 قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءِ ذوى فَضْلٍ وأَملاكِ
 باصباحَ الجاه عند الله خالقه مارِدٌ جاهك إلا كلُّ أَفَّاكِ
 ها قد قَصَدْتُكَ أَشْكُو بعض ما صنعتُ بى الذنوبُ وهذا ملجأُ الشاكى
 عليك من ربِّك الله الصلاة كما منا عليك السلام الطيبُ الزاكي

والزملكانى يقر حقيقة كبرى ، فحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله فى حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة فى المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابى من مدحة نبوية بديدة (١) :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعاً أخو عثرةٍ يرجو الإقالة مذنبُ
 فبابُك بابُ الله ما عنه مهربُ وطالبُه من غير بابك يُحجَبُ
 أغثنى تداركنى أجرنى فلاننى لَقِنى. إن تراخى عنه لُطْفُكَ يَعْطُبُ
 وأبعدُ شئ أن تضيق بِرُحْبِها شفاعتُك العظمى بنا فهى أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه لبقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيب به لائذاً أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول فى هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه .
 وللبابى يتوسل (٢) :

ياحى ياقيوم قد بهرَ العقول سَنّا بهائِكَ
 إني سألتك بالذى جمعَ القلوبَ على ولائِكَ
 نورِ الوجود خلاصةً الـ كونيْنِ صفوةً أنبيائِكَ
 إلا نظرتَ لمستغيبِ شِ عائِدِ بك من بلائِكَ
 فالطُفْ به فيما جرى فى طيِّ عِلْمِكَ من قضاائِكَ

والبابي يجأ إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور: في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذة وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلفظ به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده .

عبد العزيز الأنصاري^(١)

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصاري ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقي في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاوئها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعي أن يُعنى القاضي بترية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حاة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك في زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حاة بعده السلطان قلقج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صيبا في العاشرة

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموي ض
٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية
بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات
الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبر
٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبلعك ودمشق الذى ذكره مترجموه فى هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ فى صحبة أميرها الناصر يوسف فى زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتتعدد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعقدُ فى هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، ومن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونينى محدث دمشق ، ويقول ابن تغرى برى عنه : « برع فى الفقه والحديث والأدب وأقنى ودرس وتقدم عند الملوك وترسّل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى فى وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف فى شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر ، وإن له فى لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقتة ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بحال موسيقاه وعدوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى فى شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله فى أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدتها تجاه حجرته الشريفة :

يا خاتمَ الرُّسل الكرام وفارجَ الـ كُربِ العِظام بفعله والمقول
ها قد وردنا من ضريحك مورداً نُشَفَى به من كل داءٍ مُعْضِل
أدعوك للجلى وتلك شفاعَةٌ لم تَرَضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى فى الحشر كاساتِ الرِّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومغينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشتد بالناس أوار العطش ولهيبة - كاسات من الرحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلائى من نومى المشرّد وآه من شملَى المبدّد
غُصْنُ نَقَا حَلٍّ عَقْدَ صَبْرِي بِلَيْنِ خَصْرٍ يكاد يُعَقْدُ
فمن رأى ذلك الوشاح الـ ضَمَائِمَ صَلَّى على مُحَمَّد

أَشْرَفُ مَنْ فِي النَّهَارِ نَاجِي وَخَيْرُ مَنْ فِي اللَّجَى تَهْجِدُ
وَعَبِيرُ بَدْعٍ لِمُسْتَجِيرٍ بِهِ إِذَا نَالَ كُلُّ مَقْصِدٍ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينة ، فمن رآها - كما يقول - صَلَّى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتهجده ليلاً وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقي في متاع الحياة الدنيا . وفي إحداها يقول :

مُلْكُ الْقَنَاعَةِ عَزٌّ يُذْهِبُ الذَّلَّةَ فَمَنْ حَوَى كَنْزَهَا لَمْ يُؤْتَ مِنْ قَلَّةٍ
تَبًّا لِمَنْ طَمَعٌ مُسْتَعْبِدٌ وَمُتًى لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى رِيٍّ بِلَا غَلَّةٍ
يَسُومُ إِبْلَاعَهُ مِنْ رِيْقِهِ بَلَلًا وَلَيْسَ يَرَوِي وَلَوْ أَبْلَعْتُهُ دِجْلَةً
فَانْقَعُ غَلِيلُكَ مِنْ نَهْلٍ بِلَا عِلَلٍ وَإِنِ اقْنَعْتَ إِذَا أَكَلْتَ أَغْنَتْكَ عَنْ أَكَلَةٍ

فالقناعة - في رأيه - عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذي لا يفنى لم يشك من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومتى لا تروى أبداً فداوماً صاحبها يعانى من غلة العطش وحرارته ، وداوماً يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبداً ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشرية الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشرية الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَأَبْغِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشِقَاءٌ
وَتَنْصَلُ مِنْ خَطِيئَاتِهَا النَّارُ جَزَاءٌ
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاهُ الْفَنَاءُ
وَلِأَهْلِ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ وَلِلَّهِ الْبَقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة والله البقاء والدوام .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومربنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد ^(١) بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحفص الشيباني الدمشقي المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفي سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عري المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ وما يشهد لقولهم مريثته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ إِلَهُ جَلِيلٌ ذَهَلْتُ لَدَيْهِ بِصَائِرٍ وَعَقُولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوَى نهجهم وضلوا السبيل وسُدَّ الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وخُتِمَت دنان خمر الحب الرباني . وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله - كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردي - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب في ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرَّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل في البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقي - شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

الحريري في القوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الحيمى في القوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر في محمد بن سوار وشعره وأخباره قوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والواقى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حجج ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمي المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه ، فراجع ابن الخيمي وعثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردي البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلبسنى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمَّ صحبى سَمْرًا أو أَرَاكُ فإنما مقصدهم أن أَرَاكُ
وإن ترنمتُ بذكر الحمى فإنما عقْدُ ضميرى حماكُ
وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما أحسب إلا أنه قد بكَاكُ
ملأتُ كلَّ الكون عشقا فما أعرف قلبا خاليا من هَوَاكُ

فصنجه إن أموا به شجر السمر والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يكيه لأنه يحل فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شىء مرآة له ، إذ يترأى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامنْ يشير إليهم المتكلم وإليهم يتوجّه المتظلمُ
وعليهم يحلو التأسفُ والأسى ويلدُّ لوعاتِ الغرامِ المَعْرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهرا وحياتكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ فى صفاتِ جالكُم وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سكرتُ فن مدامةِ حبكم وبذكركم فى سكرتى أترنمُ
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورةٍ فلأجل حُسْنِكُم المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقة كلِّ موجودٍ بدًا ووجودُ هذى الكائناتِ توهمُ

والآيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهره ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جلاله المشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكروه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهي نفس الأفكار التي تلقانا عند ابن عربي ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلَا مِنْهُ طَرْفِي وَامْتَلَا مِنْهُ خَاطِرِي فَطَرَفِي لَهُ شَاكٍ وَقَلْبِي شَاكِرٌ
وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُ لَمْ تَشْكُ مُقَلَّتِي بَعَادَا وَدَارَاتُ الوجود مَظَاهِرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليالي فغنى المغنى من شعره :

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَاتُهُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوش المجلس . وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس مايزعمه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرفضها ابن الحكم - يرفضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السني .

عفيف ^(١) الدين التلمساني

هو سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي التلمساني ، وتدل نسبته إلى تلمسان في الجزائر على أنه مغربي الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ ودويان الحقائق
ومجموع الرقائق لعبد الغني النابلسي ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .
ودويان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

(١) انظر في عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات
الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمي ٤٦٣/٢
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خائفاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكدّها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كرم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجان الأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظباء بالحِمَى عُرْبُ	ما كان في البارِق التَّجْدِي لى أَرْبُ
وفي رياض بيوت الحِمَى من إَضْمٍ	وَرَدُ جَنَىٍّ ومن أَكْلامه الثُّقْبُ
لا تقدر الحُجْبُ أن تُخْفِي محاسنَه	وإنما في سَناء الحُجْبُ تَنَحُّجُ
ياسالما في الهوى مما أكابده	رققا بأحشاء صَبَّ شَفَه الوَصْبُ
هل السلامة إلا أن أموتَ بهم	وَجَدًا وإلا فَبُقَيَاى هَمَى العَطْبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الرباني ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حياه ما كان له أمل وراء البارق النجدي ، ولا كان له ولوع بورد الحدود في رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسدّل على تلك الحدود هى أحكام الورود ، ويقول إن الحجب لا تستطيع أن تخفى محاسنه إذ تنوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشائه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهياماً ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لا يفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لا تحسبوا أننى عن حبكم سالى وحكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين قوادى وهو منزلكم لاعتشت يوماً أراه منكم خالى
أنتم بقلبي أدنى من جوانحه حقاً على رغم حسّادى وعذّالى
أوضحتم لحبيكم طريقكم حاشاكم تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لا يزال بحبه لربه حالياً أومزداناً بحلى بديعة . ويقول إن محبوه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه وما يحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوه الربانى أن لا يهجره بعد وصله . ويقول :

يا أصيحابى بذى سلم من أصيحابى وما السلم
أنا عنى اليوم فى شغل فاذكرونى إن نسيتم
وأشيعوا فى الحمى خبرى وأذيعوا السرّ واكتتموا
لايرانى الحبّ مُتّنبياً بعد ملاحته لى الخيم
كنت قبل اليوم فى حلم وتقضى ذلك الحلم
فزمانى كله طرب دونه الأوتار والنغم

إنه على وشك أن يتحقق أمّله فى الوصول إلى محبوه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يثنى عن طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحن . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع خَمْسُهَا عبد الغنى النابلسي مع أبيات متصلة بهما لم نشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب غفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبد الغنى ^(١) النابلسي

هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبد الغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرأها . وسرعان ما نضج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمرادي سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذبته إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويردّد دائما : ليس في الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه	الله	وجود	واحد	حكمة	فينا	حرام	وحلال
وهو	حق	وسواه	باطل	قال	في	القرآن	والسبع الطوائ
أينا	أنتم	تولّوا	ثم وج	له	الإله	الحق	محمود
							الفعال

(١) انظر في عبد الغنى النابلسي وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ومفحة الربحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتي ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع

الرقائق في صريح المواجهيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسبة - طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والآية إنما تشير إلى أن أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذها قبلة تكون هناك جهته التي أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما يذهب النابلسي وابن عربي زاعمين أن ذاته هي ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويقول النابلسي متحدًا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتي ذات كلِّ الخلاقِ وسلَّ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلاقِ
ولا صفةٌ إلا ومُنَى تعيَّنتْ لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائقِ
أنا الجوهرُ السَّاريَ بغيرِ سرِّيةٍ ألوحُ وأخفى في جميعِ الحقائقِ
أنا النورُ نورُ العينِ مني تكوَّنتْ عيونُ البرايا من مَشوْقٍ وشاتقِ

فالله جوهر الوجود ، يلوح وينفى ولاسواه ، إذ كل مافى الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرِّق بين القول بالحللول وأن الله يحلُّ في جميع الموجودات وبين مايزعمه هو وابن عربي من وحدة الوجود ، ولما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكنَّ أنا الأدنى وأنت الأَكْبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله -جل جلاله- واحد . وهي نفسها فكرة وحدة الوجود التي يحاول جاهداً الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة الياثية بالديوان :

سائقَ الأَطْعانِ يَطْوِي السَّيْدَ طَيِّ مُنْعِمًا عَرَّجَ على كُتُبانِ طَيِّ

يقول : « سائق الأَطْعان هو الله تعالى ، والأَطْعان : الناس وكتبان طَيِّ كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكتيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّل - كما يوصِّل جميع المؤمنين - إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأَطْعان المتجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز ليتمهِّل قليلاً حتى يجيئ من يمر بهم في طريقه إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه . وطبيعي وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربي وتمثل كثيراً من

أشعار المتصوفة محمسا لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة يتغزل في بشينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقها وكأسها وشرابها وحبابها وما تحدث في روحه من نشوة وفى عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن ~~حفظ العلم~~ إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم الحجة القلبية . وله قصيدة بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياہ امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طَـةِ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقى في جميع الدَّرَجَاتِ
ونحسُّ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصلون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفى الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامة ، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

٦

شعراء شعبيون

لأنقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلاله عامتها ، فذا لما جمهور الشعراء في كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم العالبي وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونقرأ من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العاد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا من عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخياز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي : الزجل والموالي ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحالى » يتوّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بحلب راوية ثقة من أكبر رواة هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكيريين : ابن قزمان ومدغلّيس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفي الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنهما كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصصح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه ما نقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ودرواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم ^(١) ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصحى استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تطرد فيها

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جويان بن مسعود الدمشقي المتوفى فى حدود سنة ٦٨٠ للهجرة^(١) :

أفارقهُ وأول إني قد انسلَّيتُ وريختُ قلبى وزال هم واتخلَّيتُ
واذكر مساويه فى حقى إذا وليتُ وإذا رجعتُ نسيتُ الكلَّ واتخلَّيتُ

والتورية واضحة فى كلمة « واتخلَّيتُ » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلَّى بمعنى أنه أصبح خالياً من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحابى الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة فى قول الشعر وأحسنهم لإنشادا ، وله مواليا^(٢) :

البدر والسَّعد ذا شِبْهكُ وذَا نَجْمكُ والقَدَّ واللَّحْظَ ذَا رِمْحُ وذَا سَهْمكُ
والبغض والحُب ذَا قِسْمى وذَا قِسْمكُ والمسك والحسن ذَا خَالِكُ وذَا عَمَكُ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو مشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحُب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجتها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة « عَمَكُ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قابله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها : نَحْنَا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وانتي ومن معنا للجِر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هى نحن بالفصحى . ونظّم أصحاب المواليا فى جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلَّها المتصوفة فنظموها مواليات كثيرة . ونلتقى فى ديوان عبد الغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله^(٣) :

(١) فوات الوفيات ٢١٨/١ .

تغزى بردى ١٢٧/١

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨ .

(٣) راجع فى هذه المواليا وتاليها المنهل الصافى لابن

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيوق
واخرج عن الكل أنت الكل بامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق
فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى
هى وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم
استعدادا للصوم ، وكانوا يختصمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت
اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات
والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مربنا في
قسم مصر . ولابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة ^(١) منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى
امتحنحت به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبد الغنى النابلسى منظومة صوفية منه في
عشرين ^(٢) بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن
أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو العلاء بن مقاتل ^(٣)

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ هـ ، ويقول ابن حجر إياه « تعانى الأدب فتعلم
الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان
هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له
زجلا مشهورا في الملك المؤيد صاحب حجة (٧١٠ - ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصنى
الحلى . وكان الصنى قد نزل حجة ومدح المؤيد وابنه الأفضل في أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث
من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى في خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن
مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجدة وأبا عذرة ، ومن سلَّمت إليه مقاليد هذا الفن . وأورد
الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في
ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النخط :

للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ ، والدرر الكامنة في أعيان
المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد التواجى له في كتابة
عقود الآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

(١) تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي
٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب

قلبى يحب نياه ليس يعشق إلا إياه
 فاز من وقف وحيّاه يرصد على مجّياه
 بذر السما لو يسطع
 من رام وصلو يعطب
 صغير يحير فى أمرو غزال قهر بسمرؤ
 ليث الهوى ونمرؤ فاعجب لصغر عمرو
 ريم ابن عشر وأربع
 أذكر نهار تبعتو وروحي كنت بعثو
 أخصى عليك لتعب
 رجع ولالى تتبع
 كم قدامو وخلقو مشيت مطيع لخلقو
 ورمت لثم كفو قال دغ منك وكفو
 فإن لثم إصبع
 من الثريا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ
 بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتياه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب مجّياه ، وبالمثل
 « يطبع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اسماقا
 بديعا ، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقها ، فصاحبته بدر فى السماء
 لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث
 والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم
 كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية
 رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ،
 فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أربع ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب .
 وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لا تحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها
 تغريد عندليب مع ما يحمّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب
 الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين يديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذ ديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم ^(١) أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وبهنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لزمهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أنباء طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما غنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون في ديوان الرسائل ^(٢) .

وما نصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم ^(٣) ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسططاليس ^(٤) ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعدّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة ^(٥) واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوتي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبي)

ص ٢٤ .

(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربي ص

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله ، وثانيها من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال ، فقليل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ^(١) ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل » ^(٢) ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التجميعات فى الكتب » ^(٣) واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية ^(٤). وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصنائع إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى ^(٥) ، وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة ^(٦) طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شئونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة الطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أطلّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة^(١) ابن أخى الشاعر ابن الحياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العباد قطعاً مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيراً ، ومكانه لدنيا مكيناً أثيراً ، لاقرين بحجاره ، ولانظير بمائله ويباريه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعولنا عليه فيها ، واستهنضناه لتوليها ، ورأيناها كفأها وكافها » .

وكتابات على هذا النحو دائماً مسجوعة سجعاً فيه غير قليل من الرشاقة والعدوبة . وكتب بعده لسلطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد^(٢) الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العباد شيئاً من كتاباته .

ويُظَلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العباد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »^(٣) ويذكر له ابن واصل توقيعاً كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلمها حكمه جاء فيه^(٤) .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتباً من المظالم المحضفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيفة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن قوَّض الله - عزَّ وجلَّ - لنا - تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوه شبهة ولا تأولاً » .

وبلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر^(٥) شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخلعة سنة ٥٦٣

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص

٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ

ابن عساكر ٢٧٧/٧ والتجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

فأقام العباد الأصهباني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باست كتابه في ديوانه بالشام ، وسفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن علي بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليده الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندي . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الفارقين في اللهو ، يقول ^(١) :

« وكانت الخلفاء والملوك ما فيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌّ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصَفُ الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسُّكَّة والخِطْبَة ، وأموال تُنهب ، وممالك تذهب . »
ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صبحه بمناذج كثيرة من رسائله

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله في التهئة بتقليد سيف^(١) :

« وقلده مِنَّا : سيفًا تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فِرْنده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حدّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتّ عزائمّه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوامه ، وعُلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعزّ نجاده وفي يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخضه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حاه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول^(٢) :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بائدة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زُويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى والله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرّداء ، آمنة من الرّدى ، وامتنّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرّداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والرّدى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى في السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

السيف : حائله .
(٢) صبح الالهشى ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم الزاهرة ١٦١/١٤ .

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار في جناحه . ونجاد

وعين ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السراينة كمال الدين ، وكان تارة يُعزّل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كُتاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة (١) :

« لا ترى العيون لبعده مرماها إلا شَزْراً ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نَزْراً ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كُتاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفاً ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها ففتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعاً فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطاناً لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحاً ذكياً (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلاً عند ثلاثة من كتابها النابهين .

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤

فوات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

العماد^(١) الأصهباني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصهبان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقّه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصهبان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، ووَلَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقلّمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكْتَسَب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضى إلى نور الدين فأعجب به واتخذَه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد فقوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعى ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد تَوًّا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضى الفاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حيثئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصهباني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابه : البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

(١) انظر في ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروستين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وغير الذهبي ٢٩٩/٤ والوفاء بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَّبنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصرة القَطْرَة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُنبى والعُنبى في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نخلة الرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العباد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حَمَلة الصليب ومُؤَقِّمهم تمزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة ينحدر فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العباد :

« لاختفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كرم ، أنقذها الله من عبيد بني عُيَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعثنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شعبة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فن حَقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رَقَّه ، واتسع على الراقع خرقة ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ونغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين في بَيْكارها (حربها) مستقما من كفارها متحملا لمشاقها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العباد في أول القطعة بين « عبيد وعبيد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العباد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العباد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العباد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه في تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والفتحُ الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرَةٍ تَمْنِيهِ ، وجيرة تَرْجِيهِ ، ووحشة اليأس من تَسْنِيهِ (انفكاك عقده) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعاذه من الرُّجْس ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عَزَّ يومه ماحياً ذُلَّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقُسَّ ، وعبد الصليب ومستقبل الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتوح » . والطباق كثير في القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبلَّج (إشراق) وجه وجاهته وتأرَّج (انتشار) نبأ نهايته ماعرفه من عوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد معجَّ سمعي فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردَّ العجز على الصدر » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العباد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه ، ويتسع في الإحسان صُقعُه (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مُدامه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيبٌ من تغريد حمامه » .

الصفدي^(١)

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ هـ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرّج بموطنه صفد ، يكتب مايقع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ هـ وأعجب بالشاب الصفدي ، وعيّنه في كتابة الدّست ، حتى يعاونه في عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفي الشهاب محمود سنة ٧٢٥ هـ على نحو ما مرّ بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وعُيّن رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتاً ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة الدّست مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى في خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه « خبز الشعر » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعر وأكله : وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بِسَمِّهِمُ الْحَاضِرِ رَمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجَرِهِ وَبَيْنَهُ

وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبلدر الطالع ٢٤٣/١
وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح
الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١
والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير
٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها

إن متَّ مالى سواء خَصُّمٌ فإِنَّه قاتلى بعينيه

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكت الهميان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملئ بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصوصه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشرح رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام التون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف مئين من المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدير شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعم للذين عند ربهم يُرزقون ، وهى زهرة ملكنا ودرة سلكتنا .. تعين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززاناه مثقفاً ^(١) وسللناه عَضْباً ^(٢) وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدْخِر ، وأعز ما يُحْبَأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرا لما وزر ، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا ذرى رُتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عما يتنقل فى المباشرات ^(٣) من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى ^(٤) فأعادها ريبعا غرد به طائر الإقبال وصفر . فليتلّق هذه الولاية بالعزم الذى نعهد ، والحزم الذى شاهدناه ونشهد ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(٣) المباشرات : الأعمال

(٤) جمادى : يريد قليلة

(١) مثقفا : سيفاً مصقولاً

(٢) عَضْباً : قاطعاً .

ولا يمحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب ، وتزید نموًا وسموا فتنفوق الأمواج في البحار وتنفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافي السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحياناً في اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد ^(١) بها تتبين فوارس الجلاّد في مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شمسو الجبال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية - أتاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والدرة الثينة بلاكفء لها بين قيم نقودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها ^(٢) الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحوم من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاّد وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا ، ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في جناساته ، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محباً إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

(٢) تأرج عليها : عطرها :

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

ابن حجة^(١) الحموى

هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكناس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حمة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى موطنه كتابة السر بهما ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذة كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حجة ، وظل بها مكبًا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وماحمل أبياتها من محسنات البديع لزمه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات وال نوادر . واختصر بعض

٢/٢٨٩ وشذرات الذهب لابن العماد ٧/٢١٩ والنجوم الزاهرة ١٥/١٨٩ .

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكافى ١/١٦٤ والقصود اللامع للسخاوى ٦/٢٧٧ والروض العاطر للنعمانى

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزنة بباب لإرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرّض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد فى الخزنة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكافى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزنة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالشام ثم ما أنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دَقَّ قفا السودان فالراية البيضاء من كل قَلْع ^(١) عليه ، وقَبْلَ ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الخلو فالت غصونها إليه .. وحَصْنٌ مشتهى الروضة فى صدره وحنّا عليها حنّو المرضعات على القطيم :

وأرشفنا على ظمياً زَلاًلاً أَلَذُّ من المدامة للنديم

وراق مديد بجمه لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق التوى والحب ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين الثبت وأحيا له أمهات العصف والأب .. ونسى الزهر بجلاوة لقائه مرارة التوى ، وهامت به مخدّرات ^(٢) الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحمّلها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، وما غضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

الرجال . والاستعارة واضحة

(١) يريد قلع السفن وشرعها

(٢) المخدّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجاجاً عن

الآيات فلا يريد آيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورباً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذاً من قوله تعالى : (وفاكهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشع لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذي وُلد من الأم أفرأهم ، وأبو المهات الذي شَهَرَ من العُدَّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريره بالعجاب ، ويغنيا عن موضح القشيري فإنه يغنيا في إبانته باللباب .. وقد وقع العوي في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رموسها والمذهب الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مادخلنا بسبطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنيا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعرين عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب الفقهاء الشافعي ، ثم ذكر الباب وهو لباب الأبواب للآمدى في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للفراني ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهذيب للبعثي وأدب القاضي للماوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد روية وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

الرسائل الشخصية

مرَّبنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتها لها حيثند من كبار الكتاب من لا تزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة^(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلامة والعذوبة ومع ما عُرِف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثالث الهجري وأوائل الثالث العتائي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية^(٢) تموج بالتصاووير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولقبتهم في كتاباتهم فعمّموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد^(٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البيّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول الثعالبي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنياً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطُودُ وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقذار لحوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتْه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَرَعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيّمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان . ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع متفرقة .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُثِنَتْ بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولها رسالة المنيح وهو القُدْحُ الثامن من قِدادح الميسر التي ليس لها نصيب في القهار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجَّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتضوُّع ^(١) ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَعَمْنَا ^(٢) على بُعْد الدار أَرَجُ ^(٣) أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلْهِيهِ ، وخَوَّلَ ^(٤) الأسماع شُوفًا ^(٥) غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وهب لنا شرف عَظِيم ، وألْقَى إلينا كتاب كرم ، صدر عن حضرة السيد الحَبِير ^(٦) ، ومالك أَعْتة النظم والنثر ، قراءته نُسْكُ ، وختامه بل سائره مِسْكُ ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ ^(٧) عن التقبيل فضلاله المَقْبَلَة ، ونَزَّه أن يتنذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإِلاحَة ^(٨) ، على ماضمن من الملاحَة ، والخشْيَة على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللُّثْم ، والمَوَارِن ^(٩) بالانتشاء ^(١٠) والشَّم ، حتى تصير سطروره لَمَى ^(١١) في الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظره الدين من القهار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظًّا

(١) يتضوُّع : يفوح .

(٢) فَعَمْنَا : ملأ أنوفنا .

(٣) أَرَج : شذى

(٤) خول : أعطى

(٥) شُوفًا : أقرطا

(٦) الحَبِير : العالم

(٧) جل : تنزَّه

(٨) الإِلاحَة : الإشفاق

(٩) الموارن : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .

(١١) اللمى : سمة حسنة في الشفة .

بالخاتمة .. فيا شرفه من صكّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على الثُّظَاءِ حَيْرَى^(١) الدهر ، موشحاً بكل شَذْرَة أعذب من سُلّاف العنقود ، وأحسن من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البرق ، أويوح^(٢) عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المتبحر - وهى طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغربية تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ في كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلباً في سجعاته ، وكأنما كان بعده زينة ينبغي أن لا تخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغربية المبعدة في الإغراب مما قرأه في الشعر القديم وفي كتب اللغة ، ولا يهمل أن تكون الكلمة مما دُونَ في المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك في بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ في رسائله المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضاً إلى أبى القاسم المغربي وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمِ الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلنى إن حضرت عُرف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَلْ مكانى ، كيا في النداء ، والمحدوف من الابتداء ، إذا قلت زَيْدٌ أَقْبَلُ ، والإِبْلُ الإِبْلُ ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلْقِيتُ فبواجب ، وإن ذُكِرْتُ فغير لازب^(٣) ، إني وإن غدوتُ في زمن كثير الدِّدِ^(٤) كهاء العدد ، لزمتم المذكرفأتُ بالمنكر ، مع إلفٍ يرانى في الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت^(٥) الرصين ، فهى لا تثبت على طريقة ، ولا تُدْرَكُ لها صورة في الحقيقة »

وهو يدعولأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

(١) يَبْجَحُ : يفخر . حيرى الدهر : أبد الدهر .

(٤) الدد : اللهو واللعب .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

(٣) لازب : لازم .

في الهاء وهي لاتدغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكدصوته بين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لا يدغمان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغند . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذ هما بسبب رفعهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظة ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فتقول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوثانه من ثلاثة إلى عشرة ، فلما تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس في العربية العكس . ولا يكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَنَ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لاثبتت في العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية . وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُمحلة ^(١) ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة ^(٢) ، وتشوقى لأخباره تشوقَ راعى أنعام ^(٣) أُجذب فى عام بعد عام ، لبارق ^(٤) يمان ، هوْلُهُ مرتقبٌ مُمّان ^(٥) . وأسفى لفقده أسف وحشيّة ^(٦) ، رادت ^(٧) بالعشيّة ، فخالفها السُّرحانُ إلى طَلّا ^(٨) راد فحار ^(٩) فهى تطوف حول أميل ^(١٠) ، وترى صبرها ليس يجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وَفَدَ ^(١١) الأعاجم ، وربّ الماشية ظهور الثبّت الناجم ^(١٢) . »

وبدون ريب تُعدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائماً نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة المعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « المححلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتساوير .

(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلا

(١) المسحلة : المطرة

(٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب

(٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة

(٩) حارها : تحير

(٣) الأنعام : الابل .

(١٠) أميل : كتيب عال

(٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يميناً

(١١) يريد : قدوم وفود الحجيج الأجانب

حتى لا يخلط مطره

(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(٥) ممان : متطاوّل

(٦) يريد بقرة وحشية

(ب) رسائل متنوعة

طبيعى أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهشين على منصب كبير أو معاتين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين غن خطب ألم بأصدقائهم أو فى فقيد عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائى الشاعر الكاتب والغزى إبراهيم بن عثمان الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصهبانى : « كانت بينها مكاتبات مفيدة وبينها لنسب الفضل المؤدة الوكيدة » ويسوق العماد للغزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها ^(١) :
لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا ، وليبضة المجد حاميا - إذا علق بعرض الكرام كان كالنار فى المندلى ^(٢) ، ييوح بسر طيه الحقى .. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظهر لهم من انتائته ، وانتساب مزنه إلى سمائه .

وانتخاب الغزى لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا فى ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسى الذى ترجمنا له بين الشعراء نزع عن دمشق إلى قلعة شيزر فى الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هوزين الدين بن حلیم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها ^(٣) :

« إن جراحى إلى الآن لم تندق حلاوة الاندمال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحل والترحال ، وبين جوانحى من الأين ^(٤) ، لما لقيت بدمشق من الغبن ، مالا يحلله إلا عقد الكفن ، ولا يرفع حذنه إلا التيمم بصعيد ^(٥) المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خلق دميم ^(٦) ، وخلق ذميم ، وأصل لثيم ، وفرع زنيم ^(٧) ، ووجه لطيم ، وقفا كلم ^(٨) ، وهلم جرا من عذاب أليم ، وصراط فى الود غير مستقيم .

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتباً بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل فى

(٥) الصعيد : التراب

(٦) دميم : قبيح . دميم : منموم

(٧) زنيم : دعى

(٨) كلم : جريح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٢) المندلى : عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٤) الأين : العناء

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجلالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولاً كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة^(١) :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحه والفضل نُغْبَة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماماً تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تُثلى فى المحارب ، إذا استُنظقت ازدحمت عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حُلُو سلسال » .

ونمضى إلى أيام المالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهئة بعيد الأضحى جاء فيها^(٢) :

« جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها وأيمن الأيام وأعجدها ، وأجمل الأوقات وألذها وأرغدها ولا يرح مسرورا مستبشرا ، منصورا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمدا ، معانا بملائكة السماء معضودا ، مهنا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حلة ، ومنحه من المكارم أحسن خلة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتباً ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول^(٣) :

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوانب فى

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشرقت^(١) أجفان المملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الصلوع ، فالعلوم تبكيه ، والحاسن تعزى فيه ، والأقلام تمشى على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده .. ولاخاصاً إلا حزن قلبه ، ولعاماً إلا طارئُ لُبه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيق وهو بقاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رؤوسها حزناً وهى فعلاً تمشى على رؤوسها أو بعبارة أخرى تكتب برؤوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيتة .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سكيناً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله^(٢) : « المملوك يُنهي وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء ، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب^(٣) ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب .. أنملة صبح تقمعت بسواد الدجى ، فعوذتها بـ (الضحى والليل إذا سجا) .. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الحفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفاء والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبته^(٤) :

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(١) شرقت : غصت .

(٤) نضحة الرحانة للميجى ٢٤٧/١

(٢) خزائن الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُنصر ، أو كالعقواء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فثلهم . . كلمع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالحَيال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبي في نفحة الرحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبي وبين عبد الغنى النابلسي الصوفي ، وله يقول متوددًا مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحي ^(١) :

« مولاى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينازله ، كأنه البدر والدنيا منازل ، ومن شايعه مسعود يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحَتِكَ ^(٢) ، وغصن من سَرْحَتِكَ ^(٣) ، بل نَبْتُ سَقْتِهِ أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » ^(٤) .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمداني فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبقوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سدّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جال القصص فيه أو من حيث جال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نفحة الرحانة ١٣٩/٢

(٣) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغواذى : السحب

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام الممالك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصص احتيالاته الأدبية قصصا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتتزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارا طريفاً ، وهو يفتتحها على هذا النمط ^(١) :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولع بنظم الأراجيز ، ومذ شب عمري عن الطوق ، مُغرى بالغرام والتوق ، وأهيم بالشمول ^(٢) والشمالك ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأنتزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض ^(٣) ، وولجت ^(٤) بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة ^(٥) العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رشف الرحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعماثرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الملتاعة ^(٦) :

(٤) ولج : دخل

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة

(٥) فوات الوفيات لابن شاعر ٥٦٥/٢

الأدبية ببيروت) .

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار

(٢) الشمول : الحفر .

الكتب المصرية) ٢٠١/١

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

« سألت عن الخبر، ممن غبر، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق^(١) اللهب اللامع، فبادرت إلى صَحْنِه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعْصَفَرَاتٍ^(٢) ذوائبها، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذوائبها. . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمي بشرير كالقصر)، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل ما يليها وتغني ما يسفلها ويعتليها ».

وواضح في سجعاته طلبه للجناس. فهو يجانس بين الخبر وغبر، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضي في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمته بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذويان جمعا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهي أطراف العائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيم. وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمي بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها وقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السوء، فذكر (الزمر) أي الجاعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القصّ والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين وملتقى في نفحة الريحانة للمحبي بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو^(٣).

« نَرَجِسُ نَعْتَه الفتور، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور.

(١) عقائق: جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه (٢) معصفرات: مصبوعة بالعصفر، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

به الصفدى اللهب

وَشَقِيقُ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ^(١) ، قَدْ رَسَبَ بِقَرَارَتِهَا مِسْكٌ فَتِيقٌ
وَأَذْرَبُونَ^(٢) كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ عَسَجِدٍ ، عَلَى سَوَاعِدِ زَبْرَجِدٍ
وَسُوسِنِ كِبْيَاضِ السَّوَالِفِ ، أَوْجِيَادِ^(٣) الْوَصَائِفِ
وَقَرْنَفُلٌ كَأَنَّمَا تَوَقَّدَ بِالْجَمْرِ ، وَانْعَقَدَ مِنَ الْخَمْرِ
وَيَظَلُّ طَوِيلًا فِي وَصْفِ الْأَزْهَارِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى وَصْفِ الْأَطْيَارِ ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسْجَاعِ الْمَلِيئَةِ
بِالتَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ .

وَرَوَى الْحَبِيبُ لِعَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلَسِيُّ الصُّوفِيُّ الَّذِي مَرَّتْ تَرْجُمَتُهُ مَقَامَةً وَصَفَ فِيهَا نَزْهَةً مَعَ صَدِيقٍ
عَثَرَ فِيهَا عَلَى قَصْرِ عَالِي الْبَنِيَانِ فَدَخَلَاهُ ، يَقُولُ^(٤) :

« فَصَعَدْنَا إِلَى قَصْرِ مَشِيدٍ^(٥) ، مَزْخَرَفِ الْجَوَانِبِ بِأَلْوَانِ الْأَطْلِيَّةِ وَأَنْوَاعِ الشَّيْدِ^(٦) ، فِيهِ الْغُرَفُ
الرَّفِيعَةُ ذَاتُ التَّرْزِينِ ، وَالْمَقَاصِيرُ الْمَصْنُوعَةُ لِقَاصِرَاتِ^(٧) الطَّرْفِ عَيْنٍ . قَدْ طَلَّتْ شَبَابِيكُهُ عَلَى
تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمَوْفِقَةِ ، وَالْجُدَاوِلِ الْمَتَدَفِّقَةِ ، وَأَرْضِهِ مَفْرُوشَةٌ بِأَفْخَرِ الْوَشْيِ وَالِدِيْبَاجِ ، وَقَدْ أَطْلَقَتْ
فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيِّبِ فَزَادَ فِي الْإِبْتِهَاجِ .. فَحَلَسْتُ أَنَا وَصَاحِبِي عَلَى تِلْكَ الْأَرَاثِكِ الْمَمْنُوعَةِ^(٨) ،
وَالْفُرَشِ الْمَرْفُوعَةِ ، نَتَنَاشَدُ الْأَشْعَارَ ، وَنَتَشَبِّثُ بِأَذْيَالِ الْأَفْكَارِ » .

وَيَلْقَاهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ رَفِيقٌ ، فَيَسْأَلُهُ أَيْنَ كُنْتَ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تَوَجَّهْتَ ؟ وَمَا يَلْبِثُ أَنْ يَقُولَ لَهُ :
« مَا ذَلِكَ الْقَصْرِ الْمَوْصُوفِ سِوَى جَنَّتِي هَذِهِ وَثَوْنِي هَذَا الصَّوْفِ ، وَالشَّبَابِيكِ جَيُوبِهِ وَأَطْوَاقِهِ ،
وَلَا عَجَبُ أَنْ نَفَعَتْ فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيِّبِ فَإِنَّهَا قَرَاتِيْسُهُ وَأَوْرَاقُهُ » . وَكَأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْمَقَامَةِ رَمُوزُ
صُوفِيَّةٍ جَلَّاهَا عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلَسِيُّ فِي تَصَاوِيرِ الرِّيَاضِ وَالْقَصْرِ وَتَهَاوِيلِهِ . وَحَرَى بِنَا أَنْ نَقْفَ قَلِيلًا
عِنْدَ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَهْمَ كِتَابِ الْمَقَامَةِ الشَّامِيِّينَ .

(٦) الشيد : كلٌّ ما طُلِيَ بِهِ الْبِنَاءُ مِنْ جِصٍّ وَغَيْرِهِ

(٧) قاصرات الطرف : خجلات حبيبات . عين :

جميلات واسعات الأعين .

(٨) الأرائك : مقاعد متجددة الممنوعة : أى عَنْ النَّاسِ

(١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .

(٢) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والمسجد : الذهب

(٣) جياذ هنا : جمع جيد أى عتق .

(٤) نفحة الزمان ١٥٢/٢ وما بعدها

(٥) مشيد : عال مرتفع .

ابن الوردى^(١)

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيهما وفقهيهما ومفتيهما الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملى قاضى قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملى مداخل كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتنع ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاکر : « أجاد فى المثنون والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبعد ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبساً ، وخالفوهم أنفساً . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول^(١) :

« حكى إنسان ، من معرّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرّمضاء^(٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى تروع حصاه حالية العذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبد صا^(٣) من تلك العين ، ولكن نُقص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . »

وقد تصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتذكير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصف واد للمنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نخش في قراءة المقامة لئلا وهو يقتبس أى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضاً شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضاً شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرستها

(٣) صاد : عطشان شديد العطش

(١) الديوان (في مجموعة طبعة الجواثب) ص ١٣٣

(٢) الرّمضاء : شدة الحر

القاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سألته عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامهما ^(١) فضل سر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنهما ، وأنا رسول أصحابي إليك لتتصف بيننا وقد دلت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقي شخصٌ معرّياً أميراً يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزملى الذى أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها ، ويدعو له قائلاً :

« لازل نداءه ^(٢) مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأقربين والبعداء ، من وُصل به نال عُرُفاً ^(٣) ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفاً ، حتى يكون علمه علماً منصوباً ، وعواطفه للمعارف خيراً مبتدأ به منصوباً ، ولا برح مرفوعاً بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثه ماضية فهي على الفتح تُبْنَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملى الذى وسجعاته ، فلا زال ابن الزملى فى مثل حرف النداء فى النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوباً » وأراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده فى هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائماً ولكن من حين إلى حين تلقانا فى نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة فى وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيراً منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(٣) العرف : المعروف

(١) سامهما فضل سر . غالى بهما فى السعر

(٢) نداء : كرمه

وصف الحريق ». وله رسالة بديعة في وصف وباء الطاعون الذى فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسمى ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء فى الديوان - باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ فى خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تكن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول ما يلقانا من ذلك فى الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيّن للقصاص مراتب (١) خاصة . ويشتهر فى زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثانى وفى مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حياً مزدهراً فى القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا فى حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلاً عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبى العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد فى متاع الدنيا يكثر فى أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجد يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان فى العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له فى النثر دعاء

(١) انظر فى ذلك كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى

(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدین والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون ليّنا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المذهب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصهباني - كما يقول بخريده - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلي أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمتزلة العظمى ، وكان له لسان حلوى الوعظ والتذكّار ولكلامه موقع في القلوب ^(١) » ويصف أبو شامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرت مجالسه صغرى وكبرى في الموضعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفضّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبَسَّطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بين وبين القبة في يوم الجمعة ،

وبييت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن^(١) .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المالك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تفليس إبليس » وهى رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر فى تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته^(٢) » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن^(٣) نباته الفارقى

ابن نباته الفارقى هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه فى الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله فى الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تترهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم يا عباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٣) انظر فى ابن نباته الفارقى ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

(٢) خزنة الأدب ص ٢٠

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوت ولا تعجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فلئ متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل .
ولغة ابن نباتة فى خطابه عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرينا عند العمد الأصهبانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تحبطوا صيامكم بالغيبة والنيمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، يا غافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، يا هانئا فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، يا عادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم الشؤر » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

(ب) الفصول (١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة (٢) للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينق عن بشدة هذه التهمة (٣) ، ولعل من أسبابها أنه سمي الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية
القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناى) وقد
نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف
الحاء .
(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية

« الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أنى ألقت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهبلى ما يبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلئ حتى ليقول ^(١) :

« لو نقلت مياه اللجج على منكبي في قُذاف ^(٢) ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجرت كُثبان الأرض وصرائمها ^(٣) في جرٍّ أو مِشاةٍ ^(٤) ، فألقيتها في الخُصَر ^(٥) الدائمات ، حفداً ^(٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصّرين ، ولو أذن لي وأيدتُ فأتبنتُ مراهص ^(٧) من الثرى الأسفل إلى الثرى ، ومن الرّند ، المتخذ من عود إلى وتد السُّعود ^(٨) ، لم أؤدّ ما يوجب جلال الله ، فكيف وأنا أقصّر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومها أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغاً لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جركثبان الأرض كثيباً وراء كثيب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقرباً إلى ربه ، وحتى لو ابنتي من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثرى أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعراً بوهنه وقصوره أمام ما توجه به نجمة الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلاً إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهبلى عينين كأنهما غامتا شتى ^(٩) تَبْلان ^(١٠) الصباح والمساء ^(١١) » إنه سيظل ماعاش باكياً ذارفا الدموع سائلاً من ربه رضاه ورضوانه . وهذه الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائماً يناجي ربه ضارعاً بل وجلاً خائفاً .

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قذاف : جرة

(٣) صرائم : جمع صرعة وهى القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشاة : زليل

(٥) الخُصَر : اللجج

(٦) حفداً : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحباً دائماً المطر

(١٠) تَبْلان : تهطلان ، من الويل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائماً . وليس هذا كل ماصعبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجمات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجمات غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيراً ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشياً خليفاً أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهِراً لبعض مصطلحات علم الصرف (١) .

« لا تجعلنى ربّ معلّماً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الباء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولا غناء ، مشبهها لا يحسب من الثنات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، فقلبت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيراً من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطاً وتفصيلاً وتحليلاً .

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحى الدين بن الزكى

أما الخطيب فهو محيى^(١) الدين محمد بن الزكى على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة فى دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاء قضاءها ، حتى إذا فتحت القدس ، وكان محيى الدين حاضرا ففتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها فى أول يوم جمعة ، وأعد من كانوا فى حضرته خطبا بليغة يخطبون بها فى هذا اليوم واختار صلاح محيى الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات فى أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع فى الخطبة . وقال^(٢) فيها .

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومنزل الشوك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضلته ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله . . . أحمدته على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشوك وأوضاره . . .

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة^(٣) ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمالة^(٤) الشوك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه . . . ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار . وهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت^(٥) بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عينا الانبياء المرسلون . . . فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعزوتها نجى وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محيى الدين فى طبقات السبكى

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤

الحكمة ضالة المؤمن

والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إمالة : تنحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أشرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

ورجوع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بذر وفنوح الشام ومصر والقادسية
وهجمات خالد والصحابه الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن ^(١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور
لزمته المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلاً :
« قد وضعت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتني به
الأزهار بلسان حالها ، والشحارير عن مقام ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه
خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقّ نسيمها وغثى عندليها ، وكان
وحيداً وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالاً على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم
صنعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان . وبدأ
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار
وأحد عشر نوعاً من الأزهار استلهمها بالورد قائلاً على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتي فالوقت
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكُسيّت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع في
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدر ، والعيش المحرور ، أني حيثما نبتُ رأيت
الأشواك تراحمني وتجاورني ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكني مجروح . وهذا دمي على
عندمي يلوح ، وهذا حالي وأنا أطف الأوراد ، وأشرف الورّاد ، فن صبر على نكد الدنيا بلغ
المراد » .

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفاً على الطبيعة ، لأن مدة بقائه
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة
العيش لا بد أن تجمع إليهم شيئاً من مرارته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حياة لإنسان فيها دائماً

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وآس وسرور وخزن ، وحرى^١ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى ظلما ذكر المحبون فى لينة وتمایل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أُنقِد ، وإلى الحبّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشرّبها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمَد ، وموجدّها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه فى ملكه أحد ، ولا يفتقر هو إلى أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد) .

وهى عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، ومأعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لا يشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شئ وهو على كل شئ قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيّار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجددنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض^(١) أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان^(٢) ، وانت تحسبنى فى ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حائنا ، أنا أنوح حزنا لا طربا ، وأبوح ترحا لا فرحا ، لأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلها ، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلُّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان ما يفكر فى انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها من صفاء لا يلبث أن تغشاه كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلو لا يلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل ما فيها هالك فان . وسعد من كُتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف

المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويحتم حديثه عنها بكلام على لسان الغلة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تيباً للسير فسير قبله ، ولا تكن في تدبير عيشك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ، وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتى ، فى بيوتى » .
والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير فى الطريق السديد ، واعياً لحكمة الله فى خلقه ، متعظاً بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأصواء تثير له دنياه ، وتعدده إعداداً حسناً لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقاً مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ أبدية غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعاً .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل ؛

خلقت الشام فى هذا العصر أعمالاً أدبية كثيرة ، ويلقانا فى مفتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضاً طريفاً ، وله بجانبه كتاب فى البرزة أو بعبارة أخرى فى جوارح الصيد ، وكتاب فى أدب النديم . ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسلم بها عما قليل ، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هى رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفى الخريدة أيضاً رسالة ^(١) طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شاباً سنة ثمان أو تسع وستين وخمسائة ، وموضوعها معاشرته الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصّة فى دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هى الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض فى وصف الصيد وماركبوا فيه من خيل وماحملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبزاة وشواهين ، ويطنل فى بيان صيد

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادى وأوطانى من الحراب ، فإن الزمان جرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها ^(١) حوله وحيله ^(٢) ، فأصبحت (كأن لم تَفَنِّ بالأمس) موحشة العرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها ^(٣) رسوما ، والمسرات بها حشرات وهموما » وهو كتاب ضخيم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسانيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربيع والدُّمْن ^(٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخضه بكلمة . ونمضى إلى زمن الممالك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطيور والحيوان والأخلاق وسنلم به عما قليل .

ونلتقى فى زمن الممالك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحق والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانيها : منازلها

(١) تعفيتها : دنورها وطمسها

(٤) الدمن : آثار الديار

(٢) الحيل : الحول والقوة

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» وسنفرد له كلمة.

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقى بهاء الدين العاملي الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله الخلاة ، وهي كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو في مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(١) رسالة^(١) الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء رداً على رسالة لعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهي تنقسم قسمين : قسماً يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة في الجنة يلقي بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظاراً لمصيره وقد ظل في المحشر واقفاً حتى تعب من شدة الحر والظلم ، وكان معه صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَّمَ القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئاً ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقي حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام علي بن أبي طالب ، ورأى أبا علي الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامهم ، وطلب علي بن أبي طالب منه شاهداً على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقي ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) (المعارف)

(طبعة د. بنت الشاطئ) وهي طبعة محققة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالخطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامراً القيس وعنزة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأنخل التغلبي ويحاورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام وبعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَاز ، ويحاورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب في الجحيم ومن نعم لا يماثلها نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية ، إذ كتب دانتي الشاعر الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزنادقة والزنادقة ، وقد استلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرفة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبي ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كاهنود وبالخلول من الصوفية كالخللاج ، وأصلى ابن الراونديّ الزنديق^(١) هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريق ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندي الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأفّ وأفّ ، وجورب وخفّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيخه ويبعض علماء حلب وبتلبيات العرب في الجاهلية ويبعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندي وإلحاده والرد عليه كتاب

من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بدم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّلَ الرسالة سخرية من الدين الخفيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحطَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أُملي رسالته لعهدِه في العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة (١) النسر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العماد الأصمباني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنسر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. « ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهدا روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وفنتة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أني ملك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق (٢) وانخرق قيص العسق (٣) مشهور بالقسر (٤) ، موسوم بالنسر ، والليل قد شابت ذؤابته (٥) ، وايضت قته ..

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ٣٤٠/١ (٣) العسق : الليل .

وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في (٤) القسر : القهر

كتاب المحمدون من الشعراء والوافي بالوفيات ٣٣٠/٢ (٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة

(٢) الفلق : الصبح واضحة

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء . . يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويبسط يمحرج بأسنة قواده (٢) أعطاف القبول (٣) وأطراف الصبا ، ويُقدِّد الشمال بخوالف (٤) كأنها غروب (٥) الظبا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيوب الجنوب (٧) ، ويخرق بصدره صدر الرياح في الهبوب . . حتى أشرف . . على روض أريض (٨) . وظلَّ عريض ، وأنهار متدفقة ، وأشجار موقنة ، وظلَّ مشور ، ووَرَدَ ومشور (٩) ، ومكان بهج ، وزهر أرج . . فن ورِدَ فضى الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافورى الصبغة ، مسكى الصبغة ، مائى الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت (١٠) الصبا إهايه ، وخاطت الشمال أنوابه ، وفَتَّحت الجنوب أكماله ، وحسرت (١١) الذبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو حدود الحور في القصور ، ظهرت في غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنح وتعتنق ، والنسائم تَحُلُّ عَقْدَ أززار الزَّهر . . . والشمس تُسفر وتتقب ، وحاجب الغزالة (١٢) يبدو ويحتجب . . فوقف [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح . . وبينما هو صافٍ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحرى على وَكْرٍ شجرى ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنة أوتاره . . وألحان أعذب من نقرات المزارح ، ينثر درأ من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَفِ افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه . . كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود . . أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جنوبهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في المزمар ، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ريع أحزانه .

-
- (١) رشق : رمى
(٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح
(٣) القبول : ريع الصبا الشرقية
(٤) خوالف : جمع خالفة هى الريش في مؤخر النسر
(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا : جمع ظبة وهى الحد للريح ونحوه
(٦) الخوافى : الريش القصير في الجناح
(٧) الجنوب : ريع جنوبية
(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر
(٩) المشور : زهر له رائحة ذكية
(١٠) حاكت : نسجت
(١١) حسرت : كشفت . والذبور ريح تهب من الغرب
(١٢) الغزالة : الشمس .
(١٣) أفنانه : أغصانه .
(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعتها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بخفقة لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويَفْتَن النسر صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف ، ولا الآدمي كالفيل ، وبينهما بَوْنٌ في التفصيل .. وأما النعمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فإنني رصّعت شذرها^(١) في عقد ألحاني على نغم بعض الأغاني » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوّن ألحانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولىّ النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجّع الأنغام والألحان ، ويتقضى ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحدو حذوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذذ المقام ، عدم المرام ، ووَجَّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطلق المهذب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرِك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدل في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة .

(ج) كتاب الاعتبار^(٢)

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة

١٩٣١ وراجع ما كتبناه عنه في كتابنا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شيزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف مشاهدته واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفاحيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم ، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (في أعلى الشام) كتب إلى عمى أمير شيزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُمْلَةٌ وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحملت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء (فكيف) يداويها ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلمهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فبجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه . »

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وماأخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولاتكلف ، فلا سجع يداخله ولامحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيته يصف ما شاهد وصفا نابضاً بالحياة في لغة سهلة ، حتى لتقرب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل في الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إنجليزية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمه . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حرية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم^(١) الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طريقة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عيّن محتسباً بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفي سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه في أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المناقب ، والمقتنى في ذكر فضائل المصطفى .

والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريط الصفدى لنسيم الصبا بين يدى
طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر
الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والثناء ، أو بعض شؤنه المدنية كالكتابة ، أو بعض شؤنه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للأعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينها من الفراق أو يرضيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عبابه :

« هَزَّتْ رِيَّاحُ الأَمَلِ البَسيط ، إلى امْتَطاء ثَبِجٍ ^(١) البحر المحيط ، فَأَتَيْتْ سَفِينَةً يَطِيبُ للسَّفَرِ مَتَوَاهَا ، وَرَكِبْتُ فِيهَا (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) .. يَالَهَا سَفِينَةً ، عَلَى الأَمْوَالِ أَمِينَةً ، ذات دُسْرٍ ^(٢) وألواح ، تَجْرَى مع الرِّيح ، وتَطْزِي بِغَيْرِ جَنَاح ، وتَعْتَاضُ عن الحَادِي ^(٣) بالمَلَّاح ، تَحْوِضُ وتَلْعَبُ ، وَتَرِدُ ^(٤) ولا تَشْرَبُ ، لها قِلاع كالقِلاع ^(٥) ، وشراع يحجب الشُّعاع ، وسَكِينَةٌ ^(٦) وسَكَّانٌ ^(٧) ومَكَانَةٌ وإِمْكَانٌ ، وَجُوجٌ وَفَقَارٌ ^(٨) ، وَأَضْلَاعٌ مُحْكَمَةٌ بالقَارِ ^(٩) .. بَعِيدَةٌ مابين السَّحَرِ والنَّحَرِ ^(١٠) ، من أَحْسَنِ الجَوَارِي ^(١١) المنشآت في البحر ، مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ^(١٢) الخَيْرِ كَالخَيْلِ ، لا تَمَلُّ من سِيرِ النِّهَارِ ولا من سُرَى اللَّيْلِ :

(٧) الجُوجُ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة

(١) ثَبِج : وسط .

وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٢) دسر : حبال :

(٨) القار : القطران

(٣) الحادي : سائق الإبل بالخداء وهو الغناء للإبل

(٩) السحر : الرثة ، النحر . أعلى الصدر

(٤) ترد : من ورود الماء ويلوغه

(١٠) الجوارى : السفن

(٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع

(١١) نواصيها : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في

الثانية : جمع قلعة وهي الحصن

مقدمة الرأس

(٦) سَكِينَةٌ : وقار . وسكان السفينة : دقها

ما رأى الناس من قصورٍ على الماء سواها تسيرٌ سير القِداح^(١)
 كأنها وعل^(٢) ينحط من شاطئ ، أو عرياض^(٣) سابق يحثه سائق ، أو عقرب شائله^(٤) ،
 أو عقاب صائلة^(٥) .. حاكمها^(٦) عادل في حكه ، عارف ينقض أمرها وبرمه^(٧) ، يبتدى
 بالنجوم ، ويبتدى باسم الحى القيوم .. وبيننا نحن من البحر في قاموسه^(٨) ، كتب الجؤ حروف
 الغيم في طروسه ، وثارت ريع عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فالت بنا الفلك^(٩) واضطربت ،
 ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد^(١٠) ، وتهيم في كل واد .
 وتضرم في الكبود نار ناجر^(١١) ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر^(١٢)) .. ثم نظر إلينا من لآ
 تحق عليه السرائر ، وأمر الجارية^(١٣) بحمل عبيده إلى بعض الجزائر .

ونزلوا الجزيرة وتزهوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن
 حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان
 بحرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين
 تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقررًا له : « لقد أشبه الدر فى
 انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقطر الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البكر إذا غنت على
 غصونه مطربات حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح
 بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقى جوهره وأجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين
 بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

-
- | | |
|--|---|
| (١) القداح : السهام | (٩) الفلك : السفينة |
| (٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى | (١٠) الأوتاد : الجبال |
| (٣) العرياض : البعر الضخم | (١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة |
| (٤) شائلة : رافعة ذنبها | (١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت |
| (٥) صائلة : واثبة جائلة | الخلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من |
| (٦) حاكمها : ربانها | الفرع |
| (٧) برم الجبل ضد نقضه والاستعارة واضحة | (١٣) الجارية : السفينة |
| (٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجة العظيم | |

(هـ) فاكهة^(١) الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طامة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده للتار لها وإشغالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذى أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على أثنى حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثانى أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة تيمور سماها عجائب المقدور في نواب تيمور ، وهى مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة - كما أسلفنا - فى العربية والفارسية والتركية ، وصنف فى الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة . وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهى موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى المحاسن حسان يروىها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير الملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد فى نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك فى العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه فى مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

(١) طبع هذا الكتاب فى مصر مرارا وانظر فى ابن عربشاه ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١. ومقدمة كتابه : « فاكهة

الخلفاء »

النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوى ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكي ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع ختته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمّل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وما هو غير مألوف الطبع من البهائم والسباع وأصناف الأطيّار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأنّ المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقّتها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكر خان الذي طمّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فىنبغى أن يُنفق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشهائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستئضاء من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلمًا يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلاصها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أوثانية . ولانثك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأفاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصعاليكهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكي كليله ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألمنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحكمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، وذرائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنى اكسبوا العلم والفضل وادّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خاتمة

١

تحدثنا عن مصر في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى الشام فى عصر الدول والإمارات الذى يمتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وبدأنا حديثنا بعرض التاريخ السياسى لمصر منذ فتح العرب لها وبيان ماتعاقب عليها من حكم الولاة زمن الدولتين الأموية والعباسية ، وحكم الدولتين الطولونية والإخشيدية ثم الدول الفاطمية والأيوبية والماليك مع بيان الدور الذى نهضت به مصر فى سحق الصليبيين والتتار ، ثم ما كان من محنتها بالحكم العثمانى . وكان يتوزع مجتمعها ، كغيره من مجتمعات البلدان الإسلامية - ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية هى طبقة الحكام وكبار الإقطاعيين والتجار ، وطبقة وسطى وتشمل العلماء ، وطبقة دنيا وتشمل الصناع والفلاحين وصغار التجار . وكان بجوار هاتين الطبقتين أهل الذمة وخاصة من القبط ورقيق كثير . وكانت مصر طوال العصر تنعم برخاء أعدّها لانتعاش واسع فى الصناعة والتجارة وكثرة الأعياد فيها الإسلامية والقبطية ، وقد حمل إليها الفاطميون المذهب الإسماعيلى الغالى فى عقيدته الشيعية ، وظلت مصر منصرفة عن هذا المذهب لاعتدال فى مزاجها وأنها تعرف عن التطرف وظلت تقبل طوال العصر على الزهد والتصوف وازدهرا بها فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية وكثرت زوايا التصوف وخانقاهاته وطرقه وأعلامه وأتباعه .

وكانت تجرى فى مصر من قديم بجانب نهر النيل جداول كثيرة للثقافة والمعرفة التطبيقية فى الزراعة والهندسة والطب ، وظلت هذه الروح العلمية فى مصر ناشطة طوال عهد البطالة والرومان ، ولم تلبث جذوتها أن انتقدت فى الحقب الإسلامية الأولى ، فإذا المغرب يأخذ عنها قراءة ورش للذكر الحكيم وتظل منتشرة به إلى اليوم ، وإذا هى ترعى مذهباً فقهياً كبيراً وتنشرهما فى أقطار العالم الإسلامى ، وهما مذهباً مالك والشافعى . ويضع مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة . وينفذ متصوفها الكبير ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف الإسلامى . ويؤسس الفاطميون دار العلم ، وكانت جامعة كبرى مزودة بمكتبة نفيسة . ويكثر فيها صلاح الدين وأسرته الأيوبية من إنشاء المدارس العلمية : الفقهية وغير الفقهية ، ويصنع

صنيعهم الممالك ، وكانت المساجد والجامعات تشترك في نشر الثقافة . وتصبح مصر موئلا لعلماء العالم الإسلامي شرقا وغربا وخاصة بعد غزو المغول لبغداد وخروج المسلمين من صقلية والأندلس ، وأيضا تصبح حامية للثقافة الإسلامية والعربية . وفي كل مجال يلقانا علماؤها في الفلسفة وعلوم الاوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا . وتنهض فيها علوم اللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوي كبير منذ الدولة الأيوبية ، وحتى في زمن العثمانيين . ويكثر التأليف في البلاغة والبديع والنقد منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري ، وتزدهر بها علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه في مختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام . ويتكاثر العلماء الأعلام في كل هذه العلوم . وتنشط كتابة التاريخ نشاطا واسعا : السيرة النبوية الذكية والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء .

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامي ، ويدخل كثير من أبنائها في الإسلام ، وحتى القبط أو من بقي منهم على دينه المسيحي يأخذون في التعرب ، ويتم تعربهم في القرن الثالث الهجري . ويتصل في مصر نشاط للشعر ، ويظل هذا النشاط محدودا زمن بني أمية ، ونزها - وزارها - بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق ، ويتسع نشاط الشعر قليلا زمن ولاتها من العباسيين ، وينزها أبو نواس وأبو تمام . ويترد هذا النشاط في الفموزمن الدولتين الطولونية والإخشيديّة ، ويأخذ في الازدهار زمن الدولة الفاطمية ، ويفرد الثعالب في اليتيمة وتتمتها والباخرزي في دُمّة القَصْر قسما خاصا بشعرائها في القرن الرابع وشطر من القرن الخامس . ويطرّد لمصر هذا الازدهار بقية حكم الفاطميين وطوال حكم الدولتين الأيوبيّة والمملوكيّة ، ويسجل العماد الأصمّهاني في القسم الخاص بمصر في خريدته شطرا كبيرا منه يصور مدى ما كان بها في القرن السادس من نهضة شعرية ، وتكثر الدواوين المطبوعة في عصرنا لشعرائها . ويتكاثر النظم في الشعر الدوري والرباعيات والموشحات ويشتهر بالنظم فيها العزّازيّ وابن الوكيل الديماطي . كما يتكاثر استخدام الألوان البديعية . وفي كل زمن ومع كل دولة تلتقي بشعراء المديح ، وفي مقدمتهم المهذب بن الزبير وابن قلاقس وابن سناء الملك وابن نباتة وعبدالله الشبراوي ، ويصادفنا كثيرون من شعراء المراثي والشكوى من أمثال علي بن النضر وعلي بن عرام وابن النقيب : الحسن بن شاور وعبدالله الإدكاوي ، وتلتقي بشعراء الدعوة الإسماعيلية يتقدمهم ابن هاني الأندلسي والمؤيد في الدين الشيرازي وظافر الحداد الإسكندري .

وتتكاثر طوائف الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل وقد بثوا فيه حنيننا ووجدنا ملتاعا وشغفا ظامئا ، مما أعدّ لضرب من الشعر الوجداني الملىء بلواعج الشوق والتضرع والاستعطاف واللهفة واللوعة على نحو ما نقرأ عند ابن النيه والبهاء زهير وابن مطروح وبرهان الدين القيراطي ونور الدين العسيلي . ويتغنى الشعراء بمفاخرهم وبأهاج فردية واجتماعية ، على نحو ما نجد عند تميم ابن المعز وطلائع بن رزّيك وابن الذرّوى وأحمد بن عبد الدائم وحسن البدرى الحجازى . وتعمقهم الشعور بحال الطبيعة المنبئة في النيل وضفافه ووديانه ورياضه ، ونعموا بمجالس هو ممتعة في المتنزهات والأديرة ، مما نلجده ماثلا عند ابن وكيع التنيسى والشريف العقيلي وابن قادوس وعبد الباقي الإسحاقى .

وتغنى شعراء الزهد والتصوف للشعب مشاعره الدينية مما يتصل بالتقشف والحب الإلهي والمديح النبوى على نحو ما نجد عند ابن الكيزاني وابن الفارض والبوصيرى ومحمد بن أبى الحسن البكرى . ومحبة المصريين للفكاهة والنادرة مشهورة ، مما نراه ماثلا على ألسنة كثيرين من الشعراء مثل ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق وابن دانيال ومسرحياته الفكهة وعامر الأنبوطى . ويتزع نفر من الشعراء إلى التعبير في أشعارهم بلغة الحياة اليومية ، مما أداهم إلى استخدام الأرجال والموالي بكثرة على نحو ما يلقانا عند إبراهيم المعمار وابن سودون .

وتنشط مصر فى الكتابة الديوانية منذ عهد ابن طولون ، ويتوالى عشرات من كتّاب الدواوين منذ الدولة الفاطمية أمثال ابن الصيرفى والقاضى الفاضل ومحمى الدين بن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمرى . وتتكاثر الرسائل الشخصية بين الأدباء ويرى فيها ابن أبى الشخباء وابن ممانى وفخر الدين بن مكانس . وتغنى طائفة من الكتاب بصنع مقامات تُبنى أحيانا على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريرى ، وفى الأكثر تستقل عنها مفضية إلى قصص فكه أو وعظ أو بعض مسائل علمية ، وقد تكون حوارا بين بعض الحيوانات أو بين بعض الأزهار ، وقد يراد بها إلى الهجاء على نحو ما نقرأ عند ابن أبى حجلة والقلقشندى والسيوطى والشهاب الخفاجى . وتلقانا مواعظ وابتهالات كثيرة ، ومن أروعها ما نقرؤه عند أبى الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى وأحمد الدردير . وكثرت كتب النوادر التى تعبر عن روح مصر القصصية الفكهة مثل كتاب المكافأة وأخبار سيويه المصرى والفاشوش فى حكم قراقوش . وبالمثل كثرت كتب السير والقصص الشعبية مثل سيرة عنتر والسيرة الملالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن الشام وتاريخها الأدبي في هذا العصر وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقبة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكي الرها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظلما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهم المسمون بالفداوية والحشاشين . وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش .

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفذت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر في بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما عُتيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجري يتألق اسم كثيرين من نخاتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، وولتقى بحلقه نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبد الغنى النابلسي في بديعيتيه المشهورتين. وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى في القرن التاسع الهجرى . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوى ويتكاثر حفاظه الناهيون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعى وابن تيمية الحنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لاعلى الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب . بل أيضا في داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بنى أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو ما يصور ذلك الثعالبى في البيتمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العهد الأصبهانى شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخزريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجرى وما بعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أئدُمر الحيوى والمخَّار الحلبي ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخطاى وابن القيسرانى وابن الساعاى والشهاب محمود ومنجك . وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيَّوس وبهاء الدين العالمى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقراً عند عبد المحسن الصورى وابن منير والشاب الطريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملثوا الدنيا ضجيجاً بمفاخرهم وبسالتهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقراً عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . وثلثي بكثيرين من شعراء المراثي والشكوى مثل ابن سنان الحفاجي والغزي وفتيان الشاغوري ومصطفى الباي . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو في المتنزهات والأديرة على نحو مانقراً عند الواواء الدمشقي وابن قُسيم الحمويّ وبحير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمذائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعنى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصهباني الناصر الشاعر والصفديّ وابن حجة الحمويّ وكانا أيضاً ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأديباء للشكر وللهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ما كانوا يراسلون ، من ذلك مراسلات الطغراني والغزيّ ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريري ، إذ تُعنى بالوصف أو بالوعظ أو بالمفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت نخوص في موضوعات متنوعة على نحو مانجد عند ابن الوردي . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباتة وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لحبي الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتكثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

فهرس الموضوعات

صفحة

٩ - ٥

مقدمة

القسم الأول : مصر

٦٨ - ١٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١٣	١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب لمصر
	(ب) زمن الولاة
	(جـ) الطولونيون
	(د) الإخشيديون
٢١	٢ - الفاطميون - الأيوبيون
	(أ) الفاطميون
	(ب) الأيوبيون (صلاح الدين)
٣٤	٣ - المماليك - العثمانيون
	(أ) المماليك
	(ب) العثمانيون
٤٤	٤ - المجتمع
٥٦	٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
٦٠	٦ - الزهد والتصوف
١٦٠ - ٦٩	الفصل الثاني : الثقافة
٦٩	١ - الحركة العلمية
٨٨	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
١٠٨	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

صفحة

- ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ١٢٨
 ٥ - التاريخ ١٥١

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ١٦١ - ٢٥٦

- ١ - تعرب مصر ١٦١
 ٢ - كثرة الشعراء ١٦٦
 ٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات ١٧٢
 (أ) الشعر الدوري
 (ب) الرباعيات
 (ح) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل
 (د) البديعيات
 ٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير ، ابن قلاقس ، ابن سناء الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوی ١٨٥
 ٥ - شعراء المرائی والشكوى ٢١٩
 على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .
 عبد الله الإدكاوی
 ٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية ٢٣٩
 ابن هاني . المؤيد في الدين الشيرازی . ظافر الحداد .

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ٢٥٧ - ٣٩٩

- ١ - شعراء الغزل ٢٥٧
 ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطی .
 نور الدين على العسيلي .
 ٢ - شعراء الفخر والهجاء ٢٩٧
 تميم بن المعز . طلائع بن رزّيك . ابن الذرّوی . أحمد بن عبد الدائم . حسن البدری الحجازی
 ٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ٣٢٢
 ابن وكيع التنيسي . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي الإسحاقی .

صفحة

٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٢
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن
البكري

٥ - شعراء الفكاكة ٣٦٧
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر
الأنبوطي

٦ - شعراء شعبيون ٣٨٦
إبراهيم المعمار . الغباري . ابن سودون

الفصل الخامس : النثر وكتابه ٤٠٠ - ٤٨٩

١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . محبى
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ٤٠٠

٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٤
ابن أبي الشخاء . ابن ممتق . فخر الدين بن مكانس

٣ - المقامات ٤٤٢
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي

٤ - المواعظ والابتهالات ٤٦٠
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير

٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ٤٧٧
(١) كتب النوادر

كتاب المكافأة . أخبار سيبويه المصري . كتاب
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

سيرة عنتره . السيرة الهلالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف بن ذي
يزن . ألف ليلة وليلة .

القسم الثاني : الشام

٥٤٣ - ٤٩٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
٤٩٣	١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب للشام
	(ب) زمن الدولة الأموية
	(ح) زمن الولاة العباسيين
	(د) الطولونيون - القرامطة
	(هـ) الإخشيدون - الحمدانيون (سيف الدولة)
	٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل
٥٠٧	زنكي (نور الدين)
٥١٣	٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون
٥٢١	٤ - المجتمع
	٥ - التشيع : الإسماعيلية والإمامية . التصيرية . الدروز .
٥٢٩	الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشون
٥٣٦	٦ - الزهد والتصوف
٦٠٣ - ٥٤٤	الفصل الثاني : الثقافة
٥٤٤	١ - الحركة العلمية
٥٥٤	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
٥٦٥	٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة
٥٧٧	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
٥٩٥	٥ - التاريخ
٦٨٢ - ٦٠٤	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
٦٠٤	١ - عرب الشام

- ٢ - كثرة الشعراء ٦٠٨
- ٣ - شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات ٦١٢
- (أ) الشعر الدورى
- (ب) الرباعيات
- (ج) الموشحات: أيذر المحيوى. المحار الحلبى
- (د) البديعيات
- (هـ) التعقيدات
- ٤ - شعراء المديح: ٦٢٥
- ابن الخطاط - ابن القيسرانى. ابن الساعاى. الشهاب محمود.
- منجك
- ٥ - شعراء الفلسفة والحكمة ٦٤٧
- أبو العلاء المعرى. منصور بن المسلم. حسين الجزرى
- ٦ - شعراء التشيع ٦٦٧
- كشاجم. ابن حيوس. بهاء الدين العالمى
- الفصل الرابع: طوائف من الشعراء ٦٨٣ - ٧٧٨
- ١ - شعراء الغزل ٦٨٣
- عبد المحسن الصورى. ابن منير. الشاب الظريف. حسن البورى
- ٢ - شعراء الفخر والهجاء ٧٠٠
- أبو فراس الحمدانى. عرقلة. أسامة بن منقذ. ابن عنين. ابن النحاس
- ٣ - شعراء المراثى والشكوى ٧٢٤
- ابن سنان الخفاجى - الغزى. فتيان الشاغورى. مصطفى البابى
- ٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ٧٤١
- الواواء الدمشقى - ابن قسيم الحموى. مجير الدين ابن تميم. ابن النقيب
- ٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٧٥٦

عبد العزيز الأنصارى . محمد بن سوار . عفيف الدين
التلمسانى . عبد الغنى التابلسى

٦ - شعراء شعبيون : أبو العلاء بن مقاتل ٧٧٤

الفصل الخامس : النثر وكتابه ٧٧٩ - ٨٣١

١ - الرسائل الديوانية ٧٧٩

العماد الأصبهاني - الصفدى - ابن حجة الحموى

٢ - الرسائل الشخصية ٧٩٤

(أ) رسائل أبي العلاء

(ب) رسائل متنوعة

٣ - المقامات : ابن الوردى ٨٠٢

٤ - المواعظ والابتهالات ٨٠٩

(أ) خطب ابن نباتة الفارقى

(ب) الفصول والغايات

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

٥ - أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل ٨١٨

(أ) رسالة الغفران

(ب) رسالة النسر والبلبل

(ح) كتاب الاعتبار

(د) نسيم الصبا

(هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

خاتمة ٨٣٢ - ٨٣٧